جمال البنا

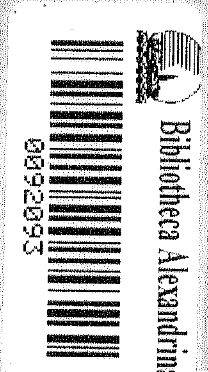


محاكمة الفكر المصرى

رفض التيارات التى تمزق المجتمع يميناً ويساراً

ووضع مشروع للأجيال

" حتى تتصافح اليدان "





١٩٥ شارع الجيش - القاهرة ١١٢٧١
تليفون : ٩٣٦٤٩٤

جمال البنا

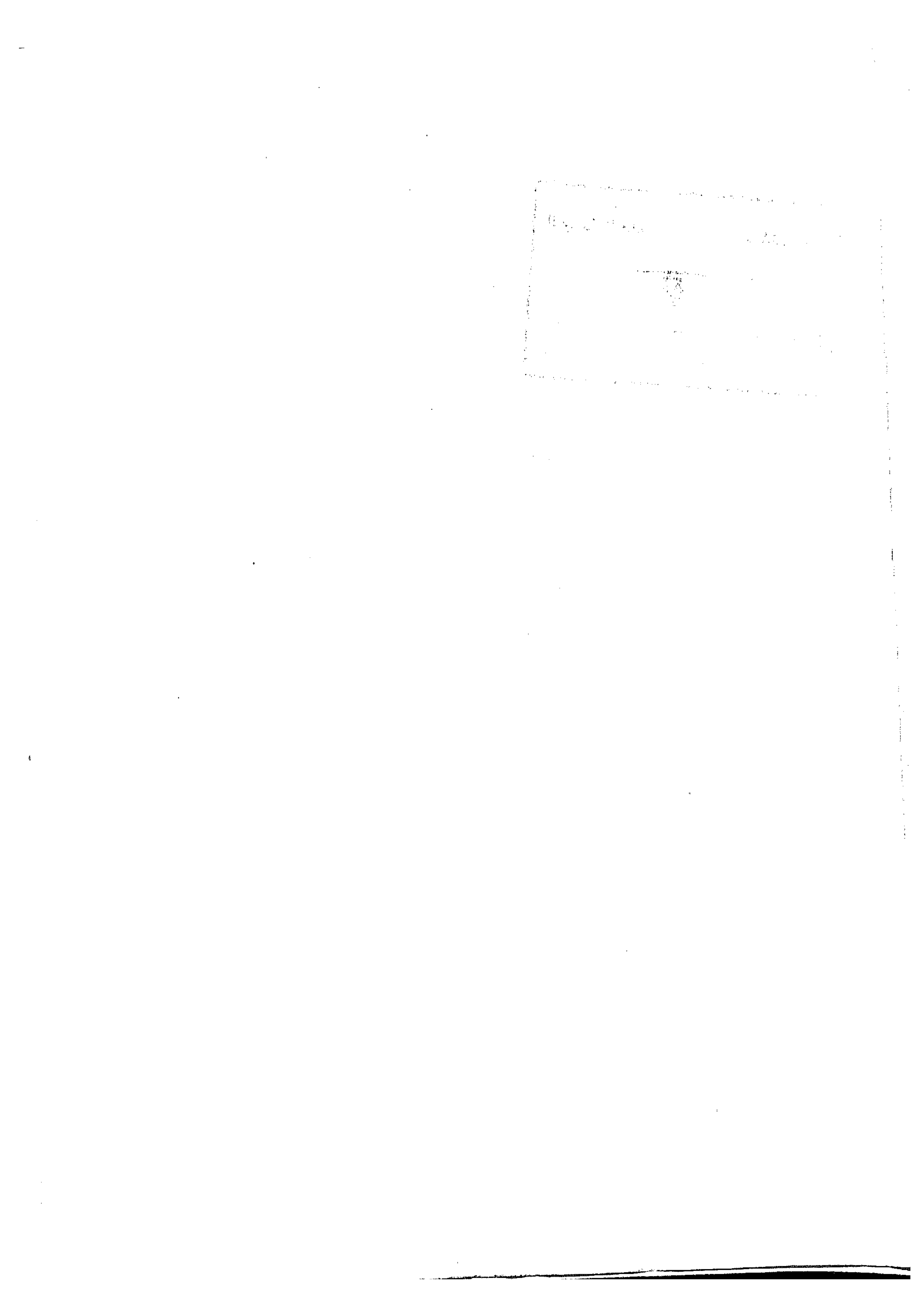
كلا ثم كلا

كلا لفقهاء التقليد
كلا لأدعياء التنوير

محاكمة الفكر المصرى



دار الفكر الإسلامى
١٩٥ شارع الجيش - القاهرة ١١٢٧١
تليفون : ٩٣٦٤٩٤



﴿ قل إنما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنَّة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾ .

(سبأ ٤٦)

إن الذى خلق الحقيقة علقماً
لم يُخلِ من أهل الحقيقة جيلاً

شوقى

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أثارت الشهادة التى أدلى بها فضيلة الشيخ محمد الغزالى فى قضية مقتل الكاتب الصحفى فرج فودة يوم ١٩٩٣/٦/٢٢ عاصفة من الاهتمام واستحوزت على الرأى العام المصرى وقتئذ ، وأعادت إلى السطح مرة أخرى تلك القضية الُمستَكِنة فى القاع دون حسم – قضية الردة التى نرى أنها فى حقيقة الحال قضية حرية الفكر ، وفجرت مايحيط بها من مسائل ...

والكتاب الذى بين يدينا يتخذ من هذه الواقعه – أى – شهادة الشيخ الغزالى ، وما أثارته من تأييد أو تنديد نقطه انطلاقه ، وهو لايرى فى هذا التأييد أو التنديد – إلا « **انتطاح عنزين** » ، يعينى انها قضية ليس لها أصل حقيقى يبرر النطاح ، وإنما هى ثمرة « **التقليد** » من ناحية ، و« **الادعاء** » من ناحية أخرى ؛ ففقهاء التقليد يتمسكون بما جاء فى فقه الأسلاف ، ويرفضون الاجتهاد ، بينما ينساق أدعياء « **التنوير** » كما أطلقوا على أنفسهم وراء شعارات وزيوف وظواهر لاأصل لها فى الحقيقة .

ويبدأ الكتاب فيفند دعوى حد الردة – ويذهب إلى أنه « **لا حد .. لا .. استتابة .. لا تعزير** » ويضع – للذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه – نهاية لهذه القضية بعد مناقشة مستفيضة لما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية .. أما الذين ة فى آذانهم وقر وأفئدتهم هواء ، فإنك لاتسمع الصم الدعاء ..

ثم ينداز الكتاب على أدعياء التنوير ويسقط الآلهة الزائفة التى يتعبدونها : الاشتراكية – الحضارة الأوروبية – القومية العربية ، ويتتبع تجربتّى التنوير المزعومتين : تجربة محمد على ، وتجربة عبدالناصر ويكشف حقيقتهما ويتقصى الكتاب فى باب مستقل أزمة أدعياء التنوير . وهو يرى أنها « **إشكالية الصراع بين الذات والموضوع** » والموضوع الذى يكون علينا جميعاً أن نلتزم به هو « **مصر** » التى يمثل الإيمان بالدين جذر حضارتها ومحور مجتمعها وأصل وجدانها ، وأى دعوة تتجاهل الدين فإن مصر تلفظها ، ومن ثم فإن دعوات التنوير المزعومة لاتجد قبولا – رغم أن كل أجهزة الإعلام والتأثير فى أيديهم .. وقد تجاهل أدعياء التنوير هذا الأصل الأصيل فى المجتمع المصرى .. بتأثير عوامل ذاتية هى الثقافة الأوروبية التى أبعدتهم عن جذورهم ، والانتماء السياسى الذى ادعى الاشتراكية حيناً من الدهر ، وتجهم للإسلام .. وأخيراً فهناك قله مؤثرة من غير المسلمين – تأثرت بتصورات خاصة أو بتوجيه قيادات كنسية بحيث وضعت نفسها فى مواجهة الإسلام ؛ فما قد يؤدى إلى كسب له يعنى خسارة لها .. وقد عالج الفصل الخاص « **بحاجز الدين** » معالجة مستفيضة وضع الاقليه القبطية فى مصر – وكيف يمكن أن تكون عنصراً بناءً فى المجتمع المصرى .

وكما بدأ الكتاب بفصل عن « **عندما ينتطح العنزان** »فانه يختم بفصل « **عندما تتصافح اليدان** » يدعو الفريقين إلى كلمة سواء وهو يضع مشروعاً للاجيال من عشر نقاط لكل من فقهاء التقليد . وأدعياء التنوير إذا أخذ كل منهما به . فعندئذ تتصافح اليدان .

من هذا يتضح أن الكتاب يكاد يكون محاكمة لفكر المجتمع المصرى السائد . الذى انطوى وتقوقع من ناحية وشط وانفلت من ناحيه اخرى .

★ ★ ★

وقد أَلِفَ الناس ان من يؤيد اليمين .. يعارض اليسار ، ومن يقول نعم للأول يقول لا للثانى ، اما أن يعارض كاتب الفريقين معاً ، ويقول كلا ثم كلا ، فانه يقطع الجسور ، ويوقد شمعته من طرفيها ، ويوقف نفسه فى طريق مسدود ، فالفكر الاسلامى فى يد فقهاء التقليد ، وأجهزة الاعلام والصحافة فى يد أدعياء التنوير .

ولكن ليس هذا هو المهم ..

المهم هو «الحقيقة» .

وعندما تكون الحقيقة بهذا الحجم ، وعندما يتهددها الخطر ، وتطلب من حماتها التضحية . .

فلا تردد ، ولا مجاملة ، ولا خوف من لوم لائم . .

﴿ فاقض ماأنت قاض
إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾

جمال البنا

شوال ١٤١٤ هـ

القاهرة

أبريل ١٩٩٤ م

البـــاب الأول

كلا لفقهــاء التقليد

الفصل الأول : عندما ينتطح العنزان

الفصل الثانى : شهادة الشيخ الغزالى وتوابعها

الفصل الثالث : دلالات الشهادة وتوابعها

الفصل الرابع : لا حد ، لا استتابه ، لا تعزير

الفصل الأول
عندما ينتطح العنزان

فى الحديث النبوى الذى جرى مجرى الأمثال « لاينتطح فيها عنزان » ومعنى الحديث - كما شرحه صاحب النهاية - « أى لا يلتقى اثنان ضعيفان ، لأن النطاح من شأن التيوس والكباش لا العنوز ، وهو إشارة إلى قضية مخصومة لا يجرى فيها خلف أو نزاع(*) » .

والقضية التى هى موضوع هذا الكتاب يمكن أن تكون قضية مخصومة لايجرى فيها خلف أو نزاع ، ولا ينتطح فيها عنزان ، فضلا عن الكباش والتيوس ، ولكن - المفارقة - أنها كادت تمزق المجتمع المصرى وقد شغلته وشغلت ساسته وصحافته ردحا طويلا ، ولا تزال تنتظر الحل !

فمن ناحية نجد الشيوخ والفقهاء يحملون بأيمانهم ما خلفه لهم الأسلاف من موروثات فقه وأحكام ، وهم يحملون هذه الأسفار من ألف عام ، منذ أن أُغلق باب الاجتهاد وقد عكفوا عليها كما عكف آباؤهم ، وكما عكف أجدادهم

(*) النهاية لابن الاثير ، ص ١٥٣ ، الجزء الرابع .

رجوعا القهقرى إلى القرن الرابع الهجرى ، وقد درسوها فى الجامعات سواء منها الدينية أو « المدنية » ولا يملكون لها تغييرا أو يستطيعون فيها تجديدا لأن هذا سيعرض للخطر الكيان القائم المستقر من ألف عام ربما بما فى ذلك أوضاعهم نفسها ، وقد اكتسب هذا الوضع قداسة الدين وجلال القدم وطرزته أسماء الأئمة العظام ، فتغييره ليس بالأمر السهل ، وقد يكون أصعب ما فى عملية التغيير أنه ليس هناك بديل ، أو أن البديل ليس بالوضوح والجلاء الذى يستحق الدخول فى المعركة ، لأنهم لم يعرفوا غير هذا التراث فلا يستطيعون عنه فكاكا ولأن غيرهم لم يحكموا هذا التراث ، فلا يمكنهم معالجته نقدا وتمحيصا ولا جدال أن فيه الكثير الطيب على كل حال .

وفى الطرف الآخر تقف مجموعات تلقت دراساتها فى جامعات أوروبية ، أو استقتها من مراجع غربية ، ونشأت فى حضن « البورجوازية » المدنية التى قطعت أصولها بالقرية والتقاليد ، وانتمت إلى أحزاب سياسية – سواءً بحكم الإيمان أو المصالح والأوضاع – وارتبطت بنظام الحكم الذى لم يكن فى فترة ما من تاريخ مصر الحديث الحديث إسلاميا – بوجه خاص – بل تأثر بدعاوى بعيدة عن الإسلام . . فحملوا دعوى « التنوير[1] » الذى عندما نحلل مفرداته – من كتاباتهم – يتضح أنها الدولة العلمانية والفصل بين الدين والدولة . . والقول إن الدين مسألة خاصة بين الفرد والله ، ولا علاقة له بالنظم السياسية – باختصار النموذج الأوروبى له . . . ولما كان معظمهم حاذقا وذكيا وتعلم فى مدرسة الانتهازية العظمى فى العصر الحديث – أعنى بها الشيوعية – التى تصطنع الشعارات وتسبغ على نفسها ما تريد من صفات . . إلخ ؛ فإنها ربطت دعواها بالمشروع الحضارى المزعوم الذى عمل له محمد علي وجمال عبدالناصر وقام بفضل دعاة التنوير من رفاعة رافع الطهطاوى حتى طه حسين . . . إلخ .

وهم فى التكييف الفكرى لايفضلون فقهاء التقليد . . ومن أجل هذا قلنا أدعياء « التنوير » ، ففقهاء التقليد يقلدون شيوخ الماضى ، وأدعياء التنوير يقلدون « خواجات » أوروبا ، ولم يستطع لا هؤلاء ولا أولئك – أن يجهدوا فكرهم فى التوصل إلى الحل الذى يتفق مع طبيعة هذه البلاد . . ويمكن أن ينتصر على تحديات العصر .

---

(١) أنظر التعليق على هذا التعبير ص ٩٤ .

ومنذ أن جاء نابليون هذه البلاد ، ودك بمدافعه العالم القديم ، وأدخل مصر قسرا .. العصر الحديث ! ولاتزال قضية الانتقال قائمة لم تحل ، ولم تنته ، ولم تكن مصر سعيدة الحظ كاليابان – مع أنها بدأت قبلها – ولم ترزق بإمبراطور حكيم كالإمبراطور «ميجى» يضع نصب عينيه المصلحة العليا للبلاد وللشعب والنهضة بهما وإنما رزقت فى أول الحقبة وآخرها بطاغيتين عسكريين – محمد على وعبدالناصر – استهدف كل واحد منهما إنشاء إمبراطورية تحمل اسمه ويكون هو محورها ، فباء بالفشل وجر الخزى والخذلان على البلاد .

نعم ، ظهر جمال الدين الأفغانى ، وأمضى فى هذه البلاد ثمانى سنوات ، وكان يمكن أن يؤدى عمله إلى التجديد الإسلامى المنشود ، ولكن فشل الثورة العرابية أدى لأن تنزلق الدعوة الإسلامية من بين يَدَيّ الشيخ محمد عبده – تلميذُ الافغانى الأثير – انزلاقة نوعية وليست كمية ، فأخذت طابعاً إسلامياً تساومياً وليس ثورياً كفاحياً ، ومهدت هذه الانزلاقة لانزلاقة أخرى على يَدَيّ سعد زغلول – تلميذ محمد عبده الأثير – الذى بدأ الليبرالية/ البورجوازية المصرية وأبعد الإسلام إلى ركن قصى من أركان المجتمع !

أما الهيئة التى تعلقت بها القلوب وبنيت عليها الآمال – الإخوان المسلمون – فإن استشهاد مرشدها أصابها بنكسة لم تقم منها بعد ...

وخلال الانقلاب الناصرى أعلنها عبدالناصر حربا شعواء على الإسلام والدعوة الإسلامية ، وبسط حكم الإرهاب الذى أخرس الأصوات حتى جاءت ١٩٦٧ ودمرت كل ماأقامه تدميرا !..

وجاء السادات وقد تعلم الدرس ووعاه ، فطرد الخبراء الروس ، وأفرج عن المسجونين وبدأ نوعا من التعاطف مع الاتجاه الإسلامى ، فكسب حرب رمضان ، ولكنه احتفظ بحاشية السوء ، وتستر على الأخطاء الفاحشة ، وترك عددا من كبار المجرمين يفلت من العقاب .

باختصار ، لم يكن السادات مستعدا للقيام بثورة تطهر البلاد من قاذورات العهد الناصرى والمجموعة المنتفعة لأنه هو نفسه كان من ضمنها ، ولأنه أراد أن يبقى عليها كقوة يحقق بها نوعا من التوازن مع القوى الأخرى .. ونتيجة لتردداته ، فقد انقلب على حلفائه الإسلاميين ، ومات ضحية لكلمته المطوطة « لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين !» .. وكان يجب على أدعياء العلمانية أن ينصبوا له تمثالا ، لا أن يقذفوه بالطوب !

وجاء مبارك لينهى حكم ضباط ٢٣ يوليو ، ولكن الشلة هى الشلة ، وبقايا المنتفعين من الناصرية تتصدر المناصب ، فيرأس كبيرهم مجلس الشعب ويضرب بالحريات والضمانات وأحكام القضاء عرض الحائط ، بينما يلى أحد ضباط صلاح نصر وزارة الإعلام ، وتُعطى وزارة الثقافة لرسام مغمور يتخيل أن الصورة التى يرسمها تباع بسبعين الفاً لعبقريته الخاصة ، وليس لمنصبه الوزارى !..

خلال هذه الحقبة الطويلة (١٨٠٠ - ١٩٩٠) لم يعْنَ أى حاكم بمعالجة الأزمة الحضارية معالجة موضوعية .. محمد على ، وعبدالناصر .. وأتباعه عزفوا عن الإسلام وحاولوا مجاملته مرة وعداوته مرات أخرى .. أما المرحلة البورجوازية فى تاريخ البلاد - من دستور ٢٣ حتى انقلاب ١٩٥٢ فكانت أيضا عازفة عن الإسلام ، وإن حدث هذا بطريقتها الخاصة التى تختلف عن الطرق العسكرية لمحمد على وعبدالناصر .

وكانت الأخطاء تتراكم مع كل جيل ، والمشكلة تتعقد مع كل إرجاء وتسويف حتى أصبحت تركة ثقيلة تحمل كل أوزار العهود الماضية ، من إرهاب الحكومات ، ومن الفساد والكسب الحرام ، ومن تزييف إرادة الشعب (٩ر٩٩٪) وكفى ! ناهيك بالوصمة الكبرى : الاعتقالات وممارسات التعذيب فى السجن الحربى أيام عبدالناصر ، وفى سجون أمن الدولة أيام السادات و مبارك ، وقهر الشعب وإذلال كرامته ..

* * *

ولكن الخلاف الإيديولوجى لم يأخذ طابع التقطب إلا فى الفترة الأخيرة ، لأن المجتمع المصرى فى المرحلة الليبرالية البورجوازية (من دستور ٢٣ حتى انقلاب ١٩٥٢) توصل إلى وسائل أرضت المؤسسة الدينية الرسمية بحيث سكتت على ممارسات عديدة لهذا المجتمع مخالفة للشريعة كالتعامل بالربا فى الحكومة والبنوك ، وتناول الخمور فى المحال العامة ، وإباحة البغاء والقمار ... إلخ ولم يكن من الطبيعى للمؤسسة الدينية وقد أغمضت العينين على هذه المخالفات الصارخة أن تثير قضية مثل قتل المرتد ، أو على الأقل محاكمته ؛ لأن هذه القضية لها حساسياتها ؛ ولأنها تصدم أول ماتصدم الأساس الذى يقوم عليه المجتمع البورجوازى ، وهو الحرية ... لهذا أمكن لأحد الكتاب (إسماعيل أدهم) أن يصدر كتابه « لماذا أنا ملحد ؟» وأمكن لسلامة موسى أن يعالج نشأة فكرة الله ، أو لمصطفى محمود فى مرحلته الفكرية الأولى أن يصدر كتابه

عن الله والإنسان الذى يناقض الفكرة الإسلامية .. وعندما عورض كتاب « من هنا نبدأ » للشيخ خالد محمد خالد ، فإن هذه المعارضة قامت بدعاية للكتاب يتمناها أى مؤلف وكانت خيرا وبركة عليه .

أما الإخوان المسلمون الذين كان يمكن أن يثيروا هذه القضية ، فقد اهتموا ببناء أنفسهم وتقديم الأهم على المهم ، وكان الأستاذ البنا رحمه الله على أعظم جانب من الفطنة والذكاء .. وعندما تعرض فى مقدمة تفسيره لطه حسين وخلف الله ، فإنه أشار إليهما فى كياسة وذوق ونقد موضوعى خالص .

وخلال حكم عبدالناصر أخرس الإرهاب والتعذيب كل صور المعارضة ، وأعدم سيد قطب الذى وضع بذرة الاتجاهات المتشددة ، فجعله شهيدا ، وأضفى على دعوته الإكليل الأحمر !..

وإنما أخذ الصراع شكل التقطب فى عهد السادات كرد فعل للإرهاب الناصرى وللممارسات التى مارسها زبانيته وزبانية عبدالحكيم عامر فى السجن الحربى ووجد فرصته بمجرد الإفراج عن المعتقلين وإيقاف الإرهاب الحكومى ، وماكان السادات ليستطيع أن يحكم بالارهاب إلى الأبد !

وكان رد الفعل بحجم وقوة الفعل ، وقد يعجب الإنسان من أين جاءت كل هذه الجماعات الإسلامية التى اتسمت بالعنف والتطرف ؟ والرد لدى صلاح نصر وشمس بدران وحمزة البسيونى ، وماقاموا به من المنكرات التى يندى لها جبين الإنسانية .

لقد وضعوا بذرتها فى سجونهم ، ثم نمتها ونفخت فيها الديكتاتوريه والفساد ..

ولم يستطع السادات – خاصة فى السنوات الخمس الاخيرة من حكمه – أن يتحرر من التركة الثقيلة لما أشرنا إليه من أسباب ، وقامت وزارة الداخلية بدور يماثل إلى حد ما الدور الذى كانت تقوم به المخابرات العسكرية .. وفى سجون « أمن الدولة » ترعرعت جماعات الجهاد ، كما ترعرعت من قبلها جماعة التكفير والهجرة والقطبيون فى سجون عبدالناصر !..

وبصرف النظر عن الأعمال العنيفة لهذه الجماعات ، فإنها استطاعت أن تنشىء رأيا عاما متشددا ومنهجا ضيقا للإسلام – وهو الفهم الذى عارضه كثير من المفكرين ومن الشيوخ ، وعلى رأسهم الشيخ محمد الغزالى ، دون أن يكسبوا كثيرا لأن حماقات العهد

كانت أكبر نصير للمتطرفين – كما أطلق عليهم – .. ففى الجو الذى ينتشر فيه الفساد والكسب غير المشروع وتتراكم الثروات بالبلايين فى أيدى حفنة من « أبناء الاكابر » بالرشوة والمحسوبية والعمولات وفضائح الاستيراد والتصدير .. وفى مناخ كبت الحريات والحكم بقانون طوارىء لأكثر من إثنى عشر سنة ، واستمرار ممارسات التعذيب والإرهاب البوليسية .. وفى ظل سياسة خارجية تتسم بالاستسلام والمهانة (خذ مثلا الموقف المخزى لحكومة مصر تجاه مأساة البوسنة ، وعجز الحكومة عن أى عمل ، أو احتجاج أو حتى سحب سفير أو مقاطعة تجارية) فى الوقت الذى تمارس العنف فى تفتيش البيوت واعتقال المشبوهين وسياسة « الضرب فى المليان » **هذا السجل الأسود الطويل جعل من جنون بعض الجماعات الإسلامية الوجه الآخر لعملة واحدة هى سياسة الحكومة ، ولايمكن الحديث عن هذه إلا بالحديث عن تلك !..**

* * *

فى إحدى المقامرات ، التى عرف بها السادات ، سمحت الحكومة بوضع قانون لمحاكمة المرتد ...

ما قصة هذا القانون ؟ كيف ظهر ؟ ولماذا ؟ هل كان مجرد (بالون اختبار ؟) هل كان محاولة لاستقطاب المعسكر الإسلامى ؟ !..

هذه قضية ليس لدينا الكثير الذى نقوله عنها .. ولا يهمنا فى الحقيقة لأننا لانقدم تأريخا أو نتابع سياسة هذه الحقبة .. وما يعنينا هو أنه للمرة الأولى فى تاريخ مصر الحديثة يوضع قانون إقامة حد للردة !..

وقد كان هذا القانون سببا فى أن عجلنا باصدار كتابنا « حرية الاعتقاد فى الإسلام » الذى نقد هذا القانون نقداً مراً .

ولما كان هذا الكتاب – رغم أنه أعيد طبعه فى بيروت – لم يظفر بما يستحقه من الشهرة والذيوع .. فنحن ننقل هنا ما جاء به عن هذا القانون :

« ... ولكن الصحف طلعت علينا – ونحن نكتب هذا الفصل من كتابنا – بنبأ مثير هو موافقة مجلس الدولة على مشروع قانون بإقامة حد الردة ، ويقضى القانون كما نشرت الأهرام (يوم ١٩٧٧/٨/٦) بإعدام المرتد عن الاسلام عمدا بقول صريح أو بفعل قطعى والسجن عشر سنوات لمن ارتد مرة أخرى[١] ،

---

(١) أى إذا كان قد تاب وسقط عنه الحد ، ثم عاد .

وعقوبات رادة إذ وقعت الردة من قاصر (!!) والردة تثبت بالإقرار مرة واحدة أو بشهادة رجلين ، ومنع المرتد من التصرف فى أمواله .. وهذه هى عناوين الخبر ، وقد تضمنت التفاصيل أنه إذا كان الجانى – على حد تعبير الأهرام – قد أتم السابعة ولم يتم العاشرة فللقاضى أن يوبخه فى الجلسة أو يأمر بتسليمه إلى أحد والديه أو إلى ولى نفسه أو بإيداعه إحدى مؤسسات الرعاية الإجتماعية الخاصة بالأحداث ، وإذا كان قد أتم العاشرة ولم يتم الخامسة عشرة يعاقب بضربه بعصا رفيعة من عشر الى خمسين ضربة ... إلخ »!

وينص مشروع القانون بأن كل من حرض غيره على ارتكاب ما يكون جريمة الردة يعاقب بالعقوبة المقررة للشريك إذا لم يترتب على هذا التحريض أى أثر يعاقب بنفس العقوبة على التحريض المبين بالقانون .

ولا تسرى على الجريمة الحدية الأحكام المقررة فى قانون الإجراءات الجنائية فى شأن سقوط العقوبة بانقضاء المدة ولا يجوز إبدال العقوبة الحدية ولا العفو عنها .

كما يحظر على المتهم بالردة التصرف فى أمواله أو إدارتها ، وكل تصرف أو التزام يصدر منه خلال فترة اتهامه يكون معلقا على البت فى أمره ...

إن هذا القانون أمر لايكاد يصدق !..

ماهذا أيها السادة ...

هل أصابتكم جنة ؟ أجماعة تكفير جديدة ؟ هل تريدون أن تنصبوا محرقة ، أو أن تدخلوا فى الإسلام السمح محكمة بابوية يضع قضاتها العمائم ؟! أتريدون أن تهدوا من أضل الله ؟! ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ..

إن هذا القانون ردة تشريعية حقيقية لعلاج ردة إسلامية وهمية ...

ولو صدر فسيكون لحساب المغفلين والجهلة وأعداء الإسلام :

المغفلين الذين يظنون أنه يحقق خيرا فى حين أنه شر ماحق ... وليس ماهو أدل على غفلتهم من هذا الظن .

والجهلة الذين لم يعلموا تجربة التاريخ فى الحديث والقديم .. وكيف أن كل حَجْر على الفكر يؤخر البشرية ، ويؤخر الفكرة المطلوب حمايتها ، وأن أى قانون يوضع لذلك انما تستفيد منه السلطة القائمة ، والأوضاع المقررة .

وأعداء الإسلام الذين سيقولون إن المسلمين إنما يقرون لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة . . تطبيقا لقانون العقوبات .

وبعد كل هذا أفلم يخطر للذين وضعوا هذا المشروع أنه قد يأتى بعكس ما أريد منه .

إن الاتهام يكسب المتهم عطف الجماهير فإذا رفض هذا المتهم (الاستتابة) المزعومة وفضل أن يقتل فى سبيل رأيه - كائنا ما كان - فإن هذا الوقوف سيجعله شهيدا من شهداء حرية الرأى وسيطرز حواشى الإلحاد بالبطولة الأمر الذى حدث بالفعل بالنسبة لضحايا المحاكات البابوية فى المسيحية .

وإذا قبل المتهم الاستتابة جبنا فأى انتصار كسبته المحكمة ؟

ولا يمكن للاستتابة أن تصل إلى أبعد من هذين ، مادامت صادرة من السلطة .

إن الاستتابة للرجال هى كبيت الطاعة للنساء ، وفى الوقت الذى يتمرد فيه النساء - ولهن الحق - على بيت الطاعة يريد المشروع أن يوجد بيت طاعة للرجال ! . .

وأخيرا فهل يعلم الذين وضعوا مشروع هذا القانون مدى اتساع الباب الذى فتحوه بصرف النظر عن الاستغلال وتحكم السلطة . . . إلخ .

اطووا هذه الصفحة قبل أن تتحول إلى فضيحة لم يسمع بمثلها فى تاريخ البلاد . . أو تاريخ التشريع ! . .

وتوبوا إلى باريكم . . فقد اقترفتم إثما عظيما ، وأوشكتم أن توقعوا البلاد فى نكسة فى التشريع لاتقل عن نكسة ١٩٦٧ فى السياسة ! . .

واقرأوا القرآن . . وتدبروه . . واستعيدوا ما تعلمتموه فى كليات الحقوق !

وإذا أردتم تطبيق الشريعة الإسلامية حقا وصدقا ، فأصدروا القانون الذى يقطع أيدى اللصوص الكبار والمختلسين والذين يثرون على حساب لقمة عيش المواطن الفقير ويجعلون حياته عذابا متصلا .

فإن هذا أجدى فى الإصلاح ، وأقرب إلى الله . . .» انتهى .

* * *

هذا هو ما قلناه سنة ١٩٧٧ م ، عندما أريد إصدار قانون عن حد للمرتد ، أوردناه هنا ليعلم القراء أننا فى سنة ١٩٩٤ م إنما نكرر ما قلناه منذ خمسة عشر عاما! ولكن هيهات ، ما من سميع ، أو مجيب !!

الفصل الثانى

شهادة الشيخ محمد الغزالى

وتوابعها

ودارت الأيام ، أو قل : الأعوام ..

وعند محاكمة قتلة الكاتب الصحفى فرج فودة فى يونيو سنة ١٩٩٣ م طلب الدفاع أن يسمع شهادة الشيخ محمد الغزالى عن بعض ملابسات القضية ، واستجابت المحكمة . وعندما حضر الشيخ الغزالى قدم إليه الدفاع عدداً من الأسئلة التى صيغت بمهارة وفنية ، وبما يخدم وجهة نظره .. ورد الشيخ الغزالى بشجاعة وموضوعية .

وكان يمكن أن ينتهى الأمر هنا ؛ ولا يظفر سوى بسطور فى الصحف اليومية . ولكن رد الشيخ أثار أدعياء التنوير ، وظفر بمساحة كبيرة من الصحافة وظل شغلها الشاغل لأكثر من شهر .. وقال خالد محيي الدين فى صدر صحيفة الأهالى إنها أشد من مائة قنبلة ...

الشهـادة :

وفيما يلي شهادة الشيخ الغزالي نقلاً عن جريدة الشعب ، التي نشرتها تحت عنوان[1] :

الرافض لتطبيق الشريعة الإسلامية «مرتد» والمستهزىء بها «كافر»

فى تمام العاشرة صباحاً تم إحضار المتهمين وأدخلوا قفص الاتهام وسط هتافات مدوية مرددين :

« إسلامية .. إسلامية» «شرع الله عز وجل .. الإسلام هو الحل» كما أنشدوا بعض الأناشيد الإسلامية .

وجلس المتهمون لتبدأ إجراءات الجلسة فى العاشرة والنصف حيث أشار رئيس محكمة أمن الدولة العليا «طوارىء» إلى الحاجب لكى ينادى على الشاهد .

ووسط صمت وترقب دخل الداعية الإسلامى الكبير فضيلة الشيخ الغزالى .

- رئيس المحكمة : إسمك وسنك ووظيفتك .

- الشيخ الغزالى : محمد الغزالى أحمد السقا - ٧٦ عاما وعضو مجمع البحوث الإسلامية .

س : مامعلوماتك عن الحادث ؟

جـ : لا توجد لدى أية معلومات وقد حضرت بناء على طلب الدفاع .

وأشار رئيس المحكمة إلى هيئة الدفاع لكى توجه اسئلتها إلى الشاهد .

وبدأ د . عبد الحليم مندور المحامى ورئيس الهيئة فى توجيه أسئلته للشيخ الغزالى .

الإسلام نظام شامل

س : هل الإسلام دين ودولة وما معنى هذه المقولة ؟

جـ : الإسلام عقيدة وشريعة وعبادات ومعاملات وإيمان ونظام ودين ودولة ، ومعنى هذه المقولة ذكرته الآية الكريمة فى قول الله عز وجل : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكى شىء ﴾ .

﴿أفغير الله ابتغى حكماً وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾ .

---

(١) نشرت الشهادة فى كل الصحف ، والنص الذى ننقله هو عن جريدة الشعب التى صدرت يوم الجمعة ٢٥ يونيو سنة ١٩٩٣ أما الشهادة نفسها فقد كانت يوم الثلاثاء ٢٢ يونيو سنة ١٩٩٣ .

الإسلام دين شامل ومنذ أن بدأت دعوته من ١٥ قرناً وهو دين ودولة ، لم تنفصل فيه السلطة الزمنية عن المعانى الروحية ٠

وقد جاءت النصوص متشابهة فى أركان شتى مثل قوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين أمنوا كتب عليكم الصيام ﴾ ، وقوله ﴿ ياأيها الذين أمنوا كتب عليكم القصاص ﴾ ٠

وقوله : ﴿ ياأيها الذين أمنوا كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾ ٠

وفى الإسلام عبادة شخصية كالصيام ، وعبادة جنائية كالقصاص ، وعبادة دولية كالجهاد ٠ فالعبادة واحدة وإن اختلفت إتجاهاتها ٠

كما أن أطول آية فى القرآن هى آية الدَّين وهو دين اقتصادى ٠

وبالإحصاء والاستقراء نجد أن الإسلام دين للفرد وللمجتمع والدولة ، وأنه ما ترك شيئاً إلا وتحدث فيه مادام هذا الشيء يتصل بنظام الحياة وشئون الناس ٠

س : هل تطبيق الشريعة الإسلامية واجب ؟

جـ - الإجابة من القرآن فى قوله تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ ٠

وقوله : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ ٠

ضياع الشريعة

س : ما حكم من يجاهر برفض تطبيق الشريعة الإسلامية استهزاء ؟

جـ : لقد كانت الشريعة الإسلامية تحكم العالم العربى والإسلامى كله حتى دخل الاستعمار العالمى الصليبى - وكرهه للإسلام واضح - فألغى أنواع القصاص وأحكام الشريعة الإسلامية وأنواع التعازير والحدود ، وحكم الناس بالهوى فيما يشاءون ٠

وقد صحب الاستعمار العسكرى استعمار ثقافى ٠٠ ومهمة الاستعمار الثقافى هى جعل الناس يطمئنون إلى ضياع تشريعاتهم وتعطيل أحكام الله دون أن يتبرموا ٠

فالله تعالى يقول : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ ٠

وأشعر بغصة لأن الاية مشطوبة فى المجتمع ، فالقانون يقول إذا اتفق شخصان بإرادة حرة على مواقعة هذه الجريمة فإنه فى هذه الحالة لا تعتبر جريمة وتسمى حباً أو عشقاً ٠

وبذلك فإن نص الشريعة قد عطل وأزهقت روحها ، وكيف يقبل المسلم هذا الكلام أو يستريح لهذا الوضع ٠

وبالتالى كيف يستهزأ بى إذا قلت يجب تطبيق الشريعة ؟ وهناك أناس كثيرون يريدون تعطيل الشريعة ، ويجادلون فى صلاحيتها ، ويثبتون حكم الإعدام الذى أصدرته الحكومات

الأجنبية والاستعمار العالمى على هذه الشريعة التى شرفنا الله بها ، ويستهزئون بنا عندما نقول : لابد أن يحكم شرع الله . .

والاعتراض على تطبيق الشريعة والاستهزاء بها كفر .

س : ما حكم من يجاهر برفض تطبيق الشريعة الشريعة كفراً أو استهزاء ؟

جـ : إنه ليس بمؤمن مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ وفى أية ثانية «الظالمون» وفى ثالثة «الفاسقون» .

خارج عن الملة

س : ما حكم من يدعو إلى استبدال حكم الله بشريعة وضعية تحل الحرام وتحرم الحلال ؟

جـ : يقول الله تعالى : ﴿ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ﴾ .

إنه ليس بمؤمن يقيناً ويقول الله تعالى فى أمثال هؤلاء : ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ويريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ﴾ .

س : هل يعتبر هذا العمل عملاً كفرياً يخرج صاحبه من الملة ؟

جـ : لقد رفض الحكم بما أنزل الله جهراً واستهزاء وهو بلا شك يخرج من الملة .

س : ما حكم المسلم أو مدعى الإسلام إذا أتى هذا الفعل الكفرى وقد علم بما فيه ومراميه ؟

جـ : أنا أدحض الشبهات وأقدم الأدلة التى تؤيدنى فى قولى وأبين الحق ، هذه هى مهمتى كداعية ، وليس تلمس العيوب لأننى لا أفرح بإيداع أقدام الناس فى الشباك ، وإنما أنا طبيب أعالج المرض وأريد إنقاذهم من الجراثيم التى تكاد تفتك بهم ، فإذا كان الإنسان عنيداً ويرفض كل ما أقوله ويأبى إلا تكذيب الله ورسوله فلا أستطيع أن أقول إنه مؤمن .

س : هل يجوز أن ينطق الإنسان بالشهادتين ، وفى نفس الوقت يجهر برفض تطبيق الشريعة ويدعو إلى استبدال شرع الله بشرائع الطواغيت من البشر ؟

جـ : إن الله عز وجل يقول فى هذا الصنف من الناس : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ .

بل إن بعض الناس كان يحلف أنه مؤمن ولكن جبنه وتقاعسه عن الدفاع عن الإسلام نفى الدين عنه .

إن الإيمان باتفاق العلماء قول وعقيدة وعمل ، إن ديننا اسمه الإسلام أى الخضوع لله .

س : هل من يأتى هذه الأعمال يعتبر مفارقاً للجماعة ، ومرتداً عن الإسلام ؟

جـ : نعم يعتبر مرتدا عن الإسلام .

س : ما حكم هذا المرتد شرعاً ؟

جـ : أن يستتاب ، وإذا لم يرجع يقتل ، وهذا هو الحكم العام بإجماع كثير من الفقهاء ،، وأما أنا فأرى أنه يجوز للحاكم إيداعه فى سجن مؤبد .

كما لو أن مرتداً هرب فلا يجرى البحث عنه ويبرأ المجتمع منه لأن فى بقائه خطرا على الأمة .

س : من الذى يملك إقامة الحد على المرتد الذى يجب قتله ؟

جـ : المفروض أن جهاز القضاء هو الذى يقوم بهذه المهمة ، وتطبيق الحدود والتعازير والأخذ بالقصاص هى أمور من اختصاصه وليس لأحاد الناس حتى لا تتحول الأمور إلى فوضى .

س : ماذا لو كان القانون لا يعاقب على الردة والقضاء لا ينفذ حكمها ؟

جـ : يكون القانون معيباً وتكون هناك فوضى فى المجتمع .

س : هل يبقى الحد على أصله من وجوب إقامته ؟

جـ : حكم الله لا يلغيه أحد ، والحد واجب الإيقاع .

س : ماذا لو أوقعه فرد من آحاد الناس ؟

جـ : يعتبر مفتئتاً على السلطة ، وأدى ما ينبغى أن تقوم به السلطة .

س : هل يعتبر مفتئتاً على السلطة إذا كانت لا تطبق هذا الحكم ؟

جـ : نعم يعتبر مفتئتاً .

س : هل هناك عقوبة للافتئات على السلطة ؟

جـ : لا أذكر أية عقوبة فى الإسلام .

وعقب إدلاء الداعية الإسلامى الكبير الشيخ الغزالى بشهادته ، سأل رئيس المحكمة أعضاء نيابة أمن الدولة إذا كانوا يريدون توجيه أسئلة للشاهد فأجابوا بالنفى .

وفى نهاية الجلسة طلب الدفاع سماع شهادة د . محمود مزروعة الأستاذ بجامعة الأزهر ، ووعد الدفاع بتقديم تقرير شرعى للشيخ عبد العزيز بن باز مفتى الديار السعودية عن كتب فرج فوده ، وقررت المحكمة التأجيل لجلسة ٣ يوليو القادم .

★ ★ ★

وخلال الفترة من ٧/١٨ حتى ٨/٥ وقد تناول الكاتب الصحفى الأستاذ صلاح منتصر موضوع الشادة فى عموده اليومى بجريدة الأهرام بأسئلة قدمها إلى الشيخ الغزالى ، الذى أجاب عليها ثم أفسح الأستاذ منتصر المجال لبعض تعليقات القراء فضلاً عن تعقيبه هو .

وسنورد هذه الأسئلة .. والإجابات والتعليقات لأنها تلقى ضوءاً على الشهادة ، وعلى تلقى الجمهور لها .

ففي يوم ٧/١٨ ، وفى عموده اليومى «مجرد رأى» كتب الأستاذ صلاح منتصر تحت عنوان :

أسئلة إلى الغزالى

فضيلة الشيخ محمد الغزالى له منا كل احترام وتقدير بالإضافة إلى ما نعرفه عن علمه وجهده الكبير للقيام بدور الداعية الذى يتمنى قوة المسلمين وخروجهم من مرحلة الضعف والهوان التى يمرون بها اليوم .

ولقد كانت لفضيلة الشيخ الغزالى شهادة أمام المحكمة التى يمثل أمامها المتهمون باغتيال الدكتور فرج فودة ، وحسنا تم نشر هذه الشهادة بالنص حتى نعرف على وجه الدقة ما قاله فضيلة الشيخ وان كان أحد الزملاء (الأستاذ فهمى هويدى اهرام ٧/٦) قد وجد أن حديث الشيخ أمام المحكمة يحتاج الى ايضاح للعامة فكتب يحاول هذا الشرح تحت عنوان «حاشية على شهادة الغزالى» ، ولكن يبدو أن الحاشية فى حاجة إلى حاشية .. وليس فى الدين حرج كما تعلمنا .. كما أن الدين كدستور للحياة لابد أن يصل الى الناس ببساطة حتى وان كان معقدا فى بعض التفاصيل لكن مهمة الداعية أن يسهل لا يصعب ، وهو ما يجعلنى أرجو فضيلة الشيخ الغزالى بعد أن قرأت شهادته ، وبعد أن قرأت الحاشية التابعة لشهادته ، ان يجيب عن هذه الأسئلة التى اتصور أن ملايين مثلى قد سألوها وينتظرون من فضيلة الشيخ اجابة عنها .

إن اسئلتى يا فضيلة الشيخ هى :

١ - أى الدرجات أعلى فى المعصية : الكافر أم المرتد ؟

٢ - متى يكون الفرد كافرا ومتى يكون مرتدا ؟

٣ - من الذى يملك تكفير فرد ومن الذى يملك الحكم عليه بالردة ؟

٤ - هل يحتاج الأمر السابق الى فقهاء ودعاة دارسين وبطريقة علنية وواضحة .. أم يستطيعه أى فرد أو جماعة وبطريقة سرية ومغلقة ؟

٥ - هناك من الدارسين من يشكك فى حد الردة ويقول إن حد الردة ليس موجودا صراحة فى القرآن الكريم .. فهل هذا صحيح ؟

٦ - هل يتعارض ما ورد فى القرآن الكريم عن حرية العقيدة واعتبار الحكم على اسلام الفرد من اختصاص الحق سبحانه وتعالى ، مع القول بحق أى فرد أو جماعة فى تكفير فرد أو الحكم بانه مرتد ؟

وفى ٧/٢٠ نشر الأستاذ صلاح منتصر تحت عنوان :

«رد من الغزالى»

أبدأ أولا وأشكر فضيلة الشيخ محمد الغزالى على سرعة استجابته بالرد على ماوجهته الى فضيلته من أسئلة «أهرام الأحد ٧/١٨» وقد ارسلها لى مكتوبة بخط اليد مع مقدمة بأمل نشرها كاملة دون تلخيص «فانى قمت عنكم بمهمة الايجاز واحسب أن أى نقص فى العبارة يفسد الرد وهذا مالايرضيكم» وهأنذا انشر نص الرد كاملا :

١ - أى الدرجتين أعلى فى المعصية : الكافر أو المرتد ؟

جواب : الكافر أقل سوءا من المرتد ! فاننى قد اشترك فى عمل تجارى مثلا مع كافر بالإسلام يهوديا كان أو نصرانيا ، وقد اتزوج يهودية أو نصرانية وفى كلتا الحالتين يجب على البر بهم وبذل الود لهم ، أما المرتد فهو كخائن الوطن منبوذ مكروه ، وقد استعمر الأوروبيون أرضنا ومحوا شرائعنا وشعائرنا فمن انضم إليهم فى حربنا وسخر من ديننا وتراثنا فقد انضم اليهم فى عداوتهم فكيف نصادقه ؟

٢ - متى يكون الفرد كافرا ومتى يكون مرتدا ؟

جواب : الكافر امرؤ خالى البال من تعاليم الإسلام ، لعلها لم تبلغه أو بلغته ولم يقتنع بها ، ولا سبيل لنا عليه إلا إذا اعتدى علينا ، أما المرتد فهو رجل كان منا وعرف مانحن عليه ثم رأى لمآرب خاص أن ينضم إلى خصومنا ، وأن يؤيدهم بما يستطيع . أى أنه خائن غادر ، أما إن كانت لديه شبهة عقلية فلابد من إزالة شبهته ومحو مايتعلق به من أوهام ولو ظل سنين على قيد الحياة .

٣ - من الذى يملك تكفير فرد أو الحكم عليه بالردة ؟

جواب : أهل الذكر وحدهم - أعنى الراسخين فى العلم - فإن اتهام فرد بالكفر جريمة والإسلام دين مضبوط التعاليم ؛ فمن استباح الخمر مثلا وسخر من حرمتها ، أو من ترك الصلاة جاحدا واستهزأ بشريعتها فليس بمسلم ، بل هو ناقض للمجتمع ، ومنكر للوحى وخارج على الأمة .

وسلطة الاتهام بالكفر محددة وليست كلأ مباحا لأى انسان .

٤ - هل يحتاج الأمر السابق الى فقهاء ودعاة دارسين وبطريقة علنية واضحة أم يستطيعه أى فرد أو جماعة وبطريقة سرية مغلقة ؟

جواب : قلنا إن الفقهاء الثقات وحدهم هم مصدر الفتوى ، ورأيهم يكون واضحا ومعلنا ، إلا إذا كان الإسلام مضطهدا وحرية العمل به مصادرة .. إن جو الحرية الرحب هو الذى يستطاع الأخذ والرد فيه ، ولن تكون الحرية لطرف واحد بداهة ، بل تضمن الحرية لجميع الأطراف يقولون مالديهم فى أمان .

وبقيت أربعة أسئلة أخرى سبق أن وجهتها الى فضيلة الشيخ أكمل بإذن الله غدا رده عليها .

وتابع يوم ٧/٢١ نشر بقية الردود تحت عنوان :

«بقية رد الغزالى»

فى عمود أمس نشرت النص الكامل لما تضمنته رسالة فضيلة الشيخ محمد الغزالى ردا على أربعة أسئلة سبق أن وجهتها إليه ، وفيما يلى بقية إجاباته عن أربعة أسئلة أخرى أنشرها بالنص دون انتقاص حرف واحد حتى علامات التعجب ، فهى كما وردت فى رسالة فضيلته :

٥ - هناك بعض الدارسين الذين يشككون فى حد الردة ويقولون إنه ليس موجودا صراحة فى القرآن الكريم فهل هذا صحيح ؟

جواب : نعم لم يرد فى القرآن الكريم قتل المرتد وانما وردت بذلك السنن الصحاح ، وعندى أن جريمة الردة متفاوتة السوء والخطر ، وقد تستحق القتل إذا ساوت ما نسميه الآن الخيانة العظمى ، أو ما نسميه الخروج المسلح على الدولة ، وقد تكون شبهة عارضة يكتفى فيها بالتوبة النصوح ، وأمام القضاء تعرف الحقيقة ويتحدد العقاب العدل ويوزن خطأ كل فرد !!

٦ - هل يتعارض ماورد فى القرآن الكريم واعتبار الحكم على إسلام الفرد من اختصاص الحق سبحانه وتعالى ، مع القول بحق أى فرد أو جماعة فى تكفير فرد أو الحكم بأنه مرتد ؟

جواب : إن قلوب الناس توكل إلى الله بيقين . ولكن لمسالكهم حدودا وضوابط من وضع الله ذاته وإلا سرت الفوضى بين الناس . فمن يدعو الى ترك العلاقات الجنسية حرة ، ويمارى فى جريمة الزنا وعقوبتها لايمكن اعتباره مسلما لأنه مخاصم لحكم الله وخارج عليه . ولذلك قال فى ضرورة الطاعة التامة : ﴿ فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ﴾ . فما العمل اذا لم يتب ويقم الصلاة ويؤت الزكاة ؟ حكم الله واضح .

٧ - اشتركت فى مناظرة مع فرج فودة لأنى كنت طامعا - اذا شرحت له الحق ، وبسطت أدلته - أن أعود بالرجل إلى الإيمان ، ولكنى وجدته يكره الإسلام ونظامه ، وينكر صلاحية أحكامه للبقاء . أى أنه يؤيد حكم الإعدام الذى أصدره الاستعمار على شريعتنا وينحاز إلى أعدائنا بصراحة !!

هذا وقد أصدر نفر من علماء الأزهر كتابا تضمن مانسب الى فرج فودة من خروج على الإسلام واستهزاء بتعاليمه ويستطيع الأستاذ صلاح منتصر أن يقرأ هذا الكتاب .. ذلك وأقول أخيرا أننى رجل من الدعاة الى الله ، لاأتمنى إلا الحرية لى ولخصومى على السواء ، وأكره العدوان والمشاكسة ، ولكنى أشكو من أن دينى يجار عليه وينتقص منه ويحرم أهله مايسمى فى عصرنا بحقوق الإنسان ، وان المنتمين الى هذا الدين فى طور سيىء من تاريخه وتكاد تذهب كراماتهم الخاصة والعامة فى مهب الرياح ..

محمد الغزالى

ثم يبقى سؤال أظن من حقنا على فضيلة الشيخ أن يجيب عنه وهو : ماذا اذا قتل انسان إنسانا آخر بحجة أنه كفر أو ارتد . ماهى عقوبته ؟ هل يقتل قصاصا أم تعزيرا أم نقول - كما قد فهم البعض من شهادتكم أمام المحكمة - بأنه لا عقوبة عليه ؟

وفى يوم ٧/٢٦ - وفى العمود نفسه «مجرد رأى» نشر الأستاذ صلاح منتصر تحت عنوان :

«الافتئات على السلطة»

عبارة « الافتئات على السلطة » من العبارات التى ذكرها فضيلة الشيخ محمد الغزالى فى شهادته أمام المحكمة التى تحاكم المتهمين باغتيال فرج فودة ، وقد أثارت تعليقات كثيرة لأنه ذكر أن حكم الله بالنسبة للمرتد لا يلغيه أحد ، وأن الحد واجب إقامته فاذا أوقعه فرد من آحاد الناس يعتبر مفتئتا على السلطة وأدى ما ينبغى أن تقوم به السلطة ، وليس هناك عقوبة يذكرها فى الاسلام للافتئات على السلطة .

وفى رده على سؤال ماذا إذا قتل انسان آخراً بحجة أنه كفر أو ارتد فإنه قال : « ليس للجمهور إقامة الحدود ، أو إيقاع العقوبات من قصاص وتعزير فذلك للقضاء ، ومن فعل شيئا من ذلك فقد افتات على السلطة ، وهنا يقوم القضاء بتعزيره » . واذا كان الجديد ينسخ القديم فالواضح أن فضيلة الشيخ الغزالى لم يشر فى رده المكتوب إلى أن الافتئات على السلطة ليس عليها عقوبة فى الإسلام .

وحتى يكون الحوار موضوعيا وقانونيا فلابد أن نسأل أولا ماهو المقصود «بالسلطة» . . ومن هى السلطة التى افتات عليها فرد أو مجموعة من الناس اذا قتل أو قتلت شخصا بحجة أنه ارتد ؟

ان « السلطة » فى معناها القانونى هى الجهة صاحبة الحق ، وفى قضية التكفير أو الردة فان هناك ثلاث سلطات خاصة بها : سلطة اتهام واصحابها كما ذكر فضيلة الشيخ الغزالى أهل الذكر والفقهاء الثقاة وحدهم ، وسلطة المحاكمة وجهتها كما قال الشيخ الغزالى القضاء ، ثم سلطة تنفيذ العقوبة التى يصدرها القضاء والمختص بتنفيذها الدولة .

فإذا قيل إن فردا أو مجموعة قامت بقتل إنسان بحجة تكفيره أو اعتباره مرتدا ، وقيل بعد ذلك إن هذا الفرد أو هذه الجماعة افتاتت على السلطة ، فأى سلطة افتاتت عليها ؟ هل افتاتت على سلطة الاتهام أم على سلطة القضاء أم على سلطة الدولة فى تنفيذ العقوبة ؟

المفهوم الضيق هو تصور أنه افتئات على سلطة الدولة ، وهذا مفهوم يمثل قمة الخطأ ، لأنه لم يكن هناك أصلا اتهام وجهته سلطة مختصة ، وقضاء انعقدت أمامه المحاكمة ، وعقوبة صدرت بعد ذلك حتى يقال بعد ذلك إن الدولة اهملت أو تراخت فى تنفيذها لأن حد الله لايلغيه أحد . . نعم حد الله لا يلغيه أحد ، لكن كل حد له شروطه ، وقبل تنفيذ عقوبة الحد يجب التأكد أولا من وجود هذه الشروط ، ولهذا اذا كان صحيحا القول بأن الاسلام لم يتضمن عقوبة على الافتئات على سلطة الدولة . فالصحيح عقلا ومنطقا أن هذا الافتئات الذى لاعقوبة عليه إنما هو على سلطة الدولة إذا أهملت فى تنفيذ عقوبة حكم بها على شخص لخروجه على حد الله . . هنا يمكن القول ان الاسلام لم يتضمن عقوبة . . لكن أمام واقعة لم ينعقد فيها اتهام أو محاكمة أو صدور عقوبة فلا أظن أن احدا يستطيع القول أننا مازلنا فى اطار الافتئات على السلطة التى لاعقوبة عليها فى الاسلام ؟

وفى يوم ٧/٢٧ - نشر الأستاذ صلاح منتصر تحت عنوان :

«رسالة من المفتى»

من فضيلة المفتى الدكتور محمد سيد طنطاوى تلقيت الرسالة التالية : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته قرأت - بعناية - الأسئلة التى وجهتموها إلى فضيلة أستاذنا الشيخ محمد الغزالى ، بمناسبة شهادته أمام المحكمة التى يمثل أمامها المتهمون باغتيال الدكتور فرج فودة ، كما قرأت - بعناية أيضا - إجابة فضيلته على أسئلتكم ، وإن تعليقى على كل ذلك يتلخص فيما يلى :

١ - أؤيد فضيلته فى أن المرتد الذى يحارب الإسلام - كذبا وزورا - أشد سوءا من الكافر الذى لايتعرض لعقيدتى ولا أتعرض لعقيدته ، ولا أجادله ولا يجادلنى إلا بالتى هى أحسن ، لأن العقائد لا تباع ولا تشترى ، والمرتد بإصراره ومجاهرته بالسخرية بأحكام الإسلام بدون دليل أو برهان ، هو أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين .

٢ - أؤيد فضيلته فى أن الكافر انسان لم يسبق له الدخول فى الإسلام ، ولا سبيل لنا عليه إلا إذا اعتدى علينا ، ولا نستطيع إكراهه على الدخول فى الإسلام لأنه لا إكراه فى الدين ، أما المرتد فهو انسان كان مسلما ، ثم خرج عن الاسلام وأساء إليه وإلى أهله عن سوء نيه ، وسخر من أحكامه وآدابه وتشريعاته دون دليل أو برهان ، والذى يملك الحكم على إنسان ما بأنه مرتد ، هم الفقهاء المشهود لهم بالرسوخ فى العلم ، بعد مناقشته وسماع شهادته ، وبعد التأكد من إصراره على نبذ ما ثبت من الدين بالضرورة ؛ كإنكاره للفرائض ، وإستباحته لما حرمه الله - تعالى - كالزنا وشرب الخمر ، واستخفافه بالآداب الإسلامية . .

٣ - أؤيد فضيلته فى أن جريمة الردة متفاوتة السوء والخطر ، وأسوأ وأخطر أصناف المرتدين هم أولئك الذين يجاهرون بذلك ، ويلصقون التهم الباطلة عن عمد وإصرار بأحكام الإسلام ، والقضاء العادل هو الذى ينزل العقوبة الرادعة بكل إنسان على حسب حجم جريمته ، وقد تصل هذه العقوبة الى القتل .

٤ - أؤيد فضيلته فى أن القضاء وحده هو الذى يبت فى مصير المرتد وفق شريعة الله - تعالى - وأنه ليس للجمهور إقامة الحدود أو إيقاع العقوبات من قصاص أو تعزير فذلك للقضاء وحده ، لأننا لو فتحنا هذا الباب لعامة الناس لعمت الفوضى ولقتل فلان فلانا بتهمة أنه مرتد ، وإذا حدث أن اعتدى شخص على آخر بحجة أن هذا الآخر مرتد ، وجبت محاكمة هذا المعتدى أمام القضاء لينزل به العقوبة التى يراها مناسبة .

وعما قريب - بإذن الله - سأكتب بحثا مفصلا حول هذا الموضوع ، ومن الله - تعالى - وحده ، نستمد العون والتوفيق .

محمد سيد طنطاوى
مفتى الديار المصرية

وابتداء من يوم ٧/٢٨ بدأ الأستاذ صلاح منتصر فى نشر بعض الآراء التى وصلته تعليقاً على كلام الشيخ الغزالى ، فنشر تحت عنوان :

«ليس بينها الردة»

ردا على ماأثاره الشيخ الغزالى حول الردة وقتل المرتد نتوقف أمام بعض الحقائق الهامة التى أوجزها كمايلى :

١ - جاءت آيات القرآن واضحة وصريحة فى أن من يرتد عن دينه بل وأكثر من مرة ويزداد كفرا حتى يموت على الكفر لاتقام عليه عقوبة لمجرد ردته مصداقا لقوله تعالى - على سبيل المثال - ﴿ ان الذين أمنوا ثم كفروا ثم أمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا ﴾ .. ولهذا قال الفقهاء بقتل المرتد اذا كان محاربا ومقاتلا للاسلام والمسلمين .

٢ - اختلف القائلون بحد الردة حول العقوبة فقال بعض الفقهاء باستتابة المرتد لفترة ثم قتله على حين قال آخرون باستتابته أبدا وعدم قتله على الاطلاق .. وقد ورد هذا الخلاف فى العديد من كتب الفقه مثل كتاب (فقه السنة) للشيخ سيد سابق ..

وقد وقع الشيخ الغزالى فى تناقض حينما أجاز فى فتواه قتل المرتد على حين ذكر أن له رأيا شخصيا بأن يسجن المرتد سجنا مؤبدا وألا يجرى البحث عنه اذا ماهرب .. وهذه الخلافات فى حد ذاتها تقطع بعدم وجود حد للردة حيث يعرف الفقهاء الحد بأنه عقوبة ثابتة ومحددة لاتقبل الزيادة أو النقصان أو التبديل أو التغيير .. ولهذا ورد فى كتاب الفقه على المذاهب الأربعة أن الحدود المتفق عليها هى ثلاثة فقط وهى (حد السرقة والزنا والقذف) ليس من بينها حد الردة .

٣ - اعتمد القائلون بهذا الحد على الحديث المنسوب الى سيدنا رسول الله ﷺ (من بدل دينه فاقتلوه) .. وقد رد بعض الفقهاء بأن هذا الحديث يتعارض مع النصوص القرآنية التى تحدد أن العقوبة للمرتد عقوبة يتكفل بها المولى عز وجل فى الدنيا والآخرة وليس هناك أى عقاب يوقع على المرتد فى الدنيا لمجرد ردته طالما لم يكن محاربا .. كما قال كثير من الفقهاء إن هذا الحديث من أحاديث الآحاد التى لايؤخذ بها فى الحدود الشرعية .. وقد أورد ذلك الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر السابق فى كتابه (الاسلام عقيدة وشريعة) .. كما قال آخرون أنه لا يمكن الأخذ بهذا الحديث على اطلاقه لأنه يعنى قتل من ينتقل من دين الى دين من غير المسلمين كمن ينتقل من النصرانية الى اليهودية على سبيل المثال فيجب قتله ولذلك فقد أنكر الكثير من الفقهاء الاستناد على هذا الحديث كدليل على قتل المرتد .

دكتور حامد حسان
أخصائى الأذن والأنف والحنجرة

وواصل الأستاذ صلاح نصر ما بدأه من تعليقات ففى يوم ٧/٣١ نشر تحت عنوان :

«إثبات جريمة الردة»

عن كتاب المسئولية الجنائية فى الفقه الإسلامى الذى أرسله لى مؤلفه الدكتور أحمد فتحى بهنسى انقل ما يلى خاصا بجريمة الردة ٠

١ - المرتد هو الذى يكفر بعد إسلامه ، والردةفى اللغة تعنى الرجوع عن الشىء الى غيره ، أى أنها بالمعنى الدينى الخروج عن الإسلام الى غيره ٠

٢ - أصل هذه الجريمة ما ورد فى القرآن الكريم من قوله تعالى : ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (سورة البقرة) ، وفى آية أخرى : ﴿ يا أيها الذين أمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ٠٠٠﴾ (سورة المائدة) ، وقوله ﷺ : «من بدل دينه فاقتلوه» ٠

٣ - فى تثبت جريمة الردة لابد من توافر ثلاثة أركان : فعل مادى ، وشروط خاصة فى المرتد ، ثم القصد الجنائى ٠

أما الفعل المادى فإنه فى جريمة الردة الخروج عن الدين الإسلامى الى أى دين آخر كتابى أو غير كتابى ، أو إلى غير دين ، وقد يكون ذلك بالقول كما قد يكون بالفعل ٠

أما عن شروط المرتد فهى : أن يكون مسلما (إذ أن أحكام هذه الجريمة لاتتعلق إلا بالنسبة للمسلمين) وأن يكون بالغا عاقلا (فالصبى والمجنون لاتعتبر ردتهما) وأن يكون مختارا (فالمكره لاتصح ردته لقوله تعالى : ﴿ الا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾) ٠

أما عن القصد الجنائى فإن القصد المطلوب فى هذه الجريمة هو قصد خاص ؛ أى لايكفى القصد الجنائى العام اللازم فى أغلب الجرائم ، وهو إتيان الفعل مع العلم به ، بل لابد أن المرتد الكفر ٠ فمن يحرق القرآن لأجل شفاء مريض كما يفعل المشعوذون لايكون مرتدا ، ومن يأتى بسخيف القول غير قاصد للكفر لا يعتبر مرتدا ، ومن ينطق بالكفر تحت تأثير العذاب ولم يقصده لايكون مرتدا ٠

٤ - من أول آثار جريمة الردة وجوب العقوبة ؛ فاذا ثبتت جريمة الردة يحبس المرتد ثلاثة أيام بلياليها يستتاب فيها (فى ذلك قول عمر وعليّ وعطاء ومالك والثورى والأوزاعى واسحق وأصحاب الرأى وأحد قولين للشافعى) ٠ وقد اختلفت الأقوال فى كيفية الاستتابة فقال البعض : يطلب منه التوبة إلى الله فى كل يوم من الأيام الثلاثة مرة واحدة كل يوم ٠

٥ - الإثبات فى جريمة الردة : تثبت هذه الجريمة بطريقين ، حكمها حكم باقى الجرائم : بالاقرار وبشهادة الشهود ٠ ورأى كتب الشافعية أن الردة تثبت بالبينة ولا يجب تفصيل الشهادة بها ، أما رأى باقى الفقهاء فهو أنه يلزم تفصيل الشهادة فيها ٠ فلا يكتفى القاضى بقول الشاهد أن المرتد كفر ، بل لابد أن يبين ما كفر به بيانا واضحا لا إجمال فيه بأن يقول الشاهد كفر بقوله كذا أو بفعله كذا لاحتمال أن يكون الشاهد يعتقد أن ما وقع منه كفر وهو فى الواقع ليس كذلك ٠

وفى يوم ١٩٩٣/٨/١ نشر الأستاذ صلاح منتصر فى عموده تحت عنوان :

«أسئلة وتعليقات»

هذا هو العمود رقم ١١ فى سلسلة القضايا التى فتحنا الحوار فيها مع فضيلة الشيخ محمد الغزالى ، ومازال الحوار مستمرا ولن أنشر رسالة واحدة فيها خروج على الموضوعية .. ومن يسأل عن الهدف أقول إنه أكثر من هدف أهمها فى رأيى أن يتعلم الشباب ألا يعرف قضايا الدين من مجرد كتاب قرأه أو رأى سمعه ، وان عظمة الإسلام فى تحريض الإنسان على استخدام العقل الذى ميزه الله به ..

وأختار من عديد الرسائل هذه الفقرات :

● ● هناك إجماع بين الفقهاء أكد عليه فضيلة الشيخ الغزالى وهو أن حد الردة لم يرد به نص قرآنى وانما ورد فى حديث آحاد (رأى رواه واحد عن واحد حتى رسول الله) وهو الحديث الذى يقول : «من بدل دينه فاقتلوه» ..

وقد أصدرت لجنة الفتوى بالأزهر الشريف بتاريخ ١٩٩٠/٢/١ فتوى معناها (أن حديث الآحاد لايفيد اليقين ، ولافرق فى ذلك بين أحاديث الصحيحين وغيرها ، وأن أحاديث الآحاد - لذلك - لاتستقل بإثبات الإيجاب والتحريم) . وقد وافق فضيلة الشيخ الغزالى على هذه الفتوى بدليل أنه أوردها فى كتابه «تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل» ص ١٧٦ ، فاذا كانت أحاديث الآحاد لاتستقل باثبات الايجاب والتحريم ، فهل يجوز أن تستقل باثبات الحدود ؟

لواء محمد شبل

دبلوم دراسات اسلامية

● ● رغم اعتراف فضيلة الشيخ الغزالى بأن القرآن الكريم لم يذكر عقوبة للمرتد وان العقوبة التى ذكرها هى اجتهاد شخصى منه ، إلا أن فضيلته يقول إن المرتد ، يرفع أمره الى القضاء ليبت فى مصيره وفق حكم الله ، فإذا كان هناك حكم لله يحكم به القضاء - كما يقول فضيلته - فلماذا اذن الاجتهاد الشخصى من فضيلته ؟

دكتور عادل رشاد غزال

أستاذ مساعد بطب قناة السويس

نفس الشيء أحيل سؤالك الى فضيلة الشيخ الغزالى ..

● ● أرى أن عدم ذكر حد للردة فى القرآن الكريم هو أعظم تحد من العلى القدير برسوخ هذا الدين المعجزة ، فالمرتد أتفه من أن يشكل قيمة للإسلام ، وإلا هل أنت تنتقص من البحر شيئا اذا ملأت منه كوبا ؟

المعتز بالله الشربينى

محاسب

● عند مناقشة أى اتهام يوجه لفرج فودة أرجو مراعاة التفرقة بين ماذا كان الرأى الذى قاله فودة قصد به التهجم على الشريعة أم على رجال الشريعة ؛ ذلك أن لكل منهما حكما يختلف عن الآخر ، فهجومه على الشريعة شيء وعلى رجال الشريعة شيء آخر ٠

د ٠ على نصير

ومازال الحوار مستمرا ٠

وفى يوم ٨/٢ واصل الأستاذ صلاح منتصر نشر التعليقات فجاء تحت عنوان :

«من يملك الاستتابة ؟ »

أوضحت التعليقات التى نشرتموها تعقيبا على شهادة فضيلة الشيخ محمد الغزالى خلو الآيات القرآنية من نص يقضى بقتل المرتد ، وان المرجع الوحيد هو الحديث «من بدل دينه فاقتلوه» رغم معارضة كثير من الفقهاء لهذا الحديث لتناقضه مع القرآن من جهة ولأنه من أحاديث الآحاد التى لا يؤخذ بها فى مسائل الحدود من جهة أخرى ٠٠ إلا أنه على الجانب الآخر هناك عشرات الروايات المتفقة مع القرآن والتى تقطع بعدم قتل المرتد ومنها : ماروواه البخارى جـ ٤ ص ٩٦ ومسلم بشرح النووى جـ ٩ ص ٤٥٥ من أن اعرابيا بايع الرسول ثم جاءه قائلا : يامحمد اقلنى من بيعتى «فابى الرسول وكررها الاعرابى ثلاثا ثم خرج من المدينة ،، فقال الرسول : «انما المدينة كالكير تنفى خبثها وينضج طيبها» ٠ ويذكر الحافظ بن حجر والأمام النووى نقلا عن القاضى عياض وشرح النووى على مسلم : «انه رغم كونها حالة ردة ظاهرة ومع ذلك لم يعاقبه الرسول ولا أمر بعقابه بل تركه يخرج من المدينة دون أن يعرض له أحد» ٠ وقال الشوكانى فى (نيل الأوطار) : «لم يثبت أن رسول الله عاقب على الردة بالقتل» ٠ كما روى عن البخارى جـ ٤ ص ٢٤٦ كتاب الشعب : «ان رجلا نصرانيا أسلم ثم ارتد نصرانيا مرة أخرى فأماته الله فدفنوه ، ولم يعاقبه الرسول على ردته» ٠ وهناك العديد من الروايات التى تنسب الى سيدنا عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وغيرهما مفادها أنهم لم يحكموا بقتل المرتدين ٠

والنقطة الثانية التى أريد أن أعلق عليها هى نقطة «الاستتابة» فقد ذكر فضيلة الشيخ الغزالى فى شهادته أن المرتد يجب استتابته قبل معاقبته وهو ماليس له أساس فى الدين أو الشرع حيث توضح الآيات العديدة أن الله تعالى هو وحده المختص بقبول التوبة أو رفضها ٠ ذلك أن مناط التوبة هو قلب الإنسان ، ولا يطلع على القلوب الا خالقها ٠ ولأنه لا أساس لزعم الاستتابة فى الدين أو الشرع فقد اختلف القائلون به ٠ فمنهم من قال يستتاب أياما ومنهم من قال شهورا والبعض قال يستتاب طوال حياة المرتد ، بل إننا سمعنا مؤخرا من شاهد فى المحكمة بأنه « لا ترجى توبته » ومنهم من قال : (يقتل وإن تاب) ! ولعل السؤال الى كل هؤلاء الذين يدعون الى استتابة المرتد هو : إذا منح انسان ما نفسه الحق فى أن يستتيب غيره من الناس ، فهل يملك أيضا ضمان قبول هذه التوبة فى حين يقول الحق تبارك

وتعالى : ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ﴾ واذا كان هناك من يقولون بحقهم فى عقاب المرتد بقتله فهل يملكون فى المقابل مكافأة من يؤمن بأن يضمنوا له دخول الجنة على أساس أن الذى يملك هذه لأبد أن يملك أيضا تلك ؟ أليس ذلك مشاركة الله تعالى فى أخص خصوصيات الألوهية وهى قبول التوبة من عباده ورفضها ؟ .

لواء متقاعد
حسام سويلم

وفى يوم ٨/٣ نشر الأستاذ صلاح منتصر تحت عنوان :

«تعليق من الغزالى»

الأحاديث النبوية أنواع أشهرها الأحاديث المتواترة ، والآحادية ، والحسنة ، والضعيفة .

والأحاديث المتواترة هى التى سمعها عن الرسول عليه أفضل الصلاة جمع من الناس ونقلوها الى جمع أكبر وهؤلاء قاموا بنقلها الى جمع آخر وهكذا .. وهذه الأحاديث المتواترة محدودة ومعدودة ، وصحتها جميعا مؤكدة ، أما أحاديث الآحاد فهى التى نقلها عن الرسول واحد أو إثنان ثم رواها واحد الى آخر وهكذا .. فإذا كان هؤلاء الرواة من الثقاة المشهود لهم بالأمانة والصدق اعتبرت الأحاديث صحيحة ، وتتغير درجة الأحاديث من الحسنة إلى الضعيفة بحسب الرواة .

وتعقيبا على ماقيل حول حد الردة تلقيت الرد التالى من فضيلة الشيخ محمد الغزالى انشره بعلامات التعجب التى وردت فيه .

(إن القول بأن حد الردة لم يجىء إلا عن طريق أحاديث الآحاد قول فيه مجازفة وبعد عن الصواب ! كيف وقد تواتر تاريخيا أن المسلمين جميعا قاتلوا وراء أبى بكر رضى الله عنه المرتدين ومانعى الزكاة معا ؟ وقد ظلت الحرب قرابة سنتين ؟ أين مكان حديث الآحاد فى هذا الأجماع ؟ والذى نراه أن جريمة الردة لها مراتب ، أو تطلق على أنواع متفاوتة من النكوص على الأعقاب :

١ - فهناك من يكفر فى نفسه أو فى بيته ، وهذا لن نشق عن صدره ولا نقتحم له بيتا ، وليبق على حاله حتى يموت ، فاذا ترك دار الإسلام الى أرض أخرى فلن نسعى إلى استعادته ولا رده الله .

٢ - وهناك من يفارق الجماعة باعلان حرب على النص ، فيعالن [ملحوظة من عندى أى يجاهر علنا] بترك الصلاة ومنع الزكاة ، وإباحة الخمر والزنا وتعطيل الشرائع .

ولما كان الإسلام عقيدة وشريعة فإن نقض المعاملات والعبادات سواء فى الخروج منه ومخاصمة أمته ، وهذا هو الذى يقدم للمحاكمة ويستتاب . فإن بقى على مروقه قتل والا ترك .

٣ - وقد إستطاع الاستعمار تجنيد أفراد يعملون معه على ضرب الإسلام وهدم أوامره ونواهيه ، وبلغ هؤلاء حدا هائلا فى النكاية بالدين والنيل من تعاليمه المقررة ، إنها ردة جديدة تشبه ما وقع أيام أبى بكر والسكوت عليها ايذان بالاتيان على الإسلام من القواعد ولذلك قررنا التصدى لها حتى تنتهى).

محمد الغزالى

وبدأ الأستاذ صلاح منتصر فى نشر رأيه الخاص يوم ١٩٩٣/٨/٤ فتحت عنوان :

«أختلف مع الشيخ»

ليسمح لى فضيلة الشيخ محمد الغزالى وقد أمضينا نحو أسبوعين فى مناقشة هادئة وموضوعية لقضية أثارتها أقواله - ولا أقوال شهادته - أمام المحكمة ، أن اختلف معه فى بعض الآراء والأحكام دون أن يفسد هذا الخلاف ما بيننا من ود وتقدير ..

أما الرأى فهو الخاص باشارته الى المرتد وقول فضيلته ، أما المرتد فهو رجل كان منا وعرف مانحن عليه ثم رأى لمأرب خاص أن ينضم الى خصومنا وأن يؤيدهم بما يستطيع ،. وعبارة ،كان منا وعرف مانحن عليه، توحى بأن المسلمين مجموعة خاصة لهم طقوس سرية لايعرفها غيرهم ، أو أن هناك أحوالا أو نقاطا معينة نخفيها عن خصومنا ولا نكشفها لهم ، وقد خاننا أحد المسلمين . وعرف بها وانضم الى هؤلاء الخصوم وحاربنا بما عرف عنا من نقاط ضعف كانوا يجهلونها ..

وقد لا يكون هذا هو المعنى الذى قصده فضيلة الشيخ الغزالى والأغلب أنه أراد أن يبسط فهم جريمة المرتد ويقربها من خيانة الوطن الا أن الكلمات التى استخدمها فضيلته أوصلتنا الى معنى آخر لا يتفق أبدا مع الواقع .. فلسنا نحن المسلمين جمعية خاصة لها طقوس سرية ولافينا من نقاط الضعف ما نحاول أن نخفيه ، ولابيننا من يدبر المؤمرات التى فى حاجة الى أن يفشى بها من كان منا وعرف مانحن عليه .. فأركان العبادة فى الإسلام لاتجرى سرا بل لعل أبرز مافيها العلانية ، الصلاة فى المساجد وفى الميادين ، والحج شعائره ينقلها التليفزيون على الهواء ، والصيام أمره معروف للكافة ، وخطباء المساجد تنقل الميكروفونات خطبهم أيام الجمع والمناسبات .. فلا سر نخفيه ولانقاط ضعف نخشاها من الإسلام ، ولو كانت هناك هذه النقاط لكانت فى المسلمين وليس فى الإسلام ..

الحكم الذى اختلف فيه مع فضيلة الشيخ هو حكمه على فرج فودة وقد ذكر فيما كتبه لى ونشرته هنا [أهرام ٧/٢١] ،لقد اشتركت مع فرج فوده فى مناظرة لأنى كنت طامعا إذا شرحت له الحق وبسطت أدلته أن أعود بالرجل الى الإيمان ولكنى وجدته يكره الإسلام ونظامه وينكر صلاحية أحكامه للبقاء ، أى أنه يؤيد حكم الإعدام الذى أصدره الاستعمار على شريعتنا وينحاز إلى أعدائنا بصراحة، ، والكلمات كما هو واضح بالغة القسوة من رجل فاضل

نكن له كل التقدير والاحترام ، وقد يكون هذا هو رأى الشيخ فى رجل أصبح فى رحاب ربه الذى ليس بعد عدله عدل ، ولكن هل هذا هو رأى الشرع ؟

ان حكم الشيخ جاء محددا عندما ذكر أنه ذهب لمناظرة معه لأنه كان طامعا أن يعود بالرجل الى الإيمان «ولكنى وجدته يكره الإسلام ونظامه وينكر صلاحية أحكامه للبقاء» .. وهذا يعنى أن فرج فودة فى هذه المناظرة قال ما يعكس كراهيته للإسلام وانكر صلاحية أحكامه للبقاء .. فماذا قال ؟

وفى اليوم التالى ٨/٥ استكمل الأستاذ صلاح منتصر ما كان بدأه فى اليوم السابق ، فنشر تحت عنوان :

«هذه هى أقواله»

لفضيلة الأستاذ محمد الغزالى عبارات رائعة جميلة منها قوله «إذا كان الحوار الهادىء الواعى واجبا مع غير المسلمين فهو مع المسلمين أوجب» ، وأيضا قوله : «أنكر رأيك وأيده بالدليل الذى تملكه وانتظر بعدئذ أن أتجاوب معك فإذا لم يكن لديك دليل مقنع فلا سبيل لك على».

ودليلى يافضيلة الشيخ فى خلافى معكم بالنسبة لحكمكم على فرج فوده هو ما قاله فى المناظرة التى اشتركت معه فيها والتى ذكرت بعدها أنه تأكد لك فيها أنه يكره الإسلام ونظامه وينكر صلاحية أحكامه للبقاء .

وماجرى فى هذه المناظرة يافضيلة الشيخ مسجل وموثق بالصوت والصورة . وأنا هنا أنقل على لسانه ما قاله قرب ختام المناظرة وكان نصه مايلى : «هناك شىء سمعته وأرجو أن تكون أذنى اخطأته . ففى بداية حديث الأستاذ الجليل الدكتور محمد عمارة قال إن بديل الدولة الدينية دولة لا دينية وهو مايعنى رفضه الدولة المدنية .. سيادة المستشار الجليل الأستاذ مأمون الهضيبى قال بعد ذلك إنه يقبل الدولة المدنية على أن يحكم فيها بشرع الله . والله كدت أن أقوم لأقبله فهذا مانريد . ثم يبقى شىء وهو مسائل الحدود ومسائل الشريعة وهذه لنا فيها رأى ومن خلال جوهر الإسلام . ولذا أنا قلت إن الحوار هو الحل فأرجو أن تتاح فرص للحوار لأن الكلمة أقوى من السيف دائما القرآن بدأ باقرأ وسنظل نتحاور حتى نوقف نزيف الدم ونصل الى كلمة سواء . وأنا أؤكد لكم أن مايقال ليس خلافا بين أنصار الإسلام واعداء الإسلام ، وانما هو خلاف رؤى . رؤى لاتتناقض مع الإسلام . لكن الفريق الذى انتمى إليه لم يرد أبدا أن الإسلام هو دين العنف . أبدا الإسلام دين القول بالتى هى أحسن ولذلك نحن ندين الإرهاب لأنه قول وفعل بالتى هى أسوأ . الإسلام عندما يفهم ويجتهد فيه تختلف الصورة . إن التاريخ نقل إلينا فى عصر العباسيين حوار أبى حنيفة مع ملحد .. والتاريخ نقل إلينا كتابات الملحدين داخل الدولة الإسلامية عندما كانت الدولة الإسلامية فى قمة حضارتها . لم يرتفع الإسلام بالسيف . كان الحديث بالحروف وليس بالكلاتشنكوف .

أدعو الله للجميع أن يهتدوا بهدى الإسلام وهو دين الرحمة وأن يهديهم الله لأن يضعوا الإسلام فى مكانه العزيز بعيدا عن الإختلاف وعن الفرقة وعن الأرهاب وعن الدم وعن المطامح وعن المطامع ، .

هذا بعض ماقاله فرج فودة فى المناظرة فهل يفهم أحد من كلامه أنه يكره الإسلام وينكر صلاحية أحكامه للبقاء ؟ . وربما كان لفضيلة الشيخ الغزالى أو غيره رأيهم الشخصى فى نوايا الرجل ، ولكن هل نحن نحاكم نواياه أم أقواله وأفعاله ؟ إن دليلنا عليه أقواله ، أما نواياه فحسابه عنها أمام خالقه وحده وليس فينا على وجه الأرض من يستطيع أن يقول إنه شق صدره !

وكانت جريدة الأهرام قد تناولت الموضوع فى عددها الأسبوعى يوم الجمعة ٧/١٦ (ص ٢٤) وتحت عناوين :

«حتى لا تستغل أحاديث الردة فى تشويه العقيدة»

حرية الاعتقاد الدينى كفلها الإسلام وعقوباته للمرتدين مسئولية ولى الأمر

نشرت رأى استاذين دون أن تلحظ أن الرأيين يناقضان عناوينها !!

وجاء فى كلمة الأهرام :

حسمت لجنة الفتوى بالأزهر الشريف فى بيانها الذى نشر فى الأسبوع الماضى العديد من النقاط بالنسبة لقضية الردة والمرتدين وقدمت المنهج الإسلامى الصحيح والمتكامل فى التعامل مع هذه القضية بما تستوجبه من علم وتدقيق وشمول وبما يتفق مع النظرة الحضارية للإسلام وبما يتسق مع مبادئه العظيمة التى رسخت قيمة العلم والعقل فى الإيمان .

وقد أكدت الفتوى نقطة بالغة الأهمية صيانة للإسلام والمسلمين من الفتن والقلاقل وحماية للمجتمعات الإسلامية من الفوضى حيث ركزت علىّ أن مسئولية التعامل مع هذه القضية هى مسئولية ولى الأمر وليست مسئولية الآحاد من الناس وأنه لايحق لفرد أن يتهم الآخرين بالكفر أو ينعتهم بالمرتدين بحكم أن تلك مسئولية ولى الأمر ومن يفوضهم من المسئولين المختصين .

وفى ظل الهجمة الشرسة على الإسلام التى تسعى إلى تشويه حقائقه وقواعده الراسخة التى كرمت الإنسان واحاطت حريته بسياج منيع من الضمانات لاتجعل من إطلاق تهمة الكفر أو الردة أمرا سهلا بل وتلزم ولى الأمر باستتابه المرتد وابراء ذمته اذا رجع عن ردته .. فإن ايضاح حقيقة الموقف الإسلامى من هذا الأمر يصبح مسئولية المجتمعات الإسلامية أمام الغير حفاظا على صورة الإسلام .

ومن الغريب أن بعض وسائل الإعلام الغربى تشن حملة ضارية على الإسلام وتتهمه بالإعتداء على حرية العقيدة هى نفسها التى تخفف من المأساة الدامية للمسلمين فى البوسنة والهرسك وتتجاهل حقوقهم الدينية والإنسانية مما يدل على أن الحضارة الغربية قد بلغت قمة التراجع والتخلف والهمجية ، وهذا لايبرر على الاطلاق خلط الأوراق وتحميل الإسلام بغير ما يحتمل والتصميم على اثارة قضايا قديمة حسمها الإسلام ومازال الغرب عاجزا عن فهمها بدليل موقفه فى البوسنة والهرسك .

البداية كانت مع الدكتور أحمد حمد أحمد أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة قطر الذى قال إن هناك مجموعة من الحقائق لابد من طرحها ، وأولى هذه الحقائق هى أن محور الحياة بما تتطلبه من ألوان النشاط فى مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها هو الإنسان الذى كرمه الله - جل علاه - وفضله على كثير ممن خلق وسخر له مافى السموات ومافى الأرض جميعا ، أما الثانية والتى تقترن بهذه الحقيقة فهى أن الإنسان فى أمس الحاجة وهو يخوض غمار هذه الحياة ويكدح فيها الى منهج حكيم يجنبه الضلال وينقذه من المخاطر والأهوال . والحقيقة الثالثة التى هى قوام هاتين الحقيقتين هى أن هذا المنهج الحكيم لن يكون الا من عند الله العلى القدير الذى صنع الإنسان وصنع الكون الذى سخره له ؛ فإن الصانع هو الذى يعرف كل صغيرة وكبيرة وكل دقيقة وجليلة فيما صنع : ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ فإذا كان الإنسان الذى هو محور ألوان النشاط فى هذا الملكوت من صنع الله وإذا كان هذا الملكوت المسخر له من صنع الله . فلماذا لايكون المنهج الإسلامى هو الذى يسير عليه وهو يمارس ألوان نشاطه ؟..

□ كيف يمكن أن تنعكس هذه الحقائق الثلاث على قضية حرية العقيدة ؟

□ فى اجابته أوضح محدثنا أن المتأمل لرحلة الفكر الوضعى ولاسيما الفكر الغربى مع قضية الحرية عموما لابد وأن يلمس قصوره عن ادراك المفهوم الصحيح للحرية ؛ فهو يحاول فهم الحرية من خلال نظرته الحبيسة فى نطاق ضيق ، فقد قام بتضييق رحاب الحياة الواسعة على نفسه ثم أنبرى يصرخ من هذا الضيق ويحاول الخلاص منه دون جدوى وسبب ذلك هو نظرته الحبيسة فى نطاق المادية التى افقدته النظرة الصائبة .

□ اذا كان الإنسان قد فقد أو ضل طريقه لمفهوم الحرية فما هى الحرية الحقيقية من منظور الفكر الإسلامى ؟

أجاب محدثنا قائلا إن مفهوم الحرية لابد أن يتسق مع التكوين الفكرى لكل انسان سليم الفطرة ومن ثم فالحرية هى تعظيم الله ورفض أى شىء يعلو عليه ، أو هى العبودية لله لاشىء سواه .

□ ولكن ماهى أوجه الاختلاف بين موقف الشريعة الإسلامية والنظم الوضعية من حرية العقيدة ؟

□ أكد د . أحمد رشاد طاحون بجامعة الزقازيق الحاصل على الدكتوراه فى موضوع

حرية العقيدة الدينية فى الشريعة الإسلامية . إن حرية العقيدة فى الشريعة الإسلامية قد تقررت منذ فجر البعثة المحمدية مصداق ذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾ . وإذا كانت حرية العقيدة فى النظم الوضعية تقتضى فصل الدين عن الدولة والأخذ بمبدأ العلمانية فإن تقرير حرية العقيدة فى الإسلام ذلك النظام الشامل لشتى مناحى الحياة ودون حاجة لفصل الدين عن الدولة . أيضا ترى النظم الوضعية فى تقريرها لحرية العقيدة بعين حرية الإنسان فى الاعتقاد بدين معين وحريته فى الالحاد والدعوى إليه . ولكن الشريعة الإسلامية لاتقر الالحاد لتنافيه مع الفطرة الإنسانية ولما أجمع عليه البشر منذ وجد الإنسان على هذه الأرض .[1]

□ هنا تثور قضية الردة خاصة أن اعداء الإسلام يلوحون بأن موقف الإسلام من المرتدين هو اعتداء على حرية الإنسان فى الاعتقاد مما يدعو الى طرح الأسباب التى دعت إلى تجريم الإسلام للردة عنه .

□ □ أوضح محدثنا فى رده علينا ، أن أساس الإيمان فى الإسلام هو الاقتناع القلبى والتحرر الوجدانى من كل زيغ وضلال والتحرر من التقليد الأعمى ومن سلطان الهوى . لذلك كان الإيمان المقبول هو الناشىء عن رضا واختيار واقتناع بالدليل .

وإذا ما أرتد مثل هذا الإنسان عن الإسلام فذلك يعنى أنه إما عابث بالدين وبكيان المجتمع وإما هادم لنظامه الاجتماعى ؛ فالإسلام نظام شامل متكامل ينظم سائر فروع الحياة حيث ينظم العلاقة بين العبد وربه كما ينظم العلاقة بين أفراد المجتمع وبينهم وبين سلطات الدولة وينظم سلطات الدولة على أساس ماجاءت به الشريعة من قيم ومثل متمثلة فى مصادرها الشرعية ، والمرتد يعلن خروجه على هذا النظام الاجتماعى والقانونى والاقتصاد والسياسى فضلا عن انكاره لقضية الإيمان من أساسها .

إذن فهذا المرتد لم يؤمن عن اقتناع انما كان إيمانه بقصد افساد أمر هذه الأمة كما حدث من اليهود فى المرحلة المدنية عندما كانوا يأمرون قومهم بالإيمان أول النهار والكفر آخره ومن شأن هذا وهم أهل كتاب أن يتشكك المسلمون فى أمر دينهم وذلك كما جاء فى القرآن الكريم حيث يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين أمنوا وجه النهار واكفروا أخره لعلهم يرجعون ﴾ . وقد ذكر ابن كثير فى تفسيره أن هذه مكيدة أرادها اليهود ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم وحتى يقول الجهلة من الناس إنما ردهم الى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب فى دين المسلمين ولهذا قالوا لعلهم يرجعون .

□ ولكن قد يكون الأرتداد بسبب ماثار فى نفس المسلم من شبهات أو عدم اقتناع بأمر من أمور الإسلام وليس بدافع العبث ؟

□ □ أوضح محدثنا أنه فى هذه الحالة يجب على ولى الأمر أن يزيل عنه هذه الشبهة ويساعده على التخلص مما يساوره من شكوك وهواجس حتى يقتنع اقتناعا كاملا بالإسلام أما اذا أصر على موقفه فيجب توقيع العقوبة عليه . لأنه يعلم أن دخول الإسلام يقتضى الاقتناع الكامل والإيمان الصادق . والإسلام فى ذلك ليس بدعة فأى نظام وضعى يقرر عقوبة الاعدام لمن يرتكب جريمة هدم البنيان الاجتماعى للدولة أو الخروج عن النظام العام للدولة .

وكلام الأستاذين مثال «نمطى» لتطويع المبادىء لما تهوى الأنفس وما استقر فى الأذهان من مفاهيم سابقة ، وأثر الطبيعة المزاجية والنفسية على إصدار الأحكام ويتفق مع ما أجمعوا عليه من أن الغرض من الردة هو العبث بالإسلام والكيد له والتآمر عليه ، دون أن يخطر له خاطرة عن حرية اعتقاد أو فكر .

* * *

وقد أثار الموضوع اهتمام كل الصحف تقريباً ، وكتب معظم المفكرين الإسلاميين ، بما فيهم بالطبع الأستاذ فهمى هويدى الذى كتب فى جريدة الأهرام فى مقاله الأسبوعى يدافع عن الشيخ الغزالى ويلفت النظر لنقطة فى غاية الأهمية تلك هى أنه كان يجيب على أسئلة محددة تعمدها الدفاع لتبرئة موكليه . ولم يكن أمامه مناص من الرد ومثل هذا الرد لايعد فتوى أو رأيا علميا مجرداً . وسترد إشارات عديدة إلى هذا المقال الهام ..

ونشرت جرية الحياة تحقيقاً صحفياً جاءها من مراسلبها إبراهيم قاعود وضياء عبد الحميد . بالقاهرة – فى العدد الصادر فى ١٩٩٣/٧/١٨ – تحت عنوان :

«شهادة الغزالى فى قضية فرج فوده»

جاء فيه :

□ لا تزال شهادة الداعية الإسلامى الشيخ محمد الغزالى أمام محكمة أمن الدولة المصرية العليا الشهر الماضى تثير عاصفة من الانتقادات والجدل المحتدم بين جمهور المثقفين المصريين وعلماء الدين ، فى ما يتعلق بتوقيتها وفحواها ، ولأنها فى جانب منها تنتزع من الدولة ولايتها على الأفراد وحقها فى القصاص ، كما أنها كانت مفاجأة للشارع المصرى الذى يعرف عن الغزالى اعتداله . وشهدت صفحات الجرائد والمجلات المصرية جدلاً بين مؤيدى شهادة الغزالى ومعارضيها ، ويرى الجانب الأخير أن فتوى الغزالى تفتح مجالاً واسعا للمزيد من عمليات «الإرهاب» ضد صاحب أى فكر واجتهاد ، واعتباره مرتدا يجب قتله تطبيقا لحد الردة .

ومما زاد من اشتعال الجدل واحتدامه دخول الأزهر على الخط بإصدار لجنة الفتوى التابعة له بيانا جاء فيه : «من يبادل من تلقاء نفسه بقتل شخص مرتد لابد أن يعاقب ، فالعقوبة منوطة بحكم من القضاء وليست متروكة للأفراد» . ومازالت القضية تتفاعل والجدل يزداد سخونة واحتداما .

واستطلعت «الحياة» آراء بعض العلماء والمفكرين الإسلاميين حو هذه القضية «الردة .. ومن يملك حق الحكم بارتداد مسلم عن دينه ؟» .

وكانت محكمة أمن الدولة العليا المصرية التى تنظر فى قضية اغتيال الكاتب الدكتور فرج فوده استدعت – بناء على طلب الدفاع – الشيخ محمد الغزالى كشاهد ، ودار بينه وبين الدفاع حوار حول حكم الردة . وقال الشيخ أن حكم المرتد القتل .

وأضاف الغزالى : «إن حكم الله لا يلغيه أحد ولو نفذه أحد الناس ، فإنه يكون مفتئتا على السلطة» . وعندما سأله ممثل الدفاع إذا كانت هناك عقوبة على الافتئات على السلطة إسلامياً ، قال الغزالى : «لا أنكر أن لها عقوبة» .

هذه الشهادة أثارت نوعاً من الارتياح لدى الجماعات الإسلامية التى طالما هاجمت الشيخ الغزالى بسبب كتاباته حتى أنها كانت تتهمه بأنه من علماء الحكومة .

وأعرب أحد أبرز قيادات هذه الجماعة وهو صفوت عبد الغنى الذى يحاكم فى قضيتى اغتيال فرج فوده ورفعت المحجوب عن اعتزازه بشهادة الغزالى وأنه حتى فى حال صدور أحكام بإعدام ضد المتهمين فى قضية اغتيال فوده فإنه تكفيهم هذه الشهادة .

وهاجمت بعض الصحف المصرية بخاصة «روز اليوسف» شهادة الغزالى واعتبرتها «فتوى تصب فى مصلحة التطرف والمتطرفين» واتهمت الرجل بأنه «مفتى التطرف الجديد» والمفتى القديم هو الشيخ عمر عبد الرحمن الذى يثير الجدل حول اقامته فى الولايات المتحدة ، ولكن الصحف المعبرة عن التيار الإسلامى مثل «الشعب» و «الاحرار» انحازت الى جانب شهادة الغزالى وثار جدل طويل فى الشارع المصرى حول هذه الشهادة ومدى سلامتها ، خصوصا مع استمرار أعمال العنف التى ترتكبها الجماعات المتطرفة ضد أجهزة الأمن ورموز السلطة .

وفى محاولة لحسم الخلاف حول الشهادة صدر بيان شرعى (فتوى) من لجنة الفتوى فى الأزهر «من دون طلب من احد» كما يقول رئيسها الشيخ عطية صقر ، وصدر البيان باجماع آراء أعضاء اللجنة وهم : الشيوخ محمود عبد المتجلى وعبد الجليل شلبى وأحمد مسلم وعبد العظيم الحموى وصالح حتحوت .

وجاء فى بيان لجنة الفتوى الصادر فى ٨ تموز (يوليو) الماضى فى تحديد معنى الردة ومن هو المرتد : «ان ردة الفرد تحصل بانكاره ما عُلم من الدين بالضرورة كالعقائد وأركان الاسلام الأساسية أو بالاستهزاء بها والطعن فى صلاحيتها لتقديم الفكر والسلوك» .

وفى عقاب المرتد قال بيان اللجنة : «قرر العلماء أن يستتاب المرتد لمدة ، اختلفت فيها آراء العلماء ، فاذا رجع المرتد فقد أبرأ ذمته ، وان لم يرجع وجبت عقوبته» .

وفى تحديد العقوبة أوردت اللجنة قول الرسول ﷺ : «من بدل دينه فاقتلوه» . مع أنه لايمكن أن تتم العقوبة الا بتوافر أمرين :

– التأكد من ثبوت الجريمة واستقصاء كل ملابساتها والاطمئنان الى عدم وجود أى شبهة فيها وذلك بناء على قول رسول الله ﷺ : «ادرأوا الحدود بالشبهات» وهذا التأكد لا يكون الا بمعرفة المسؤولين المختصين الذين يملكون من الوسائل ما يمكنهم من التحقق من أركان الجريمة ونفى الشبهات عنها .

– الأمر الثانى : ان العقوبة ، اذا وجبت ، لا يجوز تنفيذها الا بمعرفة من قاموا بتحقيق

أسبابها ، أما من يوقع عقوبة حدية من دون إذن من ولى الأمر فإنه بذلك يكون ارتكب إثماً عظيماً له عقوبته الشديدة فى الآخرة ، ويجوز لولى الأمر أن يعاقبه عقوبة تعزيرية منعاً للفوضى وإقراراً للأمن والنظام ، وأكد بيان اللجنة أن الإسلام حرم على المسلم الارتداد عن دينه مصداقا لقول الله تعالى : ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ .

ومن جهتها احتجت المنظمة المصرية لحقوق الإنسان على شهادة الشيخ الغزالى ورفضتها وأعلنت أنها ضد حقوق الإنسان وتسىء الى الإسلام .

لا أحكم على فرج فوده

يقول الدكتور الحسينى أبو فرحة ، رئيس قسم التفسير فى كلية البنات - جامعة الأزهر : «إن الردة بمفهومها فى الاسلام تعنى رجوع المسلم عن الإسلام وخروجه منه بعد دخوله فيه ، والردة كفر وزيادة لأن المرتد كفر بخروجه من الإسلام ، أما الزيادة فهى أنه تلاعب بالإسلام والمسلمين» .

وأضاف إن اليهود فى عهد النبى ، ﷺ ، كانوا يدخلون فى الإسلام فى أول النهار ويرجعون عنه فى آخره ، وأتفقوا على ذلك فى ما بينهم وهدفهم كما صرحوا به هو أن يرتد المسلمون عن الإسلام ، وقال الله تعالى فى القرآن الكريم مشيرا الى ذلك : ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ .

ويضيف أبو فرحة : «تأسيسا على ذلك فإن المرتد كافر واذا دعا الى كفره وأعلن الحرب على الإسلام فتلك جريمة أخرى وهذه ما نطلق عليها الزيادة ؛ فهناك من يرتد فقط وهناك من يرتد ويشتغل بالدعوة الى الردة ، وبهذا تبين لنا أن المرتد اذا دعا غيره الى الردة يكون ارتكب ثلاث جرائم :

- أولا : الكفر .
- ثانيا : محاولة بلبلة غيره من المسلمين .
- ثالثا : دعوته الى الردة واعلانه الحرب على الإسلام .

والإسلام جعل عقوبة المرتد استتابته ، فان تاب عفى عنه ، وان لم يتب قتل كفرا وليس حدا كما يظن البعض ، ولا يغسل ولا يصلى عليه ولا يدفن فى مقابر المسلمين .

وأضاف : «بالنسبة الى الكاتب فرج فوده فأننى لم أقرأ له كلمة ولم أسمع منه كلمة ، كنت فقط اسمع من الزملاء أنه يهاجم الإسلام ، فاجنب نفسى قراءة ما يؤذى نفسى ، وبالتالى لا استطيع الحكم عليه» .

وقال عن فتوى الشيخ الغزالى : «أرى أنه أشار إلى أن المرتد أشد كفرا من الكافر نفسه ، لأنه رجع عن الإسلام بعد دخوله فيه ، وأزيد هنا أن المرتد إذا كان داعيا إلى ردته فتلك

جريمة ثالثة خصوصا فى الوقت الذى نجد فيه أن المقدسات الاسلامية تنتهك قدسيتها ، ولا تجد من يحرص عليها» .

استتابة المرتد

أما الشيخ منصور الرفاعى عبيد ، مدير عام المساجد فى وزارة الأوقاف المصرية ، فيقول : «مفهوم الردة فى الإسلام هو أن المؤمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ونعرفه أيضا من علاقته بالمجتمع المسلم الذى يعيش فيه ، ثم نجده فجأة يبدأ بالاستهزاء والسخرية بالقيم الدينية وبالمبادىء الإسلامية ويأتى بأفعال تبين أنه غير مؤمن ، وغير معترف بالأديان ، أى أنه أرتد عن دينه ، ولم يقبل العمل والسير على نهجه ، ويستهزىء بالقيم التى رسمها دينه ، والى هذا أشارت الآية الكريمة : ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا﴾ .

وأضاف : «إن الإسلام ينظر الى هذا الساخر نظرة احتقار لأنه خرج على ما تعارف عليه القوم الذين نشأ بينهم ، وعلى العلماء أن ينبهوه فإن تاب ورجع وأعلن أنه ندم على ما فات ثم سار على نهج القيم الدينية فإنه عندئذ يكون مؤمنا صادقا ، وعلى الحاكم أيضا أن يحذره ويحبسه ويمنع عنه كل ملذات الحياة حتى يتوب فإن تاب ورجع ، يفك سجنه وأن تمسك بآرائه فإنه يقتل تنفيذا للحكم الشرعى» .

ولكن هل تترك عملية تنفيذ القتل الى عامة الناس أم أنه لابد وان توكل الى ولى الأمر حتى لا تعم الفوضى ، بخاصة أن فتوى الشيخ الغزالى أباحت قتل المرتد على يد أى كان من المسلمين من دون الرجوع الى الحاكم ، ومن دون عقاب له بعد ذلك ؟

قال الشيخ عبيد : «إن فتوى الشيخ الغزالى فى قضية الدكتور فرج فوده صحيحة ، وما أدلى به من آراء سليم ، لأن الشيخ الغزالى له علمه ومكانته ومعرفته ، وما أدلى به بناء على ما لديه من علم ومعرفة ، وما مر به من تجارب وخبرة ؛ لأنه مارس العمل الميدانى فى الدعوة الى الله قرابة ٥٠ عاما فهو فى رأيه الذى أسسه على ما لديه من علم ، صادق تماما» !

وأضاف ان الشيخ الغزالى أكد فى فتواه أنه يجب أن تترك للحاكم مسؤولية تنفيذ حكم الإعدام فى المرتد ، فإن نفذ الحكم أحد من عامة المسلمين فقد افتأت على السلطة ، والأمر هنا متروك لولى الأمر فى عقابه ، فله حق التعزير الذى يصل الى حد القتل حسبما يراه من حجم الجريمة التى وقعت ، بيد أن الشرع لم يوجب قتل من قتل المرتد ولكنه ترك الأمر لولى الأمر ، إن الإسلام أوكل الى الحاكم أن ينظم المجتمع بقوانين وقواعد يراها تحقق الانضباط داخل المجتمع ، أخذا من قول الله وهدى نبيه ، وعلى هذا فإن الإسلام أوجب قتل من قتل بغير حق ، لأن عملية تنفيذ الحكم متروكة الى ولى الأمر حتى لا تعم الفوضى والاضطرابات التى نخشى على المجتمع منها ، فتكون الخلخلة الاجتماعية .

لذا فإن الشيخ الغزالى على حق ، ولكن حديثه يحتاج الى شرح ، فنحن نؤيده فى ما ذهب

إليه ، ونوكل الأمر فى النهاية الى الحاكم ولا نفتئت عليه ، وانما نضع الأمور فى نصابها ليكون الأمن والاستقرار ٠

شـــهادة خاطئة

ويقول الكاتب والباحث الإسلامى الدكتور أحمد شوقى الفنجرى : «الواقع أن هناك من حاول الدفاع عن هذه الشهادة التى صدرت من الشيخ محمد الغزالى فهى شهادة قيلت فى محكمة وليست فتوى وهناك من قال إنها فتوى وليست شهادة ٠ وأعتبر أن ما صدر من شيخ كبير له قدره ومكانته الدينية خطأ كبير ، وكنا نتمنى أن يرد الغزالى ويصحح المفاهيم ، كما أن المحامى ورطه فى أشياء لم تكن على باله ، وكونه عالما لا يمنعه من الخطأ ، كان علماء المسلمين يفتون ويتراجعون عن فتواهم ونتمنى من الشيخ الغزالى أن يرد على التساؤلات وعلامات الاستفهام التى فهمت أنها تدعو الى نشر المذابح والقتل بين المسلمين ، وهذا لا نريده ، لذلك نطلب منه تصحيح الخطأ حتى ولو اضطر الى التراجع عن أقواله ٠ وعليه أن يرد على كل التساؤلات فى مقال واضح ٠ أما عن الشهادة ذاتها فهى تضمنت خطأين : الأول : يتعلق بتوصيف المرتد ومن هو ؟ الحديث الشريف يقول : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله وان محمدا رسول الله فإذا قالوها فقد عصموا دماءهم وأموالهم وحسابهم بعد ذلك على الله» ، معنى هذا أن من يقول لا إله الا الله وان محمدا رسول الله مهما قال من آراء بعد ذلك فى تطبيق الشريعة لا يعتبر مرتداً ، فالحكم فى ارتداد أى فرد يجب أن يصدر من لجنة قضائية من أهل الذكر والفتوى وأن يسأل الشخص فى شهادته بالإسلام ويناقش فى آرائه فاذا لم يكن فى هذه الآراء ما ينفى الشهادتين فلا يمكن اعتباره مرتدا والا اعتبرنا جميع المسلمين الذين يفكرون فى صالح الإسلام متهمين بالردة ٠

ثانيا : بالنسبة الى تطبيق العقوبة لا يجوز لأى فرد أو جماعة خارج سلطات الدولة أن تنفذ العقوبة ٠ وينبغى أن تنفذها لجنة مكونة من هؤلاء الذين حاكموا المتهم بالردة ، ويكون من خلال السلطة ٠

بقى سؤال تثيره الجماعات المتطرفة وهو : اذا كانت الدولة لم تحاكم هذا الشخص المشتبه بارتداده ولم تقم بتنفيذ أى حكم الردة فإن هذا أيضا لا يجيز لأى فرد أو جماعة أن يتطوع بالمحاكمة ولا بالتنفيذ ، ولكن عليهم من خلال القنوات الشرعية أن يطالبوا الدولة باجراء هذه المحاكمة ٠

توقيت قاتل

وعقب الكاتب الإسلامى حامد سليمان على شهادة الغزالى قائلا : «هناك قصة معروفة فى صدر الإسلام : عندما نهر الرسول ﷺ أحد قادته بعد أن قتل أحد المحاربين من صفوف الأعداء فقال قولته الشهيرة : «هلا شققت عن قلبه» ، ورأيى أن الحكم بارتداد أى إنسان ليس فى يد أى انسان عادى ، فمن يشهد بالشهادتين فهو معصوم من القتل ، ومصر ليست دولة

تطبق الشريعة الإسلامية كى نطالب القاضى بتطبيق الحدود . كيف نطالب قاضيا بتطبيق قانون غير معمول به اصلاً . لابد للصفوة المنتخبة من الأمة أن تتفق حول هذه المسألة ، وليس لفرد الحق فى تنفيذ ذلك . واعتبر أن ما قاله الشيخ الغزالى مجرد رأى شخصى وليس فتوى ، فالفتوى لابد أن تكون جماعية وليست فردية ، كما أن توقيت ما قاله الشيخ الغزالى سيىء للغاية فهناك من أباح قتل الناس فى الشوارع . والشيخ الغزالى معروف باعتداله وسماحته فكيف يصب الزيت على النار فى مثل هذا التوقيت ؟

أخالف الشيخ الغزالى

أما أحمد صبحى منصور ، الأستاذ السابق فى جامعة الأزهر فله رأى مختلف تماما فى هذه القضية واستدل على ذلك بآراء الشيخ الغزالى نفسه خصوصاً ما جاء منها فى كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» فيقول : «يمكننا أن نتعرف الى رأى الشيخ الغزالى الحقيقى من خلال ما أورده فى هذا الكتاب بالنسبة الى حد الردة ، إذ يقول : «اننى احصيت أكثر من مئتى آية فى القرآن الكريم تؤكد على حرية الاعتقاد فى الاسلام ، وأنه لا إكراه فى الدين» .

وأضاف منصور أن الشيخ الغزالى اعترف فى الكتاب المشار إليه بأن أحاديث الآحاد لا ينبغى أن يؤخذ منها أمور العقائد وأمور التشريع ، خصوصا ما يخص فى التشريع عمليات سفك الدماء والأموال لأنه معلوم أن أحاديث الآحاد تشكل أكثر من ٩٩ فى المئة من الأحاديث ، ومنها الصحيح ومنها الضعيف ، وسواء كان حد الردة معتمدا على احاديث صحيحة عند بعضهم ، أو احاديث ضعيفة عند آخر فإنها ليست لقيام تشريع على أساسه تقتل النفس ، خصوصا وأن الشيخ الغزالى فى الكتاب نفسه يهاجم الذين يأخذون بتلك الأحاديث» .

واعتبر أن الشيخ الغزالى فى هذا الكتاب كان ضد حد الردة ولكنه فى حقيقة الأمر نسى نفسه ونسى ما كتبه ، بسبب خصامه مع الدكتور فرج فوده ، والسبب معروف .

أما الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر فامتنع عن ذكر رأيه فى هذه القضية ، واكتفى بأنه : «لايصح أن نهدم علماءنا الاجلاء ، ولا يصح أن نناقض بعضنا بعضاً لأن الشيخ الغزالى عالم فاضل ووجهة نظره فى هذه القضية صحيحة ، الا أن الدفاع لم يمهله الوقت الكافى لشرح وجهة نظره فقد سأله أسئلة مختصرة ، وبالتالى كانت شهادته مختصرة ، ولم يكن يقصد بها ذلك ، والعملية تحتاج الى شرح وتفسير» .

★ ★ ★

قد يُظَّن أن ما قدمناه من استشهادات وأقوال يكفى ، ولكن الحقيقة أن القضية تستحق المزيد خاصة وأن الصحافة لم تقصر – ما بين تأييد وتنديد – فى معالجتها وقام بهذا كتاب ومفكرون لهم وزنهم ، لهذا فسنضيف إلى قدمنا مقالين : أحدهما

بقلم فضيلة المفتى الشيخ طنطاوى ونشره فى أهرام ١٩٩٣/٨/١٠ فى سلسلة مقالاته عن «الافتاء» وجاء تحت عنوان «**كلمة عن الردة والمرتدين**» تحدث فيها فضيلة الشيخ طويلاً عن حرية الاعتقاد فى الإسلام وسماحته - وانه لا يكفر الا المصر على الكفر ، واستطرد فقال :

الحقيقة السابعة : أن الردة يقصد بها فى اصطلاح الفقهاء : رجوع المسلم العاقل البالغ عن الإسلام باختياره دون اكراه ، إذ الإكراه على التلفظ بكلمة الكفر ، لا يخرج المسلم عن اسلامه مادام قلبه مطمئنا بالإيمان .

قال تعالى : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ [سورة النحل : الآية ١٠٦] .

والمسلم لا يعد مرتدا إلا إذا أنكر أمرا معلوما من الدين بالضرورة ، كإنكاره لوحدانية الله - تعالى - ولنبوة محمد - ﷺ - وأن القرآن من عند الله ، وكاستهزائه بشعائر الإسلام وأركانه وآدابه وأحكامه .

وكاستحلاله لما حرم الله - تعالى - كشرب الخمر ، وتعاطى الربا . وقتل النفس ...

والذى يملك الحكم بارتداده هم أهل العلم الذين يوثق بفقههم وأمانتهم ، بعد مناقشتهم له ، ومحاولتهم إزالة الشبهات التى انحرفت بتفكيره إلى الباطل ، وبعد استتابته لفترة قد تكون ثلاثة أيام أو أكثر مادام هناك أمل فى اقناعه وفى إزالة شبهاته ، وبعد تحذيره من سوء عاقبة ارتداده فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [سورة البقرة : ٢١٧] .

ولايصح رمى المسلم بالردة الا اذا حكم الراسخون فى العلم بذلك ، لقد نسب إلى الإمام مالك أنه قال : «من صدر عنه ما يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجها ، ويحتمل الإسلام من وجه واحد ، حمل أمره على الإسلام» .

الحقيقة الثامنة : أن المرتد اذا أصر على ردته عن الإسلام ، وجاهر بذلك ، وأساء الى الإسلام والمسلمين ، وحكم بذلك الراسخون فى علمهم وفقههم ، رفع أمره الى الهيئات القضائية المختصة بالفصل فى مثل هذه الأمور ، لكى تصدر حكمها العادل المستمد من أحكام الشريعة الإسلامية ، وهذا الحكم قد يصل الى القتل أو الى ما هو أقل من ذلك كالسجن ، اذ أمام القضاء العادل المختص تعرف الحقيقة ، ويتحدد العقاب ، المناسب ، ويوزن خطأ كل فرد بميزان العدالة الدقيق .

ومبلغ علمى أن قانون العقوبات المصرى ، قد وردت عليه تعديلات ، تتضمن عقوبات رادعة ، لكل من يهاجمون العقائد الدينية ، ويشككون فى صحة أحكام الشريعة الإسلامية ، ويسخرون منها ...

الحقيقة التاسعة : أن تحديد العقوبة على المرتد وتنفيذها من حق ولى الأمر أو نائبه كالهيئات القضائيةوالتنفيذية ، ولا يصح للأفراد أن يقوموا بهذه المهمة التى هى من اختصاص ولى الأمر أو نائبه ، وذلك لأن من شأن الأمة المنظمة أن يكون لها راع يرعاها ، ويفصل فى أمورها ، ويعينه على ذلك أهل الحل والعقد ، وأرباب المشورة والرأى ، وأصحاب القدرة على المساعدة والمعونة ، ولأن الأمة تتكون من أفراد تتعدد مصالحهم ، وتختلف مشاربهم وأفكارهم وآراؤهم تبعا لمؤثرات متنوعة ، ولو ترك لكل فرد يفعل ما يريد على حسب هواه ، لصارت الأمور فوضى فى الأمة ، ولسادها الاضطراب والفساد ..

قال القرطبى عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿يأيها الذين أمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ...﴾ جـ ٢ ص ٢٤٤ .

« لاخلاف فى أن القصاص فى القتل لا يقيمه إلا أولو الأمر ، فرض عليهم النهوض به ، واقامة الحدود ، وغير ذلك ، لأن الله - تعالى - خاطب جميع المؤمنين بالقصاص ، ثم لا يتهيأ للمؤمنين جميعا أن يجتمعوا على القصاص ، فاقاموا السلطان مقام أنفسهم فى إقامة القصاص وغيره من الحدود » .

وهكذا نرى أن هناك إجماعا من الفقهاء على أن تنفيذ الحدود ، وتحديد العقوبات على الجرائم ، من واجب ولى الأمر أو نائبه ، كالهيئات القضائية والتنفيذية ، حماية لأمن الأمة ، وصيانة لها من الاضطراب والفساد .

الحقيقة العاشرة: أن أى فرد أو جماعة تقوم بقتل شخص أو الاعتداء عليه بحجة أنه مرتد ، وبغير إذن ولى الأمر أو نائبه ، يكون هذا الفرد أو تلك الجماعة قد تجاوزت حدودها واعتدت على حق غيرها ، ويجب محاكمة ذلك الفرد أو تلك الجماعة أمام الهيئات القضائية المختصة التى تزن الأمور بميزان العدل ، وتحكم بالعقوبة التى تراها مناسبة .

وهذا - أيضا - مما أجمع عليه العلماء ، وقررته شريعة الإسلام التى تقوم على العدالة والنظام الدقيق ، وإعطاء كل ذى حق حقه دون إفراط أو تفريط .

هذا ، وإن دين الإسلام واضح فى عقائده وعباداته وتشريعاته وأحكامه وآدابه ... ومن دخله عن اقتناع ويقين فمرحبا به ، ومن خرج منه فيما بينه وبين نفسه لأن أحكامه لا تتفق مع هواه وشهواته وأطماعه ورذائله ... فالى حيث ألقت ، والله - تعالى يقول : ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ أما الذى يجاهر بالخروج من الإسلام ، ثم يسخر من أحكامه ، ويهاجم تشريعاته وآدابه ، ويقذف نبيه - ﷺ - وأتباعه بكل نقيصه ، كذبا وزورا وبحثا عن المال أو الشهرة الزائفة ، فنحن له بالمرصاد ، ويجب أن تنزل به الهيئات القضائية ما يستحق من عقاب ، لا من أجل ردته فحسب ، وانما من أجل كذبه وفجوره وقذفه للأطهار ، وتعمده الإساءة إلى الحق وأهله ومحاربته لله ولرسوله ، وصدق الله اذ يقول : ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾ والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

والمقال الثانى هو ما نشرته مجلة «اخبار الأدب» [العدد الثانى - ١٩٩٣/٨/١ - ص ١٢] بقلم المحامى النابه الدكتور محمد عصفور تحت عنوان «الشيخ الغزالى المفترى عليه» استعرض فيه أقوال الشيخ الغزالى وتعليقات خصومه وانصاره جاء فيه :

إن اغتيال أصحاب الأقلام (مهما كانت درجة الاستفزاز أو الاستجابة لآرائهم) ظاهرة من أخطر الظواهر التى تصاب بها الدول النامية أو المتخلفة ! لأنها تعنى تعطيل لغة الحوار - لغة العقل - واطلاق الانفعالات الطائشة وتفجير مشاعر الكراهية والتعصب .. على نحو ما يظهر فى تعطيل الحوار والمناقشة والجدل وإحلال العنف واطلاق الرصاص .. ومحاولات الاغتيال ، ومع الأسف الشديد أن تقترن هذه الظاهرة دائما بعقيدة ما : سواء كانت «الوطنية» أو «الدينية» ولكنها تنتهى دائما إلى «الاغتيال» واللافت للنظر أن مصر الحديثة قد شهدت صورتين من هذه الظاهرة مرة فى عهد الاحتلال البريطانى وحكم وهيمنة السفارة البريطانية بالتعاون مع السراى .. وتشهده الآن فى ظل الأحكام العرفية الممتدة منذ اثنى عشر عاما .. وهو ما يدعو كثيرين من المحللين إلى الربط بين جرائم الاغتيال السياسى وبين نظام الحكم القاهر أو الاستثنائى . فهل يعنى ذلك أن التخوين (اتهام الضحية بالعمالة للاحتلال) والتكفير (اتهام الضحية بالردة) لهما مصدر واحد ، وينتهيان إلى نتيجة واحدة ؟ إن جرائم الاغتيال السياسى الشهيرة فى مصر الحديثة (ابتداء من اغتيال بطرس غالى مرورا باغتيال أمين عثمان ثم أحمد ماهر) قد أنصبت على رموز السلطة ، أما الجرائم الحديثة باستثناء اغتيال السادات فإنها قد استهدفت بعض أصحاب الأقلام (محاولة اغتيال مكرم محمد أحمد ثم اغتيال د . فرج فودة) وقد أكد الكثيرون أن ثمت بواعث دينية وراء هذه الاغتيالات بما فيها اغتيال السادات . غير أن ما يجب التنبيه إليه أن صرف الاغتيال عن رموز السلطة وتوجيهه إلى حملة الأقلام يمثل ظاهرة غاية فى الخطورة ، ليس فقط لأنه تهديد عنيف لغير الضحايا بأن يكفوا عن التفكير أو التجديد ، وإنما كذلك لأن يظهر للرأى العام عجز خصوم الضحية عن اقناعه بسلامة ما يدعون إليه أو ما ينادون به ! وبالنسبة لاغتيال د . فرج فوده بالذات صور د . أحمد صبحى منصور (الأهالى ٧/٦) إن الخلاف بين الشيخ الغزالى وبين د . فرج فودة كان يدور حول موضوع الإسلام والحكم ، وهل هو دين ودولة . وأن د . فرج فودة فى مناظرتين قد انتصر على دعاة الدولة الدينية مطالبا بابعاد الإسلام عن أهواء السياسة وأطماع المزايدين ، مستعرضا الأدلة العلمية والتاريخية المؤيدة لوجهة نظره متحديا خصومه أن يقدموا برنامجا للحكم طالما يطالبونه بالحكم .. ويتطرف د . منصور فى هذا التصوير فيدعى أنه شق على خصوم د . فرج فودة أن ينهزموا أمامه مرتين ، وأنهم لن يستطيعوا الوقوف أمامه ، فأصدروا عليه حكم الإعدام ، وأن الذين دبروا المؤامرة عندما عجزوا عن مواجهة د . فرج فودة بالكلمة أطلقوا عليه الرشاش من خلف ! بل إن د . منصور يدعى أن للتطرف جناحين أحدهما مدنى والآخر عسكرى ! وأن الجناح المدنى يدعى

الاستنارة والاعتدال بينما ينثر فى كلامه أحاديث التطرف والتعصب ، قد نجح فى التلاعب بالنصوص واستجداء المشاعر بعد التلاعب بعقول الشباب والعدالة ، حتى إذا تقدم فارس شجاع مثل فرج فودة ليظهرهم على حقيقتهم انقلب حقدهم عليه فتاوى تدعو لقتله ·· ثم قام الجناح العسكرى للتطرف بتنفيذ الجريمة ··!! وعندما أدلى الشيخ الغزالى بشهادته بعد استدعاء الدفاع له فى المحكمة قامت الدنيا ولم تقعد حسب تعبير فهمى هويدى ·

الضحية

والواقع أن شهادة الشيخ محمد الغزالى فى محاكمة المتهمين باغتيال د · فرج فودة كانت مثار تعليقات غاضبة من جانب المدافعين عن أفكار وتصورات د · فرج فودة ·· وإذا كان الشيخ مصطفى عاصى (الأهالى ٧/٦) اكتفى بالتعليق بعنوان (المستنيرون هل يفتحون باب التكفير) تطرق د · أحمد صبحى منصور فى اتهاماته فزعم أنه (بعد أن رحل فرج فودة ، خلا الجو للشيخ الغزالى كى يتهمه بالكفر والردة وهو واثق أن خصمه قد ذهب إلى الدار الآخرة ، ولن يستطيع أن يفحمه كما كان يفعل ·· فتطاول على عقيدة فرج فوده بعد موته وبعد رحيله ·· ولو كان يعتقد أن فرج فوده مرتد أو كافر فما الذى منعه أن يعلن ذلك فى المناظرة أمام فرج فودة والناس أجمعين ، إنه عجز عن ذلك فى حضور فرج فودة ، لأن فرج كان حريصا على تأكيد هويته الإسلامية معليا من شأن الإسلام ·· معتبرا نفسه مدافعا عن صحيح الإسلام ، وقال إنه مع الدستور القائم على مبادىء الشريعة ، وأنه مع تطبيق الشريعة بشرط أن يقوم الفقهاء باجتهاد مستنير فيها ·· غير أن د · منصور يدعى أن مهارة د · فرج فى المناظرة وثقته فى نفسه ، وتضاؤل خصومه أمامه زادهم عليه حقدا ، واعتبروه متطاولا على الشيخ الغزالى حين انتصر عليه ، وأن الشيخ الغزالى (فى غمرة حقده قد كشف عن هويته الحقيقة وانتمائه للجناح المدنى المتطرف) ! وأن هذا ما تكشف فى محاكمة الإرهابيين ·· بالإشارة إلى حد الردة المزعوم ·

ولقد حرصت أن أسجل (بقدر ما تسمح به المساحة) وجهة النظر المنددة ·· بإثارة موضوع الردة أمام القضاء الجنائى (سواء فى شهادة الشيخ محمد الغزالى أو فى شهادة د · محمود مزروعة) لكى أنبه إلى أن المحاكمة فى جريمة اغتيال د · فرج فودة تفجر مشكلات كثيرة تثار أمام القضاء الجنائى الذى تنحصر مهمته فى تطبيق القانون بالنسبة لجريمة اغتيال عادية ليس من شأن السمات المميزة لشخصية الضحية أو ما اتهم به من ردة ليس من شأن ذلك كله أن ينفى حقيقة هامة وهى أن كاتبا قد اغتيل بدوافع دينية محضة ·· وهو أمر له دلالاته بل ونتائجه الخطيرة حيث يعبر عن ظاهرة حديثة على الأقل فى مصر ·

الفارق كبير بين الرأى
والتحقير أو الاستهزاء

أرجو أن ألفت النظر إلى أن ظاهرة «التكفير» ليست ظاهرة جديدة فى مصر الحديثة ، وإنما الجديد فيها العنف المصاحب لها والذى يبلغ أحيانا حد الاغتيال . فلقد تعرض د . طه حسين ، والشيخ على عبد الرازق ، وقاسم أمين ، وأحمد لطفى السيد ، ود . زكى نجيب محمود .. الخ الخ تعرض هؤلاء جميعا وغيرهم لهجوم شديد من جانب الأوساط الدينية . وقد بلغ ذروته بالنسبة لطه حسين وكتابه فى الشعر الجاهلى ، فى تبليغ النيابة العامة واجراء التحقيق وفصل الدكتور طه من الجامعة .. غير أنه لم يحدث أى اعتداء مادى عليه أو أى ممن اعتبروا دعاة العلمانية .. فما الذى جرى حتى تتم محاولة اغتيال صحفى وترتكب جريمة اغتيال كاتب كيف يمكن تفسير هذه الظاهرة الخطيرة ؟!

وبماذا تفسر هذا الجو المعادى لأى تصوير قصصى يعتبر مناهضا للعقيدة أو أى بحث أكاديمى يُعتبر انتقادا متطاولا على الدين ؟!

فلقد قامت ضجة صحفية بعد الحكم بالحبس على علاء حامد عن قصص نشرها اعتبرت متعرضة للدين .. وقامت ضجة صحفية أخرى بالنسبة للدكتور أبو زيد عن بعض دراساته أو أبحاثه التى تقدم بها للترقية إلى وظيفة أستاذ حيث حجبت عنه الترقية استنادا إلى تقرير كتبه رئيس اللجنة العلمية اتهم فيها الدكتور أبو زيد بالكفر .. ولئن كان هذا القرار موضوع طعن بالالغاء أمام محكمة القضاء الادارى (مجلس الدولة) ، فإن المثير للعجب حقا أن يعلن أن رئيس جامعة القاهرة بعث يستفتى الأزهر فيما قدمه ونشره الدكتور أبو زيد .. وما هو أشد اثارة الدعوى التى رفعها بعض الأشخاص (وعلى رأسهم مستشار سابق بمجلس الدولة) أمام دائرة من دوائر محكمة الأحوال الشخصية بطلب التفريق بين الدكتور أبو زيد وزوجته (وهى أيضا أستاذة مساعدة) استنادا إلى كفر الزوج أو ردته ورغم عنف هذه الاجراءات إلا أنها أخف بكثير من اغتيال الدكتور فرج فودة .. وهو وإن كان أمرا لا سابقة له فى تاريخ مصر .. إلا أنه يبدو أنه قد تأثر بالفتوى الخمينية باعتبار اغتيال سلمان رشدى (بسبب روايته آيات شيطانية) واجبا دينيا يكافأ بمكافأة مالية ضخمة !

المشكلات التى تفجرها قضية اغتيال
د . فرج فودة

ولعل قضية اغتيال د . فرج فودة تحمل نموذجا مثاليا لجريمة الارهاب الفكرى التى أصبحت للأسف الظاهرة المميزة للحضارة المعاصرة : فالارهاب الفكرى تمارسه الدولة الحديثة من خلال الهيمنة الاعلامية الأيديولوجية وفى المقابل تمارس التيارات الأصولية المتطرفة فى عنفها وعدوانها وارهابها الفكرى هى الأخرى باغتيال من تعتبرهم أعداء العقيدة أو الدين وتكون المشكلات الواجب مواجهتها من الكثرة والتعقيد بحيث يحار المعلق بأيها يبدأ ؟!

● هل كان د . فرج فودة ضحية ممارسته لحريتي الفكر والرأي .

● وهل تم الاغتيال نتيجة تحريض بعض علماء الدين الذين أفتوا بردته أو كفره .

● وهل تمثل محاكمة مغتالي د . فرج فودة وقد طرح موضوع الردة محاكمة لعقيدة المجني عليه ؟!

● وهل يمكن أن تجد جريمة الاغتيال تبريرا لها الأفتاء بأن قتل المرتد يمكن أن يقوم به آحاد الناس ؟

إن هذه المشكلات كلها لابد وأن تواجه بصراحة وأمانة ، وقد تكون القضية المطروحة على القضاء ، الفرصة الهامة لمعالجة أخطر أزمة أو مشكلة تواجه التيارات الإسلامية والتي يعد أقوى اتهام لها هو الإتهام بالارهاب الدموي لأي فكر مستنيرا !

حرية الفكر أو الرأي لا تتسع لحريتي الإهانـة والتطـاول والاستفـزاز

أول ما يجب تأكيده أن أية حرية ليست حرية مطلقة وانما هي دائما مقيدة بألا يشكل التعبير عنها عدوانا على الآخرين ، فحرية الرأي لا تعني القذف أو التطاول - وحرية الفكر أو حرية الاعتقاد تعتبر من الحريات اللصيقة بشخص الانسان والتي لا يتصور تقييدها ما دامت محصورة في عقل صاحبها ، أما اذا خرجت الى العالم الخارجي بالتعبير عنها فإنها عندئذ تخضع للقيد الجوهري وهو الا تؤذي الآخرين وحتى بالنسبة للمعتقدات الدينية فإن دستور ٢٣ قد أخضع ممارسة شعائرها وطقوسها لقيد جوهري هو عدم اخلالها بالنظام العام أو الآداب .

ولذلك فإن ، ما يتصوره البعض - حرية فكر أو رأي مطلقة تصور خاطيء فما يسمى بحق أو حرية الابداع يستحيل أن يؤدي الى التهجم أو التطاول على معتقدات الجماعة أو قيمها الدينية .. وهذا قيد أساسي جوهري ، لابد أن يوضع في الأعتبار عند تناول شهادة علماء الدين بالنسبة لما نشره د . فرج فودة ، واعتبره البعض افصاحا عن الردة .. أو تهجما على الإسلام والعلماء .

واعتقادي الخاص أن ما يدور اليوم من مجادلات حادة حول حريات العقيدة والفكر والرأي ، سوف تظل مجادلات عبثية ولا طائل من ورائها ، مادمنا لم نلتزم بالضوابط الشرعية والدستورية والمنطقية في شأن ما يعتبر وما لا يعتبر كفرا وردة ، وما يعتبر رأيا جديرا بالحماية أو اهانة واجبة الردع .. أو تطاولا أو استفزازا لمشاعر أية طائفة من الناس . فهذا فهمي هويدي ينقل ما اكده الشيخ الغزالي باحترام حرية الرأي والحوار .. أما ما يجاوز ذلك من استفزاز واهانة ، فإنه أمر يستوجب الزجر . إن الشيخ مصطفى عاصي ينسب الى الشيخ الغزالي تكفيره للمخالف لرأيه ويتساءل ما هو نموذج الحكم الديني الذي يراد تطبيقه والذي يعتبر معارضه كافرا : هل ما كان مطبقا في عصر الراشدين والذي لم يزد عمره على أربعين عاما فقط ، أم ما تلا ذلك من عصور تالية تنسب نفسها زورا الى الإسلام ؟

والواقع أن الشيخ الغزالى لم يتطرق إلى هذا الموضوع تحديدا وإنما كانت شهادته مركزة فى العدوان الاستفزازى على مشاعر المسلمين وعقيدتهم ، وهو ما عبر عنه فهمى هويدى الأهرام ٧/٦ بقوله : « إن الشيخ الغزالى دعا إلى ضرورة التفرقة بين الحوار فى الشأن الإسلامى وبين الشتم والسب والسخرية • فالأول مطلوب إلى أبعد مدى ، حيث الاختلاف بين الناس فى الرأى - كما فى الجنس والملة - هو سنة من سنن الله ، وخطاب الإسلام لم يزجر الذين خالفوا الإسلام وانتقدوا أصوله وتعاليمه ، طالما كان فى الأمر حوار ، فمقام الحوار مقدر ومحترم ، حتى ولو تعرض بالنقد للشريعة ذاتها •• ولكن الأمر يختلف حين يتدنى الخطاب وُيسَبُ الإسلام وُيشَهَّر به من جانب بعض المسلمين بصورة فجة تعبر عن كراهة للدين وازدراءً به وخيانة له فى هذه الحالة ، فإذا كانت خيانة الوطن تعد جريمة عظمى تستجلب لصاحبها أقسى العقوبات فإن خيانة الدين ليست دونها خطرا ، ولا أقل من أن تعامل بالمثل » • فما هو هذا الأمر الذى جعل شهادة الشيخ الغزالى موضوع مثار هجوم شديد إلى ما نسب زورا إلى الشيخ الغزالى وقبل أن نتناول هذه الشهادة بالتعليق نرى من الضرورى أن نشير بوجه خاص الى أن الشيخ الغزالى ليس فقط من المفكرين الإسلاميين المستنيرين ، ولكنه كذلك من كبار أهل العلم ورموزه الشامخة ؛ ولذلك فإن خصومه (فى كافة المعسكرات) انتهزوا هذه الفرصة حسبما وصف ذلك فهمى هويدى الأهرام ٦ يوليو - واستخدموا شحنات مكثفة من العبارات والأوصاف المسمومة والجارحة ، وحرفوا شهادته لإثبات أن الكل إرهابيون ومتطرفون •

● وندد آخرون بالشهادة باعتبارها تصريحا باغتيال المخالفين للرأى فى شأن العنف أو الطبيعة السياسية للإسلام وأنه دين ودولة •

وقال آخرون إن فكرة إجازة نيابة الأفراد عن الدولة فى قتل المرتد ، أمر يعرض أى مجتمع للدمار ، والتحكم من جانب من يرون فى الرأى المعارض ارتدادا أو كفرا وقد استنكرت منظمة حقوق الإنسان ما تصورته رأيا للشيخ الغزالى لا يعاقب مغتصب سلطة العقاب من الأفراد •

والحقيقة أن معظم الأسئلة التى وجهت إلى الشيخ الغزالى أسئلة إيحائية صيغت بطريقة ذكية تؤدى إلى إجابات تساند الدفاع فى موقفه حتى لو كان هذا الموقف مناهضا لجوهر الشهادة وحقيقتها •

وليس صحيحا ما نسب إلى الشيخ الغزالى من إقراره فكرة نيابة الأفراد عن السلطة فى إنفاذ الأحكام دون عقوبة مقررة لهم فى الاسلام ، لأن فى هذا المنطق مدعاة للفوضى وتخريب المجتمع • ومردود بموقف أبى بكر فى حربه ضد المرتدين الممتنعين عن دفع الزكاة •

والحقيقة كما ذكرها فهمى هويدى أن الشيخ الغزالى اعتبر الفرد الذى يفرض نفسه نائبا عن السلطة فى إقامة الحد الذى عطلته هذه السلطة - اعتبر الشيخ هذا الفرد طبقا للمصطلح الأصولى « مفتئتا على السلطة، والافتئات هو تجاوز الحدود والتعدى واغتصاب السلطة جريمة لا يتصور أن تمر بغير عقاب ، وإلا عمت الفوضى المجتمع ووقعت مفاسد وشرور عدة • وعندما سئل عن عقوبة الافتئات على السلطة قال إنه لايذكر أن الإسلام قرر عقوبة على ذلك • وهذا صحيح فليس فى الإسلام والقرآن والسنة عقوبة « حدية » أو معينة مثل تلك العقوبات المقررة على السرقة والزنا وشرب الخمر والحرابة • والإجماع منعقد مع ذلك على أن لهذه الجريمة عقوبة تقديرية يحددها النظام القانونى القائم •

الشيخ الغزالى المفترى عليه :

واعتقادى الخاص أن عالما جليلا لم يظلم كما ظلم الشيخ محمد الغزالى بسبب شهادته التى أدلى بها فى قضية اغتيال د . فرج فودة حيث جرى تلوين الكلام والخروج به من جوهره ؛ فهو قد ظلم إذ استدعى للشهادة فى قضية اغتيال صورتها الصحف الرسمية على أنها اغتيال بسبب رأى معارض عبر به كاتب حر عن فهم متحضر للدولة الحديثة أى الدولة غير الدينية ..وأيا كان الرأى فى صواب أو عدم صواب خطة الدفاع فى محاكمة عقيدة أو فكر رجل ميت ربما قد يوحى بأن دوافع الجريمة دوافع دينية متعصبة ، فإن اتساع صدر القضاء لسماع شهادات علماء الإسلام فى شأن «الردة» وطبيعتها ، وما إذا كان موضوع الصلة بين الدين والدولة يدخل فى نطاق العقيدة فيعتبر المنكر له كافرا أو مرتدا .. كل ذلك يزيد مشكلة الإسلام السياسى تعقيدا ، ويضع العلماء الشهود فى حرج ولاسيما بالنسبة لاغتيال إنسان – أيا كان رأى القاتل فيه – ﴿من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا﴾ والقرآن الكريم نتيجة لتأكيد هذا المبدأ يفرض القصاص – قصاص الدولة – مطلبا إلهيا لا استثناء منه . وليست فكرة الطبيعة العقائدية للإسلام السياسى بالمعارضة مع الطبيعة المدنية للحكم هى مصدر الخلاف الوحيد فى القضية المطروحة وانما أيضا التكفير الذى ينسب الى من يجهر بالطبيعة المدنية للحكم . من الذى يملك توجيه هذا الإتهام ؟! هل يمكن أن ينوب أحد الأفراد أو جماعة من الجماعات محل الدولة فى هذا الشأن ؟! وحتى اذا جاز ذلك ، فإن الدولة نفسها اذا هى أخذت هذا الأمر بين يديها ، فلابد وأن يكون ذلك من خلال القضاء باجراءاته وضماناته ، بينما فى حالة قيام آحاد الناس باغتصاب سلطة الدولة تتوحد كافة السلطات فيهم ، فهم موجهو الاتهام ، وهم القضاة الذين يدينون ، وهم فى النهاية ينفذون الحكم الذى يصدر فى غيبة التهمة ! وهى نتائج مرعبة حذر منها الشيخ الغزالى فى شهادته عندما سئل عمن يملك اقامة الحد على المرتد : فقال أن تلك وظيفة السلطة وليست لآحاد الناس والا تحولت الأمور الى فوضى .

وموضوع الردة موضوع دقيق وهو فضلا عن ذلك محل خلاف سواء بالنسبة لاثباته أو بالنسبة للجهة المخولة شرعا توقيعه .

وبينما يذهب البعض الى أن الردة ليست من بين الجرائم التى تدخل فى نطاق الحدود بل لا تدخل فى باب التعزير !! استنادا الى أنه لم يرد نص فى القرآن على وضع عقاب الردة ضمن الحدود ، وأن المرتد يترك وشأنه إلى قيام الساعة ، وان تركه وشأنه قد يدفع به مع الزمن إلى التوبة ، وعند ذلك يغفر الله له . ويعتبر الدكتور محمد أحمد خلف الله أن القرآن وهو المصدر الأول للتشريع تكون لأحكامه الأولوية على ماعداها من أحاديث أو اجماع أو اجتهاد . (الأهالى ٧/٧) .

بينما يذهب آخرون الى أن جمهور العلماء يعتبرون قتل المرتد فرضا على الأمة كافة وان تسعى الى تنفيذه ، واذا لم يقتل أثمت الأمة . (شهادة الدكتور مزروعة – الشعب ٧/٦) .

ظلموا الشيخ الغزالى :

وبالنسبة للجهة المخولة شرعا توقيع العقاب على المرتد - المجمع عليه حتى ممن يوجبون قتل المرتد - أن ولى الأمر هو وحده المنوط بتوقيع العقوبة وتنفيذها فالدكتور محمود مزروعة يقرر فى شهادته : (أن المنوط به ايقاع حد الردة - كشأن الحدود كلها - هو ولى الأمر عن طريق النظم القضائية الموجودة ، ويلزم الأمة أن تنصح له وتوجهه وأن تطلب وتلح أن ينفذ حكم الله كما أمر وإلا أثمت الأمة كلها ، ويتحمل ولى الأمر وزر ما يحدث من فوضى وفساد وضلال فى المجتمع كله إذا لم يقم الحدود) .

غير أن الدفاع ضغط على الشاهد بتذكيره بأن إجماع الأئمة الأربعة على جواز قيام آحاد الأمة بإيقاع الحد على الحاكم ، ولذلك طلب الدفاع من المحكمة توجيه هذا السؤال إلى الشاهد على أساس أنه اذا كان من الجائز قيام آحاد الأمة بإيقاع الحد على الحاكم الجائر فيكون الأولى جواز ذلك بالنسبة لمن هو أدنى من الحاكم . وقد كانت اجابة الشاهد غير قاطعة فهو يقول : (اذا ترك الحاكم تطبيق الحكم على المرتد فسنظل ننصح الحاكم أن ينفذ حد الله ونترك اقامة الحد له ! أما اذا كان الذى تركه الحاكم ولم يقم عليه الحد مثار فتنة ومنشأ ضلال للآخرين وجب على الأمة أن تنتخب منها أو تنتخب بعض أفرادها لأراحة الناس من هذا الشر واقامة الحد عليه لأن الابقاء عليه ابقاء على نار مشتعلة فى المجتمع ، لأنه اذا كان داعية ضلال ، واذاعة فساد ، ونذر حياته للاساءة الى الإسلام والدعوة الى الضلال ، فإنه بذلك يمهد السبيل لغيره للارتداد عن دين الله) .

غير ان الشيخ الغزالى قد ظُلم لأنه قد نسب إليه البعض أنه استباح دم المعارضين بالمجان !! وفضلا عن عدم صحة هذا الاتهام ، فإن فهمى هويدى قد سجل اندهاشه ازاء حفاوة بعض الصحف المعبرة عن الحالة الإسلامية بما التبس من كلام الشيخ الغزالى ، فقد أبرزت الشعب عدد ٦/٢٦ فى عناوين عرضا لشهادته أن (تطبيق الأفراد لحد الردة .. لا عقاب عليه !) بينما نشرت (النور) عدد ٣٠/ ٦ عناوين بارزة للموضوع ادعى أحدها أنه ، لا عقاب على قاتل المرتد ، ! والشيخ برىء من هذه الأقوال !

فهل صحيح أن شهادة الشيخ الغزالى واجاباته سوف يؤولها الدفاع ويستنتج من مجملها أن المجنى عليه (كان خارجا على الملة ودمه مباح) ؟ وبالتالى فالجناة لم يرتكبوا إثما وانما نفذوا شرعا وهنا مكمن الخطر اذ يظل باب الشر مفتوحا أمام الاغتيالات السياسية لكل المخالفين فى الرأى (الشيخ مصطفى عاصى الأهالى ١٩٩٣/٧/٧) .

ويتناقض هذا القول مع تحذير الشيخ الغزالى حين سئل عمن يملك اقامة الحد على المرتد ، فقال إن تلك وظيفة السلطة ، وليس لآحاد الناس ، والا تحولت الأمور الى فوضى .

يضاف الى ذلك أن من هاجموا الشيخ ومن انحرفوا بأقواله خلطوا بين صفتين صفة الشاهد (الذى احيطت الأسئلة به لمكانته) وبين صفة الفقيه أو المفتى الذى يستشار بدون احاطة بالكمائن ! وفى تعبير فهمى هويدى : (ان الشيخ الغزالى كان فى مقام الشهادة ولم يكن فى مقام الفتوى . وفى مقام الشهادة لا يكون عليه أكثر من أن يعرض ما هو ثابت

من نصوص شرعية فى الموضوع أو ما هو مقرر من أحكام عامة فى الفقه الإسلامى ، أما فى مقام الفتوى فإنه يقوم بتنزيل تلك النصوص والأحكام على الواقع ومن ثم يقدر مختلف ظروف اللحظة التاريخية من اجتماعية وسياسية وثقافية . ثم يوازن بين المصالح والمفاسد . ويصدر بعد ذلك فتواه فى الموضوع . ومن قبيل ذلك فتوى ابن تيمية بالتغاضى عن تناول الخمر من التتار الذين دخلوا حديثا الإسلام استنادا الى أن الله حرم الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهؤلاء تصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبى الذرية وأخذ الأموال) وهكذا رأى ابن تيمية أن مفسدة شرب الخمر أقل ضررا من مفسدة ترويع المسلمين ونهب أموالهم ، غير أنه يضاف الى ذلك أن الدفاع صمم اسئلته بحيث تخدم اغراضا محددة ابتغاها لكى يدافع عن موكليه ، وبعض تلك الاسئلة لم تكن تترك مجالا للمجيب لكى يذهب الى المسار الذى رسمه المحامى . ومن هذا القبيل السؤال عن حكم من يجاهر برفض تطبيق الشريعة كفرا أو استهزاء واستبعد أن يكون الرفض ناشئا عن قلة العلم أو عن الالتباس فى الفهم أو التخوف من نشوء احتمالات سلبية معينة ومن قبيلها الكلام عن السلطة الدينية أو التعددية أو وضع الأقليات أو غير ذلك . فالأسئلة التى طرحها الدفاع استجوابات لانتزاع اجابات بذاتها لا خيار فيها ! تطرح سؤالا عن حكم الشرع فيمن يجهر برفض تطبيق الشريعة مجاهرا بالكفر أو بالاستهزاء بها ، وسؤال آخر عمن يدافع عن ابدال الشرع بقانون وضعى لا يصدر عن أهل العدل والرشد وليس عن الطواغيت من البشر ، والتى تحل الحرام وتحرم الحلال !! وكانت الاجابة بالادانة حتما !

ويبدو أن مطالعة مادار فى جلسة مناقشة د . محمود مزروعة أنه سئل صراحة هل الإسلام دين ودولة ؟! فأجاب أن جوهر الإسلام أنه لا يوجد فيه ما يسمى دين فقط وما يسمى دولة ، لأنه لا فصل فى الإسلام بين الدين والدولة . وان كلمة دين تعنى الحكم وأن من يدعو الى تعطيل الحكم بالشريعة خارج عن الملة لأنه عطل دين الله . والذى يفضل عليه تشريعا آخر هو ادخل فى باب الكفر ، لأنه فضل الخلق على الخالق .. (الشعب ٧/٦) .

بينما سئل الشيخ الغزالى عن حكم الإسلام فيمن يجهر برفض تطبيق الشريعة واستبدالها بشرائع الطواغيت من البشر ، التى تدعو الى تحليل الحرام وتحريم الحلال . فالسؤال يركز – كما قال فهمى هويدى – على مواصفات معينة وليس عن عموم الشرائع الوضعية التى قد لا تحل الحرام أو تحرم الحلال وقد تكون صادرة عن أهل العدل والرشد وليس عن الطواغيت . وكان رد الشيخ أن أمر هذا الشخص ليس مجرد رفض تطبيق الشريعة ولكنه داع الى هدمها والسخرية منها انكارا وكفرا فهو اذن مرتد وليس مجرد منافق يقتصر على التحفظ على تطبيق الشريعة أو بعض أحكامها خوفا أو جهلا بضماناتها ومقاصدها وانما يصبح صاحب شبهة تزول بالحوار والمناقشة . فاذا لم تزل فإنه فى أسوأ الأحوال يعد منافقا لا يعاقب على موقفه وقد كان فى عهد رسول الله منافقون اشارت اليهم آيات قرآنية عديدة ، لكن لم يعرف أن احدا منهم تعرض للعقاب . (الأحد ٧/٦) وبينما كانت اجابات الشيخ الغزالى بعيدة كل البعد عن تكفير من يدعو الى الفصل بين الدين والدولة فى الإسلام لاعتبارات هامة . فإن د . مزروعة كان قاطعا فى اتهام العلمانيين بالكفر .

الفصل الثالث

دلالات الشهادة وتوابعها

من هذا العرض الشامل للشهادة وتوابعها – تتضح الدلالات التالية :

(١) أن المؤسسة الدينية المشيخية .. كانت متفقة الرأى تقريبا لأنها رجعت إلى المراجع الفقهية السلفية القديمة التى وضعت منذ ألف عام – فى مناخ وبتأثير عوامل وملابسات مختلفة تماما ، ولم يستطع أى واحد منها أن يتحرر من أحكامها ، أو يكيف القضية التكييف الأصولى والموضوعى ، ولهذا فلم يختلف أحد منهم فى تكفير المرتد ، أو أن الحد هو الموت .. وأختلف بعضهم فى الاستتابة (وهذا الخلاف موجود فى المراجع الفقهية) وظن بعضهم أنهم توصلوا إلى الحل وخلصوا من المأزق بالتأكيد على أن توقيع الحد هو من اختصاص السلطة – وكأن القضية قد سويت ، وماعلموا أن البلاء كل البلاء هو فى السلطة ! وأن ايكال هذا الأمر إليها هو كاعطاء القط مفتاح الكرار كما يقولون .

وبالطبع ، فيبدو أن التركيز على هذه النقطة كان للتخلص من الحرج ورمى الكرة فى يد الحكم .. ولكن أين يذهبون من الله إذا كانوا قد نجوا من الحاكم ، وهل يقبلون أن يكونوا كرجال الكنيسة الذين كانوا يسلمون « الهراطقة » للسلطة المدنية لتوقيع العقاب .. دون أن يسفك دمه ! لأن الكنيسة تمقت الدماء ! وكان معنى هذا أن يحرق حياً !!

(٢) كشفت الشهادة عن مدى ما تتمتع به « المؤسسة الدينية » من نفوذ وقوة ، وهذا أمر طبيعى فى هذا البلد المؤمن .. ولكن النقطة التى يمكن أن تشذ عن النطاق هى أن القضية ليست من مسلمات الاسلام ، بل هى تعارض صريح القرآن والآيات المتكررة فيه . مع هذا فقد سلم معظم الكتاب « المدنيين » بما جاء فى الشهادة .. ونهج بعض الكتاب منهج الفقهاء ، باختلاف بسيط هو أن الكتاب حولوا الأمر إلى الفقهاء باعتبارهم أهل الاختصاص .. وليس هذا هو شأن الكتاب المفكرين وإنما هو شأن الكتبة و « المستوظفين » الذين يكون أقرب تصرف لهم للتخلص هو التأشير « يحول إلى ... » .

وقد تكون هناك عوامل أخرى جعلت هؤلاء الكتاب فى النهاية يؤثرون العافية !

وفى ضوء ذلك يمكن أن نفهم ما جاء فى كلمة الأستاذ أحمد بهجت فى أهرام يوم ١٩٩٣/٧/٢٨ (ص ٢) :

إن الحرية الدينية مكفولة فى الإسلام ، وحق الانسان فى اختيار عقيدته لا نقاش فيه ، ودخول الإنسان فى الإسلام لا يكلفه أكثر من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وخروجه من الإسلام لا يكلفه إلا عدم القناعة بهذه الشهادة .. أو انكار معلوم من الدين بالضرورة .. ويخلو القرآن من نص يعاقب المرتد عن الإسلام عقابا دنيويا .. يقول الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ .. وهذا نص لا يتضمن عقوبة دنيوية ، ورغم ذلك فقد جعل الفقه عقوبة على المرتد .. وينبغى هنا أن نفرق بين أمرين : أن يكون المرتد قد خرج على الإسلام كموقف عقلى بحت ، بمعنى أنه لم يعد يؤمن بالله ولا برسوله ، ولكنه ترك المسلمين فى حالهم فلم يرفع يده أو لسانه لإيذائهم أو حربهم ، وهنا لا عقاب عليه لقوله تعالى ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ .. أما إذا خرج المرتد على الاسلام وبدأ يحارب المسلمين ويسخر من دينهم ويحاول هدم مجتمعهم ، فحكمه هنا هو حكم من يتجسس لمصلحة العدو .. إنه يحاكم بتهمة الخيانة العظمى ، ولامجال هنا للحديث عن الحرية لأن الانسان حر فى موقفه العقلى وقناعاته الفكرية ، ولكنه ليس حراً فى هدم النظام العام أو مقدسات مجتمعه .

واستسلم للفقهاء قطب الناصريين ضياء الدين داود عندما سأله مندوب مجلة الأهالى (٤ أغسطس ١٩٩٣ ص ٧) عن رأيه فقال :

- إذا كان فى رجل مرتد يستتاب بكل الطرق الشرعية ، وإذا أصر على ارتداده ، ففى هذه الحالة فنحن أمامنا شخص فى نظر الشرع أنه مرتد ، وحكم الله لا يختلف عليه أحد ...

الإسلام فيه حرية فكر لغير المسلمين ، ابتداء من « لا إكراه فى الدين » ولكن المرء متى دخل الإسلام فهو يحاسبه ويخضعه لحكمه ، وهناك قضية أخرى وهى اختلاف الدين مانع للميراث ، فالمحاكم انتهت على أن من ثبت ارتداده فهو فى حكم الميت . والقضية الرئيسية التى لم أتثبت فيها هى ما قاله الشيخ الغزالى أنه إذا جاء فى نفسك وأنت تجلس معى الآن أننى أرتديت بحكم ما أعلنه من أفكار وآراء .. هل تحكم على أننى مرتد وكفرت وتنفذ على الحكم لمجرد أن الدولة لم تنفذه ؟ أنا لا أعتقد أن الشيخ الغزالى يقول هذا وإلا أصبحت المسألة فوضى ، ولابد أن هناك سلطة ما من شأنها أن تراجع ما قاله هذا الشخص بعد أن يستتاب وإذا أصر فى المرة الثالثة أصبح مرتدا .

أما من ينفذ الحكم ، فحتى فى التعزير كان ذلك متروكا فى بعض المراحل للقاضى ، ورُؤِىَ بعد اجتهاد الفقهاء أن تراجع سلطة التعزير إلى الحاكم حتى لايحدث تباين شديد فى الأحكام ...

اما القطب الناصرى الأخر ، فريد عبدالكريم ، الذى وجهت إليه المجلة فى التحقيق نفسه السؤال عن فتوى الشيخ الغزالى فإنه قال :

« إذا عدنا للفتوى التى تقصدها ، فأنا لا أستطيع أبدا أن أدعى فهم أو معرفة نصف أو عشر ما يعرفه الغزالى فى الإسلام ، فهو قد عرض وجهة نظر الفقهاء فى دفع المنكر باليد وحدد الرجل أن دفع المنكر باليد أساسا من مسئولية الحاكم .

وهذا صحيح ، وهكذا فإننى لا أستطيع إلا أن أسلم بأن ما قاله هو الصحيح ، ومن الذى يدعى على الغزالى عدم معرفته بقواعد الإسلام لا أحد يستطيع أن يقول هذا »

نحن لانستغرب أن يقف أقطاب الناصرية هذا الموقف ، لأنهم ورثة الإرهاب والتعذيب ، وإن كانت المجلة التى حققت معهم مدعية حرية الفكر هى وريثة ماهو أسوأ من الناصرية نفسها ، فالشيوعية لا تستتيب « المرتد » ولكنها تعبث بفكره .

وتستخدم وسائل التكييف السيكولوجى وغسيل المخ والقضاء على الارادة حتى يعترف على نفسه بأنه مجرم !

ولما كان أدعياء التنوير هم عادة ما بين ناصرى أو شيوعى أو « عروبى » ، فانهم – رغم ثوريتهم العنيفة على الشهادة – لم يعالجوا القضية معالجة موضوعية ، وسوابقهم التاريخية نحو المخالفين اسوأ مما ذهب اليه الشيوخ على مأأشرنا ، وانساقوا فى دعاويهم عن « أسلمة » المجتمع والارهاب والخومينية إلى آخر هذا الهراء ، مما أفقد معارضتهم مصداقيتها الموضوعية .

(٣) وكشفت «الشهادة وتوابعها» عن قدر من الخلط فى المفاهيم ..
فهناك المرتد الذى يرتد بناء على فكره الخاص أو دراسة أو محوطاته ... إلخ فيرتد ويجلس فى بيته ولا يجاهر بردته .
وهناك المرتد الذى يكتب كتابا أو ينشر مقالا عن آرائه وأسباب ردته .. مما يفهم أنه معارضة للإسلام أو دعوة – ولو ضمنية – للفكر الذى آمن به .

وهناك المرتد الذى ينضم إلى اعداء الإسلام ويعمل لتقويض معالم الإسلام .

أما الفقهاء فلم يفرقوا ، فالمرتد هو المرتد ، سواء جلس فى بيته أو دعا بدعوته إذ يترتب على الردة أحكام فى خاصة أهله وبيته . فاذا كان مرتدا حقا ، ففقه التقليد يفرق بينه وبين زوجته ، ويمنع من أن يدفن فى مقابر المسلمين ، ويصادر ماله ... ألخ .

وهناك بعض الكتاب وجد أن من ارتد دون مجاهرة فلا سبيل عليه ولعله استأنس بالحديث « الناس كلهم معافون الا المجاهرين » .

وعلى كل حال ، فأن هذا الموقف من الكتاب المشهورين الذين يلحظون اعتبارات عديده ويؤثرون العافية لم يكن شأن بعض الذين أرسلوا بتعليقاتهم إلى الاستاذ صلاح منتصر فإنهم – مع أنهم لم يكونوا من الفقهاء المتخصصين ، ولا الكتاب المشهورين . وربما لهذين السببين – بالذات – رفضوا موقف الاستسلام وأثاروا وجهات نظر غفل عنها الفقهاء المشهورون – وبرهنوا بذلك على أن فكرة أن المختصين هم وحدهم الجهة

التى يتوفر لها الرد السليم ، فكرة لاتستقيم فى مجال الفكر الدينى ولايمكن القياس فيها على مجال الطب والهندسة ، وأن الآية التى يستشهد بها الفقهاء ﴿ **اسألوا أهل الذكر** ﴾ لايجوز أن تؤخذ بما يفسرونه !

(٤) كشفت « الشهادة وتوابعها » عن أنه ليس فى هذا البلد إيمان عميق ، حقيقى ، مقدس بالحرية – كما يجب أن يكون الإيمان ، وكما تستحق الحرية ، .. إن مجرد إثارة موضوع الردة والأخذ والرد فيه ، دليل على هذا ، وقد آن لنا أن نفهم أن نقص الحرية هى أصل كل بلاوينا ، خاصة من ١٩٥٢ حتى الآن ، وأن الذين ينادون بالحرية هم مجرد ببغاوات إذا تصوروا أنها تُقَدَّم بالتقسيط ، أو بصفة جزئية ، أو بعضها دون بعض ، أو تقدم على مراحل .. الحرية كل لا يتجزأ .. والذين يقولون ويكررون أن الإسلام يقرر الحرية ، ثم يعودون فيستثنون منها أكثر مما يبقون ، ليسوا من الحرية ، ولا من الإسلام فى شىء . ومن أسخف ما يساق فى هذا الصدد الادعاء أن الإسلام يكفل الحرية لغير المسلم ، فله أن يكفر ، وأن يؤمن ، ولكنه لا يكفل الحرية للمسلم ! لله أبوهم ! كيف يستقيم هذا أصلا ومنطقا .. وهل الكافر أكرم عند الله من المسلم ؟ أو لايدخل فى ولايته .. وهل الإسلام الا دين الحرية أصلا وفرعا للناس كافة مسلمين وغير مسلمين ؟ ؟ فى رسالتنا الموجزة ﴿ **لست عليهم بمسيطر** ﴾ : « قضية الحرية فى الإسلام » قلنا إن **الحرية تنبع أصلا فى الإسلام من الحق ، ولكن هناك حرية واحدة لايمكن أن يكون عليها سلطان أو قيد حتى من الحق نفسه – هى حرية الفكر – لأنها هى التى تؤدى إلى الحق ، وهى التى تعرف الانسان بالحق ، وهى التى تحمى الحق من أن تلتصق به الاباطيل والزيوف . فلا يمكن أن يكون الحق وصيا عليها أو معرفا بها والإسلام** لا يخشى مثل هذه الحرية على العكس إنه يرى أنها هى التى تقود إليه أولا ، ثم تحفظ الايمان ثانيا .. فهى التى تكشف عن الإسلام واستحقاقه الايمان ، ثم هى التى تحفظ للايمان نضارته وأصالته وحيويته ، لأن الحرية هواء متجدد ، والانغلاق مستنقع راكد !

وحاول أحد الكتاب أن يميز بين حرية الاعتقاد والفكر ، وبين حرية التعبير .. ورأى أن الأولى مكفولة بحكم القانون ، أما الثانية – حق التعبير – « فإنها تخضع لضمانات وقيود ، فإذا كانت حرية الفكر ترتبط بمفهوم مطلق فإن حرية التعبير ترتبط بمفهوم نسبى يتأثر بطبيعة النظام السياسى السائد والمناخ الأقتصادى

والاجتماعي والثقافي ، لذلك فقد حددت بعض نظم الحكم دوائر تمثل مناطق مقيدة لحرية التعبير ، ومنها على سبيل المثال بعض قضايا الأمن القومي كشئون القوات المسلحة والنشاط العسكري للدولة وأسرارها الاستراتيجية ، كذلك بعض المسائل المتعلقة بالعقائد الدينية التي تعبر عن وجدان الإنسان ولا تخضع غالبا للجدل العقلي ويعتبر المساس بها تجريحا لأصحابها ، ويتصل بهذه القضايا أيضا بعض الأمور الخاصة بالوحدة الوطنية وأوضاع الأقليات وكل ما يعتبر تحريضا على الفتنة الطائفية .. وهكذا نجد أن الإعلان عن الأفكار يختلف عن عملية الفكر ذاتها[1] ...

فالكاتب هنا يفرق بين « **الإعلان عن الأفكار** » وبين « **عملية التفكير ذاتها** » ولكنه في المقال نفسه يقول – وله كل الحق في ذلك – « فلا حرية لفكر في ظل القهر السياسي ، ولا استمرار لفلسفة في ظل القيد الاقتصادي ، ولا سلامة لمفكر في ظل الكبت الاجتماعي » .

نقول إن هذه كلها : القهر السياسي ، والقيد الاقتصادي ، والكبت الاجتماعي .. إنما تنشأ للقيود على الإعلان عن الأفكار ، ومن هنا نعود من حيث بدأنا ، بمعنى أن التفرقة ليست ذات طبيعة أصولية ؛ ولكنها تفرقة لما تفرضه النظم الحاكمة للعمل لمصلحتها هي .. حتى وإن ادعت مصلحة المجتمع ، وإلا فإن حرية الإعلان عن الفكر لاتفترق عن حرية التفكير نفسها ، ولا تكتمل حرية التفكير إلا بها ولا يمكن تقبل أي قيود على حرية الفكر ، إلا على أساس الاستثناء الذي لايكون منه مفر ، والضرورة التي تقدر بقدرها ، ولا يعد هذا بعد ذلك كله أمرا حسنا ، ولكن ضرورة سيئة علينا أن نخلص منها بقدر الطاقة

(٥) كشفت «الشهادة وتوابعها» عن الحالة النفسية التي تسيطر على الفقهاء والشيوخ بصفة خاصة ، وإن لم تقتصر عليهم ، وتكون مفرداتها : عدم تقدير الحرية حق قدرها ، أو حتى بعض قدرها ، والتمسك بالقديم المألوف والضيق بالجديد ، والنزعة الانطوائية التي ترفض الانفتاح وتعزف عن كل جديد أو مخالف ، وتظن فيه نوعا من العداء أو العبث . وقد جعل مشاعرهم حادة ، وعواطفهم مرهفة أن كثيرا من الذين يدعون إلى حرية الفكر يشنون الغارات على الدعوات الإسلامية ، وقد يسف

(١) الأستاذ الدكتور مصطفى الفقي في جريدة الأهرام (١٩٩٣/٨/١٨ ص ١٧) تحت عنوان (هل لدينا أزمة فكر) ...

بعضهم إسفافا ملحوظا ، كما قد يكون من بينهم من يدعون للتحلل الخلقى ويعملون لإشاعة الفحشاء .

وقد يصور ذلك كله الكلمة التى نشرتها جريدة الشعب للشيخ محمد الغزالى فى (١٩٩٣/٨/١٧ / ٢٨ صفر ٢٣١٤ هـ) :

هـذا ديننا

لم يضع الاستعمار أوقاته سدى عندما وطئت أقدامه دار الإسلام ، لقد شرع لفوره يغيّر التشريع والتعليم والتربية والتقاليد جوّا يلائمه ، ومستقبلا يطمئن إليه ، وها قد نضجت الأشواك التى بذرها ، ورأينا ناسا يفكرون بعقله ويضربون بيده ويحاولون تغيير الأخلاق والعقائد وفق مشيئته .. والناظر عن قرب أو بعد يرى المثقفين قسمين ، قسما لم يتغير للإسلام ولاؤه ولا انتماؤه ، وقسما أخر يعالن بكراهيته لشعائر الدين وشرائعه ، ورغبته فى إسقاط ما بقى من رايات الإسلام فى بلاده !! كانوا قديما شيوعيين ، ثم صاروا علمانيين .. وتتغير الشارات التى يبدون فيها ، وتبقى ضغائنهم على الإسلام وأمته ثابتة لاتزيدها الأيام إلا ضراوة وغلوا . وهم مع ضيقهم بالإسلام ومعالمه حراص على البقاء فى دائرته ! لماذا ؟ حتى يؤدوا وظائفهم فى تخريبه من الداخل ؛ إن دودة ، البلهارسيا ، تريد أن تبقى داخل الجسم لتعوق نموه ، وتنمى علله ، وتجره إلى الموت جرا ، ولذلك رأينا هؤلاء المرتدين عن الإسلام يرفضون المعالنة بتركه ويحرصون على البقاء فيه !! لكنهم فى الوقت نفسه لا يقيمون صلاة ولايؤتون زكاة ، ولايقرون لله بسمع أو طاعة ! إنهم يعرفون إسلاما بلا نصوص ولا أركان ، ويحاربون كل دعوة إلى الاحتكام إليه أو إحياء ما أمات الاستعمار من أمره .. !! وقد سقطت الشيوعية فى كل مكان نجدهم يملكون أزمة التوجيه ، ويفرضون إلحادهم صراحة أو التواء ويحاربون رموز الإسلام بكل ما لديهم من طاقة ! لقد بلغت الأمور مرحلة لا تتحمل هذا النفاق ، ونحن نابى كل الاباء أن يضرب الإسلام بأيد إسلامية ، لا مكان بعد اليوم للبس أو نفاق ، إما أن تكونوا أيها الناس مع الإسلام باطنا وظاهرا ، وإما أن تتركوه علانية وتكشفوا كفركم به ! ويعجبنى قول المثقب من شعراء الأقدمين .

فإما أن تكون أخى بصدق
فأعرف منك غثى من سمينى
وإما فاطرحنى ، واتخذنى
عدوا اتقيك وتتقينى !

لا مكان بيننا اليوم لمرتد يكره الكتاب والسنة ، ويصدم جماهير المؤمنين ، ثم يزعم نفاقا أنه مسلم ! مسلم يحارب الله ورسوله ! ياللعجب .

وقد كرر الشيخ الغزالى المعانى التى تضمنتها كلمته تلك فى عدد من الكلمات التى نشرت فى جريدة الشعب تباعا وغيرها ، مما يوضح أنها معان ثابتة ، مستقرة ، فى نفسه . . وأن يكون هؤلاء لأيصّلون ، فهذا ما يقع إثمه عليهم ، ولئن لم يصلوا اليوم ، فقد يصلون غدا ، وفى التوبة متسع حتى « الغرغرة » ولسنا نحن على كل حال بالذين نحاسبهم على هذا ، والقول أنهم « إما أن تكونوا أيها الناس مع الإسلام ، باطنا وظاهرا ، وإما أن تتركوه علانية وتكشفوا كفركم له » هو ما يوضح الطبيعة النفسية والمزاجية التى تسيطر على الإسلاميين ، فنحن لم نؤمر بالتنقيب عن الباطن ، ولا أن نعين الشيطان عليهم ، وإنما ندعو الله لهم بالهداية ، وأن نقول لهم – كما قال الرسول العظيم – « **اللهم اهد قومى ، فإنهم لا يعلمون** » وفى الوقت نفسه نرد عليهم الحجة بالحجة ، والبرهان بالبرهان ، وقد كان المنافقون يعيشون فى المدينة ويكيدون للإسلام ، ويأتى إلى الرسول من يطلب قتلهم ، فيرفض ، وموقفه من كبيرهم عبدالله بن أبى معروف وكان صلى الله عليه وسلم آية فى سلوك مسلك الداعية إلى الله . . ، وكان العربى الجافى المشرك يأتيه فيقول له: «أسلم» فيقول « أجدنى كارها » فلا يزيد على أن يقول : « أسلم ، وإن كنت كارها » . . فهذه هى المواقف التى يكون علينا أن نستضىء بها ونهتدى بهديها .

وفى كل كلمات الفقهاء التى أوردناها افتراض سابق ومؤكد عن عداوة يُضمرها كل من يعالج الموضوع معالجة حرة ، وأن أى اختلاف جوهرى فيما يرون أنه معلوم من الدين بالضرورة ناهيك بالردة نفسها لأبد وأن يقود إلى شر أو غباء ، ولهذا فإما أن يُفَهم أو يُقَوَّم أما احتمال أن يكون حسن النيه ، طالباً الحقيقة ، فأمر مستبعد وغير متصور ولهذا تأتى أحكامهم بالكفر والمروق . وكان حيراً لهم أن يردوا عليهم بالدليل والبرهان والمنطق ، والإسلام دين العقل والفكر والحوار . . وهذا الأسلوب بعد ، هو الذى يفحم خصومهم ، ويجردهم من سلاحهم ويلقمهم حجرا .

ولكن يحول دون أن يقوم الفقهاء بذلك أمران :

الأول : أنهم لا يجدون قنوات الإعلام من صحافة أو إذاعة تمكنهم من ذلك وتوصل آراءهم للناس ، ومع أن الدولة هى المسئولة عن هذا الوضع عندما أسلمت أجهزة الاعلام إلى فئات بعينها ، وأورثتها هذه المناصب من أيام الناصرية ، حتى أصبح ذلك أشبه بتقليد . . نقول ، مع هذا ، فإن الإسلاميين مسئولون أيضا ، فلم يكن يعجزهم إصدار الصحف والتغلب على العقبات لو كانت لديهم العزيمة ، وإيثار الدعوة إلى الله ،

على الاستحواز على متاع الدنيا أو تأمين المستقبل المادى لهم ولأسرهم ، وقد آثر كثير من كبار الدعاة الاسلاميين أن يستثمروا أموالهم فى « الريان » وغيره دون أن يفكروا فى فتح صحف ودور نشر إسلامية – مع أن هذا هو الجهاد الحق الآن ، ونشاط اليساريين فى هذا أضعاف نشاط الإسلاميين !

والثانى : وهو مرتبط بالأول ، أن الإسلاميين – حتى لو توفرت لهم الصحف – فإنهم لايستطيعون إدارتها أو تدبيجها لعدم توافر المهارات الصحفية ولأن مستوى ونوعية ثقافاتهم مما لايتلاءم مع طبيعة الصحيفة ، ولو وجدوا الصحف لملأوها بالغثاء والاجترار والنقول من كتب التراث ، ولجعلوها – على أفضل الأحوال – كتابا . . وهناك فرق بين الكتاب والصحيفة . . وهذه الحقيقة المؤسفة تعود إلى أنهم أغلقوا على أنفسهم منافذ الثقافة والمعرفة ، وجهلوا اللغات ، وحتى الذين سافروا إلى الخارج وألموا باللغات (وقد رأس مشيخة الأزهر من تعلم فى السوربون) فإنهم ذهبوا ، وعادوا « كصفوان عليه تراب أصابه وابل فتركه صلدا » . . فلم يستفيدوا من علمهم الأوروبى شيئا ، ومن ثم فما كان يمكن أن يفيدوا به آخرين ، فما أبعدهم عما أراد الإسلام وعما أراد الرسول ، « اطلبوا العلم ولو فى الصين » . . « الحكمة ضالة المؤمن » . . ولو ألموا بالثقافات الحديثة لوجدوا فيها مايدعم موقفهم ، ومايفحم خصومهم ، فإن أذكى الأوروبيين وأفضل من يعنى منهم بالدرس يؤمن بالإسلام ، ولكنهم أسرى المزاج النفسى والرواسب الثقافية الأزهرية السلفية المغلقة ، فلا يستطيعون تحررا منها ، بل لو قام غيرهم بالدفاع عن الإسلام بغير طريقتهم (وربما أيضا بطريقتهم) لقاوموه لأنه يستخدم أدوات وطرائق مختلفة ، أو لأنه ، بكل بساطة – لايضع عمامة على رأسه ، فلا يكون من أهل الذكر . . .

الفصل الرابع

لا حد .. لا استتابه .. لا تعزير

على كل حال ...

فنحن نقول ، بأعلى أصواتنا : **كلا ثم كلا ...**

ونحن نرفض رفضا باتا ، قلبا وقالبا ، كل فكرة عن تكفير مرتد ، أو إقامة حد عليه ، أو تعزير ، بل نحن نرفض مبدأ التكفير أصلا من باب عدم الاختصاص ، ونرى أن الادعاءات عن حد للمرتد لاتقوم على قرآن أو سنة ولكنها من وضع الفقهاء ، طبقا لاجتهاداتهم ، وفى ضوء ظروف معينة تحكمت فيهم !

ولن يتسع المجال هنا لمعالجة موضوعية مفصلة ، خاصة وأننا عالجنا هذه القضية فى عدد من كتبنا مثل « حرية الاعتقاد فى الإسلام » و « قضية الحرية فى الإسلام » و « العودة إلى القرآن » .. ولهذا فسوف نشير إلى رؤوس الموضوعات ، وعلى من يرد الاستزادة أن يرجع إلى الكتب السابقة(*) .

(*) قامت بنشر هذه الكتب « دار الفكر الإسلامى »

وسندنا ...

أ - من القــرآن

(١) أن القرآن الكريم - على كثرة إشاراته إلى الردة صراحة ، وتكرارها المرة بعد الأخرى - لم يرتب عقوبة دنيوية عليها ، وإنما توعد المرتدين بغضب الله وسخطه وعقوبته فى الآخرة .

وهذا سند واضح وصريح أن القرآن لم يرتب عقوبة دنيوية على الردة ، ويكون له قيمته من ناحية أن الحدود هى حق الشارع ،.. والشارع هو الله تعالى .

(٢) أن القرآن الكريم يقرر حرية الاعتقاد وبصورة مطلقة ليس عليها حد ، أو وراءها مزيد ، وآيات ذلك قد تزيد على المائتين ، كل واحدة تصدع الحجر ، وتُنْطِق البقر !

وهذا دليل إيجابى - بالاضافة إلى الدليل السلبى السابق - يجعل الذين يهتدون بهدى القرآن ، يعزفون عن أن يضعوا حدا يعارض المبدأ العام الذى سنه القرآن وكرره تكريرا وأكده تأكيدا إيجابا وسلباً .

(٣) يريد القرآن أن يقطع الطريق على كل تحايل أو تأويل ، فيقرر فى عشرات الآيات ، وبصريح العبارات أن الفصل فيما يختلف فيه الناس من أمر العقيدة إنما مرده إلى الله وحده ، يوم القيامة وحده ...

ففكرة التكفير أصلا مجافية لروح القرآن ، ولنص الآيات التى قصرت الفصل فى ذلك على الله تعالى ، ولم يكفر الرسول أحدا ، بل نهى عن تكفير المنافقين وصلى على كبيرهم !

وفى كتابنا « رسالة إلى الدعوات الإسلامية من دعوة العمل الإسلامى » قلنا :

إن دعوة العمل الإسلامى لاتكفر أحدا ، حتى الذى يقر على نفسه بالفكر - على أساس عدم الاختصاص وحسم شأفة ذلك الباب .

(٤) إن القرآن الكريم إنما كان يعبر فى هذا عن السنن التى وضعها الله للمجتمع الانسانى ، وأنزل بها الكتاب ، فقضية الايمان والكفر هى قضية قلب ونية ،

ولا وجود لقلب مطمئن ، أو نية راضية الا فى مناخ من الحرية التامة ، **فاذا** وجد أى نوع من القسر فانه سيكون على حساب صفاء النية وخلوصها ، **فاذا كان المجتمع الإسلامى هو مجتمع العقيدة ، فانه بالضرورة والتبعية مجتمع الحرية ، فلا عقيدة بدون حرية .**

ومن هذه السنن أن الهدى والضلال قسمة وأنها تعود إلى طبائع النفوس أكثر مما تعود إلى العقل والمنطق ، وهناك من أضله الله على علم ، وهناك من لايزيدهم القرآن إلا خسارا ، وهناك من يقولون « قلوبنا غلف وفى آذاننا وقر » . وسواء عليهم أأنذرتهم أو لم تنذرهم ، ولافائدة من أى قسر على هؤلاء ، فلن يزيدهم إلا عنادا ، وقد يجعلهم أبطالا فى عيون الآخرين ! يستوى فى هذا الكافرون أصلاً والمرتدون لأن القرآن لم يفصل .

(٥) من السنن التى وضعها الله وعبر عنها القرآن أن الرأى المخالف له دور ، ولهذا سمح بوجوده ، وهذا الدور هو إثارة الهمم للدفاع ودراسة ماقد يثيره هذا الرأى المخالف من نقاط ضعف ، وبدون ذلك تصبح الحياة الفكرية أشبه ببركة آسنة تفوح منها الروائح الكريهة ، وقد تتطرق اليها الاخطار دون أن يكشف عنها أحد حتى تتضخم وتتفاقم ويصعب علاجها !

بل يمكن أن تذهب بهذا العامل إلى أبعد مدى .. فان الله تعالى إنما أنظر أبليس إلى يوم القيامة ، وسمح له باستخدام خيله ورجله ... إلخ ، لأنه تعالى يريد اختبار المؤمنين ، ولا يريد لهم حياة آسنة يكون الايمان فيها وراثة وعادة دون فكر أو إبتلاء .

(٦) أن القرآن الكريم وضح تماما طريق الدعوة إلى الله وأنها تقوم على الحجة والبرهان والحكمة والموعظة الحسنة .. ومن يقرأ القرآن يؤمن أن الانبياء هم أعظم المعلمين ، وهم أول من سن طريقة الحوار وعُنّى القرآن الكريم بأن يؤكد أن الرسول ليس حفيظا ، ولا جبارا ، ولا حتى وكيلا ، وأنه ليس عليه هداهم وإنما عليه البلاغ .. وقد أورد دون حرج كل دعاوى المشركين وأقوالهم على الله والرسول ورد عليها بالحجة والبرهان .

وإنه لمن أعظم الأمور دلالة أن يقول القرآن الكريم للرسول المكلف بالدعوة والتبليغ : ﴿ **ليس عليك هداهم** ﴾ .. ﴿ **إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء** ﴾ .. ويوجهه ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ .. ﴿ **وما عليك ألا يزكى** ﴾ .. ﴿ **من شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر** ﴾ .. ﴿ **لا أعبد**

ماتعبدون ، ولا أنتم عابدون ماأعبد ولا أنا عابد ماعبدتم ولاأنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين[1] ﴾ .. وينفى عن الرسول أن يكون على الناس حفيظاً أو وكيلا .. فبأى حق ، وبأى سلطة يجعل بعض الناس أنفسهم أوصياء على الناس ؟ .. وبأى حق يفرضون هدايتهم فرضا تحت إرهاب السيف ، (لأنه مالم يتوبوا ، فسيقتلون !!)

اللهم إن هذا افتيات على الله ، وعلى رسوله .

القرآن الكريم إذن :

- يذكر الردة مرارا ثم لا يرتب عليها عقوبة دنيوية ...
- يقرر حرية الاعتقاد كاملة غير منقوصة « من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .
- يؤكد أن الله تعالى وحده هو الذى يفصل يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .
- يؤمن بأن الهدى والضلال قسمة لها أسباب عديدة ...
- يؤمن أن الرأى المخالف له دور ...
- جعل السبيل إلى الدعوة الحكمة والموعظة الحسنة ، ورفض أن يكون الرسول جبارا ، أو حفيظاً ، أو حتى وكيلا ، وحدد له دوره بالبلاغ المبين .

بناء على هذه الحيثيات لايكون هناك أى نوع من المحاسبة الدنيوية على حرية الاعتقاد ، إيمانا وكفرا ، وتكون قضية تكفير فرد ما مستبعدة على أساس عدم الاختصاص، فليس من حقنا أن نقول : إن هذا مؤمن وهذا كافر، هذا سيدخل الجنة وهذا سيدخل النار !! . فان هذا تألٍ على الله وافتيات على ما اختص به نفسه دون الناس .

★ ★ ★

ب – من السنة :

نأتى إلى السنة ، والأحاديث التى أقام عليها بعض الفقهاء حكمهم فنقول بادىء ذى بدء إن السنة تكون أصلا للتبليغ وإيضاح المبهم والمجمل مما جاء به القرآن ، كإيضاح طرق الصلاة ، ومقادير الزكاة ، وشعائر الحج .. فقد وردت الصلاة والزكاة والحج فى القرآن مجملة ، وقامت السنة بتحديد تفاصيلها ، والفقهاء يقولون عن هذا « تفصيل مجمله وتقييد مطلقه ، وتخصيص عامه » !

ومن المسلم به أن الشارع هو الله تعالى ، وأن طاعة الرسول إنما تكون لان الله تعالى أمر بها ، فهى من طاعة الله ، ومن ثم فقد اختلف العلماء فيما إذا كانت السنة

---

(١) سورة الكافرون التى كان الرسول ﷺ يصلى بها عادة رغيبة الفجر حتى أيامه الأخيرة ، فلا يقال نسخت . فاذا قيل إنها عن الكافرين فنقول إنها ، من باب أولى ؛ تنطبق على المرتدين ...

تستقل بتشريع أو تأت بحكم جديد غير مؤكد لما فى القرآن ، ولا مبين له ، وهى نقطة عالجتها كل كتب « أصول الفقه » وكمثال على ذلك ما جاء فى كتاب « أصول التشريع الإسلامى » للشيخ على حسب الله :

النـــوع الثالث :

ماكان مشتملا على حكم جديد غير مؤكد لما فى القرآن ، ولا مبين له ، وقد اختلف العلماء فى هذا :

(١) فقال بعضهم : قد تأتى السنة بما ليس فى الكتاب ، ولذلك أمر الله بطاعة رسوله مع الأمر بطاعته فى كثير من الآيات ، وأقر الرسول معاذا على الرجوع إلى السنة إذا لم يجد فى الكتاب مايريد ، وذم من يترك سنته ويتمسك بالكتاب وحده فيما روى المقدام بن معد يكرب عنه ﷺ : (ألا وإنى قد أوتيت الكتاب ومثله معه ... إلخ) ، وجاءت السنة بأحكام لم ترد فى الكتاب : كتحريم الحمر الأهلية ، وكل ذى ناب من السباع ، وتحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها .

والرسول لا يأتى - فى هذا الباب - بما يناقض القرآن ، لأنه أعرف الخلق بما يبلغ عن ربه ، وأخبرهم بمقاصد الشريعة ، لعناية الله تعالى به ، وعصمته من الزيغ ، وتوفيقه إلى الحق ، وتسديده إلى الصواب .

(٢) وقيل : إن السنة لا تأتى إلا بما له أصل فى الكتاب ، فإذا كانت مفصلة لمجمله ، أو مقيدة لمطلقه ، أو مخصصه لعامه - فهى موضحة للمراد منه ؛ وإذا جاءت بغير ذلك فالمقصود منها إما إلحاق فرع بأصله الذى خفى الحاقه به ، وإما إلحاقه بأحد أصلين واضحين يتجاذبانه .

فمن الأول ما ورد فى السنة من تحريم الجمع بين المرأه وعمتها أو خالتها فإنه فى الحقيقة قياس على مانص عليه من تحريم الجمع بين الأختين .. ولذلك تعرض الحديث لبيان المصلحة المترتبة على الحكم إذ قال ﷺ بعد النهى عن الجمع بين الاثنتين : (فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم) .

ومنه أيضا أن الله تعالى ذكر الفرائض مقدرة ، ولم يذكر من ميراث العصبات إلا ما نص عليه قوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ ، وهو يقتضى أن العاصب من غير الاولاد والأخوة ليس له فرض مقدر ، بل يأخذ ما يبقى بعد أداء الفرائض ، ولكنه قياس قد يخفى ، فبينه الرسول ﷺ بقوله :

(ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقى فهو لأولى رجل ذكر)

ومن الثانى أن الله تعالى أحل الطيبات وحرم الخبائث ، فمن الأشياء ما اتضح الحاقه باحد الأصلين ، ومنها ما اشتبه بالحمر الاهلية وذى الناب والمخلب ، فنصت السنة على ما يرفع الشبهة ، ويرجح أحد الجانبين المشتبهين ، بالنهى عن أكل الحمر الأهلية ، وكل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطير ، وإباحة أكل الضب والأرنب وماشابههما .

ومنه أيضا أن الله تعالى أحل شرب مالا يسكر كاللبن والعسل ، وحرم المسكر وهو الخمر ، فاشتبه بالأصلين ما ليس بمسكر ، ولكنه يخشى أن يسكر ، وهو نبيذ الدباء والمزفت والمقير ونحوها ، فبينت السنة أن هذا ملحق بالمسكر سدا للذريعة[1] .

وهكذا لاتأتى السنة بحكم إلا وله فى الكتاب أصل يرجع . فهى خادمة له بتبيين مقاصده ، والإعانة على تطبيق أصوله وقواعده[2] » إنتهى .

---

(١) قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ وسألوه فى حديث لهم عن الأشربة ، وكان الناس يكثرون من الانتباذ فى أوعية الحنتم والدباء والنقير والمزفت والمقير . فنهاهم عن الانتباذ فيها ، لقرب العهد بشرب المسكر ، واستعمال هذه الأوانى لحفظه ، فكان ما ينبذ فيها يتأثر بما ينضح فيه منه ، فيكون الشارب منه معرضا للسكر من حيث لايريد ، وأباح لهم الشرب فى ظروف الأدم دون سواها .

فلما ألف الناس اجتناب المسكر ، وتخلصت تلك الأوانى من آثاره .. زال سبب النهى ، فعاد بهم إلى الإباحة الأصلية : روى عبدالله بن بريدة عن أبيه : أن الرسول ﷺ قال : (كنت نهيتكم عن الأشربة ألا تشربوا إلا فى ظروف الأدم ، ألا فاشربوا فى كل وعاء ، غير ألا تشربوا مسكرا) (راجع ص ١٧٨ جـ ٢ : تيسير الوصول) .

والحنتم (بفتح الحاء والتاء بينهما نون ساكنة) : جرة كان يحمل إليهم فيها الخمر .

والدباء (بتشديد الدال مضمومة والباء مفتوحة) : القرع اليابس .. كانوا يخرطون فيه العنب ثم يدفنونه حتى يهدر ثم يموت .

والنقير : وعاء يتخذ من أصل النخلة بالنقر ، وكانوا ينبذون فيه الرطب واليسر ويدعونه حتى يهدر ثم يموت .

والمزفت والمقيّر : .. ما طلى بالزفت أو القار من الأوعية ...

(٢) أصول التشريع الإسلامى للشيخ على حسب الله ص ٤٨ - ٤٩ الطبعة السادسة ١٩٨٢ .

يؤكد هذا المعنى أن لجنة الفتوى بالأزهر عندما سئلت هل من أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم يعد كافراً أم لا ، لما ردت بفتوى قالت : إن من أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم منكر لشيء اختلف فيه الأئمة ولا يعد مما علم من الدين بالضرورة ، فلا يعد كافراً ، ونورد هنا نص هذه الفتوى لأهميتها فيما نحن بصدده .

الفتـوى :

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين وبعد . تنقسم الأحكام عند الجمهور إلى خمسة أقسام :

١ - الواجب : وهو مايثبت طلبه من المكلف بنص صريح قطعى الثبوت وقطعى الدلالة ، بمعنى أن له معنى واحدا فلا يختلف فى معناه المجتهدون من كتاب الله أو سنه رسوله المتواترة .

٢ - الحرام : هو ما طلب الشارع من المكلف تركه بدليل قطعى الثبوت وقطعى الدلالة من كتاب الله أو سنة رسوله المتواترة .

٣ - المندوب : ما طلب الشارع فعله طلبا غير حتم ولاجازم يثاب على فعله ولايعاقب على تركه .

٤ - المكروه : ماطلب الشارع تركه طلبا غير حتم ويثاب على تركه ولا يعاقب على فعله .

٥ - المباح : ماخير المكلف بين فعله وتركه ، أو لم يرد دليل فيه بالتحريم .

وتنقسم السنة إلى متواترة وآحادية :

فالمتواترة : ماروواها جمع يستحيل أو يبعد أن يتفقوا على الكذب ، قال الحازمى فى شروط الأئمة الخمسة ص ٣٧ : وإثبات التواتر فى الحديث عسير جداً ، وقال الشاطبى فى الجزء الأول من الاعتصام ص ١٣٥ : أعوز أن يوجد حديث متواتر ، واختلاف علماء السنة على

ثبوته وعدده : يرى الجمهور أن من أنكر استقلال السنة المتواترة بإثبات واجب أو محرم فقد كفر ، أقول أغلب السنن العملية متواترة .

والسنة الآحادية : هى ماروا ه عدد دون التواتر عن النبى ﷺ ، وقد اختلف العلماء فى استقلال السنة الآحادية بإثبات واجب أو محرم ، فذهب الشافعية ومن تبعهم إلى أن من أنكر ذلك فى الأحكام العملية كالصلاة والصوم والحج والزكاة فهو كافر ، ومن أنكر ذلك فى الأحكام العلمية كالإلهيات والرسالات وأخبار الآخرة والغيبيات فهو غير كافر لان الأحكام العلمية لا تثبت إلا بدليل قطعى من كتاب أو سنة رسوله المتواترة .

وذهب الحنفية ومن تبعهم إلى أن السنة الآحادية لا تستقل بإثبات واجب أو محرم سواء كان الواجب علميا أو عمليا وعليه فلا يكفر منكرها ، وإلى هذا ذهب علماء أصول الفقه الحنفية فقال البروذى : دعوى علم اليقين بحديث الآحاد باطلة لأن خبر الآحاد محتمل لا محالة ، ولا يقين مع احتمال ، ومن أنكر ذلك فقد سفه وأل عقله .. وبهذا أخذ الشيخ محمد عبده والشيخ أبو دقيقة وغيرهما ، يقول المرحوم الإمام محمد عبده : القرآن الكريم هو الدليل الوحيد الذى يعتمد عليه الإسلام فى دعوته أما ما عداه مما ورد فى الأحاديث سواء صح سندها أو اشتهر أو ضعف فليس مما يوجب القطع ، كما ذكر الشيخ شلتوت فى كتابه : الإسلام عقيدة وشريعة ، قوله : إن الظن يلحق السنة من جهة الورود (السند) ومن جهة الدلالة (المعنى) كالشبهة فى اتصاله والاحتمال فى دلالته .

ويرى الإمام الشاطبى فى كتابه ، الموافقات ، أن السنة لا تستقل بإثبات الواجب والمحرم لأن وظيفتها فقط تخصيص عام القرآن وتقييد مطلقه وتفسير مجمله ويجب أن يكون ذلك بالأحاديث المتواتره لا الأحادية .

ويؤيد آراء من سبق ذكرهم ما جاء فى صحيح البخارى باب الوصية وصية الرسول ﷺ قبل وفاته عن طليحة بن مصرف قال : ، سأل عبد الله بن أبى أوفى : أوصى رسول الله ﷺ ؟ قال : لا . قلت : كيف وقد كتب الوصية على الناس أو أمروا بها ولم يوص فقال أوصى بكتاب الله . قال ابن حجر فى شرح الحديث : أى التمسك به والعمل بمقتضاه إشارة إلى قوله ﷺ : تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله . واقتصر على الوصية بكتاب الله لكونه فيه تبيان كل شىء إما بطريق النص أو بطريق الاستنباط فإذا اتبع الناس ما فى الكتاب عملوا بكل ما أمرهم به .

وحديث سلمان الفارسى : الحلال ماأحله الله فى كتابه والحرام ما حرمه الله فى كتابه وما سكت عنه فهو عفو لكم .

وأجاب الشاطبى عما أورده الجمهور عليه من قوله تعالى : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ (النساء ٥٩) بأن المراد من وجوب طاعة الرسول إنما هو تخصيصه للعام وتقييده للمطلق وتفسيره للمجمل وذلك بالحديث المتواتر ، وأن كل ما جاء به النبى ﷺ يجب أن يكون من القرآن لقول عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ : « كان خلقه القرآن » وأن معنى قوله تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ﴾ (النحل : ٨٩) إن السنة داخلة فيه فى الجملة ، وأكد الشاطبى ذلك بقوله تعالى : ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾ (الأنعام ٣٨) وقد رد على ما استدل به الجمهور مما روى عن النبى ﷺ قوله : (يوشك أحدكم أن يقول : هذا كتاب الله ما كان من حلال فيه أحللناه وما كان من حرام حرمناه ألا من بلغه منى حديث فكذب به فقد كذب الله ورسوله) بأن من بين رواة هذا الحديث زيد بن الحباب وهو كثير الخطأ ولذلك لم يرو عنه الشيخان حديثا واحدا .

وجاء بمسلم الثبوت والتحرير : « خبر الواحد لا يفيد اليقين لافرق فى ذلك بين أحاديث الصحيحين وغيرهما » .

ومما سبق يتضح أن الإيجاب والتحريم لايثبتان إلا بالدليل اليقينى القطعى الثبوت والدلالة ، وهذا بالنسبة للسنة لا يتحقق إلا بالأحاديث المتواترة ، وحيث أنها تكاد تكون غير معلومة لعدم اتفاق العلماء عليها فان السنة لاتستقل بإثبات الإيجاب والتحريم إلا أن تكون فعلية أو تنضاف إلى القرآن الكريم .

وعلى هذا فمن أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم فهو منكر لشىء اختلف فيه الأئمه ولايعد مما علم من الدين بالضرورة فلا يعد كافراً[1] » .

---

(١) نشرت الفتوى بكتاب الشيخ محمد الغزالى تراثنا الفكرى ص ١٧٥ - ١٧٩ ومجلة الأحرار بتاريخ ٩٣/٨/٥ وكتاب حد الردة د أحمد صبحى منصور .

وواضح من هذا الكلام أنه لا يرد فى السنة شىء يصادم ويعارض القرآن ؛ فإذا جاءت أحاديث تضاد حرية الاعتقاد أو تفرض الايمان قسرا ، فان هذا يجب أن يخضع للتمحيص الذى قد ينتهى إلى عدم مصادمته للنص ، لأنه قد لايكون منصبا على حرية الاعتقاد كما قد يظن ، ولكن على تفريق الأمة أو التمرد عليها ، كما هو الحال فى معظم الأحاديث التى نص فيها على حد لتارك دينه « المفارق للجماعة » وكانت الردة ترتبط ارتباطا وثيقا بالثورة على الإسلام ، وعلى دولته الناشئة ، أو بالرغبة فى التحلل من صلاحية الدولة برفض دفع الزكاة ، فهذه كانت عناصر الردة التى قاومها أبو بكر ، كما سيلى :

★ ★ ★

ويعجب الإنسان عندما يرى أن قضية الردة لاتستند فى السنة على ما يتناسب مع وزنها ، سواء جاء هذا الوزن من طبيعتها – أى الردة عن الإسلام – أو من عقوبتها وهى القتل .. إذ لايجد المرء سوى ثلاثة أحاديث ، أو أربعة يدور عليها النقاش هى :

أولا – حديث العُرنيين : الذين قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الأسلام ولكنهم استوخموا الأرض فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال أفلا تخرجون مع راعينا فى إبله فتصيبون من ألبانها وأبوالها .. قالوا بلى .. فخرجوا ، فشربوا ، من ألبانها وأبوالها فصحوا ، فقتلوا الراعى وطردوا النعم ، فأرسل رسول الله ﷺ فى أثرهم من قبض عليهم وقتلهم .

الحديث رواه البخارى ومسلم وبقية كتب الحديث وليس فيه ما ينم عن حد الردة ، بل ليس فى أغلب الروايات ما يشير صراحة إلى ردتهم ، ومعروف أن القتل عقوبته القتل ، فضلا عن عقوقهم واستياقهم الابل ، فلو لم يرتدوا لاستحقوا القتل .. وقد أورد مسلم الحديث فى « باب المحاربين والمرتدين » ، وأورده الشوكانى فى باب « المحاربين وقطاع الطرق » .

فلا يمكن أن يستند اليه فى أن القتل عقوبة الردة .. وهو ما دفع ابن تيمية للقول **« هؤلاء قتلوا – مع الردة وأخذوا الأموال فصاروا قطاع طرق محاربين الله ورسوله » .. وتابعه ابن القيم فى زاد المعاد والطبرى فى تفسيره .**

ثانيا – الحديث الثانى : هو الذى قرر فيه الرسول ﷺ أنه لايجوز قتل مسلم إلا

فى حالة من ثلاث : قتل نفس ، وزنا بعد إحصان ، والمارق عن الدين المفارق للجماعة .. وهناك روايات عديدة للحديث تقرن معظمها - كروايات عبدالله ابن مسعود - الردة بمفارقة الجماعة ، بل إن رواية عائشة : « لايحل قتل مسلم إلا فى إحدى ثلاث خصال : زان محصن فيرجم ، ورجل قتل مسلما متعمدا ، ورجل يخرج من الإسلام فيحارب الله عز وجل ورسوله فيقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض » .

وحتى لو أخذنا بظاهر الحديث ، فإن المفارق للجماعة كان يعنى التحول للجماعة المناوئة للإسلام .

ورأى ابن تيمية أن رواية عائشة تفسر ما جاء فى حديث ابن مسعود وغيره عن المارق عن الدين ، المفارق للجماعة .. وأن « فراق الجماعة إنما يكون بالمحاربة » .

وأنتقد كاتب معاصر هذا الرأى لابن تيمية ، ورأى أنه : « رأى فردى لم يتابعه عليه أحد »[1] وأن ابن تيمية اجتهد فى تأويل الحديث فجانبه الصواب من جهتين : إحداهما أن صياغة الحديث نفسه واضحة لاتحتاج إلى تأويل ، لأن مثل هذا النص غنى عن التأويل ، وعلماء الأمة متفقون على أن النص الواضح الذى لا يمنع من العمل بظاهره مانع شرعى أو عقلى يجب بقاؤه على ظاهره ولا يجوز صرفه عن ظاهره أبداً » .

وقد قلنا إن ظاهر « المفارق للجماعة » يفسح مجال الاحتمال ، فليس هناك افتيات أو حذف للظاهر . وما جاز فيه الاحتمال بطل به الاستدلال ...

ويستطرد الكاتب

«والجهة الثانية التى جانب ابن تيمية فيها الصواب أن علماء الأمة من قبله ومن بعده يوردون حديث ابن مسعود : « التارك لدينه ، المفارق للجماعة » دليلا ثانيا بعد حديث : « من بدل دينه فاقتلوه » على وجوب قتل المرتد عن الإسلام إذا لم يتب .. وحاشى لله أن يكون الفقهاء قد اجتمعوا على ضلالة أو باطل ... إلخ».

وقد كان يستطيع أن يقول إن كتب الأحاديث تضمنت روايات يقتصر فيها الحديث على الردة دون الإشارة إلى مفارقة الجماعة ، فقد جاء فى سنن النسائى روايتان لحديث عن عثمان بن عفان لايتضمنان المفارقة اقتصر فيهما الحديث على من « ارتد بعد إسلامه »

---

(١) عقوبة الارتداد عن الدين بين الادلة الشرعية وشبهات المنكرين ، تأليف د/ عبد العظيم ابراهيم المطعنى . ص ٣٩ (مكتبة وهبة) .

فى رواية ابن عمر عن عثمان أو « يكفر بعد إسلامه فيقتل » فى رواية يسر بن سعيد عن عثمان وتضمن مسند الأمام أحمد رواية عن عائشة بدون ذكر مفارقة أو محاربة . ولكن الموقف لايتغير مع هذه الأحاديث بعد ورود أحادث ابن مسعود وعائشة وغيرهما التى تضمنت المفارقة والمحاربة .. ممايحسن معه التوقف لاحتمال أن يكون رواة حديث عثمان وعائشة عند الإمام أحمد لم يروا الحديث بالكامل ، أو من الأخذ بالأحوط فى مثل هذا الحد الجسيم ، وهو المسلك الذى يتفق مع روح الشريعة .

ثالثا – الحديث الثالث ، والذى يعتبرونه أقوى مافى الباب هو ماجاء بنص : « من بدل دينه فاقتلوه » .

والحديث فى البخارى وأبو داود فى سننه ومالك فى الموطأ والنسائى فى السنن .

قال صاحب نصب الراية : قلت روى من حديث ابن عباس ، ومن حديث معاوية بن حيدة ومن حديث عائشة .

أما حديث ابن عباس فاخرجه البخارى فى كتاب الجهاد فى استتابة المرتدين عن عكرمة أن عليا أُتى بزنادقة فأحرقهم فبلغ ذلك ابن عباس فقال : لو كنت أنا لم أحرقهم لنهى رسول الله ﷺ : لاتعذبوا بعذاب الله ، ولقتلتهم لقوله عليه السلام : « من بدل دينه فاقتلوه » ووهم الحاكم فى المستدرك فرواه فى كتاب الفضائل وقال على شرط البخارى ولم يخرجاه ، ورواه بن أبى شيبة وعبد الرزاق فى مصنفيهما بدون القصة .. حدثنا ابن عيينة عن أيوب عن عكرمه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : (من بدل دينه فاقتلوه) إنتهى .

وأما حديث معاوية بن حيدة فأخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده معاوية بن حيدة .. قال قال رسول الله ﷺ : « من بدل دينه فاقتلوه .. إن الله لايقبل توبة عبد كفر بعد إسلامه » .

وأما حديث عائشة فأخرجه الطبرانى فى معجمه الوسيط عن أبى بكر الهذلى عن الحسن وشهر بن حوشب عن عائشة مرفوعا نحوه ، سواء[1] .

ولنا عن هذا الحديث كلام بالنسبة للسند والمتن معا ...

أما السند ، فان الروايات المتكررة له تنتهى إلى عكرمة عن ابن عباس ، ومع أن عكرمة من أفضل رواة ابن عباس ، فقد استبعده مسلم ولم يخرج له الا حديثا واحداً

---

(١) نصب الراية لأحاديث الهداية للزيلعى الجزء الثالث ص ٤٥٦ .

فى الحج مقرونا بسعيد بن جبير ، « وإنما تركه لطعن طائفة من العلماء فيه بانه كذاب وبأنه كان يرى رأى الخوارج وبأنه كان يقبل جوائز الامراء » كما قال مؤلف « الحديث والمحدثون » الشيخ محمد أبو زهو وهو من أكثر الفقهاء ورعا . . وقد خصص الذهبى فى ترجمته فى ميزان اعتدال قرابة بصحفتين كبيرتين أورد فيهما مختلف الآراء فيه ما بين أنه بحر من البحور ، وأنه كذاب لايحتج بحديثه .

والرواية الثانية عن بهز بن حكيم عن معاوية بن حيدة وقد وثق بهز جماعة بينما أختلف فيه آخرون وتوقفوا فى الاحتجاج به « ميزان الاعتدال ج ١ ص ١٦٥ » .

كما أن راوى الرواية الثالثة شهر بن حوشب وإن كان من الرواة المشهورين فقد أختلف فيه وقال بعضهم لايحتج به أو تركوه .

ومع أن المحدثين عادة لايردون أحاديث لمثل ما أوردناه من شبهات أو اقاويل عن الرواة ، وأنهم لايرون أن ماقيل فيهم يوقف الاحتجاج بهم ، فقد يجوز لنا أن نتوقف إذا كان الأمر يتعلق بالقتل . . وأى حرج فى أن نقف مثل موقف الأمام مسلم من عكرمة ؟ ؟ .

أما المتن : هناك أيضا شيء يحيك فى النفس بالنسبة للمتن ، فقد جاء الحديث - رواية عكرمة فى سياق حكاية أوردناها آنفا . . فكلمة « زنادقة » التى لو استقصينا تاريخها لاظهر هذا التقصى أنها لم تشتهر فى أيام الخلافة الراشدة . . كذلك تحريق على كرم الله وجهه لهم مع نهى الرسول واستبعاد أن يجهل على ما علمه بن عباس ، ثم ورود التعبير على إطلاقه مما يسمح بانطباقه على من يبدل دينه إلى الإسلام ، أو من يبدله من مسيحية إلى يهودية ، أو من يهودية إلى مسيحية (وهو ما ذهب اليه بعض الأئمة) وهو يناقض ما قرره الرسول : « من كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها[1] » . وفى الحديث رواية معاوية بن حيدة « إن الله لايقبل توبة عبد كفر بعد إسلامه » وهو يخالف العديد من الآيات ، بل إنه يخالف أحاديث جاءت عن ردة البعض ثم ندموا فأرسلوا من يسأل هل من توبة لهم . . فنزلت آيات سورة آل عمران ﴿ **كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم ، وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لايهدى القوم الظالمين (٨٦) أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله**

(١) رسالة الرسول ﷺ إلى ملوك حمير - أنظر سيرة ابن هشام ص ٢٣٦ ج ٤ .

والملائكة والناس أجمعين (٨٧) خالدين فيها لايخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون (٨٨) إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » (٨٩) ..

فرجعوا إلى الإسلام وحسن إسلامهم ، وهذا هو ما يتفق مع روح الإسلام ورشد التشريع ولم يذكروا أن الرسول طلبهم ليقتلهم أو يستتيبهم ، كما كان يفترض لو كان هناك حد مقرر للردة ...

ولو أخذ بنص رواية ابن حيده ، لما كان للفقهاء إن يقرروا الاستتابة التى هى فى شبه إجماع بينهم .

رابعا - واستدلوا أيضاً بما وقع فى حديث معاذ « أن النبى ﷺ لما أرسله إلى اليمن قال له : أيما رجل ارتد عن الإسلام فادعه فإن عاد ، وإلا فاضرب عنقه ، وأيما أمراة ارتدت عن الإسلام فادعها فإن عادت ، وإلا فاضرب عنقها » .

وجاء فى فتح البارى : قال الحافظ وسنده حسن ، وهو نص فى موضوع النزاع فيجب المصير إليه « .. وجاء الحديث فى نصب الراية فى صيغة مختلفة : أيما رجل ارتد عن الإسلام فادعه ، فإن تاب فاقبل منه وإن لم يتب فاضرب عنقه ، وأيما امراة ارتدت عن الإسلام فادعها ، فإن تابت فاقبل منها وإن أبت فاستتبها .. وأورده مصنفو جامع الأحاديث للجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير للإمام السيوطى (حديث رقم ٩٥٦٢ ص ٤٣١ ج ٣) .. وعلقوا فى الهامش (وردت « فاسبها » فى مراجع أخرى) .

ومن هنا يتضح أنه لايمكن « المصير إليه » كما ذهب الحافظ ، فضلا عما شاب سنده ؛ إذ هو من رواية محمد بن عبد الله العرزمى وهو « متروك من السادسة » كما قال صاحب تقريب التهذيب (ص ٣٣٠) .

وقد استعرض صاحب نصب الراية الأحاديث التى جاء فيها إشارة إلى قتل المرتدة ، والأحاديث المعارضة ، إذ اكتنف التجريح رواة الأحاديث الأولى ، خاصة ما جاء فيها عن أن النبى ﷺ قتل امراة لردتها (نصب الراية ص ٤٥٦ ج ٣) وهو أيضاً مافعله الشوكانى فى نيل الأوطار (ج ٧) .

ويخالف الحكم بالقتل الأثر الذى جاء عن عمر بن الخطاب وأورده صاحب نصب الراية والشوكانى فى نيل الأوطار عن الشافعى .. أن عمر قال لوفد قدموا عليه من بنى ثور : هل من مغربة (بكسر الراء وفتحها) خبر قالوا : نعم أخذنا رجلا من العرب كفر بعد إسلامه فقدمناه فضربنا عنقه ، فقال : هلا أدخلتموه جوف بيت فألقيتم إليه

كل يوم رغيفا ثلاثة أيام واستتبتموه لعله يتوب أو يراجع أمر الله **اللهم إنى لم أشهد ، ولم آمر ولم أرض إذ بلغنى »** .

وفى رواية أوردها الشوكانى ، ورواه البيهقى من حديث أنس قال لما نزلنا على تستر فذكر الحديث وفيه «فقدمت على عمر رضى الله عنه فقال : يا أنس مافعل الستة رهط من بكر بن وائل الذين ارتدوا عن الإسلام فلحقوا بالمشركين . قلت : يا أمير المؤمنين قتلوا بالمعركة . فاسترجع ثم قلت : وهل كان سبيلهم إلا القتل . قال : نعم كنت أعرض عليهم الإسلام .. فإن أبوا أودعتهم السجن» ١٦٠/٧ . فهذا نص بجعل العقوبة السجن لا القتل .. وليس هناك ما هو أشد من استنكار عمر : « اللهم إنى لم أشهد ولم آمر ، ولم أرض إذ بلغنى » .

* * *

وقد يذكر هنا توعد عمر بن الخطاب جبلة بن الأيهم القتل إن ارتد . وجبلة بن الأيهم هو آخر الملوك العرب الغساسنة الذين تحالفوا مع الروم وقد اشترك معهم ضد المسلمين فى معركة اليرموك الفاصلة . فلما انهزم الروم أعلن جبلة بن الأيهم إسلامه وزار المدينة . وخلال طوافه بالبيت وطىء أحد الأعراب إزاره فلطمه لطمة أصابت عينيه . فاشتكى العربى إلى عمر بن الخطاب الذى احضر جبله وأمره باسترضاء الاعرابى أو القصاص فقال له : « تقص منى وأنا ملك وهو سوقه » فقال له : إن الإسلام سوى بينكما .. فطلب مهله للتفكير انسل خلالها عائداً إلى الروم وارتد ، وعاد إلى النصرانية .

ومن الواضح أن حالة جبلة حاله خاصة من ناحيتين : **أولا** أنه قائد عسكرى قاتل المسلمين قبل أن يعلن إسلامه بعد الهزيمة ، ويغلب أن يقاتل المسلمين إذا ارتد خاصة والحرب سجال ورحاها دائرة فهذا عنصر بعيد عن الردة بمعنى حرية الفكر .. **والثانية** أنه رفض تطبيق قانون الدولة الذى يوجب المساواة ، وهذا أيضاً عنصر جديد بعيد أيضاً عن الردة بمعناها المجرد . ولو كان جبلة بن الأيهم رجلاً عادياً لنفذ فيه القصاص فوراً ، أو لسجنه – إذا ارتد – كما رأى ذلك فى الحالة السابقة . ولكن جبلة بن الأيهم كان قائداً عسكرياً .. تمرد على تنفيذ قوانين الدوله. وهذه كلها عناصر تجعل القضية لاتنطوى تحت قضية الردة المجردة وعمر بن الخطاب هو صاحب الصيحة اللهم إنى لم أشهد ، ولم آصره ولم أرض إذ بلغنى » .

وأهم من هذا كله أن رسول الله ﷺ لم يقتل أحداً لا رجلاً ولا امرأه للردة وحدها . وقد رفض أن يجيب أحد الأعراب عندما قال له : « **يامحمد** أقلنى من بيعتى » ولكنه لم يلحق به أذى . ولانعرف ملابسات الموضوع . وقد انتقد مؤلف « عقوبة الارتداد عن الدين بين الأدلة الشرعية وشبهات المنكرين » الذين ذهبوا إلى أن النبى ﷺ لم يقتل أحداً بتهمة الردة وعاب عليهم عدم الرجوع إلى المصادر الوثيقة ... إلخ ... ثم قال : « وفى عام الفتح أمر ﷺ بقتل ابن خطل وكان مسلما ثم ارتد ورجع إلى مكة .. ولما علم بقدوم موكب الفتح بقيادة صاحب الدعوة هرع إلى المسجد الحرام وتعلق بأستار الكعبة ورغم هذه الحيلة أمر النبى بقتله فقتل حداً للارتداد بالدين » ...[1] .

فما هى قصة ابن خطل ؟

قال ابن اسحاق « وعبدالله بن خطل رجل من بنى قسم بن غالب وإنما أمر بقتله أنه كان مسلما فبعثه رسول الله ﷺ مُصَدِّقا .. (أى جامعا للصدقات وهى الزكاة) وبعث معه رجلاً من الأنصار وكان معه مولى له يخدمه .. وكان مسلما فنزل منزلا ، وأمر المولى أن يذبح تيسا له فيصنع له طعاما فنام فاستيقظ ولم يصنع له شيئا فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركا وكان له قينتان تتغنيان بهجاء الرسول ».

فهذا التقصى التاريخى يوضح أن للرجل ماضياً جنائيا يستحق عليه القتل خلاف الردة .

وذكر مؤلف « عقوبة الارتداد » فى مكان آخر من كتابه عن امرأه ارتدت يقال لها أم مروان ، أن الرسول أمر أن يعرض عليها الإسلام فإن تابت وإلا قتلت « وأحال فى الهامش على مرجعه نيل الأوطار » للشوكانى ٢١٧/٧ وكان من الأمانة أن يذكر ما أورده الحافظ عن ضعف إسناد الحديث . وقد أورد الحديث الزيلعى فى نصب الراية عن معمر بن بكار السعدى ثنا إبراهيم بن سعد عن الزهرى عن محمد بن المنكدر عن جابر ، وقال ومعمر بن بكار فى حديثه وهم ، وألحقه بحديث عن الدارقطنى أيضاً عن محمد بن عبدالملك الأنصارى عن الزهرى عن عائشة ، وقال : ومحمد بن عبد الملك هذا قال أحمد وغيره يضع الحديث وأورد الزيلعى حديث الدارقطنى رواية عبدالله بن أذينة عن هشام بن الغاز عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : ارتدت امرأه

(١) المرجع السابق ص ٥٨ .

الإسلام فأمر رسول الله ﷺ أن يعرضوا عليها الإسلام فإن أسلمت وإلا قتلت فعرض عليها فأبت أن تسلم فقتلت . وقال : « وعبد الله بن أذينة جرحه ابن حبان وقال لايجوز الاحتجاج به بحال ، وقال الدارقطنى فى المؤتلف والمختلف متروك ، ورواه ابن عدى فى الكامل وقال عبدالله بن عطارد بن أذينة منكر الحديث ولم أر للمتقدمين فيه كلاما» (٤٥٨ نصب الراية ج ٣) .

وقد فصل ابن تيميه فى هذه القضية إذ ذكر أن النبى ﷺ قبل توبة جماعة من المرتدين ، وأمر بقتل جماعة آخرين ضموا إلى الردة أموراً أخرى تتضمن الأذى والضرر للاسلام والمسلمين . مثل أمره بقتل قيس بن حبابة يوم الفتح لما ضم إلى ردته قتل المسلم وأخذ المال ، ولم يتب قبل القدرة عليه ، وأمر بقتل العرنيين لما ضموا إلى ردتهم نحواً من ذلك ، وكذلك أمر بقتل ابن خطل لما ضم إلى ردته السب وقتل المسلم – وأمر بقتل بن ابى السدح لما ضم إلى ردته الطعن عليه والأفتراء . وفرق ابن تيميه بين النوعين أن الرده المجردة تقبل فيها التوبة ، والردة التى فيها محاربة لله ورسوله والسعى فى الأرض فساداً لاتقبل فيها التوبة قبل القدرة[1] » .

فاذا أصر بعض الناس على صحة وقوة حديث « من بدل دينه فاقتلوه » فيصار إلى أنه للجواز وليس للوجوب ، ومايصرفه عن الوجوب هو ما سبق من الشواهد التى تثبت أن الرسول لم يقتل مرتداً لمجرد أنه « بدل دينه » ولكنه جمع إلى ذلك افعالاً من المحاربة التى تستحق القتل ، وما جاء من آثار عن عمر فى ذلك ايضاً واشرنا اليه . وعندئذ تحكمه ضوابط الجواز .

★ ★ ★

وهكذا يتضح من استعراض الاحاديث السابقة أن الردة كانت تقترن بمحاربة الإسلام والانضمام إلى اعدائه . . وأن هذا الجزء الأخير هو الذى أوجب قتالهم كمحاربين أو قتلهم عند القبض عليهم ، وقد كان هذا الجزاء هو ما تطلبته ظروف الدعوة الناشئة .

وقد يذكرون فى هذا الصدد حروب الرده التى قام بأمرها أبو بكر الصديق ويحتجون بها على قتال من ارتد . ولكن هذه الردة كانت فى جوهرها ردة عسكرية

---

(١) الصارم المسلول لابن تيمية ص ٣٦٨ مطبعة السعادة .

أكثر من كونها ردة دينية . فقد كان من هؤلاء المرتدين من يؤدى الصلوات وأرسلوا الوفود إلى أبى بكر ليصالحهم على أساس أداء الصلاة والامتناع عن الزكاة فرفض أبو بكر رض لأن الزكاة هى قوام الدولة الإسلامية ، ولم يقبل حتى من تأول منهم أن لهم بعض الحق فى عدم دفع الزكاة لأبى بكر على أساس أن الآيه تقول ﴿ **خذ من أموالهم صدقه تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم** ﴾ فقالوا لسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من كانت صلاته سكن لنا . وقال شاعرهم :

أطعنا رسول الله إذ كا بيننا
فيا لعباد الله ما لأبى بكـر

والحق أن كل شىء كان ينبىء أنها ثورة كما نقول – وقد بدأت بالأسود العنسى ومسيلمة فى الأيام الأخيرة للرسول . فما إنقبض الرسول حتى ثار الأسود العنسى واستحوز على صنعاء ، وطرد عمال الرسول .. وأخذ مسيلمة يجمع الجموع وتمردت عبس وذبيان وبنو أسد بعد أن تنبأ طلحه ، وأخذوا يتأهبون للغاره على المدينة بعد أن علموا بسفر جيش أسامة ، ولكن أبا بكر أستعد لهذا فجعل على أنقاب المدينة حرساً يسهر طول الليل ليدفع الهجوم ، وحدثت الغارة أكثر من مرة حتى انتصر عليهم المسلمون .

فالقضية واضحة كالشمس ، فهذه القبائل تصورت أنها يمكن أن تتحرر من تبعية الدولة الاسلامية . بل وأن تهاجمها وترثها ، فهى ثورة عسكرية تقنعت برداء دينى . ولم يكن هناك من طريقة للتصرف فيها غير القوة .

وكان أبو بكر رضى الله عنه موفقاً غاية التوفيق وسلك مسلك « **رجل الدولة** » القومى الأمين . ولا يمكن مطلقا الاحتجاج بحروب الردة كما اطلق عليها فيما نحن بصدده ، لأن حرية الفكر المجردة من العداوة وحرب الإسلام لم يعرفها المجتمع الإسلامى الأول . ولهذا لم يرد بشأنها نص خاص ، وينطبق عليها عموم حرية الاعتقاد التى فتحها القرآن على مصراعيها ، وبصورة مؤكدة ومقررة لايتطرق إليها أثارة شك . . .

د – إضافة الفقهاء :

توسع الفقهاء فى أمر الردة وجاءوا بإضافتين ليستا فى كتاب أو سنة .. وإنما هما مجرد اجتهاد محض منهم .

الإضافة الأولى ، هى الصيغة المشهورة التى تمثل أصدق تمثيل الصناعة الفقهية ، صيغة « من جحد معلوما من الدين بالضرورة » .

وقال صاحب « جوهرة التوحيد » ...

ومن لمعلوم ضرورة جحد　　من ديننا يقتل كفرا ليس حد
ومثل هذا من نفى مأجمع　　أو استباح كالزنا فلتسمع !

مع أن الأحاديث النبوية تقصر الإيمان على الشهادتين وتقنع بها وترفض تقصى ماوراء ذلك من علم أو جهل .. إقرار أو جحد ؛ لأن السنة لاتريد لهذا الباب أن يتسع ، وتريد أن تحصره فى أضيق نطاق ، فإن الفقهاء جاءوا ففتحوا الباب على مصراعيه وعلقوه على أمر اعتبارى ، ويمكن لأى فقيه أن يعتبر أمراً ما « من المعلوم من الدين بالضرورة » وأن من يجحده فهو كافر ، حلال الدم ... إلخ . وقد اعتبرت المحكمة السودانية التى حكمت على محمود محمد طه بالردة ، والموت ، أن من أسباب ردته انه جحد « الحجاب » وهو معلوم من الدين بالضرورة ...

وجاء فى أحد الكتب تحت عنوان « الكلمات تكون كفراً » ولو قال إن الصلاة لا توافقنى ، أو قال دارى مثل السماء والطارق ، أو قيل له هذا حكم الله فيقول لاأعرف حكم الله ، أو يقول أنا أعلم الغيب ، أو يقول الرجل لامرأته أحل الله أربعة نسوة فتقول له أنا لا أرض بهذا .. ولو قال ليت الزنا والقتل والغصب كان مباحا يكفر إلخ ...[1] » .

وقد يعرض الفقهاء تصورهم للردة بتعبير آخر خلاف « من جحد معلوما من الدين بالضرورة » هو « قول كفر أو اعتقاد كفر أو فعل كفر » وهو ما لايقل تعميماً أو شمولاً من صيغة « من جحد معلوماً من الدين بالضرورة » .. على أن الشيخ جاد الحق على جاد الحق اصدر فتوى نشرت خلال شهر رمضان فى جريدة الوفد (عدد ١٩٩٣/٢/٢٣) تصور العلاقة بين الاعتقاد والعمل جاء فيها :

(١) كتاب مفيد العلوم ومبيد الهموم للشيخ جمال الدين أبى بكر الخوارزمى – ص ٥٢ .

« أجمع المسلمون على أن من انكر ما ثبتت فرضيته كالصلاة أو الصوم ، أو حرمته كالقتل والزنا بنص شرعى قطعى فى ثبوته عن الله تعالى وفى دلالته على الحكم وتناقله جميع المسلمين كان خارجاً عن ربقة الإسلام لاتجرى عليه أحكامه ، ولا يعتبر من أهله . قال ابن تيمية فى مختصر فتاواه : « من جحد وجوب بعض الواجبات الظاهرة المتواتره كالصلاة أو جحد تحريم المحرمات الظاهرة كالفواحش والظلم والخمر ، والزنا والربا أو جحد حل بعض المباحات المتواترة كالخبز واللحم والنكاح فهو كافر »، لما كان ذلك ، وكان الشاب الذى افطر فى نهار رمضان عمداً من غير عذر شرعى . إذا كان جاحداً لفريضة الصوم ، منكراً كان مرتداً عن الإسلام . أما إذا أفطر فى شهر رمضان عمداً دون عذر شرعى معتقداً عدم جواز ذلك كان مسلماً عاصيا فاسقاً يستحق العقاب شرعاً ولايخرج بذلك عن ربقة الإسلام» !! .

ولا جدال أن هذا يمثل منزلقا خطيرا فى التشريع إذ هو يعطى الفقهاء سلطة كبيرة ، سلطة يصغر أمامها تحذير القرآن ، ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال .. وهذا حرام ﴾ ؛ لأن هذه السلطة لاتحكم على الأشياء ولكن على الأشخاص .. كما أن هذا التكييف « مفتوح » غير محدد ، يمكن أن يدخل فيه من يشاء ما يشاء ! وهو أمر يخالف قواعد التشريع التى تشترط التحديد وتميل للتقليل لا للتكثير .. وهى – أى هذه السلطة – تمثل خطرا ماحقا على حرية الفكر ، بل يمكن القول إنه لاتكون هناك حرية فكر مع وجود مثل هذه السلطة .

★ ★ ★

الاضافة الثانية : الاستتابة .. وهذه أيضاً مما لانجدها فى كتاب أو سنة فعلى كثرة مايحث القرآن والرسول المؤمنين على التوبة ، فانه لايمارس أبداً (الاستتابة) كالتى قررها الفقهاء .. ولعل الرسول لم يستتب أحداً الا ماروى عن أنه قال لمن طبق عليه حد السرقة: « قل تبت إلى الله » فلما قالها ، قال له الرسول « تاب الله عليك »[1] .

والاستتابة بالطريقة التى فصلها الفقهاء تفقد جوهرها ، فما دام هناك إرهاب وسيف وراءها فيغلب أن لا تكون نابعة عن رضا ، واقتناع وإيمان ، ولكن تعوذا من القتل وتخلصا من العقوبة ، فهى فى الحقيقة ارهاب فكرى واذلال نفسى .

وهاتان الاضافتان ، فقهيتان قلبا وقالبا ، معنى ومبنى ، ولانجد لهما ذكراً فى قرآن أو سنة ، بل إنهما يجافيان تماما روح الإسلام ويرفضهما كل من لديه « حس »

(١) وقد جاء لها ذكر عند عمر بن الخطاب ، ولكننا هنا نتحدث عن الله والرسول .

اسلامى أصيل تكوّن فى النفس ثمرة لقراءة القرآن ومطالعة السيرة ، والشىء الوحيد الذى اقحمها فى كتب الفقه هو « فنية الحرفة الفقهية » ورغبة الفقهاء أن يكون فقههم شاملا ، كاملا ، لايفلت صغيرة ولا كبيرة والوصول بما ارسوه من أصول ومبادىء إلى غايتها .

★ ★ ★

فاذا لم يكن هناك حد ، ولا استتابة ، فلا يكون هناك تعزير ، لأن الأمر كله أمر فكر ، وإيمان واعتقاد ...

★ ★ ★

الاســتفزاز ...

ولكن ، هل معنى هذا أن كل واحد يستطيع أن يقول ما يشاء .. ويمكن لكل كاتب أن يسوّد من الصفحات مايشاء ؟ ويقذف بها فى وجوه الآخرين ؟

إنه لمن البدائه أنه لايجوز لاحد – بحجة الحرية – أن يسب ويلعن أو يهين ويقذف .. فحرية السب والشتم هى مما لاتوجد بين الحريات ، ولا أحد يدافع عنها ، أو يطالب بها .. لان هذا يعنى الاسفاف والنزول بلغة الحوار إلى مستوى القذف والمهاترات .. لا الحجة والبرهان .. وبصرف النظر عن أن هذا لن يؤدى إلى حقيقة ، أو يكشف عن فكر ، فانه بالطبع يهبط بالمستوى الخلقى ، والتهذيب ، والحفاظ على الكرامات ...

وهذا كله لا علاقة له بحرية الفكر ، وإنما يدخل فى باب القذف والاهانة ... والإسلام – بالذات – حريص كل الحرص على كرامات الأفراد .. وقد سن عقوبة قاسية ورادعة للقذف ...

والفرق بين الفكر ، والقذف .. أن الفكر ينصب على الموضوع والمقولة ، وأن القذف ينصب على الشخص والقائل .. وأن الصفات التى يطلقها الفكر تدور حول الخطأ والصواب فى الموضوع ، طبقا لمعايير منطقية ، بينما يتناول القذف شخصية المقذوف وسلوكه ، وخاصة أمره وتصرفاته دون أن يكون لها علاقة بالموضوع !

وما بين المعالجة الموضوعية التى تحميها حرية الفكر ، وبين القذف الذى يدخل فى

إطار المحرمات ، يمكن أن توجد حالة بعيدة عن الأولى ، قريبة من الثانية ، إن لم تكن بالصراحة التى توقعها تحت طائلة قانون القذف .

وهذه الدرجة التى تخرج عن دائرة الحرية ، دون أن تدخل فى شرك القذف يمكن أن تدور ما بين الإسفاف والاستفزاز وسنطلق عليها هنا « الاستفزاز » .

وقد تكون الآثار السيئة للاستفزاز أفدح من آثار القذف ، لأنها وهى تتفادى طائلة القانون ، تتناول الموضوع لا بالصورة الموضوعية ، ولكن بصورة تتضمن قدرا من الإساءة ، ولما كانت تخلص من مسئولية القذف فيمكن أن تمضى قدما ، ويزداد الأثر السيء لها .. وتعد البديل الذى لا يعاقب عليه القانون للقذف .

وأشار أحد كتاب جريدة الأهرام إلى صور من الاستفزاز يلجأ إليها بعض الكتاب والآثار السيئة .. فقال :

«أريد أن أقولها صريحة .. للوطن ، وللإسلام .. أنه إذا كان التطرف الدينى برميلا للبارود فإن التطرف الفكرى كثيرا ما يكون شواظا من نار تلقى على البرميل فينفجر !

إن التعريض الساخر برموز إسلامية تستحوذ على حب الناس ، ينطوى على استفزاز للمشاعر ...

وإن السرد العمدى لأخطاء الدول الإسلامية عبر التاريخ الإسلامى دون غيرها من المزايا .. ينطوى على استفزاز للمشاعر ، وإن التهكم على شخصيات إسلامية لها مكانتها المرموقة فى التاريخ الإسلامى وفى نفوس المسلمين ينطوى على استفزاز للمشاعر .. وإن محاكمة الإسلام بأخطاء المسلمين لتجريح الإسلام نفسه ينطوى على استفزاز للمشاعر ...

إن هذا الاستفزاز ، هو نفسه أحد دوافع الإرهاب ، وهو نفسه أحد أسباب التطرف الدينى ...

إن « التطرف المستفز » يلعب الآن فى كثير من الصحف ، دور النافخ فى النيران وكأنه يريد لها ألا تنطفىء ، ويريد أن يتسع أوارها فتأكل الأخضر واليابس !! .. ولا عجب ، ربما ، كان ذلك لان النافخين فى النار لهم نفس أهداف الإرهابيين وهى الوصول إلى السلطة عن طريق الفوضى والخراب .

ومن المثير للألم والحزن ، أن هذا « التطرف المستفز » لا يفجر التطرف الدينى ولا الإرهاب فحسب ، بل هو دعوة لكل (المعتدلين) ولكل (المحايدين) لاتخاذ موقف !!

وأيا كان هذا الموقف الذى (يستحثه) المتطرفون المستفزون ، فإن نتيجته الحتمية ، هى اتساع مدى الصدام بإضافة أعداد أخرى على طرفى الجدل الساخن» (أنتهى)[1] .

ونعتقد أن مثل هذا الاستفزاز موجود ، وأنه قد جاء وقت أعطى بعض الأفراد من السلطات والنفوذ ما لايتفق مع حجمهم ومواهبهم وأنهم سخروا هذه السلطات لإشباع مشاعرهم الخاصة على حساب القيم والمثل والرموز الإسلامية .

والأمثلة عديدة وسأجتزى ببعضها .

١ – جاء فى مقال الأستاذ فهمى هويدى فى مقاله الأسبوعى بجريدة الأهرام يوم ١٩٩٣/٧/١٣ تحت العنوان الفرعى « أصبحنا الجدار المائل » :

بقيت ملاحظة أخيرة فى الموضوع وهى أن حالة الاجتراء والتطاول فى كتابات العلمانيين مقصورة على الرموز الإسلامية دون غيرها وبين يدى نصّان لاثنين من الكتاب العلمانيين فى مصر ، أحدهما مسلم خاطب شيخ الأزهر والثانى قبطى خاطب البطريرك ، سأورد فقرات من النصين لمجرد إدراك الفرق وسأترك التعقيب والتفسير للقارىء .

« فى عام ١٩٨٨ كنت قد نشرت سلسلة من المقالات فى الرد على عدة كتب ظهرت آنذاك شنت حملة شديدة على الشريعة الإسلامية وتساءلت فى ختامها عن الجهة التى تقف وراء اصدار أمثال تلك الكتب أو التى يمثلها أولئك الكاتبون وقتذاك بعث إلى شيخ الأزهر خطابا أيدنى فيما ذهبت إليه وردد تساؤلاتى قائلا : ترى من وراء هذا المخطط الذى تبنته بعض الصحف والمجلات فى مصر ، وهذه المطبوعات التى تظهر بين الحين والحين لتصد عن سبيل الله . . ثم قال إنهم بهذا المخطط يناهضون طلب الإصلاح بالإسلام .

---

(١) الأهرام . الدكتور محمد اسماعيل على « الشعب هو المنتصر » يوم ١٩٩٣/٧/٣١ ص ٨ .

حين نشرت رسالة الإمام الأكبر انبرى أحد الكتاب العلمانيين ونشر فى جريدة « الأهالى » فى عدد يوم ١٩٨٨/٣/٢٢ تعليقا تحت عنوان « لشيخ الأزهر أن يحمد الله » اتهمه فيه بارتكاب « جريمة » القذف بحق الآخرين ، واستهله بقوله : لشيخ الأزهر أن يحمد الله كثيرا على أن الشريعة ليست مطبقة فى مصر ، لأنها لو طبقت لاستحق أن يجلد تعزيرا بتهمة القذف ، وأغلب الظن أن ذلك كان سيحدث على ملأ ، وأن جسده الرهيف كان سيعجز عن تحمل قسوة الجلاد . وبينما وصف جسد الإمام الأكبر بأنه ذاق حلاوة السمن البلدى وطراوة الزبد الهولندى فإنه ملأ مقاله بالهمز واللمز والتبكيت والتحقير مستخدما تشبيهات بذيئة للغاية ، وختم مقاله قائلا : أصمت نصمت ، وكف نكف لأنك إن عدت عدنا ، وإن قلت زدنا .

فى مقابل ذلك نجد نصا جديرا بالاحترام والتقدير نشره الدكتور ميلاد حنا وهو من العلمانيين الأقحاح ، تعقيبا على خبر نشرته مجله «روز اليوسف » أشار إلى أن الدكتور حنا يقود الاتجاه العلمانى الداعى لرفع يد البابا عن شئون الأقباط فى مصر .

فى عدد ١٩٩٣/٧/٥ ، نشرت المجلة التعقيب الذى قال فيه الدكتور ميلاد حنا ما نصه : أما أن أدعو لرفع يد البابا عن شئون الأقباط فلتقطع يد من يقول ذلك والذى سمح لنفسه بتفوه هذه الجملة ، ومن ذا الذى يستطيع أن يفكر فى أن ترفع يد البابا عن شئون الأقباط وهى شغله الشاغل صباح مساء وعلى مر الأيام ، وله فى قلب كل قبطى ، بل أقول فى قلب كل مصرى ، مكانة رفيعة غير متكررة فى تاريخ البطاركة الأقباط » .

★ ★ ★

٢ – والمثال الثانى يعود إلى عام ١٩٨٣ ، ففى أحد أيام رمضان المبارك فوجىء قراء الأهرام بكاريكاتير صلاح جاهين وهو يمثل شخصا « عُتُلا » يحمل فى يده اليمنى زجاجة شراب تتساقط النقط منها ، وفى فمه سيجارة مشتعلة ، ووراءه الشمس ساطعة متوهجة . . وهذا العُتُل يقول : (أيوه أنا اسمى رمضان . . فيه حاجة لمؤاخذة !) . **« أنظر صفحة ٨٦ »** .

والرسم تحد وقح لمشاعر كل المسلمين الذين يصومون هذا الشهر ، وإلا معنى له إلا الوقاحة والاجتراء والبعد عن آداب السلوك ، وقد كان جديرا بمن رسمه وهو يدعى (العصرية) أن يعلم أن الدول الأوروبية تحرّم التدخين فى كل الأماكن العامة والمواصلات[1] .

---

(١) عندما وقع نظرى على هذا الرسم ، غلى الدم فى عروق ، وأرسلت برقية إلى رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الشورى جاء فيها :

. . . .

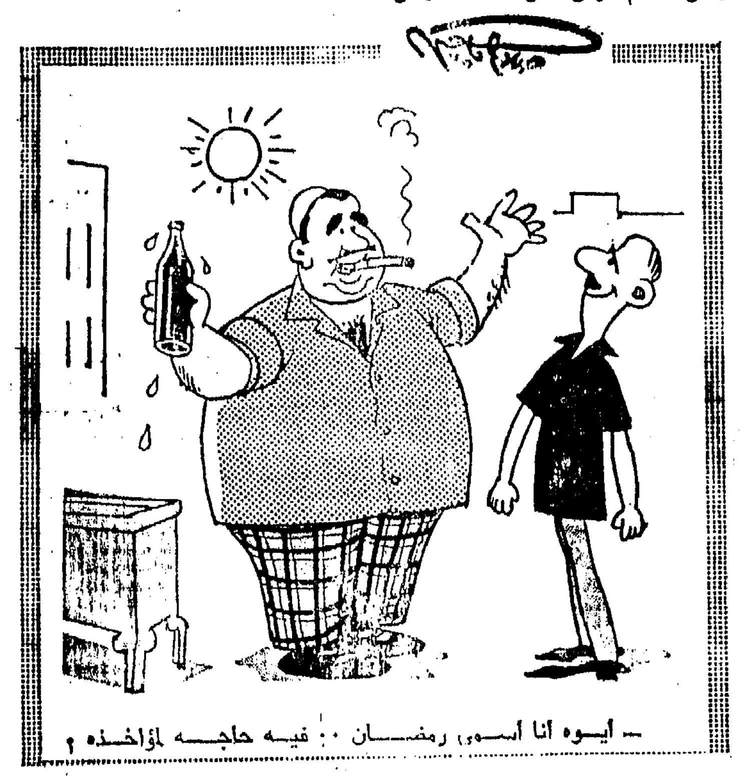
= « كاريكاتير الأهرام اليوم الخميس مثال صارخ لتحدى مشاعر الشعب وطعن أقدس مقدساته وسيحسب على الحكومة والصحافة القومية .. حرية المعارضة شيء ، والجليطة والاستهانة بمشاعر الناس شيء أخر !! »

كما كتبت إلى الأستاذ عبدالله عبد البارى والأستاذ إبراهيم نافع :

«الكاريكاتير الذى نشره الأهرام اليوم (الخميس ١٩٨٣/٦/٢٣) مثل صارخ للفجاجه والجليطه والوقاحه . وإذا كان فى رسامكم عرق ينبض بالفسوق والشهوات يحاول أن يدسه فى رسومه – أو إذا كان قد أفلس ولم يعد لديه إلا سقط المتاع – كما تشهد بذلك رسومه الهابطه والساقطه فواجب الأهرام ورئيس تحرير الأهرام أن يجنب الأهرام وقراءه هذا الاسفاف .

وقد سمعنا عن رسام بحزب العمال يرسم فى جريدة حزب المحافظين ولا تقيد حريته – لكننا لم نسمع ابداً عن رسام يتطوع بتحدى مشاعر القراء جميعا وطعن أقدس ما يعتزون به بدون أى داع . وبتجرد كامل من الذوق والذكاء ..

لقد مزقت الأهرام علنا فى الأتوبيس هذا الصباح عندما وقعت عيناى على هذا الكاريكاتير وأعتقد أن على الأهرام أن يعتذر بسرعة لقرائه ويتخذ إجراء مع المسئوول .. قبل أن يسقطه القراء من حسابهم . تدعى أنك رجل مسلم مؤمن فأين حميتك يارجل ؟» جمال البنا



— أيـوه أنا أسـمى رمضـان .. فيـه حاجـه لمؤاخـذه ؟

٣ - نشرت مجلة الشعب (الجمعة ١٩٩٣/٩/٢٤ - ٧ من ربيع الآخر ١٤١٤) كلمة تحت عنوان « علماء الأزهر يدينون التطاول على الشيخ جاد الحق » جاء فيها أن الكاتب عبد العظيم رمضان نشر فى مجلة أكتوبر (العدد الصادر فى يوم ١٩ سبتمبر ١٩٩٣) مقالا بعنوان « لا يافضيلة الشيخ » رداً على ما أدلى به فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر فى لقائه مع رجال القضاء والنيابة العامة بالإسكندرية مؤخراً من أن فوائد البنوك من الربا المحرم . وقد تضمن المقال تطاولا صريحا على فضيلة الإمام ووصفه بما لا يليق بمركزه كاكبر شخصية دينية فى العالم الإسلامى ، كما أشتمل المقال على عبارات نابية لاتصدر الا من جاهل أو حاقد على الإسلام وأئمة المسلمين مثل (ادار فيه اسطوانته المشروخة التى يردد فيها أن فوائد البنوك حرام ، اختار اسوأ الاوقات ليدير فيها هذه الاسطوانة البالية ، إن هذا الرأى تعارضه أراء أخرى لفقهاء إسلاميين ربما كانوا أكثر من فضيلته فقها وعلما .. ثم ألم يكن هذا الرأى نفسه هو الذى خرب بيوت المسلمين ، فقد كان هو الذى استند اليه النصابون فى تأسيس شركات توظيف الأموال للضحك على ذقون المسلمين والاستيلاء على أموالهم ... إلخ) .

وقد كان الكاتب فى غنى أن يشار اليه كجاهل - وهو فعلا جاهل بأبعاد قضية الربا - لو أنه أورد آراء العلماء الذين قد يكونون أكثر من فضيلته فقها وعلما كما زعم .. وما الداعى لاستخدام هذه اللغة المبتذلة والأسلوب السوقى وهو يحمل «دكتوراة» ويتحدث فى موضوع فنى ويخاطب شخصية لها احترامها وتقديرها بحكم صفتها ، لاداعى ، إلا التجريح !» .

* * *

فاذا كان الذين يلجئون الى الاستفزاز أو التطاول أو ساقط القول وينتهكون المقدسات ، ويتهجمون على الرموز يمكن أن يخلصوا من ولاية القضاء ، ويمكن أيضا أن يحال بين من يرد عليهم والنشر ، لأن الصحف عادة تخضع لمجموعات معينة مجافية للاتجاه الإسلامى فهناك وسيلة أخرى يمكن الأخذ بها ...

أذكر أنى قرأت عن جنرال نمساوى أرسلته النمسا ليخمد إحدى القومات الشعبية بالمجر ، وكانت النمسا وقتئذ (قبل الحرب العالمية الأولى) تحكمها .. واستخدم هذا الجنرال وسائل قاسية فى الزج بكل من اشتبه فيهم فى السجون ، وقيل إنه قبض على احدى السيدات وجلدها فى السجن .. وقدر لهذا الجنرال أن يزور لندن ..

وبينما كان يسير فى أحد ميادينها تعرفت عليه سيدة مجرية كانت قد علمت بأفعاله .. فرفعت يدها وصفعته على وجهه بكل قوتها ! وأقام الجنرال قضية عليها فى محكمة «أولد بيلى» المشهورة .. وما أن سمعه القاضى مبررات السيدة حتى حكم لها بالبراءة فورا .

وما أكثر ما كنت أسائل نفسى : ألا نجد رجلا مصريا له شجاعة هذه السيدة ليصفع بأقوى ما يستطيع نذلا من انذال التعذيب يكون قد عذبه ؟

وكتبت الى مجلة الشعب إثر ما كانت تنشره من أوصاف لممارسات التعذيب تقشعر لها الجلود كلمة موجزة بهذا المعنى بعنوان «**كيف لايجد من يصفعه؟**» ولكن المجلة لم تنشرها !

وأعتقد أن من عبقرية السنة ، ومن دلائل إعجاز النبوة الحديث الذى أوجب تغيير المنكر على من يراه بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان وأرى أن من الحق المشروع لكل واحد تتعرض كرامته لاهانة أن يرد هذه الاهانة باليد إن استطاع لأنها أكثر الطرق مباشرة وتأثيرا فى مثل أصحاب العواطف الميتة والضمائر المتحجرة !

إن شائنة سلمان رشدى (آيات شيطانية) لا يمكن أن تعد قطعة من الأدب أو الفن فى شىء .. فهى رواية رديئة هابطة حافلة بالشتائم والتعبيرات القذرة ، وبالتالى فإنها لاتستحق نقدا فنياً ، أو حماسة فكرية ، وانما تدخل فى باب القذف والالفاظ التى تعف عن استخدامها حتى صحف الاثارة فى بريطانيا وما كان مثل هذا الاسفاف ليستحق فتوى الأمام الخومينى ، لأن أى رجل مسلم لو قابله وصفعه ثم قدم للقضاء لبرىء[1] .. وهذا هو كل ماكان يستحقه !

إن مثل هذا التصرف المباشر هو أكثر صور التصرفات حكمة من كل الجوانب لأنه يعيد الكرامة لمن امتهنت كرامته ، وهذا حقه ، وهو أولى بأن يباشره ، واذا كانت القوانين قد نظمت مباشرة العقوبات ووكلتها الى أجهزة الحكومة ، فانما قامت بذلك على أساس تنظيمى ، وبفكرة أن الدولة تنوب عن المواطن ، فاذا أختلت المقاييس وتعقدت الأسس التنظيمية وأغلقت قنوات الاتصال والانتصاف المنهجية .. فمن الطبيعى أن يكون الأصيل أولى من الوكيل ولا عدوان والقضية بعد لا تتضمن عدوانا

(١) يحمى القانون البريطانى الديانة المسيحية من القذف . ولكن هذه الحماية لا تمتد إلى الإسلام !!

على طرف ثالث فهى بين مظلوم وظالم ، مجنى عليه ، وجان ، ولا يجوز لولاية الدولة أن تنزع من الشعب حقوقه الأصلية أو ترتهن كرامته وارادته وتضعها تحت رحمة بيروقراطيتها .

وعلى كل حال فإن تدخل الدولة سيحدث ، وسيعرض الأمر على القضاء ، فالخلاف هو فى أولويات التسوية وتطبيقها بصورة لاتحرم الفرد من حقه وفى الوقت نفسه لاتجرد الدولة من التدخل لمباشرة تحقيق العدالة .

ومامن دولة تسمح بامتهان كرامة الأفراد ، إن كل النظم يجب أن تكون لحساب حماية حقوق أفراد الشعب ورعاية كرامتهم وتنمية شخصياتهم ، واقامة الحقوق وتغيير المنكرات .

وما ظل الموضوع فى الحدود التى ذكرناها ، فليس هناك أى خطورة ولكن قد توجد المخاطر عندما يساء فهم المبدأ ، أو يطبق فى غير الحالة التى ذكرناها على وجه التعيين .. فلا يمكن تطبيقا للأمر بالمعروف أو النهى عن المنكر ،حرق محل فيديو أو مهاجمة راقصة أو تخريب حانة .. فهذه حالات مختلفة تماما عن الحالة التى ذكرناها ، وحبذنا فيها التدخل باليد ، وهذه الممارسات الأخيرة نوع من المراهقة الفكرية أو التشنج المذهبى !

كما لايجوز أن يصل الأمر إلى القتل ، لان الإسلام قدس الحياة وجعل القتل مثيلا للشرك ، والخير دائما أن يوكل للدولة حتى يمكن التثبت من الضمانات اللازمة قبل توقيع عقوبة لايمكن الرجوع فيها ، حتى وإن كان القرآن قد أعطى للولى سلطات ، لان الممارسة السليمة لهذه السلطات تتطلب تدخل الدولة للتثبت من الضمانات !

* * *

وبعد كتابة الفقرات السابقة طالعتنا مجلة الأهالى فى صدر صفحتها الأولى من العدد الصادر يوم ١٩٩٣/٩/١٥ بخبر يقول :

« محافظ أسيوط يدعو لمواجهة الأرهاب بالثأر»

جاء فيه :

«دعا اللواء محمد سميح السعيد محافظ أسيوط عائلات ضحايا الإرهاب إلى الأخذ بثأرهم دون انتظار ملاحقة الشرطة للجناة، وأعرب المحافظ عن دهشته من تمسك العائلات بعادات الثأر فى الجرائم العادية وتجنبها عندما ترتكبها الجماعات الإرهابية ! ؟ .

ودعا المحافظ - أمام مؤتمر للتعليم يوم الأربعاء الماضى : لا يجب أن تتعلل عائلات الضحايا بعدم معرفتهم للجناة ، لأن الجميع يعرفونهم جيدا خاصة فى القرى التى لايخفى عنها شىء ...»[1] .

وهكذا (قطعت جهيزة قول كل خطيب) .. فأن يطالب المحافظ وهو رجل السلطة والمسئول عن الأمن الناس بأن يأخذوا بثارهم ، هو ما يوضح لنا أنه قد أصبح هناك حاجة إلى مثل هذا النوع من الممارسة .. ولو طالب بذلك أحد الكتاب لاعتبروه تعديا على حق السلطة ، ولكن السلطة الآن تنادى به ، ولآخر مدى .. القتل ! فى حين أننا فيما عرضناه استثنينا - تماما - القتل ، وأنه لا يجوز !

وخلال إعداد الكتاب للطبع قرأنا عَرَضاً خلال تصفحنا كتاب «عقوبة الارتداد عن الدين بين الأدلة الشرعية وشبهات المنكرين» أربعة سطور جاءت فى آخر الكتاب تضمن أحدها اشارة الى من وصف القرآن الكريم بأنه «كتاب متخلف» وتضمنت السطور الباقية «وكانت ثالثة الأثافى أن وصف كاره آخر لما أنزل الله فى هذا العام ١٩٩٣ كتاب الله العزيز بأنه كتاب «جبان» كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً» (ص ٩٧) .

وعجبى لا ينقضى من المؤلف الذى لم يعرفنا باسم هذا السفية ، كما لم يذكر لنا ماذا فعل هو وهو كاتب مسلم ، ولا السبب الذى يجعله يتستر عليه ويكتفى بان يقول «كوفىء الذى وصف القرآن الكريم بأنه كتاب جبان من الدولة فى عيد الاعلاميين ١٩٩٣/٥/٢٧ فمنحوه وسام تقدير بعد شهر واحد من نشره هذا الكفر» . ونحن لا يعنينا كفره فى شىء ، فكفره على نفسه ، وإنما يعنينا أنه أهاننا جميعاً ، وأن كلمته تلك إنما هى صفعة مدوية على وجوهنا ، وكان يجب أن يقدم للقضاء بتهمة القذف والمساس بأقدس مقدسات المسلمين ولا يماثل عجبى من جرأته سوى عجبى من استخذاء الكتاب المسلمين وانعدام نخوتهم فإن أى قضية «حسبة» ترفع ضد هذا الأفاك الأثيم كانت ستلقنه درساً فى الأدب والذوق ؛ لأن وصف القرآن العظيم بأنه جبان - اذا صح وصف المؤلف - لا يمكن أن يدخل فى حرية فكر ، ولا يمكن لأى قاضٍ أن يتقبله أو يسمح به . نحن وإن كنا نقدس حرية الفكر ، إلا أننا أيضا نقدس الذوق والأدب والتهذيب ولا نسمح «بجليطة» أو «فجاجة» أو قذف .

---

(١) وكرر هذه الدعوة مرة أخرى كما جاء فى العدد التالى لمجلة الأهالى (١٩٩٣/٩/٢٢) !!

ملاحظات ختامية :

إن استعراض ماجاء فى هذا الباب بأسره يثير هذه الملاحظات التى نختم بها الباب :

أولاً : إن الفقهاء قد انحازو تماماً ، وبالكامل ، للخط الفقهى السلفى المقرر دون أن يحاولوا الاجتهاد ، حتى الشيخ محمد الغزالى الذى عبر فى كتبه عن ضيقه بالتزمت واتباع بعض الأحاديث دون تحقيق ، وتحدث - فيما يتعلق بالرده - عن السجن وليس القتل فى شهادته فإنه فى كتاباته اللاحقة التى أوردناها ، سار مع الخط المقرر .

ثانيا : إن الفقهاء لم يفرقوا بين حرية الفكر وبين أمرين آخرين تكررا فى كتاباتهم أولهما : السخرية والاستهزاء بالدين والتطاول عليه وثانيهما العمل على حرب الإسلام وهدم دعائمه . واعتقدوا أن الردة تصطحب ضرورة بالأمرين .

وعذرهم أن هذين الأمرين صاحبا الردة فى الأيام الأولى للإسلام ، وقد أشار القرآن إلى تظاهر بعض أهل الكتاب بالإسلام أول النهار والكفر به آخره لتوهين ثقة المسلمين بعقيدتهم كما أن محاولات وأساليب الاستفزاز والتطاول لاتنقص بعض الكتابات المعاصرة ..

ولكن هذا لاينهض عذراً قويا ؛ لأنه أقرب إلى الشبهه .

ثالثا : كان يمكن للفقهاء لو أنهم أجهدوا فكرهم قليلاً ولم يحصروه فيما كتب الأسلاف - أن يعالجوا القضية من منظور جديد لا تتركز المعارضة فيه حول ردة العقيدة التى أوضح القرآن أن حسابها إلى الله يوم القيامة ، ولكن على ما يمكن أن تؤدى إليه الردة - أو الأسلوب الذى تأخذه - من آثار على سلامة المجتمع لأن الله تعالى غنى - بداهة - عن العالمين ، وما يمكن أن يتخذ من إجراء تجاه الردة إنما يكون لمصلحة الناس والمجتمع - دون أن يحيف هذا على حرية الفكر المقدسة وكان يمكن عندئذ أن يقفوا جنباً إلى جنب فلاسفة دعاة الفكر . وفى الوقت نفسه - يطبقون توجيه القرآن المتكرر عن حرية الفكر والعقيدة والضمير .

رابعا : لم يكن ليصعب عليهم أن يبرزوا أن الإسلام كما هو عقيدة تتمحور حول الله تعالى ووحدانيته واليوم الآخر والبعث والحساب ورسالة سيدنا محمد ، فإنه أيضاً

مبادىء اجتماعية وسياسية واقتصادية وردت فى القرآن صراحة عن تحريم للربا وايجاب للزكاه وتنديد بالظلم والطغيان إلخ . . وأن هذه المبادىء تكوّن فى مجموعها « النظام العام » الذى تحميه القوانين فى أكثر الدول ديمقراطية : ومن هنا يجب تكييف موقف المرتد من هذا « النظام العام » . إنه لمن المفهوم أن تضيق الدول الديمقراطية بأى دعوة لنبذ الديمقراطية واطراحها ، وإحلال الفاشية أو السوفيتية محلها ، والعكس بالعكس ، أى أن الدولة الاشتراكية أو الفاشية لا تسمح بدعوة لاطراح نظامها وإحلال الديمقراطية ، ومن المشكوك فيه أن يُسمح بقيام حزب يدعو لتأميم وسائل الإنتاج (على الطريقه السوفيتية) فى الولايات المتحدة . وقد عارضت السلطات فى فرنسا وبريطانيا ارتداء طالبات مسلمات الحجاب على اساس أنه يخالف العرف الأوروبى . .

لو أنهم سلكو هذا المسلك . فأدانوا السخريه والتطاول والإهانه والاستفزاز . ودعوا لدراسة آثار الردة على النظام العام وماتأخذ به الدول الديمقراطيه من حماية للنظام العام ومقاومة من يعارضه لكسبوا الرأى العام ووضعوا خصومهم فى مأزق بدلاً من استلهام فهم فقهى ضيق واستخدام صيغ وأساليب منفره – متخلفة عما يفهمه الناس .

كان يمكن لهم أن يحققوا هذا كله لو أنهم فكروا بعقولهم – لكنهم آثروا أن يفكروا بعقول الأسلاف . فكانوا كأهل الكهف الذين أرادوا أن يتعاملوا بعملة منقرضه لا تستخدم فى الأسواق وإنما توضع فى المتاحف .

الباب الثانى

كلا لأدعياء التنوير

الفصل الأول : التنوير والآلهة الزائفة

الفصل الثانى : التجارب الثلاث للتنوير فى مصر (محمد على - البرجوازية - عبد الناصر)

الفصل الثالث : أزمه ادعياء التنوير « الصراع بين الذات والموضوع »

الفصـــل الأول

التنوير والآلهة الزائفة(*)

لو أن القضية قضية تنوير – كما يدعون – لرحبنا بها ، ولقلنا إنها قضيتنا .. فالإسلام فى أصل التنوير ، وانما جاء ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، وهى «آية» متكررة فى القرآن ... وقد أطلق الله سبحانه وتعالى على القرآن الكريم نفسه « النور » ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله ، والنور الذى أنزلنا** ﴾ (التغابن ٨) ﴿ **يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وأنزلنا إليكم نورا مبينا** ﴾ (النساء ١٧٤) .. والنور كذلك اسم من أسماء الله تعالى ، والله ﴿ **نور السموات والأرض** ﴾ (النور ٣٥) .

فالتنوير هدف أصيل من أهداف الإسلام – وقد حققه عندما كانت له السيادة ، وأى مقارنة بين العهد الإسلامى فى أسبانيا والعراق ومصر ، وما كان يشعه من أنوار

(*) انتقد أحد قراء الأهرام فى رسالة إلى بريد القراء (٩٣/١١/٦ ص ٩) تعبير «التنوير» لأنه على وزن «تقوير» و «تكدير» واقترح القارىء الاستعاضة عنه بتعبير «الاستنارة» التى توحى بالمنارة . وكان يمكنه أن يقول إن كلمة تنوير توحى كما لو إن التنوير مفروض ، وأن الاستنارة مطلوبة ، ومع هذا سنحتفظ بتعبير «تنوير» لأنه أصبح يطلق على حركة أو اتجاه معين ...

باهرة ، بما كان يسود المجتمعات الأوروبية نفسها من ظلمات وجهالات فى - القرون المظلمة - تؤكد هذه الحقيقة .

المشكلة أن هناك فئة تخصصت فى السطو على الألفاظ والاستحواز عليها ، وادعائها لنفسها خاصة من دون الناس ، فالاشتراكية التى آمنوا بها هى الاشتراكية «العلمية» والاشتراكيات الأخرى «طوبوية» أو خيالية ، ونظامها «ديمقراطية شعبية» ! وليس هناك ماهو أبعد عن الديمقراطية والشعبية منه ، ولا تحمر وجوههم خجلا وهى تدعى الحرية ! ولم تُبل الحرية بمن هو أعدى منهم لها ، وقد كانوا هم الذين أبدعوا - قبل النازى والفاشست - نظم ومعسكرات الاعتقال والتعذيب والحكم الفردى ... الخ .

وهذه الفئة ترفع اليوم لافتة «التنوير» وهم لايقولون لنا ماهو هذا التنوير ؟، ماهى مقوماته أو أصوله ؟ أو أين يباع أو يشترى ؟، وتتردد على ألسنتهم كلمات معينة مثل «العلمانية» و «المشروع الحضارى» و «الفصل بين الدين والدولة» .. ويشنون حملة ضارية على «الإسلام السياسى» .. وشعار «الإسلام هو الحل» هو الثوب الأحمر الذى يثير الثور ويطلقه من عقاله .. وقد ركبوا موجة تلك الظاهرة التى أطلق عليها «الإرهاب» واستغلوا ذعر وجهل السلطات ، فملأوا آفاق المجتمع المصرى بغثائهم وثغائهم .

ويفهم من كتابات هؤلاء أنهم يؤمنون بثلاثة آلهة ، ويبشرون بعبادتها .. ويرون فيها التنوير المنشود .. وهذه الآلهة هى : الحضارة الأوروبية ، والاشتراكية ، والقومية العربية .

ففى كل كتابات التنوير المزعوم نجد الدعوة لأحد هذه الآلهة ، أو لها جميعا - وليس هناك تناقض - فالاشتراكية هى إحدى ثمرات التطور الاقتصادى فى أوروبا والقومية العربية هى مثيلة القوميات التى سبقت ظهور الحضارة الأوروبية .

١ - الحضارة الأوروبية :

القضية الهامة فى الحضارة الأوروبية التى يجب أن تكون نصب أعيننا ، والتى سيتوقف عليها الحكم ، هى مدى ملاءمة هذه الحضارة للشعب المصرى بأفكاره وتقاليده وموروثاته وتطلعاته .. إن الحضارات لايمكن أن تنقل من مكان الى آخر كما تنقل قطع الأحجار ، ولا يمكن أن تنسخ كما لو كانت «أصلا» يؤخذ منه صورة كربونية .. فالحضارة تتمحور حول الإنسان سواء كان فردا أو مجتمعا . وهذا الإنسان يعيش على أرض معينة ، ويرتبط بتاريخ معين ، ويعيش مع مجموعات لها ثقافة

ولغة ، وعادات واحدة .. وعندما يراد اقتباس أوضاع حضارية ، فإن هذه الأوضاع لابد أن تتجاوب مع العوامل الحية فى المجتمع ، والا فقد يرفضها المجتمع كما يرفض الجسم الحى أى عناصر غريبة عنه تقحم عليه ، وقد يحاول أن يأخذ جانبا ، ويدع جانبا ويكون عليه أن يوفق فى عملية انتقائية تلفيقية صعبة .. وقد لاينجح رغم مابذل من جهد .. كل هذه اعتبارات لأبد أن نعلمها جيدا وأن نضعها نصب أعيننا ، ولابد أن نعلم أن الحب والهوى من ناحيتنا ، أو الجمال والرونق من ناحية الحضارة لاتكفى لاصطناع أوضاع حضارية ؛ فقد نعجب بثوب ما ، ولكننا نعلم أننا لانستطيع أن نلبسه لعدم ملاءمته للمقاس أو عدم صلاحيته للمناخ ... إلخ .

والأمر فى الحضارة أصعب ، لأن الحضارة أشبه بشجرة جذورها غائرة فى أعماق التربة تمسكها أن تحيد بها الرياح وتمدها بعناصر الغذاء .. وهذه الجذور التى لانراها هى التى تحول دون أن تقتلع الشجرة ، أو تحول دون اعادة زرعها بنجاح لو اقتلعناها ...

وقد قامت الحضارة الأوروبية على أسس نفسية وتاريخية تختلف عن الأسس التى قامت عليها حضارة هذه البلاد منذ أقدم العصور ؛ فالحضارة الأوروبية وثنية تعبد الإنسان وتجعله الإله ؛ ولم يقم الأنبياء والرسل فيها بأى دور ملحوظ وقام الفلاسفة بدورهم .. وعندما أتاح الله لها المسيحية مسختها الى ديانة أقرب الى الوثنية الهيلينية الرومانية القديمة ، منها الى مسيحية نبى الناصرة ، ويكاد يكون الصراع العدوانى طبيعة فيها . وكان هذا العدوان هو السبب فى انطلاقها الاستعمارى من الاسكندر المقدونى حتى الفترة الاستعمارية التى أقامت ثراءها وتراكمها بالسلب والنهب واستغلال ثروات آسيا وافريقيا ، وعندما استراحت من عداوة الأتحاد السوفييتى أخيرا بدأت تبحث عن «عدو» جديد ، وليس فى هذا مفارقة أو مبالغة ، لأن من عناصر هذه الحضارة القوة والصراع . فلأبد أن يكون هناك عدو ما تمارس فيه الحضارة فعالياتها ، وهم اليوم يتصورون أن الإسلام هو العدو الجديد للحضارة الأوروبية !

ورغم الإنجازات الباهرة للحضارة الأوروبية ، فإن الثمن الذى يدفع لهذه الحضارة باهظ ، والحقيقة أن ما تتضمنه الحضارة الأوروبية من سوءات كان يمكن أن يقضى عليها لولا أنها توصلت إلى درجة كبيرة من العلم والمعرفة مكنتها من معالجة هذه السوءات أولا بأول ، فإذا نقلنا أوضاعها دون أن ننقل معارفها فلا ريب فى أن يؤدى هذا الى سقوط وشيك .. لأن الحضارة الأوروبية نفسها تهدم بيد ما تبنيه باليد الأخرى ، ويغلب فى مثل هذا المسار أن يتغلب الهدم ويصبح عليها أن تدفع ثمن عربدتها .

ولا يتسع المجال لمعالجة موضوع الحضارة الأوروبية معالجة مسهبة ويكفى فحسب أن نعلم أن الأصول التى قامت عليها الحضارة الأوروبية تختلف أو تتناقض مع الأصول التي قامت عليها حضارة مصر ، وأن من الضرورى توفر درجة كبيرة من التقدم العلمى لإصلاح سوءاتها .. وهذا وذاك يحولان دون اعتبارها المثل الأعلى أو محاولة الأخذ بها فضلا عن أننا عندما ننصب موازين التقييم الموضوعى لها فإنها لن تكون الأفضل .

والموقف الأمثل لنا ازاء الحضارة الأوروبية هو التزود بكل ما تقدمه من علم ومعرفة ، والاستفادة من تجاربها وخبراتها دون أن نفتن أمام إغراء كثير من الجوانب البراقة ، واللامعة فيها فنتقى ماتحفل به من صراعات وتوترات ولوثات كان يمكن أن تودى تماما بأى حضارة من الحضارات القديمة ، لولا أن الحضارة الأوروبية وجدت فى «العلم» ما يعالج السوءات التي تكشف عنها (الحرية) أولاً بأول - على ما أشرنا آنفا - ولكن تظل الحضارة الأوروبية مهددة بأن تدفع ثمن عربدتها فى النهاية .

وأخيرا ، فإن القيم المعنوية ، وفكرة الواجب والحقوق الأساسية للإنسان ، وهى ما تفخر به الحضارة الأوروبية ، تقوم على أساس نسبى ، وأن النسبية فيها قد تصل الى النقيض . وموقف المجتمع الأوروبى من جرائم الصرب - وبالذات الاغتصاب - مثال يصور ذلك . فقد أقرت الأغلبية الكاسحة لقوى المجتمع الأوروبى ، وعلى رأسها الساسة ، والصحافة ، ورجال المال والأعمال وقادة الأحزاب ... ألخ سياسة الاستسلام أمام نذالات الصرب ، بل شجعتها عندما سكتت عليها وحرمت في الوقت نفسه على المسلمين تسليح أنفسهم ، بدعوى أن هذا يفاقم القتال ! وهى قطعة نموذجية من نفاق هذا المجتمع ؛ وفى الوقت نفسه فإن حسنات الحضارة الأوروبية ، ونحن لاننكر أبدا أن فيها حسنات عديدة ، سمحت بأن يستقيل عدد من الوزراء احتجاجا على سياسات حكوماتهم المشينة .. كما هبت بعض الجمعيات ، وتطوع أفراد عديدون لمساعدة المسلمين ، وانتقد بعض القراء ، وبعض الكتاب فى الصحف الأوروبية مواقف حكوماتهم ، ولكن هذا الجانب الطيب فى الحضارة الأوروبية يمثل استثناء لايكاد يسمع ولا يستطيع أن يوقف سير التيار المجنون .

هذه المعادلات كلها يجب أن نضعها فى الحسبان عندما نُقيِّم الحضارة الأوروبية

ونحدد مواقفنا تجاهها ، فنقبل الحسن الطيب ، ونرفض السيىء الخبيث ويكون المعيار هو المعيار الموضوعى البعيد عن التأثر بالعواطف أو المشاعر فلا نندفع فى الرفض ، والعداء ولا «نندلق» في الاعجاب والأنبهار .

٢ - الاشتراكية :

قلنا فى مناسبات عديدة سابقة إن الاشتراكية مثلت الضمير الأوروبى ردحا من الزمن ، عندما تنكرت الكنيسة والنظم الاقتصادية والسياسية للجماهير ، وناصرت الرأسمالية الطليقة ، وقلنا إن الحركة ضمت عددا كبيرا ، بعشرات الألوف من أنبل النفوس ، كتابا وشعراء ونقابيين الخ . . وبعضهم من الأكليروس المستنير ، حتى جاء ماركس فسنجن الاشتراكية فى اطار محكم وغرس فيها بذرة التعصب الأعمى ، ثم جاء لينين فصلبها بمسامير السلطة على صليب دكتاتورية البلوريتاريا المزعومة . ونحن مع هذا لاننكر أن ماركس كان مفكرا عبقريا ، وأن لينين رجل دولة وبانى امبراطورية .

وقلنا إن الأشتراكية ثمرة أوروبية خالصة ، وقد نشأت مع نشوء الدولة القومية التى أقامها التجار وحطموا اسوار المقاطعات والطوائف ليظهر «السوق» القومى ولتتهيأ الظروف لظهور الثورة الصناعية والرأسمالية . . ألخ وأن الاشتراكية فى اقامتها لتنظيرها اعتمدت على أسس أوربية خالصة سواء من الفكر أو الواقع ، وأن هذا لايمكن أن يصدق - بالضرورة - على غير أوروبا .

واعترفنا بأن الاشتراكية - حسنة أو سيئة - كشفت عن جانب من جوانب التطور ، وأبرزت قوة العامل المادى مما تستحق عليه الشكر ، وتنال به الريادة فى المجتمع الأوروبى بالنسبة لهذا العامل .

ولكن ليس معنى هذا أن الاشتراكية «علمية» كما يروق للماركسيين الأدعاء ، وأن ما يخالفها «طوبوية» فالحقيقة أن الاشتراكية الماركسية - ككل النظريات - صبت كل الثقل على عامل واحد هو العامل المادى وأغفلت بقية العوامل وأنها فى نقدها للرأسمالية وعيوبها جهلت عيوب ونقص الأقتصاد الأشتراكى ، وفى عداوتها للملكية الفردية وأثرها المدمر نست السلطة وأثرها الأكثر تدميرا والذى كان فى أصل كل أخطائها ، أى الدكتاتورية والتخطيط المركزى والبيروقراطية ، وهى الموبقات التى قضت عليها فى النهاية .

أضف الى هذا جهلها بالدين ودوره ، وما يمكن أن يقدمه فى اثراء الحياة ، وأنه يمثل «الكلمة» بجانب «الرغيف» الذى تمثله ، وأن العناية بالعامل المادى لايعنى اغفال الجانب الروحى .

ولاجدال فى أن ماركس يتحمل جزءا كبيرا من مسئولية خطايا النظرية التى أبدعها .. ولكن المسئولية العظمى تقع على لينين الذى حولته السلطة من منظر ، وداعيه ، وقائد جماهيرى ومحارب لأجهزة القمع فى الدولة ، الى أكبر ديكتاتور فى العصور الحديثة . وأنه لكى يقيم أمبراطوريته ، مارس أساليب جنكيز خان وايفان الرهيب وبطرس الأكبر ، ووضع أساس أكبر جهاز مخابرات ارهابى فى الدولة الحديثة ، وتسبب فى مقتل الملايين لاصراره على فكره الخاص ، وتمسكه بتطبيق «المركزية الديمقراطية» رغم معارضة العناصر النابهة والأمينة فى الحركة العمالية ، وفرض الحزب على كل أجهزة الدولة ، وكل المنظمات الجماهيرية .. وقد كانت هذه فى أصل تحلل النظام الذى لم يبك عليه أحد لأن سوءاته – وأبرزها القضاء على الحريات لم تدع له صديقا ...

وقد جربنا الأشتراكية فى منطقتنا ، ففى عدن التى كانوا يطلقون عليها – لا أدرى لماذا – قلعة الصمود والتحدى !! وجد مجموعة من الشيوعيين «أكثر ملكية من الملك !» جعلوا من «عدن» جحيما وأذاقوا أهلها لباس الذل والجوع ، وتحكموا فى لقمة العيش ، وبسطوا حكم الأرهاب ، ثم استدار بعضهم على بعض فمزقوا أنفسهم شر ممزق !

وفى السودان حكموا لمدة يومين فقط خضبوا فيهما الأرض بدماء الضباط والجنود !

أما فى العراق فقد أصبح «السحل» هو الممارسة السياسية والإضافة التى جاء بها الشيوعيون خلال حكمهم فى إحدى فترات الديكتاتور المجنون عبد الكريم قاسم ، بينما تآمرت العناصر اليسارية مع حزب البعث فى سوريا والعراق .. ووصلت الى الحكم على أسنة الرماح ، وبسطوا حكم الأرهاب النصيرى أو التكريتى .. فى سوريا والعراق !

وبالنسبة لمصر ، فلم يكن عبثاً أن يشرف على الموجتين الشيوعيتين فى العشرينات والاربعينيات يهوديان هما روزنتال وكوريل ، ولم يستطيعا – رغم

مواهبهما وإمكاناتهما ومساندة الاتحاد السوفييتى -أن يكتسبا إلا عددا محدودا جدا معظمهم من الأجانب أو المتمصرين ، وحتى فى الحركة النقابية فانها لم تكتسب جمهورا يعتد به ، أو تقيم قواعد ثابتة ، وان كانت وراء عدد قليل من الاضطرابات ، واتسمت الشيوعية فى مصر – رغم ضآلتها – بالانقسامات الحزبية والنظرية ، وقد نجح المثقفون الماركسيون فى نشر المفاهيم الاشتراكية عن طريق الصحافة الأذاعة «والكتب» ولكن الرأى العام المصرى لم يتقبلها على علاتها ، ويحتمل أنه استفاد منها .. وقد جاءت فرصتها مع افلاس الناصرية وحاجتها الى غطاء ايديولوجى ، وتعاونت الماركسية المصرية مع الفاشية العسكرية بلا حياء أو خجل ! وبرر الماركسيون كل موبقاتها ، وكان لابد لهم من ذلك وهم يتقلدون مراكز الصدارة فى التوجيه الفكرى وفى الصحافة والاعلام .

ومع أن الناصرية قد أفلت ، فقد استطاع الكثيرون من الماركسيين المصريين الاحتفاظ بمناصبهم لعدد كبير من الأسباب ، قد لا يكون ابرزها الكفاءة أو الايمان .

وقد تهاوت المنظومة الاشتراكية فى العالم كله ، ودمرت تماثيل آلهتها المعبودة ، ولكن قصر نظر الرأسمالية وأنانيتها يمكن أن يصنع من السوءات ما يفسح المجال مرة أخرى لدعوة اشتراكية فى روسيا ، كما أفسح المجال لنازية جديدة فى المانيا !

وفكرة العدالة كهدف ، والعامل المادى كمقوم رئيسى هما من الأفكار التى يتضمنها الإسلام ومن ثم فإن الاشتراكية الماركسية لاتقدم جديدا الى الاسلام سوى شنشنتها المعروفة التى لاقيمة لها ، ومن الخير أن يحتفظ الماركسيون بها لانفسهم .

٣ – القومية العربية :

القومية العربية أكثر الآلهة الزائفة هزالا وزيفا ، ولا يمكن أن تقارن بالحضارة الأوروبية أو الحركة الاشتراكية ، وهى مع هذا – وربما لهذا – أعلاها صوتا ، وأكثرها ضجيجا حتى لقد ظهر من دعاتها من يقول «القومية العربية بالنسبة لنا نحن القوميين العرب ، دين له جنته وناره ، ولكن فى هذه الدنيا » وقد تكون القومية العربية هى ديانة المسيخ الدجال ، ولاشك أن لها جنتها ونارها فى الدنيا – كما قال دعيها : فخزائن عبد الناصر وحزب البعث تقدم الجنة ، كما أن سجونهما وتعذيبهما هو الجحيم !

وقد ظهرت القومية العربية– كتكتل سياسى منظم فى المنطقة عندما بدأت حكومة الاتحاد والترقى فى تركيا فى العقد الأول للقرن العشرين فى اضطهاد العناصر ، غير التركية وبوجه خاص

العناصر العربية ، لأن الحركة كانت قومية ، وفلسفتها كانت «عنصرية» تنسب للأتراك فضائل ومزايا كالتى نسبها هتلر للألمان ، وموسولينى للطليان ... وكان ذلك يجعلها تحصر المناصب الكبرى فى أيدى الأتراك دون العناصر الأخرى المكونة للسلطنة ، وبالذات العنصر العربى الذى كان أقوى العناصر فى الفترة التى قام «الاتحاد والترقى» بانقلابه وسيطرته على الحكم . كما كانت هذه الفلسفة تعزف عن المقوم الإسلامى ، فالرسول لم يكن تركياً ، والقرآن لم ينزل بالتركية وليس فى أصول الجنس التركى ما يربط بينه وبين الجنس العربى . فضلاً عن أن المقوم الإسلامى يتناقض مع فكرة العنصرية ، فنشأ عزوف وكراهية للعنصر العربى الذى كان بعد الأتراك – مباشرة – أهم عنصر فى الدولة ، إذ أن العناصر الأخرى – كاليونانيين والبلغار والصرب كانت قد ظفرت بإستقلالها ، ولم يبق إلا العنصر العربى يستأثر بكثير من المناصب فى الدولة . وكان هناك عامل مبدئى وأيديولوجى . كما كان هناك دافع مادى ونفعى لإضطهاد ومحاولة إستبعاد العناصر العربية من السياسة التركية .

وكان الضباط العرب فى الجيش العثمانى ، والنواب العربى فى مجلس «المبعوثان» ينظرون إلى تركيا بإعتبارها دار الخلافة ، والدولة العثمانية التى حمت الإسلام ورفعت ألويته ، وأن هذا «الإسلام» يجمع مابين العنصرين التركى والعربى ، ويحسم الحساسية ، خاصة وإن الأسلام يجعل المؤمنين به أبعد الناس عن «الأثرة العنصرية» .

وعندما أستشعرت عدوان حكومة الإتحاد والترقى لم تبادلها عداوة بعداوة ، ولكنها حاولت أن تجمع بين سيادة تركيا .. وحقوق العرب . وكانت فكرة أكبر هؤلاء الضباط رتبة ، وأكثرهم شعبية وأرسخهم قدماً فى الجيش التركى «عزيز المصرى» ، هو أن تأخذ الدولة شكلاً فيدرالياً تظفر فيه «الولايات العربية» باستقلالها الذاتى دون أن يؤثر هذا على تبعيتها وإرتباطها بالدولة «العلية» أو الخلافة العثمانية . وعلى هذا الأساس أقام عزيز المصرى جمعية «العربية الفتاة» ثم حزب «العهد» ، كما أسس المدنيون حزب اللامركزية فى مصر ، وكان من أقطابه رشيد رضا ، وعبد الحميد الزهراوى ورفيق العظم ، ومعظم مثقفى سوريا والعراق .

ومع أن هذا كان يحل مشكلة تركيا حلاً مثالياً ، ويعينها فى فترة محنتها . إلا أن العقلية الضيقة لضباط الإتحاد والترقى الذين هيمنوا على السياسة التركية من سنة ١٩٠٦

رفضت هذا واعتبرته خيانة ، ووصل التوتر إلى قمته عندما علق جمال باشا قطب الاتحاد والترقى ووالى سوريا أحرار العرب على المشانق فى محاكمات «عاليه» وغيرها[1] .

فكان هذا إيذاناً بقطع الجسور ... ودخول القضية إلى طريق مسدود .

وعندئذ ظهرت - ولأول مرة - القومية العربية ..

وتقصى ملابسات القومية الأولى «القومية التركية» التى ظهرت على مشارف المنطقة ، وتأثرت بها القومية العربية - لأنها كانت رد فعل لها - كما سيتضح ذلك مماسيلى - يبرز الخصائص التالية .

١ - إن القومية التركية المزعومة ظهرت على أسنة الرماح وبفضل إنقلاب عسكرى قاده لفيف من الضباط .

٢ - أن شكوكاً كثيفة تكتنف بعض أسباب قيام الانقلاب وإنتماء القائمين عليه . فقد كان أنور ابناً لبولندى مسلم . كما كان طلعت من أسرة مجرية الأصل . أما جاويد فقد كان من أبرز يهود سلانيك ومن أقطاب الماسونية العالمية .

وضمت الحركة عناصر يهودية وماسونية عديدة ، وهناك أقاويل كثيرة حول دوافع الحركة .

٣ - إقترن عهد القومية الإنقلابية - العسكرية بالشؤم والعقم فخسرت الدولة خلال الثلاثين شهراً الأخيرة من حكمهم أكثر مما خسرت خلال الثلاثين سنة التى سبقتها ..

ثم ورطت تركيا فى الحرب العالمية الأولى ، ودفعت بها إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء ، أى فى صف المهزومين ضد المنتصرين ، وكان عليها أن تدفع الثمن باهظاً فى معاهدة سيفر المهينة .

وهذه الخصائص هى مانجدها إلى حد كبير فى حركات القومية العربية إما للفقر الأصولى فى «القومية» كدعوة ، أو لأن القومية العربية كانت نقيضاً جدلياً للقومية التركية على ماأشرنا ، أو رد فعل لها يتساوى ويتماثل معها .

---

(١) كان هناك بالفعل عدد محدود من الذين حوكموا ، وأعدموا قام باتصالات مع فرنسا يمكن أن تعد «خيانة عظمى» وكانوا من المارونيين ، ولكن الأغلبية العظمى كانت من الوطنيين الأطهار الحريصين على تركيا حرصهم على العرب .

فنحن نرى ضباط حزب البعث ... وضباط عبد الناصر يحملون دعوة القومية العربية على أسنة الرماح إلى السلطة فى سوريا والعراق ومصر ، ثم نرى الشكوك التى أحاطت بحقيقة الدوافع والبواعث التى أدت إلى إنقلاب الاتحاد والترق فى تركيا . وقد تحولت إلى حقائق تاريخية لايمكن دفعها ، كما سنرى القومية العربية تقوم لدواعى إستعمارية بحتة ، مما سنيرد فيما يلى .

وأخيراً نجد العقم الشؤم يرافقانها فتتعدد الانقلابات العسكرية التى تصل من الفاقة والعرى درجة لايمكن معها أن تجد إسما لها ، فتحمل تاريخ وقوعها كذا آذار .. وكذا تموز !! إلخ . ثم تُخسر هذه القومية العربية الجولان من سوريا .. وتزج القومية العربية العراقية بالعراق فى حرب إيران ... ثم يخسر بطل القومية العربية الأكبر جمال عبد الناصر – حرب ٦٧ ، ويوقع بالمنطقة كلها أسوأ هزيمة فى تاريخها الحديث .

وقد يتطلب الأمر تحقيقاً أصولياً موضوعياً لإظهار سبب هذا العقم والشؤم ، فالقومية بصفة عامة ، وليست القومية العربية خاصة ، إنما هى فى الحقيقة بتعبير ماركس وأنجلز (الأنانية بالجملة) . وكان الذى أظهرها – وأورثها خليقتها – هو التاجر عندما هدم الأسوار التى كانت تفصل المدن بعضها عن بعض فى أواخر عهد الإقطاع ليوجد سوقاً عاماً على مستوى الدولة – سوقاً قومياً . وقد ورثت شيئاً من خصائص «التاجر» فالقومية لايمكن أن تكون ذات «قيم» ومبادىء موضوعية ، وقد رفضتها المسيحية والإسلام ، كما رفضتها الأشتراكية وكما ترفضها كل الدعوات العالمية والإنسانية لأنها تقوم على الأثرة والأنانية والمصلحة الخاصة ، وإنما توجد القيم والمبادىء فى الأديان وعندما فرطت الدول العربية فى إسلامها . بإعتباره الأصل الذى تتلاقى عليه – فإنها فقدت أصل القيم . و لم تعد أى صيحة معنوية أو أدبية تتطلب إيثاراً يمكن أن تلقى تجاوباً من ساسة القومية العربية . وهذا أيضاً هو السر فى أن الجامعة العربية المنكودة لم تستطع أن تصدر قراراً مصيرياً لأن هذا القرار يتطلب الإجماع – والإجماع يتطلب بالضرورة إعلاء المصلحة العامة على المصلحة الخاصة وهذا يتعارض مع منطق القومية ، وهو كذلك السبب فى أن أى معالجة لقضية فلسطين إنما جاءت من وجهة نظر كل دولة عربية ودون النظر إلى فلسطين نفسها ومصلحتها .

* * *

وقف بنا السياق عند الوصول إلى الطريق المسدود مابين العرب والترك .. مما هيأ المجال لظهور تحرك عربى يحمل اسم القومية العربية ونستأنف السياق .

فى هذا الوقت برز على الساحة عامل جديد هو القوى الأوروبية وبالذات فرنسا وإنجلترا .

فرنسا التى اتخذت من المارونيين ذريعة للتسلل فى لبنان وموطأً قدم للتدخل فى شئون الدولة العثمانية ، والتى كانت تضمر عداوة للأسلام ولاسيما لسوريا ومصر الإسلاميتين ، فهى لم تنس أسر «القديس» لويس التاسع فى المنصورة ، ولا هزيمة حطين المدوية - وأخيراً فشل الحملة الفرنسية بقيادة نابليون على مصر . .

أما بريطانيا فعداوتها التقليدية لتركيا ومصر والأسلام من أيام ريتشارد «قلب الأسد» والعداوة المريرة التى تملكت «بلمرستون» وجعلته يحطم أمل محمد على فى إقامة دولة فى المنطقة ، ويقضى على فتوحاته ويدمر الأسطول المصرى - التركى فى نفارين ، ثم إحساس بريطانيا بأهمية مصر بعد شق قناة السويس وإحتلالها غير المشروع لها .

وكان العامل المباشر فى تحرك هاتين الدولتين . بالإضافة إلى هذه الدوافع التقليدية القديمة ، هو أن تركيا إنحازت إلى ألمانيا فى الحرب العالمية ضدها فحل دمها ودم المنطقة التى تتبعها وقررتا الأستحواذ على هذه المناطق (وكان المفروض أن تستحوذ روسيا على القسطنطينية) فى إتفاق سرى آخر - ولكنهما كانا من الفطنة بحيث لايعلنان ذلك . فإتفقا سراً على تقسيم المنطقة العربية فى إتفاقية «سايكس - بيكو» الذى تؤول بموجبه سوريا ولبنان إلى فرنسا . . . والعراق إلى بريطانيا ، أما فلسطين فكانت بريطانيا قد قدمتها للصهيونية بمقتضى «وعد بلفور» .

ولم تكن المشكلة فى تحقيق هذا المشروع هى المشكلة العسكرية لأن الغلبة العسكرية على الترك كانت مكفولة تقريباً ، ولكن كانت المشكلة فى السكان - فهذه مناطق مأهولة بسكان لهم شوكة ولغة وحضارة - وليس من الطبيعى مطلقاً أن يستسلموا أمام القسمة الضيزى التى تسلم بلادهم لقمة سائغة لفرنسا وبريطانيا .

ومن هنا كان لابد من خداع شعوب المنطقة ، لابد من تقديم «غطاء» أيديولوجى يمكن تحته الوصول إلى الأرض العربية والسيطرة عليها . وهذا ما تكفلت به الأجهزة المعنية فى الدولتين - فقامت الأجهزة الفرنسية بالإتصال بالمارونيين وضمنت تأييدهم لفرنسا «الأم الحنون» بينما كتب المعتمد البريطانى فى مصر «مكماهون» إلى الشريف حسين أمير مكة يوعز إليه بإعلان «ثورة عربية» على تركيا ، ويمنيه بأن يكون له حكم المنطقة العربية بأسرها (الشام - فلسطين - لبنان - العراق) إذا أعلنها وحررها بمساعدة جيوش الحلفاء من السيطرة التركية .

وهكذا قدمت بريطانيا الفكر الذى ليس فحسب يبرر الثورة ، بل يجعلها قضية «قومية عربية» كما قدمت المال والإغراءات الماضية ، وقدمت أخيراً الكولونيل لورنس ، ومجموعة الجواسيس :

ونجحت الخطة تماماً ووصلت جيوش اللنبى البريطانى المنطقة العربية دون مقاومة ، بفضل التأييد والمساندة التى قدمها «فيصل» بن الملك حسين والمجموعة العربية .

وعندما جاء وقت التسوية الحقيقية ، إستولى الجنرال غورو على سوريا ، وطرد فيصل شر طردة ، وأقام «لبنان الكبير» بأجزاء إقتطعها من سوريا - ووضع بذلك بذرة النزاع السورى - اللبنانى الذى لم يهدأ حتى الآن . وقد لايهدأ ما ظلت أيديولوجية القومية العربية هى الحاكمة .

بينما سيطر البريطانيون على العراق - وجعلوا من فيصل ملكاً ترضية له وتعمية لاستعمارهم - بينما كونت على عجل إمارة شرق الأردن لإرضاء الأمير عبدالله ، ثالث أبناء الملك حسين وثانى المتورطين منهم فى العملية[1] .

وهذه هى الثورة العربية الكبرى التى يجعلها حزب البعث رأس انطلاقته ... ويفخر بها ... وكان جديراً به أن يخجل منها ... وينأى عنها ، وهذه هى قصة ظهور «القومية العربية» !!

* * *

ونأتى الآن إلى مناقشة السلامة الموضوعية لفكرة القومية العربية ، ومدى نجاحها كأيديولوجية تقوم عليها أمة أو مجموعة دول ...

إن عناصر القومية معروفة فهى الأرض والجنس والتاريخ والدين واللغة ... الخ .

فهل تعنى القومية العربية جنساً بعينه يحمل دماً مميزاً؟

إذا كان هذا يصدق منذ خمسة عشر قرناً عندما ظهر الأسلام فى الجزيرة العربية ، فإنه لايصدق فى كثير أو قليل بعده ، حتى بالنسبة لسكان شبه الجزيرة العربية نفسها . فما أن بدأت الفتوح الإسلامية حتى قامت أكبر حركة هجرة داخلية وخارجية عرفتها المنطقة فانهالت على الجزيرة العربية عشرات الألوف من السبى إثر على كل انتصار للجيش الإسلامى ، وكان عمر بن الخطاب يستعيذ من سبى «جلولاء» .

---

(١) وهذا لا ينفى وجود عدد كبير من الأفراد (ضباط وكتاب ودعاة) خُدِعوا إما بالدعاية الإنجليزية - الفرنسية ، وإما بسراب «الدولة العربية» ، فكانوا مخلصين ، ولكن مخدوعين .

وأعتنق هؤلاء الأسلام وسكنوا الحجاز وأصبحوا من أهلها وظهر منهم العلماء والفقهاء . وعلى مدار التاريخ كانت أفواج المهاجرين تفد إلى الحجاز ، ولعل آخرهم كان ضحايا آخر ثورات القفقاس الإسلامية فى مواجهة الغزو الروسى بعد هزيمة الأمام شامل بحيث أصبح الحجاز بوتقة لأجناس العالم المسلمة .

وفى الوقت نفسه فإن الجيوش العربية استقرت فى مصر وسوريا والعراق والشمال الأفريقى والقبائل التى هاجرت إليها مرة بعد أخرى . وإختلطوا بالسكان الأصليين الذين أسلموا وتزاوجو وتصاهروا ولم يعد من فرق بينهم .

فدعوى الدم العربى لأساس لها من الصحة ، ولم يوجد من بين الخلفاء العباسيين من هو من دم عربى خالص إلا «الأمين» الذى لم يطل به العهد ، وحتى لو صدقت ووجد الدم العربى النقى لكان يجب أن نرفضه ، فدعوى الدم هى قوام أسوأ القوميات عنصرية : الإسرائيلية ، الآرية ، التورانية (التركيه) جنوب أفريقيا .

هل القومية العربية تاريخ ؟ إن التاريخ من أكبر العوامل التى تُكَوّن الأمم – وفكرة أن الأمة تتكون تاريخياً لاتخلو من وجاهة ، فما هو التاريخ عند القومية العربية ؟

بالنسبة لشبه الجزيرة العربية ، لم يكن هناك تاريخ كأمة ، ولكن كان هناك تاريخ لقبائل تمزقها صراعات وحروب إما تلبية لنزعات ونزوات – مثل حرب داحس والغبراء والبسوس – وإما لدواعى تقليدية قبلية .

وأحياناً نكرُ على أخينا

إذا مالم نجد إلا أخانا !

ولم يظهر لهذه المنطقة – كأمة – تاريخ إلا عندما وَحَّد محمد هذه القبائل كلها وصهرها فى بوتقة الإسلام وأعطاها الكتاب والميزان وعندئذ أصبح تاريخها جزءاً من تاريخ الإسلام ، واكتسبت مجد الإسلام .

وأما بالنسبة للدول التى «عربها» الفتح الإسلامى فقد كان لبعضها تاريخ مجيد سابق . وحضارات أصيلة – كالحضارة المصرية القديمة ، والحضارة الأشورية والبابلية . . . ولكن عندما دخلت الجيوش العربية كانت هذه المنطقة كلها فى أسر الأمبراطوريتين الكبيرتين الرومان . . والفرس .

وكانت حضارات هذه الأمم حضاره طبقية ، فجاء الفتح العربى فحرر

هذه الدولة ، ومن هذا التحرير أخذت بدايتها التاريخية الحية ، أما ماوراء ذلك من تاريخ وحضارة فقد أصبح فى منطقة «اللاشعور التاريخى» لها ، أما تاريخها الواعى الحر فإنه يبدأ من التحرير الأسلامى لها . وهذا التحرير بالإضافة إلى الإيمان الأسلامى ، جعلا تاريخ المنطقة هو تاريخ الأسلام وابطالها هم محمد وخلفاؤه وقادته ، ومن ظهر بعدهم ممن حملوا إسم الاسلام .

وقد لانجد دولة كمصر لها تاريخ عريق ، ضارب فى أعماق التاريخ ، وله شواهد من الآثار التى لاتزال قائمة ، وتصارع القرون ، ويمكن أن تعد أول دولة «قومية» فى التاريخ حافظت على قوميتها وحدودها منذ أن وحد مينا الوجه القبلى والوجه البحرى لتظهر مصر منذ سبعة آلاف سنة .

هذه الدولة لاتفخر اليوم بأمجاد رمسيس وتحتمس .. الخ ، قدر فخرها بعمرو بن العاص أو الزبير بن العوام أو عبادة بن الصامت ... وقد أسهم فى تاريخها الحديث كل الجنسيات التى جاءت من أقصى الأرض ، وكان جواز مرورها الوحيد هو «الأسلام» من «جوهر الصقلى» بانى القاهرة حتى «جمال الأفغانى» باعث الفكر الحديث .. وصلاح الدين الأيوبى الكردى قائد حطين ، وبيبرس وقطز اللذين جاءا من القفقاس ليقودا عين جالوت .

وماذا بالله يمكن أن تفخر به سوريا قبل الأسلام ، وقد كانت إما ملحقة بمصر ، أو ملحقة بروما ... ثم جاء الإسلام وجعلها لأول مرة ولآخر مرة قاعدة «لأمبراطورية» وخلافة عظيمة – هى الخلافة الأموية التى تعد جزءاً من صميم التاريخ الإسلامى ، وبأى صلة كان معاوية بن أبى سفيان أو عبد الملك بن مروان يمتان إلى سوريا والسوريين ؟ إن الاسلام وحده هو الذى جعل من سوريا «قوة» عالمية وعاصمة لإمبراطورية وعندما تنكرت له عادت مرة أخرى دولة صغيرة شكسة ...

إذن لايعد التاريخ مقوماً من مقومات القومية العربية لأنه ليس تاريخاً لها .. ولكنه تاريخ الأسلام .. ومواقعه هى المواقع الأسلامية وقادته هم القادة المسلمون الذين جاءوا من كل أجناس العالم الإسلامى .

هل القومية العربية تمثل تشريعاً .. أو إقتصاداً .. أو فناً .. أو أدباً ..؟

إن هذا كله لايمت إلى القومية العربية بشىء ، وإنما جاء به الإسلام فالشريعة هى

محور القانون ، مدنياً وجنائياً ، منذ أن ظهر الأسلام حتى جاء الأستعمار ، وكانت لبعض فروع الشريعة آثارها فى المجتمع الإسلامى ، كتحريم الخمر والقمار والربا ، حتى وان أسيء تطبيقها ، كما كان لوجهة النظر الإسلامية فى الفنون والآداب – الأثر الأكبر – فلم يعد الفن المصرى هو الفن الذى يصنع التماثيل أو ينقش على الأحجار الصلبة صور الآلهة .. ولم تواصل الموسيقى والغناء مسيرتها المتحررة المنطلقة التى كانت عليها – فقد ترك الإسلام بصمته عليها تماماً حتى وإن أسيء فهمه .

بقى مقوم واحد من مقومات «القومية» يدعيه أنصار القومية العربية هو «اللغة» . واللغة فعلاً أوثق روابط المجتمع ، وهى أكثر من أى مقوم آخر يكّون الأمة ، هذا صحيح ، وقد أعلنه من قبل سيد العرب جميعاً – محمد بن عبدالله – عندما قال : «العربية اللسان» .

ولكن فات دعاة القومية العربية أن اللغة العربية على وجه التحديد تختلف عن اللغات الأخرى ، لأرتباطها القوى بالإسلام عبر القرآن .

فالقرآن هو الولادة الثانية والبارزة للغة العربية ، وقد كانت قبله سجعاً ورجزاً وشعراً جاهلياً لا يحيط بأكثر من أجواء البداوة والحياة القبلية ، وكان القرآن هو الذى أحياها وشهرها وسن لها القواعد وصاغ لها الأساليب والأمثال التى لاتزال قوام الكتابة العربية ، بل إنه عندما عجزت العربية الجاهلية عن الوفاء بمتطلبات القرآن إستعار ألفاظاً من لغات أخرى وعربها .

وأهم من هذا كله ... أن القرآن هو الذى حمى اللغة العربية من أن تمزقها اللهجات الإقليمية لو ترك الأمر لها على مدار القرون ، ولو حدث هذا لتكرر فى العربية ماحدث فى اللاتينية وهى اللغة الأوروبية الأم ، التى مزقتها اللهجات بحيث ظهرت الأنجليزية والفرنسية والألمانية ... الخ .

فالقرآن أوجد اللغة العربية القياسية ، وحماها من الزوال لأنها لغة عبادة وعقيدة ، ولأن القرآن على خلاف الكتب السماوية الأخرى يتعبد بلفظه .. فاكتسبت ألفاظه قداسة ليست لغيره .

فنحن نكتب ونقرأ باللغة العربية القياسية التى جاء بها وحماها القرآن ، وكان يمكن أن نقول على اللغة العربية «اللغة القرآنية» ، فلعلها حسيبة عليه أكثر مما هى حسيبة على العرب .

وعندما تجتمع الوفود من مختلف دول هذه المنطقة وتتحدث بلغة القرآن ، فإنها تفهم بعضها بعضاً ، ولو تركت للهجاتها لما فهم السورى شيئاً من السودانى ، ولما فهم عربى نجد بربرى الأطلس .. ولما فهم العراقى شيئاً من اليمنى .

وقد كان من نتائج هذه الطبيعة الخاصة للغة العربية ، وأنها لغة القرآن ، أن علوم اللغة إنما نشأت لخدمة تفسير القرآن ، وأن الذين خدموا العربية كان معظمهم من غير العرب بدءً من سيبويه صاحب «الكتاب» حتى «الزمخشرى» صاحب أساس البلاغة ، وفيما بينهم ، وأن عالماً عظيماً يعد من أعظم نوابغ العالم مثل البيرونى يقول «لأن أهجى بالعربية أفضل من أن أمدح بالفارسية» ، ولم يقل البيرونى هذا غزلاً فى سواد عيون القومية العربية ، ولكن احتساباً للغة القرآن وقربى إلى الله ، وهذا شيء لايمكن أن يحدث لغير اللغة العربية بفضل ارتباطها الوثيق بالقرآن والإسلام .

والدور الذى تقوم به اللغة العربية فى تحقيق القومية ينقسم إلى قسمين :—

القسم الأول : أن اللغة أداة التخاطب والتعارف والتفاهم والكتابة والقراءة وهذا شرط أولى لقيام أى أمة .

وقد وضحنا أنه بالنسبة للقومية العربية أى للدول العربية ككل ، فإن اللغة العربية كوسيلة تخاطب وتفاهم وكتابة وقراءة هى اللغة العربية القياسية التى حفظها القرآن ، وأن هذا هو السبب الوحيد لوجودها بهذه الصورة ، وأن العرب لايزالون بعد ١٤٠٠ عام يتحدثون بعربية القرآن ويفهمونها أكثر مما يفهم الأنجليز لغة شكسبير الذى لم يمض عليه أربعة قرون .

والقسم الثانى : أن اللغة هى التى تؤسس فكر الشعب بحكم أن الثقافة التى يلم بها ، إنما يلم بها عن طريق ما يقرأه ، أو ما يتلقاه من دروس بالعربية ، «والمكتبة العربية» التى تبنى الفكر العربى هى «المكتبة الإسلامية» فالكتب المطبوعة باللغة العربية ، إما إسلامية الموضوع بشكل مباشر أى أنها التفسير أو الحديث أو الفقه أو السيرة أو التاريخ الإسلامى ... وإما أنها إسلامية بصور متفاوتة .

ولو جمع كل ما كتبه الكتاب المحدثون فى كل الدول العربية طوال المائة عام الأخيرة ، لما كانت إلا جزءاً صغيراً بالنسبة للموسوعات الإسلامية التى وضعها العلماء والفقهاء الإسلاميون .

ومن هنا فإن الفكر الذى يمكن أن تقدمه اللغة العربية يكاد يكون فكراً إسلامياً .

وهذا هو السبب فى أننا نرى دعوة القومية العربية تصدر عن الذين تثقفوا ثقافة غربية أوروبية، ولم يكونوا فكرهم عن اللغة العربية . ولكن عن الإنجليزية أو الفرنسية . . .
وقد بدأت دعوة القومية العربية فيما يقول أصحابها بكتاب أصدره بالفرنسية فى باريس «نجيب عزورى» وذكر هذا العربى المتفرنس – رائد القومية العربية المزعومة – أن مصر ليست عربية وعارض إستقلالها ودعاها للتعاون مع بريطانيا ، كما وضع آماله بالنسبة لسوريا العربية فى فرنسا .

وفى الثلاثينات ظهر ساطع الحصرى وهو «أعجمى» لايحسن العربية ، وميشيل عفلق الذى درس فى فرنسا وأستورد فكرة «البعث» من فكرة القوميات الأوروبية . . .

وأخيراً . . يظهر مخلوق يدعى «أدونيس» يدعو لإصلاح اللغة العربية ، ولعله آخر عجائب القومية العربية . وقد تقبل العرب «سيبويه» إماماً للعربية لأنه كان يمت إليها بسبب الإسلام ، أما هذا الادونيس فهم يقولون إنه نصيرى والعياذ بالله !

وقلما يشير دعاة القومية العربية إلى «الدين» باعتباره مقوماً من مقومات القومية ، لأن ذلك يخالف هواهم ، وإن كانت الحقيقة الموضوعية التى لا يجوز لمؤرخ أمين أن يغفلها هى أن الدين كان فى هذه المنطقة محور المجتمع من سياسة أو إقتصاد أو تشريع أو فنون . وان هذا الحكم كان من العراقة والأصالة ، بحيث ظهر مع ظهور تاريخ شعوب المنطقة ، بدءاً من «إيزيس» فى مصر . . . «وبعل» فى العراق ، و «عشتروت» فى سوريا . حتى المسيحية ثم الإسلام ، فهى حقيقة موضوعية ارتبطت بتاريخ المنطقة ، حتى قبل الأسلام ، ثم لما جاء الأسلام عمقها وأحكمها بحيث يعد الأسلام المقوم الأول لأى قومية تجمع سكان هذه المنطقة .

* * *

من هذا العرض لمقومات القومية يتضح أن هذه المقومات إنما تعود إلى الإسلام ، فإذا تجردت القومية العربية منها ، فإنها تصبح مثل الصدفة الفارغة التى جردت من لؤلؤتها ، وأصبحت بلاقيمة .

والحق أنى أفهم أن يقول شخص ما إنه مصرى ، أو يمنى أو عراقى . . . فهى صفات تنسبه إلى بلاد لها تاريخها الخاص وجغرافيتها المميزة وهى موقع رأسه وموطن أهله .

وأفهم ، وأقدر ، أن يتحدث أحد عن «الوطنية» تلك العاطفة العميقة النبيلة التى الهمت الأحرار والأبرار التضحيات والبطولات فى سبيل الوطن المقدس . .

وأفهم بالطبع أن يقول شخص ما إنه مسلم فهذا ينسب نفسه إلى قيم ومبادىء ومثل ونظام كامل للحياة وللوجود . . .

ولكنى لا أفهم أبداً أن يقول شخص ما إنه عربى . . . لأن هذا لايعنى شيئاً ، اللهم إلا اللغة ، واللغة ليست جنسية أو هوية – ونحن لانقول على كل من يتحدث الإنجليزية إنه إنجليزى ، لأن الأمريكيين يتحدثون الإنجليزية ، ولأن الهنود يتحدثون الإنجليزية ، ولا نقول عن هؤلاء وأولئك إنهم إنجليز ، ولأن اللغة العربية هى بنت القرآن ، ولولا القرآن لما أصبح هناك شىء اسمه اللغة العربية على ماقدمناه ؛ فهى حسيبة الإسلام ، وسليلة القرآن ، وتجاهل هذه الخصوصية والإقتصار على «العربية» بالإضافة إلى مافيه من إغفال للحقيقة يمكن أن يكون مزلقاً أو شبهة .

والحق أيضاً أنى لا أفهم – إذا جردت الأمة العربية من إسلامها – لماذا تكون ذات رسالة خالدة كما يدعى حزب البعث ؟ ولماذا لاتكون الأمة البريطانية هى صاحبة هذه الرسالة ؟! وقد كان لها إمبراطورية لاتغيب عنها الشمس ، وظهر فيها عباقرة الفنون والآداب وقباطنة الصناعة . ولماذا لاتكون الأمة الألمانية ، ومنها ظهر أعظم الفلاسفة والموسيقيين والساسة ؟! . وماهى هذه الرسالة الخالدة التى تقدمها الأمة العربية ؟ اللهم إلا إذا كانت الإسلام .

ليس أدل على صدق ما تضمنه القسمان الأولان ، أعنى الملابسات المرية التى ولدت فيها القومية العربية وانعدام المقومات التى يجب أن تتوفر لكل دعوة ناجحة – من أن القومية العربية أتيحت لها – أكثر من أى دعوة أخرى على الساحة – الفرص لكى تثبت نجاحها – وتحقق أهدافها ، ولكنها عجزت عن ذلك ، وأصبحت دعوة تمزق وإنقسام وإضرام للعداوة بين الدول العربية التى ظهرت لتوحيدها .

وتجلى ذلك بصورة فاقعة فى العداوة المريرة التى تملكت جناحى حزب القومية العربية – حزب البعث فى سوريا والعراق ، فهو حزب واحد بدعوة واحدة وقيادة واحدة ، تتملكه العداوة عندما يصل إلى السلطة ، ويصل بهذه العداوة إلى شقاق عجزت عن علاجه محاولات كل «الملوك والرؤساء» المتكررة ، وأوجد سوراً يفصل بين الدولتين الجارتين اللتين تبنتا «القومية العربية» .

وما كان يمكن أن يحدث هذا لو كان للقومية العربية «مضمون» يمكن الاحتكام

إليه أو عقيدة تؤمن بها الجماهير بحيث لايستبد بها رئيسا الدولتين ، ولكن القومية العربية صدفة فارغة . . . وقد ظهر هذا أولاً عندما صدع حزب البعث بدعوته ونادى الجماهير العربية ، فلم يستجب له إلا ثلة من المثقفين ، وكان يمكن أن يظل كذلك أو أن يتحلل ويذوى لولا أن تداركته السلطة العسكرية التى حكمت باسمه ، وجعلته مطية أيديولوجية للوصول إلى الحكم ، فأسنة الرماح وليس إيمان الجماهير ، أو أصالة الفكر ، هى التى رفعت الحزب إلى الحكم ، والحكم هو الذى قضى بالتجزئة ، وإضرام شقاق العداوة بين جناحيه . . .

وفى سنة ١٩٤٥ تكونت جامعة الدول العربية وسط ملابسات مشبوهة (كإنما قضى على كل تنظيم عربى قومى أن تتسلل إليه عناصر متفاوته من السفاح) ، وكان يرجى مع هذا أن تقوم ببعض دورها - إن لم يكن كله - فى جمع شتات العرب وتوحيد الهدف إن لم يكن الصف ، ولكن الجامعة العربية - مثل حزب البعث عجزت أولا عن القيام بدورها ، ثم أصبحت بعد ذلك أداة لإضرام الفرقة والتجزئة . فعجزت عن أن تحل المشكلات والخلافات بين الدول العربية ، وعجزت عن أن توجد سوقاً عربية مشتركة ، أو أن ترفع نسبة التجارة بين الدول العربية بعضها البعض . (وهى لاتمثل سوى ما بين ٥٪ ، ١٠٪ من تجارة هذه الدول) وعجزت عن أن تحول الإستثمارات العربية إلى السودان أو مصر لتسهم فى مشروعات التنمية بدلاً مما تقوم به من مساندة رأس المال الأمريكى والأوربى ، وأنكى من هذا كله فإنها عجزت عن رفع قيود السفر ، أو تخفيفها بين أفراد الدول العربية بعضها البعض ، وأصبح سفر العربى إلى أمريكا أو انجلترا أو سويسرا أسهل من سفر هذا العربى نفسه إلى بلد عربى آخر .

ووضعت الرقابات على الصحافة العربية والكتاب العربى ، ورفعت الرسوم الجمركية وتذاكر الطائرات ، حتى أنبتت الصلات ما بين العالم العربى بعضه بعضاً ، وأصبح لايعرف أخباره إلا من خلال الأذاعات الأجنبية ، التى لم تستطع النظم الحاكمة أن تصنع لها شيئاً .

وعندما أختلفت السياسات . . أصبحت الجامعة العربية هى الهيئة التى تقرر التفرقة . . وتعطيها مصداقية .

ولاجدال فى أن هذا الفشل المتكرر من حزب البعث الحاكم ، ومن الجامعة العربية ،

دليل لايدفع على أن الفكرة التى قامت عليها الجامعة والحزب – القومية العربية باطل ... ولا يمكن أن تثمر حقاً أو تؤدى إلى توفيق .

قد يقول البعض : «ولماذا إذن نقول الدول العربية ، والوطن العربى ، أفلا يدل هذا على أن القومية العربية فرضت نفسها ؟» .

والرد أنه جزء من صفقة شراء الذى هو أدنى بالذى هو خير ، التى أصبحت سياستنا فى كل شىء ، فى الإقتصاد ، والسياسة ، والإجتماع ... فلا غرابة ، أو هى من باب اطلاق الجزء على الكل ...

ومرة أخرى قد يقال : «وهل المؤتمر الإسلامى أكثر نجاحاً من الجامعة العربية ؟» فنقول: إننا لا نتحدث عن إسلام النظم الحاكمة ... ولكن عن الإسلام الحق ... وشتان ...

* * *

وثمة واقعة أخيرة تناولتها الصحف ، ولها دلالتها العميقة فيما نحن بصدده ، فعندما مات «الرئيس المؤسس لحزب البعث ميشيل عفلق» ، أعلنت الأنباء أنه قد أسلم قبل وفاته ، وصلى على جثمانة فى أحد مساجد بغداد ، ودفن طبقاً للتقاليد الإسلامية وشاهدنا فى الصحف صورة النعش يحمله صدام حسين ورفاقه الى المسجد ...

ولا يجوز لنا كمسلمين أن نشكك فى هذا ، أو أن نرفضه أو حتى أن نقول « الآن .. » وعلينا أن نتقبله بقبول حسن ونسأل الله تعالى لصاحبه الرحمة والمغفرة ..

ولكن يظل السؤال .. ماالذى يدفع ميشيل عفلق إلى ذلك ؟ هل إستبان أن القومية العربية دون إسلام صدفة فارغة وأن جهوده كلها ذهبت أدراج الرياح نتيجة لأن هذه النقطة دقت عليه ؟ أو أنه أدرك أن زعيم القومية العربية لن يدخل التاريخ شخصاً غير مسلم هذه أسئلة يكون على الذين يطالعون كتبه أن يضعوها فى حسابهم وهم يقرأونها .

ولكن قد يقول أحد : «على رسلك ، إن العملية لاتعدو أن تكون تكنيكاً سياسياً وأن ميشيل عفُلق مات على ماشب عليه» .

وهنا تكون دلالة هذا التكنيك أكبر وأعظم .. ونحن لا يعنينا بالدرجة الأولى **صدق الواقعة** ، فقد لايعلمها إلا الله . ولكن ما يهمنا **هو دلالة الواقعة** ، وفى حالةعدم صحتها تصبح الدلالة أكبر إذ لابد من دافع قوى كان وراء هذا التكنيك خاصة وأن الذين قاموا به لم يكونوا يوماً من أنصار الاسلام .

فالنتيجة فى الحالتين واحدة : **لابد من الاسلام** .

الفصـــل الثانى

التجارب الثلاث للتنوير فى مصر

(محمد على - البورجوازية - عبد الناصر)

يكثر ادعياء التنوير من الحديث عن «المشروع الحضارى» .. أو «المشروع القومى» .. ويعرضون هذا المشروع بديلا عن الحل الإسلامى .. وهم لا يقدمون - عادة - برنامج هذا المشروع أو مفرداته أو مرتكزاته (وهو ما يعيبونه على الاسلاميين) ولكنهم عادة مايضربون المثل بالمشروع الحضارى لمحمد على وعبد الناصر . وليس هناك ماهو أكثر دلالة على ركاكة وضحالة تفكير هؤلاء من اتخاذ هذين مثالا ، لأن المشروع الحضارى فى عهد محمد على ، إنما جاء من الشعب فى أكمل صورة تضمنها تاريخ أمة من الأمم فى العصر الحديث .. فتآمر عليه محمد على حتى كاد أن يجهز عليه عندما استطاع شيخ أزهرى من مجموعة الشعب أصلا وليس من جماعة محمد على أن يمضى فى تطبيق ماتيسر له من مشروع الشعب ، مؤيدا فى هذا بزملاء له من المصريين .. فمن الخطأ أو المفارقة أن يقال عن المشروع الحضارى الذى ظهر أيام محمد على أنه مشروع محمد على ..

وهذا ما ينطبق بصورة أكثر حدة على مشروع عبد الناصر ، لأن تجربة عبد الناصر لم تكن تجربة تنوير ولكن محاولة تعهير ، كما سيرى القارىء ، وكما سيقتنع فى نهاية قراءته للنبذة الخاصة به . . .

والتجربة الحقيقية للتنوير هى ماقامت به الطبقة الوسطى المصرية (البورجوازية المصرية) فى الفترة مابين الاحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢ (الذى وضع خاتمة مرحلة المشروع الأول ١٨٠٥ – ١٨٨٢) مرورا بثورة ١٩ ودستور ١٩٢٣ الذى كان تتويجا للتجربة حتى ١٩٥٢ عندما دهمت المشروع اجراءات الانقلاب العسكرى وقضاؤه على الحريات وهى روح تجربة التنوير البورجوازية .

ولم تدرس هذه التجربة الدراسة الواجبة رغم أنها الوحيدة والتى تركت بصمات على المجتمع المصرى لاتزال باقية حتى اليوم .

وسنشير فى نبذة خاصة الى كل «مشروع» من هذه المشاريع الثلاثة :

المشروع الشعبى فى عهد محمد على :

كان محمد على عبقريا ، كبير الهمة ، قوى الارادة ، ومن بناة الامبراطوريات ، وأراد أن يؤسس امبراطورية تحمل اسمه وتخلد ذكره ، وتصور أن وسيلة تحقيق ذلك هى أن يأخذ بأسباب الصناعة الحديثة التى هى سر قوة العصر ، والتى مكنت الدول الأوروبية من أن تسود العالم .

وقد كان يمكن لمحمد على – بذكائه – أن يدرك أن إقامة دولة يتطلب ماهو أكثر من الصناعة ، مثلا عقيدة أو نظرية تقدم الحماس وتكسب الايمان للدولة . . وشعب وجمهور يؤمن بهذه النظرية وبهذه الدولة ويشارك فى بنائها . . ونظام « مؤسساتى » يكفل التنظيم المنهجى لشئون الدولة .

ولكن محمد على – حتى لو أدرك هذا – فإن عوامل عديدة جعلته يطرح هذه المقتضيات ، لعل أبرزها أنه – كشأن كل الديكتاتوريين – يتصور أن اسمه وشخصه وعبقريته يمكن أن تغنى عن الإيمان والنظرية . . وأن عمله وعمل أعوانه يمكن أن يغنيا عن المشاركة الشعبية ، فضلا عن أن أوضاعه الخاصة تحكمت فيه ، فقد كان ضابطا – أى عسكريا – وليس مدنيا ، بل إنه لم يكن مصريا ولم يكن ينطق العربية إلا بصعوبة .

وكان لهذه الوقائع انعكاساتها على المشروع الذى أراده ، فطبيعته العسكرية جعلته يطبق الأسلوب العسكرى على المدارس والمصانع التى أقامها ، فجعلها كالثكنات ، ومنح القائمين عليها رتبا عسكرية .. كما أنه كعسكرى كان يفترض الطاعة ، وطبيعى أن يضيق بأى نظام ديمقراطى أو شوروى .

ولما كان أجنبيا عن هذه البلاد ، فلم تقم بينه وبين شعبها أواصر من القربى ناهيك عن الوحدة ، ولم يحس أنه فرد من هذا الشعب ، كما أن الشعب أيضا لم يحس أنه فرد منه .. ودفعه هذا لاصطناع العناصر الأجنبية الأوروبية .. وقرب إليه أبناء المماليك الذين استأصلهم فى مذبحة القلعة ، بل حاول تجنيد السودانيين بعد حملة السودان .. ولما لم تكف هذه الجهود كلها المتطلبات ، اضطر أخيرا للاستعانة بالمصريين فى الجيش وفى البعثات والأعمال الأخرى .. وبفضل الجندى الفلاح ، نال ابراهيم باشا معظم انتصاراته .

كان أمام محمد على منفذ واحد يمكنه أن يخلص من كل هذه الضرورات الخانقة والأبواب المغلقة ، ذلك المنفذ هو الإسلام .. فقد كان الإسلام هو العامل الوحيد الذى يمكن أن يقضى — فى ذهن الشعب — على صفته العسكرية الألبانية ، ويدخله — وهو الأجنبى — قلوب المصريين .

ولم يكن محمد يُكِنُّ عداوة خاصية للإسلام ، بل إننا لا نعدم نوعا من القداسة كان يشعر به نحو الإسلام ، ولكنه لم يكن مستعدا مطلقا لجعل الإسلام محور الحكم والحياة ، لأن هذا سيقيد إرادته ، ويحد من سلطته ، وسيفسح المجال لشيوخ القاهرة ولشعب مصر فى المشاركة فى العمل السياسى .

بالإضافة إلى أن الديكتاتوريين جميعا يرفضون الشورى الإسلامية ، فقد كان هناك بالنسبة لمحمد على — على وجه التحديد — عامل إضافى يجعله يرفض الإسلام كمحور للعمل السياسى ذلك العامل أنه إنما وُلِّى مصر من يد الشيخ الشرقاوى والسيد عمر مكرم — وهما اللذان البساه خلعه الولاية ، وهما اللذان فرضاه على الدولة ، وتحديا ارادة السلطان التركى لأنه عاهدهما على الحكم بالشرع والعدل والاقلاع عن المظالم ، وألا يفعل أمرا الا بمشورة العلماء وأنه متى خالف هذه الشروط عزلوه .

وكان محمد على يضمر فى نفسه — من اليوم الأول — أن ينكث وأن يستأثر وأن

يحطم سلطة الشيوخ وعمر مكرم ، ولهذا وجد نفسه وهو يعادى المعسكر الشعبى الإسلامى ...

وليس فى تاريخ الديمقراطيات المعاصرة ما يماثل الاتفاق الذى أبرمه شيوخ القاهرة مع محمد على سنة ١٨٠٥ لأنه يفرض أن يكون الحكم شوريا ، وينص على حرية إقالة الحاكم اذا نكث بالشروط .. وعلى هذا الأساس أيد المصريون محمد على وقاوموا الوالى التركى .

وقد يتطلب الأمر أن نقول كلمة عن رجال الدولة **العظام** الذين يبدعون المشروعات الحضارية ، وبين رجال الدولة **الطغام** الذين يريدون تخليد أسمائهم . فالأولون يربط بينهم وبين بلادهم حب عميق وإحساس بواجب مقدس نحوها يملى عليهم خدمتها ، أو يكونون من المؤمنين بعقيدة سامية يعملون على تطبيقها ، وفى كل الحالات لايكون للفخر أو الكسب الذاتى محل عندهم ، فهم يعملون لشعوبهم وينسون أنفسهم ، وهؤلاء هم الذين يعيشون أبد الدهر فى نفوس ووجدان شعوبهم ، ويخلدهم التاريخ .. أمثال الخلفاء الراشدين وفى أوروبا بسمارك وكافور وملوك انجلترا الذين نهضوا بصناعاتها .. أما رجال الدولة الطغام ، فهم المفتونون بأنفسهم ، المصابون بجنون العظمة ، والذين يدور طموحهم حول أنفسهم . وبلادهم – بالنسبة لهم – هى مجال ابراز هذه العظمة ، ومثلهم أباطرة الرومان ونابليون وهتلر وموسولينى وستالين ومصطفى كمال والطغمة العسكرية التى ابتلى بها المسلمون (جمال عبد الناصر/ حافظ الأسد/ صدام حسين/ ... إلخ وهؤلاء الذين تلعنهم شعوبهم بعد موتهم وتلصق بهم الخزى والعار .

وكان يمكن لمحمد على أن يضع يده فى يد شيوخ الأزهر وعمرمكرم فيحكم بالشرع وينهض بالعلم والعمل والعدل والصناعة والزراعة ... الخ ويجعل من الأزهر منارة الأشعاع الثقافى ، ولكنه لم يكن يحب مصر ، وانما يحب نفسه ، لم يكن من رجال الدولة العظام ، ولكن من رجال الدولة الطغام .. وكان كل ما يريده هو اقامة دولة «علوية» ، فحطم المشروع القومى وغدر بعمر مكرم ، وفرق شيوخ الأزهر بالمكر والخديعة ! وعندما تآمرت عليه الدول الأوروبية وحرمته من المناطق الشمالية للامبراطورية التى أقامها ، فانها أبقت له مصر كاملة حتى منابع النيل ، وكان يمكن أن يتعلم الدرس فيقلع عن فكرة «الامبراطورية» ويعكف على بناء البلاد .. ولكن متى تعلم الطغام والطغاة .. لقد كان همه الأول – والأخير – أن يكون امبراطوراً ،

فلما فقد الأمبراطورية نفض يديه من المدارس والمصانع وكل ما أقامه لتحقيق الامبراطورية !!

وكان الذى أبقى على جزء من المشروع الحضارى المصرى هو الشيخ رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك اللذان ركزا جهدهما فى نشر العلم والثقافة والمعرفة ، وقاما بتأسيس المدارس والمكتبات وترجمة الكتب الفرنسية الى العربية ، واصطدما بالطبع مع بيروقراطية النظم وسياسات الأمراء من أسرة محمد على الذين حكموا مصر بعد ذلك .

ففكرة أدعياء التنوير عن مشروع حضارى تقدم به محمد على ، وتآمرت عليه الدول الأوروبية هى فكرة غير سليمة .. والفكرة السليمة أن شعب مصر ممثلا فى قادته الطبيعيين وقتئذ شيوخ الأزهر والسيد عمر مكرم - تقدم بمشروع حضارى لحكم شورى ديمقراطى تآمر عليه محمد على ، ولم يحتفظ منه الا بما يخص اقامة صناعة لخدمة الجيش .. فلما تآمرت الدول الأوروبية على محمد على لم يجد الشعب الذى يقف معه !

ومما يضاعف من مسئولية محمد على أن حركة الشيوخ هذه لم تكن «بادرة» فريدة أو عشوائية ، ولكنها كانت ثمرة عمل وكفاح جعل الشيوخ قيادة طبيعية ومكنهم من القيام بها فى أواخر عهد المماليك (إبراهيم بك ومراد بك) ثم الحملة الفرنسية .. ففى خلال هذه المدة أدت الأحداث الى تكوين هذه القيادة الشعبية التى كان لديها - بحكم ثقافتها الاسلامية من ناحية واحتكاكها المباشر بالشعب من ناحية أخرى - ما مكنها من تكوين مشروع حضارى يقوم على العدل الذى يأتى به الشرع ونجد فى سجلات هذه الفترة مواثيق عديدة الزم بها الشيوخ المماليك الحكم بالعدل والشرع تماثل ما ألزموا به محمد على ، فضلا عن دورهم فى قيادة الثورة على نابليون وكليبر .. فميثاق سنة ١٨٠٥ كان خاتمة لمسيرة كان يمكن أن تكلل بالنجاح لولا أن اغتالها محمد على بالمكر والتفرقة !

ان مايذكر لمحمد على ليس هو المشروع الحضارى ، ولكن أنه أدخل مصر العصر الحديث وضم - ولو رغم ارادته - الفلاح للجيش فحمل السلاح ورفع رايات مصر فوق ثلاث قارات ، وانه عندما مات سلم للأجيال مصر بحدودها الطبيعية من منبع النيل الى مصبه فى حين أن عبد الناصر (الذى يقرنونه بمحمد على) جاء بالاسرائيليين الى عقر البلاد ، وكان يمكن أن يدخلوا القاهرة .. فكيف تجوز المقارنة ؟!! .

والخطأ الذى وقع فيه دعاة الليبرالية فى تقييم «المشروع الحضارى» فى عهد

محمد على هو نفس الخطأ الذى وقعوا فيه عند تقييمهم لمشروع عبد الناصر وفى جميع الحالات لم ينظروا الى موقف الشعب ومدى مشاركته الحقيقية وعمق وسلامة الأصول النظرية للمشروع ، وهى المعايير الحقيقة للحكم على سلامة أى مشروع حضارى ...

واذا كان ثمة مشروع حضارى فى اعقاب المشروع الحضارى الذى تقدم به شيوخ القاهرة سنة ١٨٠٥ وتآمر عليه محمد على حتى وقوع الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ ، فهو مشروع الدستور الذى وصل إلى قمته على يدى جمال الدين الأفغانى وعمله الدائب لمدة ثمان سنوات متصلة مع المثقفين والطلبة فى مصر بحيث ظهرت حياة جديدة فى المجتمع المصرى ، وتعددت الصحف وتكونت بعض الجمعيات سرية أو علنية للمطالبة بالدستور ، وتاريخ هذه الصفحة التى عرضها باسهاب الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى الجزء الثانى من كتابه «عهد اسماعيل» فى الجزء الذى تعرض فيه للاحتلال البريطانى .. وأشرنا اليه بتركيز فى كتابنا «اثر الاسلام فى ارساء سيادة الشعب للحكم الدستورى» هذه الحركة التى وصلت الى قمتها فى مظاهرة ٩ سبتمبر ١٨٨١ ثم أجهضها تدخل الدول والاحتلال البريطانى ...

التجربة البورجوازية ١٩١٩ - ١٩٥٢ :

خلال المدة من ١٨٠٠ - ١٩١٩ نشأت البورجوازية المصرية ووصلت الى درجة من القوة فرضت نفسها على المجتمع المصرى .

وقد ضمت البورجوازية المصرية أعيان الريف والعمد والتجار وكبار موظفى الدولة والمهنيين .. ومن يراجع اسماء أعضاء مجلس شورى القوانين فى عهد اسماعيل يرى أسماء العائلات التى لاتزال حتى الآن تمثل «العصبيات» فى الريف ، أو كبار التجار والمهنيين فى المدن .

والبورجوازية واحدة فى العالم كله ، وهى تمثل طبقة تقوم على آحاد أذكياء نشطين يعملون بكل قوة لرفع مستواهم الاقتصادى ، وهم يتوصلون الى ذلك بالفعل بفضل الذكاء ، والمال ، والسياسة .

ولهم جميعا - فى كل أنحاء العالم - «نفسية» واحدة ، فهم يؤمنون بالفرد ويرونه النواة الطبيعية للمجتمع ، وهم يرون أن الدافع للعمل هو الوازع الفردى سواء كان ربحا فى مجال الأقتصاد ، أو منصبا فى مجال السياسة ، كما يرون أن المناخ الضرورى والذى

لاغنى عنه هو «الحرية» حرية الفكر ، وحرية العمل ، وحرية السياسة .. وفى ظل هذه الحرية يمكنهم أن يشقوا طريقهم فيقيموا المصانع ويؤلفوا الشركات ، ويؤسسوا الأحزاب .. وهى شركات سياسية .. فبهذا يهيمنون على الجاميع .. فبالمال يكسبون السياسة وبالسياسة يدعمون المال .

فأسس البورجوازية ثلاثة : الفرد ، والوازع المادى ، والحرية . وخلال مائة وخمسين سنة تقريبا (١٨٠٠ - ١٩٥٠) من ظهور محمد على حتى ظهور عبد الناصر تكونت البورجوازية المصرية ومكنت لنفسها فى المجتمع المصرى .

وكانت ثورة ١٩١٩ هى الفرصة الذهبية للبورجوازية ، فركبتها وحولت مسارها .. وقد كانت أصلا انتفاضة شعبية بحق استهدفت القضاء على الاحتلال البريطانى ، وكان جمهورها هم الفلاحون والعمال والطلبة .. فجاءت البورجوازية وهيمنت على الثورة وغيرت طبيعتها ومسارها فحجبت قيادتها من الباشوات والبكوات الطبيعة الشعبية الجماهيرية لها .. وحولت مسيرتها من «الاستقلال التام أو الموت الزؤام» إلى المفاوضات مع بريطانيا !! وأهم من هذا كله أنها انتهزت هذه الفرصة لتقنين شرعة البورجوازية فى دستور ١٩٢٣ ووجدت فى سعد زغلول الزعيم الذى يحقق هذا الانتقال الجذرى !

وقد كان سعد زغلول فلاحاً بالنشأة وتلميذا لمحمد عبده ، ورأى جمال الدين الأفغانى ، ولكنه لم يكن مؤصلا تأصيلا إسلاميا .. وعاش فى المدينة .. واحترف المحاماة .. وأصبح التمثيل الحى للبورجوازية الطموحة الصاعدة ، وعزز هذا الاتجاه زواجه بابنة مصطفى فهمى باشا - أكبر سياسى مصرى ممالىء للانجليز وكان حزب الوفد هو تجسيد البورجوازية الليبرالية المصرية .

حقا إن حزب الوفد رزق جماهيرية شعبية ، ولكن هذا يعود الى شخصية سعد زغلول أكثر مما يعود الى نظرية الحزب ، والى بعض الملابسات التى أحاطت بتكوينه والى كراهية الشعب للملك والانجليز .. فهناك مجموعة كبيرة أيدت الوفد لاحبا فيه - على وجه التحديد - ولكن كراهية فى الملك والانجليز .

وفى الوقت نفسه ، فإن هذه الجماهيرية ليست جماهيرية الشعب الكادح من عمال فى المدن وفلاحين فى القرى .. ولكنها كانت جماهيرية العمد والملاك صغارا أو كبارا أو المهنيين التجار .. وجعلته هذه الصفة يعطى الجماهير (بالقطارة) ثم مُنّ

عليهم .. ولعل أبرز مثال لذلك هو قانون «الاعتراف» بالنقابات العمالية .. فقد أراد العمال قانونا يعترف بالنقابات أى يعطيها الشخصية الاعتبارية القانونية .. فجاء القانون ٨٥ لسنة ١٩٤٢ وقدم هذا - ولكن بثمن فادح - هو شل الحرية النقابية وفرض وصاية ادارية على النشاط والتنظيم النقابى وحرمان العمال الزراعيين وعمال الحكومة من حق تكوين النقابات .. فأين الشعبية فى هذا ؟

ومع صدور دستور ٢٣ الذى كان تعبيرا صادقا عن تصورات البورجوازية ، بدأت المرحلة البورجوازية فى مصر بصورة مقننة .

وكانت مصر البورجوازية فى الثلاثينات تحذو حذو البورجوازية الأوروبية التي كانت قد وصلت الى القمة ، فكان فى مصر مجلس للنواب وآخر للشيوخ وعدة أحزاب وعدة صحف يومية ومئات الصحف الأسبوعية أو الشهرية .. وتعاونت البورجوازية المصرية مع الراسمالية الأوروبية وتسامحت فى قبول ماكان يعد خروجا على التقاليد المرعية ، فظهرت الحانات حتى فى القرى ، وأبيع البغاء فى المدن ، ولم يعد منظر «الخواجات» فى شركات المرافق (النور/ المياه/ الترام/ التليفونات ... ألخ) ، وصورة الفاتورة المكتوبة بالفرنسية شيئا إدا .. وكان المربع مابين شارع فؤاد وشارع قصر النيل حتى امتداد شاطىء النيل مربعا أوروبيا : المحلات أوروبية ، عاملاتها أوروبيات ، المارة من رجال أو نساء أوروبيون وأوروبيات يلبسن القبعات وأحدث الأزياد .. بل كان هناك مدن بأسرها يغلب الطابع الأوروبى فيها الطابع المصرى مثل الإسكندرية وبورسعيد والاسماعيلية والسويس .. كما كانت هناك احياء سكنية مغلقة للأجانب فى القاهرة كالجزيرة والزمالك وجاردن سيتى ، وكانت الفرق الاستعراضية تأتى من النمسا أو المجز أو فرنسا لتقدم عروضها فى الاسكندرية أو بورسعيد ، كما لو كانت تقدمها فى (الفولى بورجيه) فى باريس أو علب الليل فى فيينا .. وزحف على الأغانى والتمثيل والموسيقى التحلل والابتذال والتجاوب مع الشهوات .

وأدى الأنبهار بأوروبا والاتجاه البورجوازى بقادة هذه المرحلة [باشوات السياسة ، وقباطنة الصناعة وملاك الأراضى] أن يتصوروا أن مانجح فى أوروبا ينجح فى مصر ، وكانوا أبناء ثقافة الأحتلال البريطانى وثمرة تربيته التى قطعت الوشائج بتقاليد البلاد وحضارتها كما كانوا من ناحية المراكز والمناصب والثروات مهيئين لتقبل البورجوازية والدفاع عنها ، وكانوا على استعداد للتعامل مع الاسلام بطريقتها الخاصة ، والبورجوازية تعرف منزلة

الاسلام ، وفى الوقت نفسه فليست على استعداد للنزول على مقتضياته «وحسبك تحريم الربا وهو حجر الأساس فى النشاط الاقتصادى البورجوازى» .

وكان الحل هو ازجاء آيات الثناء للاسلام ، والاعتراف بفضله على العالمين ، وتكريم علمائه وشيوخه ، وتعيينهم فى مناصب دينية مثل الأوقاف والمساجد ... ألخ ذات مستوى أدبى ومادى مرض ، إن لم يكن مغرياً ، دون إعمال شريعته .

وظنت البورجوازية بهذا أنها أمنت جانب الاسلام ومعارضته للنظام ، وانها تستطيع أن تضعه فى «ركن» قصى من أركان المجتمع !

ولكن هذه التسوية كانت بمثابة هدنة ، وليست سلاما ، لأن الشعب لم يتقبلها تماما ، حتى وان تقبلتها بعض القيادات المشيخية ، وأخذ تأييد الشعب للبورجوازية ينحسر .. وما أن ظهرت قيادات نابهة ، وعبقرية ، فى ميدان الدعوة الاسلامية مثل حسن البنا وأحمد حسين ، حتى انحازت اليها الجماهير فظهرت «الأخوان المسلمون» و «مصر الفتاة» وبدأ الخلاف يظهر بين الكتلتين : الكتلة الشعبية الإيمانية ، والكتلة البورجوازية الحزبية .

وفى الأربعينيات وصل الخلاف إلى درجة حرجة ولم يكن الانشقاق بين الكتلتين الا أحد مظاهر هذا الصراع ، وكان اغتيال الأمام حسن البنا فى فبراير ١٩٤٩ إيذانا بالعد التنازلى لنهاية النظام ، التى جاءت مع انقلاب ٥٢ .

ويمكن القول إن تجربة البورجوازية المصرية كانت هى أقرب التجارب الى التنوير فعلا ، وأنها تركت بصماتها على المجتمع المصرى – حتى الآن – وانجبت لمصر كبار كتابها ومفكريها وجعلتها عاصمة الثقافة والمعرفة وملاذا لكل الأحرار من كل الدول العربية ، كما وضع الحكم البرلمانى – على عيوبه – مبادىء الديمقراطية والمعارضة السياسية ... ألخ .

وكان النقص الأكبر فى تجربة البورجوازية المصرية هو اغترابها عن الاسلام ، وهذا الاغتراب لايعود بالدرجة الأولى الى معارضة الإسلام للأصول الثلاثة التى تقوم عليها البورجوازية (الفرد – الحرية – الربح) رغم أن للإسلام تحفظات على مدى استخدامها ؛ ولكن لأن هذه البورجوازية كانت متأثرة بالنمط الأوروبى فى التفكير والحياة والاتجاهات التى استحوزت على إسماعيل باشا وجعلته يعمل لتطوير المجتمع المصرى إلى مجتمع أوروبى دون ملاحظة للاختلافات العميقة ، وأنها لم تستطع أن تحقق

التسوية السلمية مع الإسلام الذى كان وحده يمكن أن يحول دون ظهور انقلاب ٥٢ ؛ فالبورجوازية ذكية ، ولكن الذى يقودها كان رأس المال ورأس المال جبان فخسر المعركة !!

الناصرية تعهير لاتنوير :

حتى لايهولن أحدا هذا العنوان ، نقول إن الفروض التى أقمنا عليها هذا الحكم هى :

١ – أن الحقيقة تظل هى الحقيقة ، رغم كل القوى التى تريد طمسها أو تزييفها ، فمهما ألقى اساتذة الجامعات من محاضرات ، ومهما وضع كتاب أو مفكرون المجلدات فى مدح (ثورة ٢٣ يوليو أم الثورات !) فإن هذا لن يغير من الحقيقة شيئا ، ولن يجعل مما حدث فى ليل ٢٣ يوليو ، ثورة ، فضلا عن أن تكون أم الثورات !

ولا يستطيع شعب مصر بأسره ، لو احتشد جميعاً وأقسم أن الشمس تشرق من المغرب ، أن يغير حقيقة أن الشمس تشرق من المشرق وليس من المغرب !

الحقائق هى الحقائق ، لاتغيرها آراء الرجال ولا تصرفات الجماهير لأن مجال التغرير والخداع والترهيب والترغيب ، والتعذيب والتكييف مفتوح ، ويسع الأساتذة والجماهير معا ، وقد عاشت الجماهير مضللة أكثر مما عاشت مهدية ، وعبدت آلهة زائفة أكثر مما عبدت الله الحق ، وكانت الجامعات فى أوروبا طوال القرون الوسطى ، وحتى مشارف العصر الحديث معاقل للكهنوت ورفضت – لحقبة طويلة – فكرة أن الأرض كروية !!

إن حماقة البشرية لاحد لها ، وقد وسع التاريخ من المفارقات والمساخر مايثير الشك فى حكمتها قادة وجماهير . . فقد رأى الإمبراطور الرومانى ماركس أوريليوس أن واجبه المقدس هو محاربة المسيحية دون هوادة ، رغم أنه كان يعد من الفلاسفة الرواقيين وله كتاب عن «التأملات» . . وأمضى الخليفة المأمون وقته فى جدل مذهبى سخيف أباح لنفسه فى سبيله جلد الائمة . . وجعلت جماهير روما متعتها فى مشاهدة «المجالدين» وهم يقتلون بعضهم بعضا ، أو متابعة الوحوش وهى تلتهم المسيحيين العزل . . وتقبل الشيوعيون التضحية بخمسة أو ستة ملايين فلاح تركوا ليموتوا جوعا بعد أن انتزعت منهم حبوبهم بدعوى أنهم «كولاك» ودارت الأيام لتشهد الجماهير الزعماء الذين حكموا هذه الفترة وهم يعترفون على أنفسهم فى محاكمات

١٩٣٠ - ١٩٣٣ المشهورة أنهم خونة ، وهم رفاق لينين وأبطال الدولية .. واعتبروا تروتسكى الرجل الثانى فى الثورة البلشفية خائنا وعميلا دوليا .

ورفع الشعب الإيطالى موسولينى إلى أعلى الدرجات .. ثم علقه منكوسا من قدميه هو وعشيقته ، وكان يمكن لهتلر - الذى عبده الشعب الالمانى حينا من الدهر - أن يلقى المصير نفسه لو لم يسارع بالانتحار ، هو وعشيقته أيضا .

أى مصداقية يمكن أن تعطى للجماهير المضللة وقد رأينا فى العراق مايفوق الخيال .. رأينا ديكتاتورا سفاحا يسوق أمته إلى حرب ضارية مع جارته إيران ، ويستنزف لثمانى سنوات طوال مواردها وموارد العرب الذين وقفوا بجانبه ، ثم لايكاد ينجو بجلده حتى يهاجم جارته الصغيرة الكويت بزعم أنها المحافظة التاسعة عشرة للعراق ! وتسبب بذلك فى تأليب العالم عليه .. ويتنازل عن كل مطالبه المزعومة من إيران التى من أجلها تورط فى حرب الثمانى سنوات ، ليجابه أقسى هزيمة ومهانة يتعرض لها حاكم ، ثم لا تنقصه البجاحة والصفاقة ليدعى أنه انتصر فى «أم المعارك» وأم المعارك كالقادسية من قبل من نسج جنونه .. ورغم الاذلال الذى يتجرع غصصه وخضوعه المهين للتفتيش ، وما يتعرض له هو وشعبه من عقوبات .. فانه بعد كل هذا يدعى الانتصار ، ولايزال متشبثا فى منصبه يجد من يصفق له ويحتفل بعيد ميلاده بدلا من أن يقطع إربا ...

وأى مصداقية للجماهير وزميل هذا السفاح - لايزال يحكم فى سوريا - وهو الذى هدم حماة على أهلها لأنهم إخوان مسلمون !

وأى مصداقة للجماهير وقد كان فى تونس معتوه تقام له التماثيل وتعقد له الاحتفالات حتى أخذوه الى بيت المجانين !

فأى مصداقية يمكن أن تعطى لمائة ألف ، أو حتى مليون مصرى ، وبضعة من الكتاب والمؤلفين والصحفيين خضعوا للتزييف والاكاذيب وغسيل المخ سنوات طوال ، فضلا عن المؤثرات «الدراماتيكية» الأخرى التى صاحبت تمثيلية اعتزال (أو تنحى) عبد الناصر ، ثم وفاته أو الضرورات التى جعلت البعض يتصور ان عليه أن يصلح ما أفسده ...

لاتحدثونا عن مظاهرات ٩ و ١٠ يونيو والجماهير التى كانت تجهش بالبكاء فهذه

النغمة الدعائية الممجوجة لم تعد صالحة حتى بالنسبة للجماهير .. فضلا عن المفكرين ، وقد آن لكم أن تقلعوا عنها .

إن هذه المظاهرات نفسها هى أكبر دليل على ادانة العهد .. وأن تزييفه وتضليله وصل الى درجة قلب المعايير بحيث يصفق للمهزوم ويكافىء العقيم ويشعر الشعب أنه عاجز كالطفل ، مالم يقف بجانبه عبد الناصر العظيم ! فأى مهانة للشعب مثل هذه ؟ .. أن شيئا أقل من هذا جعل المتنبى يقول :

فما كان ذلك مدحاً له
ولكنه كان ذم الورى !

ان ماحدث ليلة ٩ و ١٠ يونيو ، وغداة موت عبد الناصر لايعد مدحا له ولكنه كان كبوة من شعب مصر فى لحظة من لحظات الضعف ، أو انزلاقة بتأثير التزييف ولا يسىء هذا شعب مصر ، لأن له من التاريخ المجيد الطويل مالاتؤثر فيه مثل هذه الهفوة !

* * *

٣ — ان مايميز التعهير عن الكذب أو الزيف أن التعهير يزيد على الكذب والزيف بالتعمد وباصطناع كل الوسائل (عادة بالاغراء) للايقاع بالضحية . فالعاهرة تتزين وتتجمل ، وتعمد الى صنوف من الزى وتلجأ الى نمط من الحركات والسكنات وتعد الوعود وتقدم معسول القول ، لتستطيع ايقاع ضحيتها وهذا هو الفرق بينها وبين الكاذبة أو المزيفة .

وقد كان الشيوعيون هم أول من شن سياسة التعهير عندما أدعوا لانفسهم شعارات الديمقراطية والحرية . وأكدوا الف مرة ، وبكل صور التزييف والأدعاء أن الديمقراطية الحقيقة هى دستور ١٩٣٦ الذى وضعه ستالين أو أن الحرية الحقيقية هى مايتمتع به المواطن فى الدول الشيوعية حيث تحكم «البلوريتاريا» !!

وبالنسبة لتعهير الناصرية فانه بدأ عندما أراد عبد الناصر ان يكتسب شعبيه رغم سوءاته ومؤامراته فدله الشيوعيون على الطريق وبدأ هذا عمليا عند وضع الميثاق ، فهذا الميثاق وثيقة اجتماعية سياسية مكتوبة بأسلوب فنى رفيع ومؤثر ، وهو يتحدث عن الشعب المعلم ، والقائد .. ألخ ويتحدث عن النقابات باعتبارها شريكة للادارة .. وعن الهيئات الشعبية ودورها فى أن تراقب وتقود الهيئات التنفيذية



صورة من تعهير الفن لخدمة الدعاية السياسية وهناك العشرات من امثال هذه الصورة . وعندما زار الملك فيصل نيويورك واستقبله الصهيونيون بها شر استقبال عرضت روزا اليوسف وصباح الخير عديداً من الصور الكاريكاتورية تصوره فى أوضاع شائنة ..

ودارت الأيام ، وذهب عبد الناصر الى الخرطوم فى اثار هزيمة ٦٧ فاستقبله فيصل استقبال المسلم ، الذى يسمو فوق الصغائر والأهواء ...

والمركزية ، وهو يتحدث عن الحرية كعاشق لها ، وعن الانتخابات التى يجب أن تعبر عن ارادة الشعب من القاعدة الى القمة .. فالميثاق من ناحية الشكل والموضوع يظهر «ملكة جمال» وما يجعل هذه الملكة عاهرة هو أن كل هذا التجمل ، والتزين ، والأسلوب والمضمون ، انما يراد به ايقاع الضحايا وخداع الأبرياء .

إن التطبيق الفعلى للميثاق هو ما يصم هذه الوثيقة بالعهر ، لأنه معروف ، ومالانجد أنفسنا فى حاجة للتدليل عليه ، فلم يُذَلّ الشعب يوما وتُقْهَر إرادته كما حدث أيام عبد الناصر ، ولم تكن النقابات والهيئات الشعبية ذيلا ، دون حول أو طول أو إرادة كما كانت أيام عبد الناصر ، ولم تزيف الانتخابات بصورة صارخة كما زيفت لكى تصل إلى ٩ر٩٩٪ !! .

وعندما يذيع المذيع – غداة حرب ١٩٦٧ – أننا اسقطنا ٥٠ طائرة فانه يكون كاذبا .. أما أن يصيح بهذا الخبر بحماسة طاغية ونبرات عالية ، لمجرد أن الأوامر قد صدرت اليه بعمل «فرقعة» فهذا نوع من العهر الاخبارى !

وقل مثل ذلك عن الشعارات التى لايراد بها أبدا حقيقة (من الخليج الثائر الى المحيط الهادر) ! «ارفع رأسك ياأخى فقد مضى عهد الاستعباد» « .. الشعب المعلم .. الشعب القائد !!» .

٣ – لن نناقش الانجازات التى لا يمل الناصريون من تكرارها ، مثل اشراك العمال بخمسين فى المائة فى المجالس ، وتأميم قناة السويس ، ومجانية التعليم ، والقضاء على الاقطاع ، والسد العالى .. وسنسلم – جدلا فحسب – ومن باب توفير الصداع انها انجازات .. فلا أحد ينكر أن المناخ الوبيل ، مناخ المركزية ، والسلطة ، والمحسوبية ، وأهل الثقة ، واعطاء القانون أجازة ، والبيروقراطية .. كلها تآمرت على تطبيق الانجازات المزعومة .. بحيث طبقت تطبيقا سيئا ذهب بقيمتها .. وكل واحد يعلم أن نسبة الـ ٥٠٪ جاءت الى المجلس بمجموعة للتصفيق والهتاف واقرار كل ماتعرضه الحكومة .. ومن ذا تحدث من هؤلاء العمال والفلاحين خلال المدة كلها (من ١٩٦٣ – ١٩٩٣) أما مجانية التعليم فقد تمت على حساب الكيف فهبطت بمستوى التعليم هبوطا شنيعا جعل الحاجة الى الدروس الخصوصية أمرا لا مفر منه ، ومصاريف الدروس الخصوصية أكبر من المصاريف الدراسية القديمة .. وقد كان فى نظم التعليم القديمة قواعد تسمح للنابهين من الفقراء بدخول الدراسة الجامعية مجانا ، بل وأخذ مرتبات ،

وبفضل هذه النظم دخل عبد الناصر وأنور السادات – وهما من افقر شرائح المجتمع المصرى – الكلية الحربية وهي أرفع الكليات !

أما تأميم قناة السويس ، وهو مطلب طالبت به مصر الفتاة ، والأخوان المسلمون ، والشيوعيون ، فقد أعلن وطبق بأسوأ طريقة استتبعت عدوان ١٩٥٦ الذى بدأت به إسرائيل الزحف ، ونالت «إيلات» وفتحت قناة السويس ، ولولا تدخل أمريكا وإنذار المارشال بولجانين لنفذت إسرائيل فى ٥٦ مانفذته بعد أحد عشر عاما (١٩٦٧) .. على أن نجاة عبد الناصر فى ١٩٥٦ كانت من أسباب سقوطه فى ١٩٦٧ ، لأنه ظن فى ١٩٦٧ أنه سينجو كما نجا فى ١٩٥٦ فخاب ظنه ..

أما القضاء على الاقطاع فقد طالب به النائب ابراهيم شكرى فى مجلس النواب والشيخ محمد خطاب فى مجلس الشيوخ .. وطبقته الناصرية بأسلوب «ياعزيزى .. كلنا لصوص» !

أما تمصير الأقتصاد فلم يكن من الكياسة فى شيء نقله من أجانب مهرة .. الى ضباط جهلة لايعرفون شيئا عن ادارة المؤسسات الصناعية ، فحدث التسيب والتهليب والفوضى !

أن أفضل ماطبق خلال الحقبة الناصرية هو السد العالي .. وقد جاءت الفكرة أساسا من أحد الأجانب المقيمين فى مصر .. وكان بطله الحقيقى هو العامل المصرى . ومع هذا ، فلم يخل السد العالى من مآخذ !

٣ – حتى لو فرضنا – جدلا أيضا ولتوفير الصداع – أن هذه الأعمال : المشروع الحضارى الناصرى ، كانت انجازا وأنها طبقت تطبيقا سليما فما قيمتها أمام الموبقات التى جاءت بها الناصرية .

ماقيمة أن تجعل لى شقة وأرضا وأن تدخلنى مدرسة ... ألخ ، مقابل أن تصفعنى ليل نهار ، وتحرمنى من حرية العمل وحرية الفكر .

هناك شيء اسمه الكرامة ، والكرامة هى أول شىء ، وهى أهم من الغذاء والكساء .

وقد أهدرت كرامة الشعب وقهرت إرادته ، كما لم تهدر أو تقهر فى أسوأ العصور .

ولانزال نعيش فى آثار القهر الناصرى ...

★ ★ ★

إن مويقات العهد الناصرى التى تعصف بكل «انجازاته» المزعومة :

أولا – الحكم الديكتاتورى الذى لم يكن معروفا فى تاريخ مصر الحديث ..

نعم إن محمد على كان ديكتاتورا ولكنه شغل ببناء الدولة عن التنكيل بخصومه وكان العنصر الموضوعى فيه أكبر من العنصر الذاتى .. وأعقبه حكام لم يستطع أى واحد منهم أن ينفرد بالحكم ، ثم جاءت المرحلة الليبرالية فأشاعت الحرية السياسية والمسئولية الوزارية ، والمعارضة وحرية الصحافة وتكوين الأحزاب والنقابات .. ألخ حتى جاء عبد الناصر فقضى على دستور ١٩٢٣ وأحل محله عدة دساتير كلها مثل دستور ١٩٥٦ الذى كان يمنحه سلطة مطلقة ، وحتى هذا ، فانه انما وضع من باب الديكور فحسب .. فكما قال السادات إن الدستور لم يوضع لجمال عبد الناصر أو السادات .. ولكن لزيد وعبيد ممن سيأتى بعدهما !

والحكم الديكتاتورى معناه حل الأحزاب والرقابة على الصحافة ، أو حتى تأميمها – كما يقولون – والقضاء على المعارضة ، وضرب أى رأس يرتفع ، وقطع أى لسان يتكلم ، وسيطرة الحاكم الواحد حتى يموت ...

ثانيا – الارهاب والاعتقال والتعذيب :

لم يكن ممكنا أن يحكم عبد الناصر حكمه المطلق الا بعد أن يقذف الرعب فى نفوس الشعب ويجعل الخوف يلجم الالسنة ويشل الأرجل ، ويجعل الناس يلوذون ببيوتهم .. وقد حدث فى الشهر التالى للانقلاب بعقد محكمة كمحكمة دنشواى للعمال فى كفر الدوار ، وشنق اثنين من القيادات العمالية ، ثم فتحت أبواب المعتقلات وأدخل نوع جديد من الأرهاب الخسيس الذى لا يقنع باعتقال المعتقل ، ولكن بتعذيبه .

وقد شمل التعذيب الجميع بلا استثناء .. رجالا ونساء وأطفالا .. قرويين ومدنيين . عمالا وفلاحين .. ضباطا ومهنيين .. شيوعيين واخوان مسلمين .. وكان من تقاليد الاعتقال الناصرى أن يمر كل معتقل كائنا ما كان بـ «حفلة» استقبال ينهال عليه فيها الصفع والركل والضرب بالسياط من باب المعتقل حتى باب الزنزانة .. ولم يوقر أحد أو يحترم أحد لسنه أو مقامه ، وعلى رأسهم رئيس الجمهورية نفسه (محمد نجيب) البطل الحقيقى للحركة ، اذ ضرب وقذف به الى مكان مهجور تملوءه الفئران !

أما الشيوعيون فقد مات شهدى عطية بسبب الضرب ، وأصيب محمود العسكرى – النقابى اليسارى البارز بدوالى عفنة فى القدمين نتيجة ضربة المتوالى .. وطورد لويس عوض بالخيل ، وضرب بالسياط وأخذوا يقطعون ظهر اسماعيل صبرى عبدالله بالسياط لاجباره على أن يقول : (أنا امرأة) واصيب ثلاثة من قادة حدتو بالجنون بعد سجنهم سجنا انفراديا مدداً طويلة أواخر عام ٥٣ وقد شفى أحدهم (كمال عبد الحليم) بعد أن عولج بالصدمات الكهربائية ، ولم يشف الاثنان (مصطفى كمال صدقى وعبد الرحيم صدقى) حتى ماتا ، وانهالوا بالصفع والركل على عبد القادر عودة .

أما القاضى الجليل حسن الهضيبى فأوقفوه موقف المايسترو الذى يضبط ايقاع فريق يغنى «ياجمال يامثال الوطنية» .. أما الشيخ الأودن الذى جاوز السبعين وكان محل ثقة بعض الضباط وادلوا اليه بتاريخ القيام بحركتهم .. وظل الرجل ساهرا يصلى ويدعو لهم .. فقد ملأوا زنزانته بالكلاب التى تنبح فى وجهه وتبول عليه لأنه لا يحتمل التعذيب !

ولم تنج الفنانات والممثلات والراقصات .. فقد زج بهن فى ماخور صلاح نصر وتعرضن لصور شائنة من انحرافاته !

ولم ينج الصحفيون من الاعتقال والتعذيب .. فاعتقل احسان عبد القدوس الذى مهد للانقلاب باثارته قضية الذخيرة الفاسدة ، واعتقل ... وعذب مصطفى أمين الذى صنع الطاغية بيده وقلمه ... واقتلع فكرى أباظة من رئاسة تحرير المصور .. وكان هناك شخص واحد يستطيع أن يتكلم بصراحة لأنه صوت سيده !

وحتى لا نتهم بالمبالغة ، فاننا نعرض هنا سطورا قليلة من المجلدات السوداء للتعذيب والارهاب فى عهد عبد الناصر ...

(١) قالت محكمة جنوب القاهرة فى قضية تعذيب أهالى كمشيش فى حكمها– كما نشرته الأهرام : ان وقائع التعذيب والعذاب اللذين تعرض لهما المجنى عليهم لم يحدث مثله فى شريعة الغاب وتمت فى اسوأ فترة مرت بها البلاد حيث ذبحت خلالها الحريات ووطئت أجساد الناس فيها بالنعال ، وهتكت الأعراض بقصد اجبار الضحايا على طاعة أوامر رجال السلطة !

(٢) قال فؤاد سراج الدين : المنظر الذى رأيته فى السجن الحربى عندما اعتقلت عام ١٩٦٥ لن انساه أبدا .. لقد رأيت على امتداد جدران السجن أثناء

خروجى من الزنزانة أو العودة اليها ، رأيت رجالا يجلسون على «قرافيصهم» ووجوههم للحائط وخلف كل ثلاثة أو أربعة يقف عسكرى بالكرباج لضرب أى واحد يتحرك ... هذا المنظر كان يبدأ من الثامنة صباحا حتى السادسة مساء ، وكانوا كلهم من الأخوان المسلمين ثم نرى فى السجن مسئولين اعتقلوا ذاهبين أو عائدين من غرفة التحقيق أو غرف التعذيب لايسير واحد منهم على قدميه ، فهو إما يزحف على الأرض أو محمولا أو ظهره مكسور أو ذراعه أو رجلة مكسورة .. ولا أحد منهم سليم .. وعندما يخيم الظلام ترتفع اصوات الاستغاثات فى جميع أرجاء السجن من هول عمليات التعذيب .. وكانت عمليات فظيعة تستمر حتى الفجر .. انا لم أتحدث عما فعلوه معى ، لقد ضربت بالكرباج ولا أجد من أسرتى أو معارفى يعلم ذلك حتى الآن .. كيف أنساها عندما اقرأ حخيثيات حكم محكمة أمن الدولة فى قضية كمشيش .. كيف انساها عندما يأتون بكلاب بوليسية مدربة يدفعونها الى هتك أعراض الرجال !!

هذه كلها اساءات فى حق الانسان المصرى ، وحق مصر كلها لا يمكن أن تنسى .. نعم ، أنسى ضربى بالكرباج من عسكرى كان يقف بفناء السجن الحربى وظيفته ضرب كل واحد يمر أمامه وبدون سبب .. نعم انسى سبى وسب أبى وأمى وعائلتى .. والله نسيت كل هذا ولكن الإساءة لبلدى ولمواطنى الى هذا الحد فأنا احتاج الى قوة من عند الله حتى استطيع أن أنساها !!

(٣) وعن تعذيب الكاتب الكبير مصطفى أمين :

فقد أجلسوه على مقعد دائرى فى وسط الزنزانة بعد أن خلعوا عنه جميع ملابسه حتى أصبح عاريا تماما ، وسلطت عليه الأنوار الكاشفة القوية ، ومنع عنه الطعام والشراب حتى اضطر الى شرب ماء الاستنجاء وشرب بوله ، ثم شدوا شعر جسده ، وهو مقيد اليدين والقدمين للحائط ثم سلط عليه التيار الكهربائى بينما كان ينهال عليه السباب وبأقذع الألفاظ .

(٤) – الشيخ يوسف القرضاوى من قصيدة طويلة :

نار القريض بخاطرى فدعونى
أفضى لكم بفجائعى وشجونى
قل للعواذل ان رميتم مصرنا
بتخلف التصنيع والتعدين

مصر الحديثة قد علت وتقدمت
في صنعة التعذيب والتقرين
وتفننت كى لا يمل معذب
فى العرض والاخراج والتلوين
أسمعت بالانسان ينفخ بطنه[1]
حتى يرى فى هيئة البالـون
أسمعت بالانسان يضغط رأسه
بالطوق حتى ينتهى بجنـون
ان كنت لم تسمع فسل عما جرى
مثلى ، ولا ينبئك مثل خبير

فليضف الناصريون هذه الصور من التقدم والتفنن الى الانجازات الناصرية .. واذا نسوها ، فلن ننساها !

فالدِّين لا يبلى .. والديان لا يموت ...

(٥) قال أحد المعتقلين فى مذكرة تقدم بها الى السجن الحربى :

شاهدت عددا من المعتقلين فى السجن الحربى يفقدون أبصارهم واطرافهم من التعذيب .. ورأيت النساء يجلدن بالسياط وكذلك الأطفال ، دون السابعة ، ورأيت الآباء يضربون أبناءهم ، والأبناء يجلدون آباءهم أمام سمع ونظر السادة المحققين ، وبأمرهم ، بحثا عن أشياء لايعرفونها ! ورأيت أكثر من ذلك ياحضرات المستشارين ما أتعفف عن ذكره ![2] .

---

(١) مما يدل على أن هذا النوع من التعذيب «النفخ» مما لم ينسه المجتمع المصرى بين انجازات الناصرية ، ولم تنفرد به كتابات الأخوان المسلمين أن الرسام الكاريكاتيرى البارع الأستاذ مصطفى حسين عندما أراد أن يسخر من سياسة وزارة الاقتصاد نشر فى الأخبار (١٩٨٧/١/١١) رسما يصور «إدارة المخابرات على المصدرين – قسم الاعترافات» تضمن كلباً شرساً مربوطا فى سلسلة وكرابيج معلقة ومنفاخا على كرسى !

(٢) هذه الوقائع – وهى قطرة من بحر جرائم التعذيب – نقلناها من كتابنا «الاسلام هو الحل» الفصل الثانى عشر ، ص ٢٢١ – ٢٧٤ .

(٦) شهادة الأستاذ الدكتور حسين مؤنس :

كان الدكتور حسين مؤنس يكتب فى مجلة أكتوبر سلسلة من المقالات تحت عنوان «باشوات وسوبر باشوات» وقد ضمها فيما بعد فى كتاب بالاسم نفسه وضمنه وثائق تاريخ الحقبة الناصرية .. والشهادة التى سنعرضها فيما يلى هى المقالة الحادية عشرة التى نشرت فى مجلة اكتوبر (العدد ٣٤٨ - ٢٦ يونيو ١٩٨٣) وقدم لها بالآتى :

صديق كريم يسألنى : قل لى يا أخى : أنت مع عبد الناصر أم عليه ؟ أنت مع السادات أم عليه ؟ وأجيبه : أنا أوفر عليك العناء وأقول : إننى أيها العزيز مع شيئين لا ثالث لهما : أنا مع الحق أولا ، ومع وطنى مصر ثانيا . فأنا مع كل من مع الحق ، ومع كل من مع مصر ، وهنا لا يكون الأمر أمر أسماء أعلام ، بل مبادىء ، لأن مصر شىء ، وعبد الناصر شىء آخر ، والسادات شىء ثالث ، فإذا كان عبد الناصر مع مصر فهو يصبح مصرا وأكون معه ، ونكون كلنا مع الحق ، وكذلك الأمر بالنسبة للسادات . ونحن بعد تجارب السنين ومرارتها لأبد أن نكون قد فهمنا أنه ليس لنا إلا هذا الوطن ، فإذا نحن خدمناه بصدق وإخلاص نجا ونجونا ، وأفلح وأفلحنا . ولا يتصورن إنسان أنه يفلح وحده إذا خسرت مصر ، لأننا وبلدنا شىء واحد ، وكلنا ينبغى أن نخدم وطننا ، وينبغى أن نفهم أننا عندما نكون خدما لمصر فإن مصر تعز بنا ، ونحن نعز معها ، فمن مصر نأخذ عزتنا وأقدارنا ، وإذا تصور إنسان أن مصر ينبغى أن تخدمه ، أو أنه سيدها ، أو أنه صاحبها ، وله الحق فى أن يستخدمها كما يريد ، فهو يذل نفسه دون أن يدرى . ومصر هى الأرض والناس ، وهى أرض مصر وناس مصر ، وعبد الناصر أذل أهل مصر ، وامتهن حقوقهم وكراماتهم ، ورفع قدر نفسه وهو يحسب أنه بذلك يرفع من قدر مصر ، وعبد الناصر ضيع جزءا عزيزا من أرض مصر ، وأذل هذا الجزء من أرض مصر لأذل خلق الله بنص القرآن الكريم ، ومحصلة ذلك كله كانت فى مؤتمر الخرطوم بعد هزيمة ١٩٦٧ عندما جلس عبد الناصر مسكينا مفلسا حطيما يعتذر - بغير كلام - لمن أراد أن يقضى عليهم بمغامرته فى اليمن ، لأنه أصبح الآن فى حاجة إلى أموالهم وعطفهم وصفحهم ، والناس أعطوه وصفحوا عنه ، لأنه كان بالفعل قد مات ومابقى من عمره - بما فى ذلك بيان ٣٠ سبتمبر - كان إجراءات تشييع الجنازة ...

وأنا أقرأ أخبار العصر الناصرى ، واقف عند باندونج فى أبريل ١٩٥٥ ، وأشعر بالفخر إذ أرى بطلنا المصرى جمال عبد الناصر يتألق كواحد من قادة الدنيا فى مؤتمر عدم الانحياز ، وأعجب به وبحسن تصرفه وشخصيته التى جذبت الدنيا إذ ذاك ، وأقرأ عن زيارة السفير الروسى شبيلوف لعبد الناصر فى يوليو ١٩٥٥ وعرضه تقديم أسلحة للجيش المصرى ، ثم عقد صفقة الأسلحة التشيكية مع مصر فى سبتمبر ١٩٥٥ فأعرف لعبد الناصر فضله ، وأعجب ببسالته ، فقد كان لتلك الصفقة أثر معنوى عميق فى نفوس المصريين والعرب وأهل

العالم الثالث ، وأنا هنا أشعر بالزهو ، لأن مصريا حرر الإرادة المصرية أولا ، ثم خطأ فأصبح واحدا من أكابر زعماء الدنيا ، ثم خطا خطوة أخرى فأصبح أكبر زعيم سياسى فى الدنيا خارج أوروبا والولايات المتحدة وروسيا . ولكننى عندما أطوى الصفحة وأنظر إلى أحوال المصريين فى ذلك الوقت فإننى أرى أن الثمن الذى دفعوه لكى يرتفع اسم واحد منهم يجعل الصفقة خاسرة مهما كانت قيمتها المظهرية . غير معقول أن يذل كل المصريين لكى يعز واحد منهم فحسب ، وما كان يجرى فى مصر إذ ذاك كان أسوأ من أن يصدق .

والمصرى الذى عرف ألوانا من الظلم والحرمان فى العصور الماضية - أيام المماليك والأتراك مثلا - وعرف خيبة الأمل والحيرة والشك بل اليأس فى أيام الإنجليز والملك والباشوات ، بدأ يعرف لونا أسود من الظلم فى أيام عبد الناصر : ظلم الخوف والإرهاب والسجن الطويل والتشريد والفصل من الوظيفة والحسرة لجوع الأولاد ، وإقفال الناس الأبواب فى وجه المغضوب عليه ، وذلة الحاجة إلى القرش بل إلى الرغيف .

وإذا كان المملوك يسرق لأنه حقير ، والتركى يجلد لأنه غبى ، والباشا لايكترث لأنه كان مشغولا بجمع مال يجعله ضمن الأثرياء ، فإن عبد الناصر كان يذل الناس ويعذبهم ويمتهن كراماتهم لأنه كان يحس أن مصر لا تتسع لإنسان آخر عزيز النفس مرفوع الرأس إلى جانبه . كأنما كان يرى أن تحرير الإرادة المصرية .. معناه ألا يبقى على وجهها إلا رجل واحد له إرادة حرة هو عبد الناصر نفسه ، وأى مصرى آخر يفكر فى أن له كرامة وعزة إلى جانب العزيز الأوحد إنسان منحرف ، ينبغى أن يُقَوم ، ومتمرد لأبد أن يحطم ، وخطر لابد من القضاء عليه» .

وأذكر هنا حكاية قصها على مملوك السلطان الذى جاءنا سفيرا فى مدريد ، قال[1] :

- كل غسيلهم القذر قمت بغسيله ، ثم «ينفونى» بعد ذلك إلى آخر الدنيا كما ترى ! هل تتصور يا فلان أن أحمد أبا الفتح كان صديقا لنا وحليفا للثورة قبل أن تقوم وبعد أن تمت ، وكنا نجتمع عنده لنتدارس ونتشاور ونتسامر ، وتعشينا عنده ليلة ، وأسبغ الرجل علينا من فضله ، وسهرنا وتسامرنا ، وفى مساء اليوم التالى ينادينى عبد الناصر ويقول :

- تذهب الآن إلى بيت أحمد أبى الفتح وتقبض عليه وتحبسه ..

وأدهش للأمر وأنكره ، وأنظر إلى عبد الناصر وأقول :

أمرك يا سيادة الرئيس ، ولكن هذا الرجل صديقنا ومنا وعلينا ، وأمس فقط كنا عنده على أحسن حال من الود والصفاء ، فإذا كان قد بلغك عنه شىء فدعنى استوثق منه فأنا عليم ببواطن الأمور ، ولكن لعل شيئا قد خفى علىّ . وينظر إلىّ عبد الناصر والشرر فى عينيه ويقول فى ازدراء :

- أنت عليم ببواطن الأمور ؟ أنت نائم على آذانك ، والمؤامرة تحاك من حولى .. امض لما آمرك به ، وأرجوك ألا تناقشنى فيما آمرك به بعد الآن ، ومادمت تتصدى للدفاع عن

---

(١) وهو الضابط أحمد أنور الذى كان قائد السجن الحربى فى السنوات الأولى للانقلاب .

أعدائى فسأريك عاقبة تصديك .. عليك أن تأمر قائد السجن بأن يشدد عليه ويعذبه ، ومن الليلة لا ينام إلا على البرش ، وليكن فى علمك أننى لن أتردد فى أن أدوس على ابنى نفسه بقدمى لو أراد أن يزحزحنى عن الأرض التى أقف عليها !

وكان لابد أن أصدع بما أمر ، فأخذت رجالى وياورى وذهبنا لتنفيذ هذه المهمة ، وحتى لا أجد فى نفسى حرجا من القبض على صديق أكلنا معه إلى الأمس خبزا وملحا ظللت فى سيارتى ، وأمرت ياورى والعساكر بأن يصعدوا إلى البيت ويأخذوا الرجل . وقام الياور والعساكر بالمهمة ، وأتوا بالرجل ، فوضعناه فى «البوكس» دون أن أراه ، وبعد أن أسلمناه للسجن وأبلغنا قائده تعليمات الرئيس قال لى الياور ونحن فى طريق العودة :

- والفيلا .. ماذا ستصنع بها ؟
- أى فيلا ؟
- فيلا الرجل الذى أمسكناه الآن . إنها شىء فاخر لا يليق إلا بك ..
- فنهرته وقلت له إننى لا أمد يدى على مال صديق ، ويكفى ما أصابه على يدنا .. فيقول الياور :
- إذن بعد إذنك .. آخذها أنا .
- تأخذها أنت .. أما أعطيناك الشقة التى اخترتها أنت بنفسك فى جاردن سيتى ؟
- هذه أعطيها لأختى ، وآخذ أنا الفيلا ، ففيها حديقة ترد الروح ، والأولاد فى حاجة إلى حديقة .

وبعد أيام أكون مع عبد الناصر فيقول لى :

- منذ متى أنت وفلان حبايب ؟!

فحكيت له الحكاية فقال بعد تفكير .

- عندما أقول لك إن فلانا عدو لى وخطر علينا ، فمعنى ذلك أننى متأكد مما أقول ، وهؤلاء الناس كلهم يستحقون الحرق ، وليحمدوا الله على أننا نكتفى بوضعهم فى السجن .

- ولكن ياسيدى الريس ما الذى بلغك عن هذا الرجل ؟.

- وهل تظن ياسى فلان أننى ليس عندى غيرك ؟ وهل تغيب عنى حركة تصدر عنك ، أو من غيرك فى هذا البلد ؟! . افتح عينيك يا فلان واعلم أن ألف خيط ترتبط بكل أصبع من أصابعى هذه ، وأنا أقول لك هذا الكلام لأنك صديق وأنا أحبك .. أما غيرك فاننى أشد الخيط على رقبته حتى أخنقه .

ويسكت قليلا ثم يعود فيقول : إن صدرى ينفجر يا فلان ، وأريد أن اتحدث إلى رجل يفهمنى . إنهم يأخذون العيال ويعملون منهم وزراء ، وفلان ياورى الذى حدثتك عنه أصبح الآن من أقرب الناس إلى أذن الريس ، ولولا أنه يعلم أننى عظمة زرقاء لأكلنى ، وعندما طال بى العهد فى العمل البغيض الذى ارتبط باسمى أعفانى منه ، وعيننى وزيرا فى الحكومة الاتحادية مع اليمن ، وكانت وزارة تكسف ، وشكوت للمشير ، والمشير أشار بإبعادى ، وهذا

الكلام أقوله لك لتعلم أنني مشكلة لعبد الناصر ، فأنا أكبر منه وأقدم ، وقمت له بخدمات ما كان أحد يستطيع القيام بها غيرى ، ومن كانوا يجدونه يستطيع أن يقوم بصفع نقيب العمال على وجهه وكسر أنفه وسط الناس فى المطار إلا أنا؟ ، لقد كان لابد أن نفعل ذلك ، وكان لابد من تحطيم رأس هذا الرجل الذى طغى وظن نفسه بنى آدم له كلمة وقيمة ، فما وجدوا والله لها غيرى ، ثم ماذا كانت مكافأتى ؟ وزير فى وزارة لا يحس بها أحد ، وفلان وهو عيل بالنسبة لى يمسك بأعظم مشروع زراعى فى البلد ، ويضعون تحت يده الملايين ، وهو لايفرق بين كوز الذرةوعود البرسيم ، فها هو ذا اليوم ملك زمانه ، وعنده ملايين لا يعلم بأمرها إلا الله ، وتحت يده موظفون بمرتبات وزراء وألف سيارة مربوطة على بابه كأنه ملك[1] !

وقد قال بعض اتباع الناصرية أن التعذيب قد وجد من قبل واستعاد بعضهم ذكرى «العسكرى الأسود» وليس هناك ماهو أكثر زيفا من هذه الدعوى . فلم تعرف مصر «الليبرالية» التعذيب الناصرى أبداً ، وكان المتهم بالعيب فى الذات الملكية يمضى بضعه شهور في «سجن الأجانب» تخصص له غرفة صغيره بها سرير ودولاب كما لو كان فى فندق ، ويتولى السجن تنظيفها ، ويرتب له طعام خاص وتأتيه الصحف . ولم نسمع بتعذيب فى جرائم سياسية الا فى عهد «السعديين» الأشقياء عندما احتدمت العداوة بينهم وبين الأخوان فى أعقاب حل الإخوان المسلمين فى ديمسبر سنة ١٩٤٨ وكان

---

(١) رد الأستاذ جمال حماد على الدكتور حسين مؤنس فى العدد نفسه تحت عنوان «بل ثورة يوليو خالدة ..» رداً ركيكا يقول فيه ان الدكتور مؤنس يلقى الكلام على عواهنه ، ولا يثبتها بدليل – وكأن هذه الدعاوى التى يعلمها القاضى والدانى فى حاجة الى دليل . ثم يلوذ بالحجة الفارغة التىّ يبرر بها الأخطاء حجة «ان لكل ثورة أخطاء وان لثورة يوليو أخطاءها والمؤرخ المنصف هو الذى يسجل الإيجابيات والسلبيات ، وأن الأنماط التى أبرزها لنا الدكتور مؤنس ليست سوى نماذج لقلة من المنحرفين استغلوا ثقة الثورة بهم كما هو الحال فى جميع العهود وفى كل الثورات ، وأود أن أؤكد فى هذا المقام أن معظم هؤلاء المنحرفين لم يكونوا من ضباط الثورة» وهذا ادعاء عارٍ عن الصحة جملة وتفصيلاً فلا يمكن تبرير الأخطاء بأخطاء والموبقات التى ذكرها الدكتور مؤنس تمحو محواً تاماً الإيجابيات المزعومة . والنماذج السيئة التى ذكرت ليست لقلة أو أن معظم هؤلاء لم يكونوا من ضباط الثورة . فإنهم كانوا أبرز رموزها . وماذا عسى أن يقاس انحراف أحمد أنور بانحراف صلاح نصر الذى جاء بعده . وليس ادل على تفشى الفساد أن الحكومة لا تجرؤ حتى الآن على اعلان محاضر محاكمة المنحرف صلاح نصر بعد لأنها ستلوث قيادات ٢٣ يوليو . ولكن ماذا عسى جمال حماد أن يقول وهو من ضباط ٢٣ يوليو ؟

التعذيب يأخذ شكل الضرب . وأشاعوا حكاية «العسكرى الأسود» للأرهاب ، وحتى لو كان له حقيقة فهى حالة فرديه . ومع هذا فقد فضحت الصحف السعديين حتى أقيلوا اقالة مهينة ، وهزت اعتقالاتهم العهد ، وكانت من أكبر العوامل التى أدت إلى قيام انقلاب ٢٣ يوليو ونجاحه .

واخيراً نأتى إلى القارعة المروعة ، والآزفة التى تَبَّرت ما علو تتبيراً ، وعصفت بدولة المخابرات ومراكز القوى وبرأس هذه المراكز ، عبد الناصر نفسه . ولكن ما أفدح الثمن ! إن هزيمة ٦٧ هى إحدى الهزائم «الفاصلة» هى مثل هزيمة اكتيوم التى قضت على مصر باحتلال الرومان لها ستمائة عام ومثل مرج دابق التى قضت بتبعية مصر للعثمانيين ثلاثة قرون . وقد مضى على هذه الهزيمة ربع قرن ، ولازلنا فى عقابيلها . ومن الصعب جداً التغلب على اثارها قبل مائة عام ! لأنها اعطت اسرائيل أكثر مما كانت تحلم به . سيناء كلها ، والقدس ، والضفة الغربية وغزة والجولان .. وهزمت وأذلت جيش مصر وسوريا وغنمت سلاحهما ، وأهم من هذا الكبرياء والزهو الذى جعل اسرائيل تؤمن أنها قادرة على أن تحقق «إسرائيل الكبرى» .

يقابل هذا الزهو والأزدهاء .. المهانة والضعة التى حاقت بكل مصرى .. وكل عربى والفجيعة المروعة لأمال الذين صدقوا دعاوى الناصرية ...

وقد كشفت الهزيمة النظام وعرته ، وأظهرت كيف تسير الأمور ، فإذا كان عبد الناصر عالما بأن الضربة ستقع يوم ٥ يونيو ، وأمر أن لانبدأ فقد ارتكب خطيئة العمر ، وإذا كان المشير العقيم لم يفعل شيئاً فهو لايكون مشيراً ولا غفيراً . وكل منهما يعلم بحالة المطارات والطائرات التى تجثم كالبط الأمر الذى روع مغنية[1] ، لا ضابط أركان حرب .. ولكنها الطريقة التى كانت تحكم بها مصر مابين العمدة وشيخ الغفر، وماتم بعد ذلك أكثر دلالة فبعد هذه الهزيمة المروعة عرض العمدة على شيخ الغفر أن يكون نائب رئيس الجمهورية ! ورفض شيخ الغفر . فهل يمكن ان تدار «عزبة» بهذه الطريقة .

★ ★ ★

كانت هزيمة ٦٧ هى نقطة النهاية لرؤى جيل كامل ، رفعته الشعارات الى سماوات

(١) دعيت الفنانة شريفة ماهر للغناء فى حفل بالمعسكرات قبيل الهزيمة مباشرة - votروعها منظر الطائرات الجاثمة كالبط دون أى حماية ..

الوهم حتى جاءت الهزيمة فأنزلته إلى حضيض الواقع الذى ما كان يخطر بالخيال ، وتجمد الفكر المصرى ، وقد يصور ذلك أن الوطنى القديم الأستاذ أحمد حسين شُل ، وأصبح مقعداً بعد أن كان يتوقد حركة ونشاطاً .

للناصريين أن يقولوا ان عبد الناصر حطيم الإقطاع ، وأرسى قاعدة الصناعة وحقق العدالة الأجتماعية وبلور أحلام جيل فى المشروع الحضارى لمصر ، وللقومية العربية ... ولناقديه أن يقولوا إن المناخ الوبيل حال دون التحقيق السليم لهذه الإنجازات ، فضلاً عن أن الواقع العملى كان نقيض الشعار المعلن على خط مستقيم «ارفع رأسك يا أخى» «الانتخابات من القاعدة للقمة بالإرادة الحرة» إلخ ..

أما الشيء الحقيقى الذى لاجدال فيه فهو أنه :

(١) أفسد الحياة السياسية فسادا لم تبرء منه حتى الآن عندما أوجد الديكتاتورية فى أسوأ صورها .

(٢) أهان كرامة الشعب وقهر ارادته وأدخل التعذيب الخسيس لمعارضيه جميعا من كل الفئات ومن كل الأعمار ومن كل جنس ، فبث روح الخوف والقهر فى المجتمع .

(٣) مكن – وهو العسكرى أركان حرب – لاسرائيل أن تهزم جيش مصر وتوقع به المهانة ، وتغنم أمواله وعتاده وتمزق تربة الوطن باحتلال سيناء ، فضلا عن استيلائها على القدس وغزة والضفة الغربية وهضبة الجولان !

هذه الثلاثة مما لايمكن لاى وطنى أن يغتفرها أو يتسامح فيها .

إذ كيف يمكن أن نبنى الإنسان المصرى الذى يحس العزة والكرامة ، اذا كانت الحركة المسئولة ، والرجل المسئول عن العار والهزيمة والقهر والطغيان يظهران كثورة عظمى ، وكبطل قومى ... ؟ هذا لا يستقيم !

* * *

أثر الطبيعة السرية لتنظيم الضباط الأحرار على حركة ٢٣ يوليو :

إن الأخطاء الفاحشة التى اكتنفت الحقبة الناصرية والانحرافات التى انزلقت إليها

من أيامها الأولى حتى انتهت عام ١٩٦٧ إنما تعود إلى الطبيعة السرية لتنظيم الضباط الأحرار التى حالت دون أن تأخذ طابع ثورة ، أو حتى انقلاب عسكرى كما كنا نتصور قبل أن تتضح لنا دقائق الأمور .. ولكن طابع مؤامرة دبرت فى الظلام !

أن أربعين أو خمسين ضابطا اشتركوا فى مؤامرة وسيروا وحداتهم العسكرية فى ظلام الليل دون أن تعلم هذه الوحدات شيئا .. ورزقوا عوامل استثنائية مكنت هذه المؤامرة من أن تحقق انتصارا لم يكن المتآمرون أنفسهم يحلمون به .. وأبرز هذه العوامل : الأسم المشرف والمقبول للواء محمد نجيب الذى تسترت المؤامرة وراءه ، وأن عدوهم - الملك فاروق والأحزاب - كانوا فاسدين حتى النخاع ، وأن النظام كان متهاوٍ وآيل للسقوط ، ومساندة الأخوان المسلمين وبعض الأجنحة الشعبية ، فضلا عن عدد من المصادفات أشار إليها مؤرخو الحركة وكتبنا عنها بالتفصيل فى كتابنا «الأسلام هو الحل»[1] !

ولما كانت المطالب التى أعلن عنها المتآمرون وهى عزل الملك فاروق مقبولة تماما من الشعب ، فقد رزقت المؤامرة تأييده .

وكان يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ هو قمة المؤامرة التى كان يجب أن تنتهى عندها - **لولا أنها مؤامرة ..** ولو كانت **حركة** لانتهت بطبيعتها ولكن أثر التنظيم السرى للضباط الأحرار تحكم فيها ، وكان وراء كل انحرافاتها .

ذلك أن التكوين السرى لتنظيم ما يستتبع جوا من الغموض والتكتم وعدم الاعلان أو التصريح وتركيز السلطة ... أنخ مما يفسح مجالا للانحراف ، وقد ظهرت هذه الانحرافات فى كل التنظيمات السرية سواء كان ذلك فى التاريخ الاسلامى القديم كحركات الشيعة ، وما انساقت اليه من انحرافات حتى «النظام الخاص» للاخوان المسلمين الذى انشق على طاعة الأمام الشهيد ، رغم أنه كان خلاصة الخلاصة ، وكان الأمام الشهيد رمز الدعوة ورئيسها المطاع ، وكان تنظيم الضباط الأحرار من هذا النوع وفاقم فى آثار سريته أنه تنظيم عسكرى يتطلب أقصى درجة من التكتم ..

(١) كنا قد بدأنا نكتب ونطبع فى الأيام التى تلت ٢٣ يوليو مباشرة كتابا عن هذه الحركة بعنوان «ترشيد النهضة - دراسة توجيهية للانقلاب العسكرى ونظرة عبر المستقبل المصرى» - قلنا فيه إن الحركة انقلاب عسكرى وليس ثورة ، وقد صودر الكتاب قبل أن يتم بمجرد أن قرأت (الرقابة) ملزمته الأولى .. وانتهزنا فرصة اصدارنا كتاب «الإسلام هو الحل» فأدرجنا فيه الفصل الأول من هذا الكتاب المؤود ... (ص ٦٧ - ٧٤) .

وأن التنظيم ضم أمشاجا من الأخوان ومن اليساريين ومن الوطنيين ، فضلا عمن ربطتهم علاقات خاصة أو أسرية ، فلم يكن له فكر موحد ، مما يركز التوجيه فى قائد هذا التنظيم ، وكانت الموهبة الحقيقية فى عبد الناصر أنه «متآمر» بالفطرة والطبيعة ، مما هيأه لقيادة مثل هذا التنظيم ووفر له الدهاء ، والتكتم ، والمناورة ... ألخ وهذا هو السبب فى تفوقه على ضباط كانوا أقدم منه وأرسخ فى تنظيمات الضباط ، وأنه استطاع أن يخدع الأخوان والشيوعيين والأحزاب قبل ٢٣ يوليو وبعدها !!

ولا ينفي هذا كله أن تنظيم الضباط الأحرار ضم عددا من الضباط الوطنيين الذين كانت تموج بهم المعسكرات ، وأن غرض المؤامرة فى حد ذاته كان نبيلا . فان هذا كله شيء ، **والطبيعة التآمرية التى تفرض نفسها على كل تنظيم سرى بحكم سريته شيء آخر .. وقد قلنا إن أثرها ظهر فى تنظيمات الشيعة السرية قديما ، كما ظهر فى تنظيمات الأخوان المسلمين حديثا .**

على أن الموهبة التآمرية لعبد الناصر كانت (محلية) ، فقد كان كالفلاح الذى يجيد السباحة فى الترعة ، ولكنه سيغرق حتما اذا حاول السباحة فى المحيط .. ولهذا فانه عندما حاول أن يجرب تآمره وخداعه مع اسرائيل وامريكا والأتحاد السوفييتى ، فإن هؤلاء جميعا خدعوه وراح ضحية مغامرته الدولية التى ظن أنه سينجح ويصول ويجول فيها كما نجح ليلة ٢٣ يوليو ، وكما نجح فى خداع الأخوان والضباط والأحزاب !

وكل تاريخ عبد الناصر هو سلسلة من الخداع والتآمر ، .. وبهذه الطريقة استطاع أن يتخلص من كل الضباط الذين شاركوا فى المؤامرة .. ولم يبق إلا السادات الذى أثبت أن الدهاء (المنوفى) غلب الدهاء (الصعيدى) .. واستطاع أن يخدع هذا المخادع الكبير وعرف كيف يتعامل معه !!

ولو كان عبد الناصر ضابطا كبيرا محبوبا عند الضباط .. ولو كان طبعه هو **الصراحة والإخلاص والوطنية .. ولو كان هدفه القضاء على الفساد .. لكان من الممكن أن يفعل مثل مافعل عرابى عندما ساق الجيش ليرغم الخديوى على إصدار الدستور وتكوين مجلس النواب !**

ان دراسة هذه السابقة المشرفة التى استثمر فيها عرابى صفته كضابط فى تسيير الجيش لتحقيق مطالب الشعب ، ومقارنتها بما حدث فى ظلام ليل ٢٣ يوليو ، يوضح لنا كثيرا من الحقائق ، ويقدم لنا مقارنة عظيمة الدلالات والفائدة ...

لقد كان عرابى ضابطا من صميم تربة مصر ، كان فلاحا ودخل الأزهر لفترة قبل أن يدخل الجيش كعسكرى .. ومن تحت السلاح – كما يقولون – نال رتبته العسكرية ، فكان تمثيلا للشعب بحكم المنبت والثقافة ، وأنه نال رتبته العسكرية «تحت السلاح» !

واكتسب عرابى شهرة لبعض الملابسات ، فاتجه إليه رجال الاصلاح وانضم معه الوطنيون من الضباط ، فاستخدم هذا كله ليجمع الجيش ، ورجال الاصلاح ، وليسير به الى ميدان عابدين فى ذلك اليوم المشهود (٩ سبتمبر ١٨٨١) ، وتحت سمع وعلى مرأى كل رجال ونساء القاهرة ، وحضور مندوبى الصحف والوكالات الأجنبية والشخصيات الوطنية من أعيان وأحرار ، تقدم عرابى على جواده ، وفى يده سيفه ، لينقل الى الخديوى ارادة الشعب !

حقا إنه ترجل ، وأغمد سيفه ، ولكنه لم يغمد مطالبه ، ولم ينصرف الجيش الا بعد اعلان قبول المطالب التى كان أولها اقالة الوزارة المستخزية واعلان الدستور وتكوين مجلس النواب !

هذا مثال فريد – ناجح وصريح – فى استخدام الجيش لتحقيق مطالب الشعب ، عندما يعجز الشعب عن أن يحقق ذلك بوسائله الخاصة .

إن مظاهرة ٩ سبتمبر ١٨٨١ حققت لمصر الدستور ، وأجرت الانتخابات واجتمع مجلس النواب ، وكان يمكن لهذا كله أن يكون بداية لعهد باهر لولا تدخل الانجليز !

ولك أن تقارن بين هذا الأسلوب ، قيادة وعملا ، وبين ما حدث فى ظلام ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

كان عرابى – كما قلنا – تمثيلا صادقا للفلاح المصرى ، ولم تتغير هذه الصفة ، حتى مات .. أما عبد الناصر ، فانه وان كان يمت الى أصول شعبية صعيدية فقيرة ، الا أنه عاش فى المدينة ، ودخل مدارسها بحيث أصبح فى أدنى درجة من سلم البورجوازية التى تضرم التطلعات وبدفع هذه التطلعات وبتيسير عوامل أخرى دخل الكلية الحربية حيث يعلمون الطلبة أن يكونوا ضباطاً يأمرون فيطاعون ، أو يؤمرون فيطيعون ! وهذا هو الدرس الأول والأكبر لكل الضباط فى كل الجيوش (الطاعة) ! وبئس الدرس لمن يحكم شعبا .

وكل من يعرف جمال عبد الناصر فى أيامه الأولى يعلم أنه كان شخصية انطوائية ،

تكاد تكون منفرة ، فهو لايبتسم ولا يضحك ولا يتجاوب مع محدثه ولا يتحدث ويؤثر أن يستمع .. وكان فى هذا يختلف تماما عن محمد نجيب البشوش الصريح ، وعن أحمد عرابى الفلاح الفصيح ..

وتنظيم المظاهرة – مظاهرة ٩ سبتمبر – علنى اشترك فيه الأعيان والأحرار ، وشاهده كل من يستطيع أن يطل على ميدان عابدين الفسيح ! والمطالب واضحة ، وهى أسمى المطالب للشعب : اصدار الدستور ، تشكيل مجلس النواب .. وشتان مابين حركة تطالب بالدستور ، وحركة أخرى أول أعمالها الغاء الدستور !

كان عرابى صادقا مع نفسه ، مخلصا فى حركته ، يعلم أنه يستطيع أن يأتى للشعب بالدستور ومجلس النواب ، ولكنه لايستطيع ولا يستهدف أن يحكم الشعب .. لأن الشعوب لاتحكم بضباط !

ولكن ماحدث فى ظلام ليل ٢٣ يوليو ، كان مؤامرة .. وملابسات المؤامرة وطبيعتها فحسب تسمح بالانحراف ، بل انها تستتبع الانحراف ! ولهذا كانت الحركة مقضيا عليها .. لقد كانت شقية من بطن أمها ، وبشخصية أبيها ، وجر شقاؤها التعاسة على مصر !

الفصل الثالث

أزمة أدعياء التنوير

الصراع بين الذات والموضوع

كثيراً ما يتساءل المرؤ كيف نفسر وجود عدد من الشخصيات الممتازة ، المثقفة ، بين زمرة أدعياء التنوير ، وكيف نفسر اتجاهات لهم ما كان الانسان يتوقعها منهم ؟ !

والرد أن هؤلاء هم ضحية **« إشكالية »** – كما يقولون – كبيرة من أكبر قضايا المسألة الاجتماعية ، **هى الصراع بين الذات والموضوع** .. وقبل أن تظهر وتتحكم فيهم ، ظهرت وتحكمت فى محمد على ، وكانت سبب تآمره على المشروع القومى الذى اتفق عليه مع شيوخ القاهرة ، وكانت سببا فى أن تحيف البورجوازية/ الليبرالية المصرية على الإسلام فيما بين ١٩٢٣ ، ١٩٥٢ وهى أيضا سبب انحرافات عدد كبير من ادعياء التنوير ، ولولاها لكان من المحتمل أن يصبحوا دعاة تنوير ، بحق !

« والاشكالية » تضم طرفين هما : الموضوع و الذات ...

والموضوع هنا تمثله مصر ، بينما الذات تمثلها شخصيات أدعياء التنوير . . وما جاءت به المستجدات والملابسات من تطورات ارتبطوا بها ، وأصبحوا جزءا منها لايستطيعون منها فكاكا !

الموضـوع : مصر

كما قلنا ، الموضوع هو ، مصـر . . .

فنحن لا نتحدث عن دعوات مطلقة ، أو دعاوى أكاديمية . . ولكننا نتحدث عن هذا كله بالنسبة لمصر . . ونريد لها أن تطبق على مصر . . ومن هنا تنشأ علاقة ما بين هذه الدعوات والافكار . . وبين طبيعة مصر ، وبقدر ما يكون الفكر والرأى مطابقا لطبيعة مصر ، ومتجاوبا معها بقدر ما تكون فرص النجاح والتوفيق . . والعكس بالعكس . . .

ولا يدفع هنا أن الأمم متشابهة . . وأن التطور يجعلها تمر بمراحل واحدة ، وأن التقدم العالمى محا الاختلافات فهذا كله ، وإن كان له نصيب من الصحة ، الا أنه لايقوى على طمس الطبيعة والهوية . . وهو وإن أوجد « متشابهات » تضم « المتخالفات » من المجتمعات ، فانه لايقضى على الشخصية المميزة لكل أمه بحيث يبقى المصرى مصرياً ، والهندى هندياً ، والإنجليزى إنجليزياً . . إلخ وكل وحدا ينهل أو يقبس من الآراء والأفكار الحرة بقدر ما تسمح به ظروفه وتقدر عليه قوى استيعابه .

ولعل الشيوعية دليل على ذلك . . .

فلا جدال أن الشيوعية رزقت منظرين ومفكرين ودعاة ، ورجال دولة وسياسة ، وهيمنت على عدد من دول العالم ، منها الاتحاد السوفيتى – سدس العالم – ووجدت فى كلبية الرأسمالية وجرائمها ما يدينها وما يوفر عليها نصف الطريق !

مع هذا لم ينجح الفكر الشيوعى فى مصر . . .

كان فكرا غريبا ، مغرقا فى « أوروبيته » ، اصطلاحاته وتعبيراته ومفرداته والامثلة والشواهد التى يستشهد بها ، كلها غريبة تماما عن مصر ، قدر ماهى قريبة من اليونان أو الرومان أو انجلترا وفرنسا .

وأهم من هذا أنها تتنكر للدين !

فشلت الشيوعية رغم كل شيء ، ولم تنجح فى مصر رغم ما أنفق عليها وما بذل فيها ، لانها غريبة على مصر ، معادية للاديان !

فى مواجهة هذا ، أقبل الشعب على الاخوان المسلمين زرافات ووحدانا ، فى القرى والمدن ، وتصدت الحكومة طوال اربعة عهود متصلة للجماعة التى لاتملك حولا ولاطولا ! وأستخدمت كل هيلمانها ، ولكنها عجزت عن قهر الجماعة ، وكل مرة كانت تخرج من محنتها أشد قوة ...

ولماذا حدث هذا ؟ !

حدث هذا لان الدين يشغل مكان الصدارة فى مقومات مصر ويمثل المحور فى العلاقات والنظم ، هو « روح مصر » الذى تنبثق منه نظم الحكم والقضاء والفنون والآداب .. هو « المفاعل » الذى فجر عبقرية مصر وجلاها فى مثل الاهرامات والمعابد والتماثيل والمساجد ، هو الذى أبقى عليها وحفظها ، ومكنها من أن تواصل البقاء فى مواجهة عاديات الغزو ونوازل الفقر والجوع والظلم التى كان يمكن أن تقضى على الشعب ، وروحه قضاء مبرما ، إن أثر الدين فى مصر لم يقدر تماماً . فمصر هى الدولة الأولى – ولعلها الأخيرة – فى العالم التى عاشت للدين ، وضحت بالحياة الدنيا فى سبيل الآخرة .. عاشت فى الأكواخ بينما كانت تبنى الأهرامات الشامخة والمسلات السامقة لتحقق لروحها الخلود الذى هو رمز الديانه المصرية .. وغطت مظلة الدين النجوم والشموس والأنهار والنبات والحيوان وأضفت عليها قبساً من القداسة .. ومفتاح ذلك كله الزراعة المنتظمة .. إن المأثرة التى تذكرها الديانة المصرية للإله هى أنه علم المصريين الزراعة . من أجل هذا اعتبر أوزوريس «رأس الآلهة» على حين أننا نرى – فى حالة اليونان – أن المأثرة التى تذكر لبرومثيوس أنه سرق سر النار من الآلهة وقدمه للبشر .. كانت حضارة مصر زراعية .. خضراء .. مستقرة بينما كانت الحضارة الأوربية نارية .. حمراء متوهجه ..

ومنذ أن عرف المصرى القديم كيف يتعامل مع النيل . وبفضل الفيضان المنتظم والغرين المخصب وقد تكونت مصر تكوينا إيمانيا راسخا ، فى بيئة زراعية مستقرة طوال ثلاثة آلاف عام متصلة .. انصهرت خلالها الشخصية المصرية فى الدين ، وانصهر الدين فى الشخصية المصرية بحيث صارا شيئاً واحداً .. ومن هذه السبيكة

تكون شعب متميز ، وتم هذا قبل أن تبدأ أولى الغزوات ؛ ولهذا عندما بدأ الهجوم على مصر لم يقض الغزاة على شعب مصر ، فهو إما منتصر – بحكم العقيده على الغزاة يؤثر فيهم ويستقطبهم ، وإما متقوقع داخل صدفة الدين حتى تمر الغاشية أو يستعيد قواه خلال عقود ، أو حتى قرون تنتهى بأن يذوب المنتصر فيه ويصبح – بصورة بطيئة وغير محسوسة – جزءًا منه .

وقد تعرضت آثار مصر خلال تاريخها الطويل لكل صور النهب والسلب وسوء الاستخدام والتدمير ، منذ أن أصدر الإمبراطور الرومانى ثيودسيوس أوامره بتحطيم المعابد « الوثنية » .. (٣٧٩ – ٣٩٤) حتى العرب .. عندما ارسل يزيد بن عبد الملك (سنة ١٠١ هجرية – ٧٢٠ ميلادية) إلى واليه على مصر عقبة بن مسلم بكسر «الأصنام والتماثيل» فكسرت كلها على ما قيل ومحيت آثارها !! ، وعندما حاول المأمون أن يفتح الهرم ، والولاة الذين تعاقبوا على مصر وبنوا قصورهم ومساجدهم بأحجار وأعمدة منهوبة ، والجهالة وسوء الاستخدام الذى جعل لفات البردى الثمينة تستخدم وقوداً . ومع العصر الحديث انثال على مصر كل أنواع اللصوص والقراصنة الذين قاموا بعمليات سلب ونهب واستغفال للولاة .. حتى نقلوا إلى الخارج ثلاثة ملايين قطعة نفيسة من الآثار .. تزدان بها متاحف العالم ، ومع هذا الهدم والسلب والنهب ومن خمسة الآف عام لايزال مافى متاحف مصر أكثر مما فى متاحف العالم . ولانزال نستكشف بين الحين والحين آثاراً أخرى حتى يتصور الإنسان أن تاريخ مصر ليس فوق أرضها ولكنه مطمور فى الرمال وتحت طيات التراب ..

بأى قوة استطاع هؤلاء المصريون فى فجر التاريخ أن يقيموا هذا الوجود القوى الصامد للدين : أن يصعدوا بأحجار الأهرام الثقيلة إلى قمته وأن ينحتوا من الجبال معابد وتماثيل ، وأن يغوصوا بالمقابر فى أعماق الأرض . وأن يزينوها ويرسموها حيث لاضوء ولاشمس وأن ينقشوا بالأزميل على الصخور الصلدة ليخلدوا تاريخهم وليبلغوا رسالتهم إلى الأجيال ..

ما من قوة كان يمكن أن تحقق هذا إلا عندما ينصهر الإيمان فى الشخصية بحيث تعبر هذه الشخصية عن نفسها بلسان الدين ..

وبحق قال شوقى ..

فإذا قيل ما مفاخر مصر

قيل فيها إيزيسها الغراء

وفى العصر القبطى – على أنه كان مختزلا ، ومحاربا ، ولم يقدر له الحكم ،

فإن مصر قدمت إضافاتها المبدعة إلى المسيحية وقدم رجال كنيستها مذهبهم الخاص .

وفى الإسلام – مع أن التطورات التاريخية جاءت من البصرة والكوفة ، ودمشق وبغداد أولاً ، فإن الإسلام لما أن تأثل فى مصر حتى كانت هى التى انقضت على الصليبيين واستعادت القدس وأسرت الملك الفرنسى لويس التاسع ، وقضت على رعب المماليك ، وقتئذ – التتار – الذين لم تقف فى وجههم جيوش من قبل .

وسار هذا الدأب حتى حرب رمضان ١٩٧٣ التى قامت تحت شعار « الله أكبر » .

وعندما يقول شوقى إن ايزيس هى مفاخر مصر ، فانه يعنى أن مصر هى التى وضعت بذرة الضمير الانسانى واكتشفت سر الخلق والعالم الآخر بثوابه وعقابه ليكون هيكل العدالة كاملا . . وهذه كلها أمجاد حضارية رفيعة لايمكن لاحد أن يمارى فيها ، ويعد جحدها حرمانا لمصر من إضافتها الخاصة فى الحضارة .

فالدين فى مصر يمثل قدس أقداسها ، وعمق حضارتها وتاريخها ورمز ضميرها ووجدانها ومن هنا فلا يمكن المبالغة فى تقدير منزلته ، وأى فكر أو نظام يعارض الدين فسيرفضه المجتمع المصرى ، وأى فكر يناصره فسيؤيده ، وقد رحب الأقباط بعمرو بن العاص وهو الغريب عنهم ، بالجنس واللغة والدين ، لانه أطلق الحرية الدينية التى حرموا منها ، كما رحب شيوخ الأزهر بمحمد على وهو العسكرى الالبانى ، لانه تعهد بالحكم بالشرع .

وأى رجل دولة فى مصر لابد أن يلحظ هذا المعنى ، وقد قيل إن نابليون تزيا بزى المشايخ ليتقرب إلى الشعب . . وأشاع أنه أسلم ، ولا يخالجنى شك فى أن نابليون لو قرر البقاء فى مصر لما تردد فى اعتناق دين الأسلام ، ليس بالضرورة لانه مخلص فى ذلك ، ولكن لأن هذا هو ما يجعله يتمتع بثقة شعب مصر !

وعندما جاء المحتل البريطانى ، فانه – بذكائه – حرص أن لايمس المقدسات الإسلامية ، بل انه تقرب منها ، وحاول أن يستغلها لمصلحته ، باعتبارها اقرب الأبواب إلى قلب الشعب .

★ ★ ★

وقضية الدين تسلمنا – ضرورة – إلى الإسلام . . لأن مصر آمنت بالإسلام ، وأصبح هو دينها ولا يغير من هذه الحقيقة وجود أقلية غير مسلمة ، ففى كل العالم

توجد الأقليات التى قد يزيد عدد مجموعها عن عدد الأقلية القبطية ، ولا يغير ذلك من الحسابات العامة شيئا !

وإذا كان الدين هو فى مصر محور الحياة والدولة والمجتمع . . فأن هذا ينطبق بالتبعية على دين مصر الحديثة وهو الإسلام .

وهذا ما يكشف عن جانب خاص للإسلام ، لا لأنه الإسلام ، ولكن لأنه الدين الذى ارتضته مصر ، فلو لم يكن الإسلام دين حياة ، لفرضت عليه مصر هذه الطبيعة ، ولكن الإسلام كانت له هذه الطبيعة بالفعل ، فلم يخذل مصر وكان طبق طلبتها . وقد لاتصدق كلمة الرسول على بلد وشعب ، كما تصدق على مصر . « أنا حظكم من الانبياء ، وأنتم حظى من الامم » .

والحقيقة أن ايمان مصر بالإسلام كان أمرا مقضيا ، كان يمثل النهاية الطبيعية لمسيرة الإنسان المصرى نحو الدين ، ووجدت التصورات الساذجة البدائية للانسان المصرى عن الله واليوم الآخر صورتها النقية المجردة فى الإسلام . . وهناك تشابه عجيب بين فكرة الدين المصرى القديم عن اليوم الآخر وهو أبرز مقوم فى الأديان ، وبين فكرة الإسلام . . ففى الديانة المصرية نجد الميزان ونجد « ريشة الطائر » التى ترمز للعدالة . . وهو ما يمثل « الميزان » فى الإسلام وتعبير « مثقال ذرة » أو « حبة من خردل » كما أن ثمة تشابه بين بعض تصورات الجحيم فى الديانة المصرية القديمة والإسلام .

وتتكرر الاحاديث فى الديانة المصرية القديمة عن الشمس كرمز للالوهية ، كما تتكرر الاشارات فى القرآن عن الشمس كآية من آيات الله . . وقد يجوز القول ان شيئا ما فى أعماق – أو لا شعور – الاقباط قد تحرك وذكرهم برموز الديانة المصرية القديمة التى كان يؤمن بها أسلافهم قبل اعتناقهم القبطية ، وقرب إليهم الإسلام .

وحافظ الإسلام على التكوين الدينى لضمير مصر عندما قدم صياغة « الحلال والحرام » . . – بصرف النظر عن مدى السلامة فى تكييف الحلال والحرام – لان هذا يرتبط بدرجة الوعى والفهم والتقدم الفكرى والاجتماعى[1] .

---

(١) هناك الآف الشواهد التى تؤكد عمق معنى الحلال والحرام فى النفس المصرية اليوم ، وأنه الفيصل فى الحكم على التصرفات والاعمال ، قد تعبر عنه – مثلا الأغنية الشعبية التى تقول [« تحرم » علىَّ ايدى إن لمست ايديك « تحرم » علىَّ عينى لو طلت عليك] ولكنها تقلب الآية [لما تكون « حلالى »] فتقول «لما تكون حلالى أحطك فى عينى واتكحل عليك !! » . وقد أرسلت إحدى قارئات الاهرام رسالة تقول **« أنا مواطنة مصرية اعيش فى سلطنة عمان مرافقه لزوجى ولى عتاب صغير على معظم صفحات المرأة بالصحف =**

وهكذا نجد أن « الموضوع » وهو مصر المؤمنة يسلمنا إلى مصر المسلمة باعتبار أن الإسلام هو دين مصر ، وإيمانها ..

هذا هو « الموضوع » الذى كان يجب أن يكون نصب أعين كل الذين يعالجون شيئا يمت إلى مصر بصلة .. والباحث الأمين لابد أن يلتزم به ، ولابد أن ينزل على ماينزله الموضوع ، لا على مايحب هو ويختار .

ومن الخطأ الاستشهاد بدول أخرى ، أو القول إن الدين لم يعد يؤدى اليوم دوره القديم ، أو القياس على الدول الغربية ، أو اقتباس النموذج الحضارى الاوروبى فى العصر الحديث ، لان الحضارات ليست فروضا رياضية ، ولا هى قوالب جامدة ، يمكن نقلها ، أو لبسها كما تلبس الثياب ، ولا يمكن تطبيقها دون نظر إلى الظروف الخاصة بكل أمة .. إن الأديان لم تقم فى أوروبا بالدور الضخم الذى قامت به فى الشرق ، لأن الله تعالى لم يرسل رسلا « من أولى العزم » إلى أوروبا ، وقد قام الفلاسفة والمفكرون بالدور الذى يقوم به الأنبياء ، وأبدعوا لأوروبا اطارا حضاريا ، وأبدعوا فكرة الواجب والقانون ... إلى آخر القيم الحضارية الخاصة بالمجتمع الأوروبى وعندما نقلت أوربا المسيحية ، فانها جعلتها مسيحية أوروبية .. وقد تكون **القبطية المصرية أقرب إلى الإسلام منها إلى المسيحية الاوربية ، لان القبطية عايشت ، وتأثرت بدين**

= المصرية هو .. صفحة المرأة لمن ؟ هل هى لسيدات صاحبات إجتماعات ، وندوات ، ولقافات ، وموديلات ، وآراء عن المراة المصرية هى بعيدة عنها ؟

يأأيها الفاضل ، إننى سيدة ومتعلمة وأيضاً لى ثقافتى المحدودة فى مجال الأدب والفن وخصوصا التشكيلى منه ، والشعر إلى جانب العلم ، وهو دراستى الأساسية والدين وهو الأساس وفوق كل ثقافة ، وفى سكنى فى مصر ، وحولى جيران وخصوصا السيدات ، أمهات ، ومنهن عاملات ، أفكارهن بسيطة ، والحمد لله ليس هناك أى خلل فى حياتهن ، ولا أعلم إلى من توجه صفحة المرأة الخطاب ، إجتماعات لنادى روتارى ، لا أعلم ماذا يعنى هذا النادى ، وندوات عن المرأة والطفل ، لمن تصل ؟ أعتقد أنها ، لاتصل سوى لكاتبتها ، أو صاحبات الندوة .

إننى أحب أن أجد على صفحة المرأة ، ما يعنيها حقا ، دراسة مصرية ، فبعض المقالات ، مثلا ، تقول للتفاهم بين الزوجين ، يقول الدكتور فلان (أجنبى بالطبع) كذا وكذا ، مالى وهو ، أريد رأى الدين ، لأنه ماتقبله نفسى ، ونفس كل امرأة وكل رجل .

انى لست ممن تسموبهم الجماعات الدينية ولاتنظيمات ، ولكننى تربيت على الحلال والحرام ، فلا أريد اسمع حين كبرت وتزوجت ، عن رأى مستورد ، أريد رأيا محليا ، وستجد هذا الرأى نابعا من الحلال والحرام ، واتحدى أى انسان فى هذا الخ .

أميرة شوقى عبده .

الأهرام – بريد الأهرام تحت عنوان – «كونوا واقعيين» ص ٩ يوم ١٩٩٣/١٢/١١ .

إلهى هو الإسلام ، ولكن المسيحية الأوروبية ارتبطت بالوثنية الأوروبية وعايشت رموزها من اليونان والرومان والإسلام يحنو على المسيحية أكثر مما تحنو الحضارة الاوروبية عليها ، وإذا كان الإسلام يمثل العدل ، الذى قد يكون بعيدا شيئا ما عن « الحب » الذى يمثل المسيحية ، فان أوروبا تمثل القوة ، البعيدة عن العدل والحب معا !

ومع أن أوروبا الحديثة وحضارتها لم تعد تستلهم قيمتها ومثلها من الكنيسة أو تقيم أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية على مقررات الكنيسة ، فإنها لاتزال تحتفظ بالميثلوجيا اليونانية ، التى تمثل الديانه الحقيقيه لاوروبا ورمز حضارتها ، وتجد مفردات هذه الميثلوجيا فى علم النفس ، وعلم الفلك والرياضه .. إلخ ...

كما يعود المسرح الحديث إلى التراجيديا اليونانية ولاتزال تمثل مسرحيات اسخيلوس ويوربيدس وأرستوفان ، أما سير أبطال اليونان والرومان فإنها هى التى تزود رجال الدولة والتاريخ بالأمثلة والشواهد ، فأوروبا لم تتنكر لماضيها ولكنها احتفظت به ، ودمجته فى حياتها ؛ فما من أمه لايكون لها ماض ؛ وما من أمة يمكن أن تتنكر لماضيها لأن مثل هذه الأمة تكون كشجرة ليس لها فى الأرض جذور متغلغلة تمسكها ...

ومن الخطأ أيضاً الافتيات على الإسلام أو الادعاء بأن الإسلام لاعلاقة له بالحكم والاقتصاد ، لأن آيات القرآن الكريم صادعة وصريحة ، فهى تفرض الزكاة وتجعلها قرينة للصلاة ، وهى توجب الشورى وهى تندد أشنع تنديد بالظلم والطغيان وهى تؤذن بحرب من الله ورسوله لمن يمارسون الربا .. فأين يذهب الذين يدعون أن الإسلام « علاقة بين الإنسان وربه » من هذه الآيات ، وهل يعد نظاما يقوم على ديكتاتورية البلوريتاريا ، أو طغمة الجيش أو يقوم اقتصاده على الربا .. أو لاتؤخذ الزكاة ممن تجب عليهم لتدفع لمن تحق لهم .. هل يعد هذا النظام اسلاميا ، أو حتى متجاوبا مع الإسلام ؟ !

فحيثما اتجه الباحث الامين نحو مصر .. أو نحو الإسلام .. فانه يجد الدين أساسا للقيم ، ومحورا للعلاقات ، ومصدرا للضمير .

وسنجد — فيما سيلى — أن هذا لا يمثل الحقيقة الموضوعية التى صاحبت مصر والإسلام على مدى العصور ، فحسب ، بل إنه هو أيضاً أمثل الحقائق .. ولله الحمد والمنة .

الـذات :

ننتقل الآن إلى الطرف الثانى للإشكالية وهو « الذات » التى يمثلها أدعياء التنوير ، والعوامل والملابسات التى تحكمت فيهم بحيث صرفتهم - وهم مصريون أولا - عن الاتجاه الذى يتفق مع الطبيعة الايمانية الإسلامية لمصر ، وحولتهم من دعاة ، إلى أدعياء !

والحقيقة أن هذه العوامل عديدة ، وقوية ، ونحن الذين ننتقدهم ، نعترف بأن الخيار لديهم كان محدودا - وقد كانوا بحكم هذه الملابسات - مسيرين ، كان التيار جارفا ، وجرفهم فى طريقه !

ومن العوامل التى انحرفت بكثير من أدعياء التنوير :

(أ) الثقافـة :

يعد التكوين الثقافى لفرد ما من أبرز العوامل التى تحدد الاتجاهات الفكرية - سياسية أو اجتماعية - لهذا الفرد ، وقد تعرضت الثقافة فى مصر لمؤثرات وتيارات وقوى عديدة ، جعلتها تأخذ صياغات وصورا قد لاتكون المثلى .

بصفة عامة ، نجد أعرق المعاهد العلمية - الأزهر - وثقافاته الإسلامية السلفية ، وقد كانت دراساته تلك هى التى أوجدت لنا « فقهاء التقليد » واتجاهاتهم التى انتقدناها فى القسم الأول من الكتاب .

وفى مقابل هذا نجد المؤسسة الثقافية المدنية التى تضم المدارس الابتدائية حتى الجامعات ، وما بينها ، وقد بدأت هذه المؤسسة مع محمد على ، ولكنها تبلورت بصفة رئيسية فى فترة الاحتلال البريطانى ، ووضع القس الإنجليزى دانلوب - الذى كان مستشار وزارة المعارف - سياستها ، ومع أنها تغيرت إلى حد كبير ، فلا تزال بعض القسمات القديمة باقية ، مثل **المركزية البيروقراطية ، وعزل التلميذ عن بيئته (الحارة - القرية) والفصل بين العلم والعمل ، وعدم الاحتفال باللغة العربية والدين ، وهى قسمات كان لها آثار مدمرة لمقومات الشخصية .**

بالإضافة ، فقد أخذت هذه الدراسات أحد اتجاهين : فهى إما إنجليزية أو فرنسية ، فالهندسة ، والعلوم والطب عادة ما تكون بالإنجليزية ، والآداب والفنون والمحاماة عادة ما تكون بالفرنسية .

ونحن من دعاة إحكام اللغات الأجنبية والاطلاع على الثقافات الأوروبية ، ولكن هناك فرقا بين أن نحكمها لحساب ثقافاتنا الخاصة ، وبين أن نحكمها على حساب ثقافاتنا الخاصة . والمفروض أن نلم بكل الثقافات والمعارف ، لانها جزء من الحكمة التى هى هدفنا والتى تدخل فى مكونات الإسلام ، والذى حدث هو أن العناية بالثقافة الاجنبية مع استبعاد الدين واللغة ، وعزل الطالب عن بيئته ، جعل تأثير الثقافة الانجليزية أو الفرنسية طاغيا .

وقد يصور هذا كلمة الدكتور زكى نجيب محمود .

« لم تكن قد اتيحت لكاتب هذه الصفحات فى معظم اعوامه فرصة طويلة الأمد تمكنه من مطالعه صحائف تراثنا العربى على مهل ، فهو واحد من الوف المثقفين العرب الذين فتحت عيونهم على فكر أوروبى – قديم أو جديد – حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بان ذلك هو الفكر الإنسانى الذى لافكر سواه ؛ لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه ، ولبثت هذه الحال على كاتب هذه الصفحات أعواماً بعد أعوام : الفكر الاوروبى دراسته وهو طالب ، والفكر الاوروبى تدريسه وهو أستاذ ، والفكر الأوروبى مسلاته كلما أراد التسلية .

استيقظ صاحبنا كاتب هذه الصفحات – بعد أن فات أوانه أو أوشك – فإذا هو يحس الحيرة تؤرقه فطفق فى بضعة الأعوام الأخيرة التى قد لاتزيد على السبعة أو الثمانية ، يزدرد فيه تراث آبائه ازدراد العجلان كأنه سائح مر بمدينة باريس وليس فى يديه إلا يومان ولابد له من خلالها أن يريح ضميره بزيارة اللوفر . فراح يعدو من غرفة إلى غرفة ، يلقى بالنظرات العجلى هنا وهناك ، ليكتمل له شيء من الزاد قبل الرحيل»(١) .

إن هذه الكلمات تُجمل المأساه كاملة ، وتبرز جريرة الثقافة الأوروبية على شخصية المثقف المصرى ، ويزيد من أهمية هذه الفقرة أنها تشمل « ألوف المثقفين العرب » . فهى ليست حالة خاصة كما قد يبرهن على عمق صدقها أن الكاتب وهو يندب حظه لتخلفه فى التعرف على الأدب القومى والتراث العربى والإسلامى ، ويندد بغلبة الفكر الأوروبى لم يجد لتمثيل ذلك إلامثلا يمت إلى أوروبا نفسها بصلة ! .

وأكثر دلالة ومأساوية من هذا ما ذكره الدكتور لويس عوض عن نفسه أنه : « ظل ما بين العشرين إلى الثانية والثلاثين لايقرأ حرفا واحدا بالعربية إلا عناوين الصحف السيارة وبعض المقالات الشاردة التى ألزمته الضرورة السياسية بقراءتها ...» فلا عجب إذا قال : إنه لولا الميلاد « **لكان ولدا شرعيا لليونان والرومان والقرون الوسطى والحضارة الحديثة** » .

(١) تجديد الفكر العربى الطبعة الخامسة ص ٥ .

ولنتصور مدى المأساة عندما يصبح صاحب هذا التأسيس العربى الهزيل مستشارا لاكبر جريدة يومية عربية (الاهرام !) ، ويعد من الذين يؤصلون للفكر المصرى !

وهذا الاستغراق فى الفكر الاوروبى كان فى أصل أخطاء لويس عوض وأشهرها بالطبع بتلك الخطيئة البلقاء عندما جعل من أحد العملاء والخونة والذين حاربوا جنبا إلى جنب الجيش الفرنسى فى الفترة الأخيرة للحملة الفرنسية وهو « الجنرال يعقوب » **صاحب أول مشروع قومي لمصر !.**

ولكن الأمر لايقف عند تحطيم المقومات الوطنية والمصرية . . .

لقد قرأنا ما لم نكن نتصور وقوعه . . .

ففى قسم اللغة الانجليزية بكلية آداب الجامعة المصرية كان يدرس فى الثلاثينات كتابان أحدهما « جان دارك » لبرنارد شو ، والثانى « محاورات من الخيال » لكاتب انجليزى يدعى سافيج لاندور . . .

فى مسرحية «جان دارك» جاء فى سياق الكلام على لسان «كوشون» وهو أحد الأساقفة أن جان دارك كانت تبعث بكتبها إلى ملك الإنجليز لكي يخضع لأمر الله الذى أوحى إليها فيعود إلى جزيرته وإلا باء بغضب من الله . . ثم يقول مانصه : «ألا فاعلموا أن إرسال هذه الكتب عادة جرى عليها قديما محمد عدو المسيح» . . ثم مضى يصف أمر هذه الفرنسية المتنبئة فقال : « وبمثل هذا قام عربى جمّال فطارد المسيح وكنيسة المسيح حتى طردهما جميعا من أورشليم ثم مضى يضرب فى الارض فيعيث فيها الفزع والخراب حتى إذا بلغ مغربها قام جبل الأبواب (وهما جبال البرانس) دونه ، وقامت رحمة الله وحيل بين فرنسا وبينه فنجت من الله ، فماذا صنع الجمّال العربى فى بداية أمره ، أكثر مما صنعت هذه الفتاة ، جاءه الوحى من جبريل وجاءها من القديسة كاترين والقديسة مرجريت والمبارك ميخائيل وأذن فى الناس بأنه رسول الله . . وكتب الكتب إلى الملوك باسم الله» . . ثم يقول بعد قليل : «إنا والحمد لله الآن بخير ، فليس فى الدنيا إلا محمد ومخدوعوه ، وإلا الفتاة جان ومخدوعوها . . ولكن كيف يكون الحال اذا خالت كل فتاة أنها جان دارك وخال كل رجل أنه محمد ؟ » !!

وجاء فى الكتاب الثانى « محاورات من الخيال » فصل كامل بعنوان « محمد وسرجيوس » يستغرق من ص ١٧٨ حتى ٢٠١ وهى مكالمة توهمها المؤلف بين

الرسول ﷺ وهذا الراهب سرجيوس ، وهى فرية قديمة روج لها المبشرون ونشروها ، وأعادها من قبل كفار مكة وأشار إليها القرآن الكريم ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين**﴾ !! **(النحل ١٠٣)** .

وهذه الإشارة على محاولتها النيل من الرسول الكريم لاتقاس بما جاء فى الكتاب بعنوان «الكونت جلايشيم ، والكونتيسة ، وولداهما» وحوار ولهلم ابن الكونت جلايشيم مع أخته أنابيلا .. قال ولهلم : «لست طفلا حتى أتوهم أن يفر فارس مسيحى من وجه متمرد تركى (أى مسلم) فى المعركة ولكن النصارى قد يؤخذون أحيانا بحيلهم وبكلبه محمد» ... فتقول أخته أنابيلا : «وأنا وإن لم يكن بينى وبينك سوى سنة واحدة فليس يبلغ بى الحمق أن أصدق بوجود كلب يقال له محمد ، وإذا صح أنه موجود فعندنا كلاب خير منه وأكثر أمانة وأشد قوة» ... فيقول أخوها مخاطبا إياها : «لا أكاد أملك نفسى من الضحك إذا ماذكرت مايطوف فى رؤوس الفتيات من خيالات محمد ... فنحن نعلم أن محمد ما هو الا كلب له ثلاثة ذيول كذيول الخيل ... » !!

إلى هذا الدرك ...

فما الذى يجعل أساتذة قسم اللغة الانجليزية يقررون «جاء دارك» ما دامت تتضمن أشارة تمس مشاعر الطلبة المسلمين ؟ ومسرحيات شو عديدة ؟ وما الداعى لتقرير كتاب من تأليف أحد النكرات يتضمن هذا الاسفاف أو القذف ؟ وهل بعد هذا نستبعد أن يكون اساتذة هذا القسم من الجواسيس المحترفين ذوى العلاقة الوثيقة بدوائر المخابرات أو هيئات التبشير ، كما أكد ذلك مؤلف « أباطيل وأسمار »[1] .

فأى وعى وطنى أو موضوعى يكون قد تربى على هذه السموم ؟ وكم تكون نسبة المصرية أو الوطنية فيه ؟ إنه لايعد مصريا الا بحكم الميلاد .. أما الثقافة ، والفكر ، والاتجاهات ، والميول ، والولاء .. فهى أوروبية خالصة ، وهو ما أعترف به على نفسه لويس عوض وزكى نجيب محمود وغيرهما ..

★ ★ ★

(١) أنظر ماجاء عن هذين الكتابين ، وهوية أساتذة قسم اللغة الانجليزية بكلية آداب جامعة القاهرة فى كتاب « أباطيل وأسمار » للاستاذ محمد شاكر ، ص ٤٧٤ – ٤٧٦ .

وتصل مأساة الخلط الثقافى وتزييف المعايير قمتها فى حالة الدكتور حسن حنفى .

فنحن نرى أستاذاً ، كاتبا ، مؤلفا ، جم النشاط ، غزير الإنتاج ، عظيم الطموح ، واسع المعرفة ، لاينقصه الذكاء فى استخلاص النتائج ، ولا المهارة فى عرضها ، وقد ظل يلقى محاضراته على طلبة الجامعة أربعين عاماً واقتعد كرسى الفلسفة الإسلامية . .

وهو بحكم هذا أجدر من يمكن أن يتعمق فى فهم الإسلام حتى يصل إلى لبه وجوهره ، ومن ثم يستطيع أن يقوم بحركة تجديد علمية ، وفكرية ينفض بها غبار الزمان وغشاوات التقليد ، كان يمكن أن يضع فى أصول الفقه «رسالة» جديدة تماثل «رسالة» الشافعى وقد تفوقها بحكم غزارة الثقافة وما توصل إليه العصر الحديث من إمكانيات لم تتوفر للشافعى . . .

ولكنه بدلاً من أن يحدد غايته ليصل إليها أسلم نفسه للأمواج ، وأخذ يسبح وسط تيارات المحيط معتقداً أنه يمكن أن يخضعها ، ويوحد بينها ، فتجاذبته ، وأخذت تدور به حتى فقد توازنه ، ولم يعد يعرف أين هو . . .

وخلال فترة عدم التوازن جاء بتخليط ومغالطات لا يأت بها نصف مثقف ، دع عنك استاذ الفلسفة العتيد .

خسارة . . . وأى خسارة . . .

إن الدكتور حسن حنفى ينقد العلمانية ، والاشتراكية وفى الوقت نفسه يؤيدهما !! ويتحدث أحيانا بلغة الفلاسفة والمفكرين ، بينما ينساق أحيانا أخرى وراء القطيع ! وهو صاحب مشروع ثقافى ضخم(١) وهو يعارض المستشرقين ويتصور

(١) أشار الى هذا المشروع الثقافى أستاذ لبنانى فقال : « . . فالمفكر المصرى هو صاحب مشروع ثقافى ضخم وشامل عنوانه العام «التراث والتجديد» وينطوى هذا المشروع على ثلاثة أقسام لكل قسم منها مقدمة أو بيان نظرى فضلاً عن الأجزاء والفصول أو الأبواب : القسم الأول هو الموقف من التراث القديم ويتألف من بيان نظرى وسبعة أجزاء صدر منها حتى الآن البيان والجزء الأول فى كتاب ضخم يتألف بدوره من خمسة أجزاء تقع فى الاف الصفحات عنوانه «من العقيدة الى الثورة» ، أما القسم الثانى فيتألف من بيان نظرى وثلاثة أجزاء وهو يتعلق بالموقف من التراث الغربى ، وقد صدر الآن بيانه النظرى أما القسم الثالث فموضوعه الموقف من الواقع أو «نظرية التفسير» وهو يتعلق بتمثل الواقع المباشر واستيعاب الحاضر بالاستناد إلى النص والوحى وتنفيذه مؤجل إلى حين تحقيق الأجزاء السبعة من القسم الأول والأجزاء الثلاثة من القسم الثانى» الأستاذ على حرب فى مجلة «منبر الحوار» العدد ٢٩ صيف ٩٣ صفحات ٨٥ - ١١٣ «حسن حنفى مستغربا» .

أنه : «آخذ كل فلاسفة الغرب وأضمهم فى طابور عرض وأكون أنا قائدهم ، أوجههم وأحركهم وأستعرضهم فى حركات وتشكيلات وتحيات كيفما أشاء ، وطبقاً لاستراتيجيتى وخططى وأهدافى ، بل آخذ طوابير الأعداء بعد حصارهم ، وأضعهم جميعاً فى الأسر وأضع كل مجموعة منهم فى زنزانة وأغلق عليهم أبواب السجن ، وبالتالى نضيع من نفوسنا رهبة الأعداء . .» فهذه القطعة تنم عن تأثر الكاتب «بالناصرية» والعسكرية والأعتقالات والزنزانات كطريقة لإزالة الرهبة . . هذا منطق عساكر ، وليس منطق فلاسفة ، ولماذا يفعل هذا كله ، والفكر الأوروبى – وإن كان عنصريا بالفعل – لايؤمن إلا بأوروبا ، إلا أنه مع هذا فيه الحسن الطيب ، كما فيه السيء الخبيث والدكتور حسن حنفى شأنه شأن كل مفكرينا المحدثين عالة على الفكر الأوروبى ، أو ضيف على المائدة الأوروبية ؛ فلا داعى للعقوق ومن «البارانويا» أن يتصور أنه يجرهم من آذانهم فى حين أنه مخزوم إليهم من أنفه .

وكما لاحظ الأستاذ على حرب فى مقاله المسهب فى مجلة «منبر الحوار» عن «حسن حنفى مستعريا» فإنه يعلن فى مقدمة : «من العقيدة الى الثورة «أنه لايكتب كتابه باسم الله – كما فعل القدامى – بل يكتبه باسم الأرض والشعب والأمة والنهضة !! وفيها يصرح بأن التقدم هو جوهر الوعى الإنسانى وحركة التطور ، وأن الإنسان قادر بعقله المستقل وإرادته الحرة أن يواصل حركة التاريخ وأن يستمر باجتهاده الخاص حتى يرث النبوة والأنبياء ، وكما لاحظ الكاتب «ولايخفى أن مثل هذا الكلام يصدر عن مفكر يمتلك وعياً بالتاريخ وينتمى الى حضارة طردية ، «إنه كلام يقف وراء خطاب الأنوار الأوروبى وبه يخرج حسن حنفى على نظام الفكر الذى يتركز الاهتمام فيه على قراءة الوحى وتأويل النص ، فيستبعد المفاهيم المركزية العاملة فى الخطاب الإسلامى كالله والوحى والنبوة والنص والشريعة والعقيدة لصالح مفاهيم حديثه كالوعى والتطور والتقدم والتاريخ والثورة والجماهير» (ص ١٠٥) .

ولاجدال أن كاتبا يقول إنه لايكتب كتابه باسم الله . . إنما يدل على غرور لا يليق بمفكر ، دع عنك ، عن أستاذ للفلسفة الإسلامية (أىُّ إسلام ؟!!) فإذا لم يكتب باسم الله ، فإنه سيكتب باسم عبد الناصر أو ماركس ، أو كانط أو هيجيل . . إلخ وقد يتردى كما حدث بالفعل فينساق وراء القطيع ويكرر كالببغاء . . وكان له عن هذا مندوحة . . . ولو فكر لوجد أن الرسول العظيم سبقه وأعلن أن العلم ميراث الأنبياء ، وأن العلماء ورثته . . وأن الفكر الإسلامى لا يدور كما يذهب غالبية الناس ، وكما

ذهب الكاتب الذى نقد حسن حنفى واستشهدنا به حول «الوحى وتأويل النص» إن الفكر الإسلامى يقوم على العقل . وقد استدل على وجود الله بالعقل كما توضح ذلك الآيات العديدة للقرآن ، أما الوحى فدوره أن يحسم شأفه ما يأتى به القصور الإنسانى بالنسبة لذات الله تعالى . وما يغلب على الطبعة البشرية من ضعف عند تقييم الخير والشر .

النهاية ! لقد اشترى الدكتور حسن حنفى الذى هو أدنى الذى هو خير ، ويبدو أنه قبل أن يكون من الذين إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوبهم وإذا ذكر من هو دونه إذا هم يستبشرون ! ولهذا فلا عجب إذا وجدناه يسف .. فيعرض لنا فى ديماجوجية فجة مآثر الناصرية الشعبية !! ويذهب إلى أن «اليسار الإسلامى هو الناصرية الشعبية» وأن الاشتراكية هى المضمون الوحيد لشعار قرآنية قرآنية .. ثم لايكتفى بهذا فيقول أن اليسار الدينى هو المصب النهائى لحركات الإصلاح الدينى ولجماعة الأخوان المسلمين ، وللتيارات الماركسية وثورة ٢٣ يوليو وكان من الطبيعى (!) أن يصب فى النهاية فى «التجمع الوطنى التقدمى الوحدى» .

وهو خلط يماثل خلطة بالنسبة لعقيدة الله تعالى والوحى مما جعل «التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى» يرفضه ، كما أبعد نفسه بالطبع عن أى فصيل إسلامى عندما عالج موضوع الله والوحى كمجرد تراث لأن الشرط الرئيس لأى فكر إسلامى هو الإيمان بالله والرسول ، وأخيراً فإنه لم يصب جانب الحقيقة إذا كان يتوخاها ..

ومع أن الدكتور حسن حنفى قد قطع الجسور بكتاباته ومواقفه ، فإننا لم نفقد الأمل فى أن يتوب ، ويثوب ، فالله تعالى أكبر منا جميعاً ، والتوبة أعظم من الذنوب جميعاً ، والحق أحق أن يتبع ، ولا يعيب أحد أن يخطىء فكل بنى آدم خطاء (كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه) وما يعيب الإنسان هو الاصرار على الخطأ ، وأن تأخذه العزة بالإثم . ونحن «نستخسر» الدكتور حسن حنفى ونأسى له ونأمل أن يقوم بالمهمة العظيمة والجديرة به ، مهمة التجديد الإسلامى الذى يتبع عن الإيمان بجوهر الإسلام وتؤدى إليه الثقافة الواسعة ، والفكر العميق . فما هى الماركسية بالنسبة للأديان ؟ إنها رغيف عيش حاف أمام مائدة حافلة مترعة ؛ فيها القيم الموضوعية ؛ فيها المُثل العليا ؛ وفيها الرسل والأنبياء ؛ وفيها العالم الآخر . وهل الناصرية العجفاء الملفقة إلا كسرة خبز عفنة ؟! فكيف يهدر مفكر يتعامل مع القيم ويشارك القمم فكره وينزل الى مستوى التزييف الديماجوجى ؟!!

وإذا كان يظن أنه يصل إلى الحقيقة بتجاهل الله تعالى - ناهيك بتحديه - فليحذر أن يوقف نفسه موقف الشيطان ، أو أن يضطر كأوديب - لأن يفقأ عينية بيديه ..

* * *

بصرف النظر عن هذه المؤثرات على الثقافة التى كان لها إنعكاساتها على الشخصية ، فهناك جانب آخر هام ، هو أن هناك أنماطا عديدة من الثقافة « الشائعة » أو التى تقف وراءها جهات معينة ، وهناك التأثر بظاهر القول دون التغلغل فى الاعماق . . إن الثقافة العامة السطحية قد تكونَ أشد خطرا من الامية . . وهذه الثقافات المعلبة ، المسطحة ، التى تصدرها الينا اجهزة الاعلام فى الدول الرأسمالية والاشتراكية على سواء ، يغلب أن تضلل الاغلبية التى تقرأ دون أن تكلف خاطرها أو تستطيع التعمق فيما يعرض عليها . إنها تعرض الالهة الزائفة بكل الرواء والبهاء ، والاغراء والاغواء بحيث لايستطيع الفرد العادى أمامها الا الاستسلام . . وكل الوسائل : الكتاب ، الصحيفة ، الراديو ، التليفزيون – تقدم غذاءها الثقافى عن طريق « مفرد » يكون الانسان فيه « متلقى » أو « متفرج » لايستطيع القيام بدور مشارك ، ولا يدعه السياق الحثيث لها ، وأنها تظهر يوما بعد يوم أو ساعة بعد ساعة ، ليفكر أو ينقد . ونتيجة لهذا وجدت الحضارة الاوربية عبدة يؤمنون بكل شىء فيها ، ولايحاولون – ولايستطيعون – ولا يجدون وقتا للتمحيص ، والذين نقدوا الرأسمالية والديمقراطية الحزبية وجاءوا بالدليل الاشتراكى . . وقعوا أنفسهم ضحايا الوثن الذى أقاموه ، فلم يروا الثغرات الكبرى فيه . . وأنظر إلى الملايين الذين مجدوا جرائم الرأسمالية ، واستغلالها العمال ، ونهبها ثروات أفريقيا وآسيا . . وإلى الملايين الذين مجدوا لينين وستالين رغم أن جرائمهما قد تفوق جرائم أتيلا وجنكيزخان وهولاكو . . وإذا ارادوا الفرار من ستالين قصروا ولاءهم على لينين ، وهو الذى وضع بذرة الظلم بكل ويلاته ، أو لاذوا بتروتسكى ، وتروتسكى لايفضل ستالين ، فهو الذى أباد بالمدافع بحارة كرونستاد الابطال أول من أيد ثورة أكتوبر ، وهو الذى أبدع نظام الرهائن ، وهو الذى اراد « عسكرة » النقابات وهو مؤلف « دفاع عن الارهاب » .

أنظر إلى مدى التزييف الذى وقع فيه الملايين من الناس حين عبدوا هذه الالهة الزائفة التى عرضت عليهم فى مجلدات الفها الذين وضعتهم الاقدار فى معابدها ، وأصبحوا سدنتها .

لقد رأينا شيئا كهذا عندما ظهر دجاجلة الناصرية ، والقومية العربية . . . ألخ وضللو أجيالاً فى مصر وفى الدول العربية .

(ب) الانتماء السياسي :

عندما قام انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، كانت شرائح الفئات العمرية للمجتمع المصرى شيئا كهذا :

أطفال (من ١ - ١٠) مراهقون وشبان (من ١٠ - ٢٠) رجال ونساء (من ٢٠ - ٥٠) شيوخ (من ٥٠ فصاعدا) .

الفئتان الأوليتان : ولدا وشبّا فى غيابات جب الناصرية ، ولُقنتا كل زيوف وأكاذيب العهد ، ولما لم يكن لهما معرفة بما قبل الناصرية ، فانهما ابتلعا الطعم بسهولة ، وكان على الكثير منهم أن يجرى لنفسه « غسيل مخ » قبل أن يتحرر من أساطير الناصرية وآلهتها الزائفة ، ولكن هذا لم يكن ميسراً خاصة وأن الجرح رُم على فساد ، وأن أخطاء العهد عُلِّلَت أو هُوِّنَت أو تُكُتِّم عليها (كما هو الحال فى قضية انحرافات صلاح نصر ، وهزيمة ١٩٦٧) بدلا من أن تُعَرَّى وتحاكم . ولهذا نجد أن معظم هؤلاء لايزال مُضَلَّلا ومُتَمَسِّكا بنسب متفاوتة بالناصرية .. فمن شب على شىء شاب عليه كما يقولون !

وهم اليوم فى خمسينات العمر ، ورثة العهد ، وجمهرة عضوية الحزب الوطنى الديمقراطى الذى ورث بدوره «الاتحاد الاشتراكى» !

المجموعة الثالثة الهامة (من ٢٠ - ٥٠) وجدت نفسها فى معسكر من معسكرات ثلاث ...

المعسكر الأول : المعارضة لمخالفة الانقلاب ، أو مناقضته لإيمانهم ، أو مصالحهم .. ويدخل فى الأولين الإخوان المسلمون والشيوعيون ، كما يدخل فى الآخرين الاقطاعيون والرأسماليون والحزبيون .

وعمل الانقلاب على تصفية هؤلاء .. فأعد المعتقلات الرهيبة .. واستقدم الخبراء الالمان فى التعذيب والتزييف .. وفى هذه المعتقلات مورست أقسى وأقذر طرق ووسائل التعذيب .. ولكن الطبيعة البشرية ، والقوة الإيمانية كانت - فى كثير من الحالات - أقوى من كل فنون التعذيب ولهذا لم تؤد المعتقلات إلى شل دعوة الإخوان ، بل لقد شب فى داخل المعتقلات جيل « الرافضة الجديدة » الذى سيقوم بتكفير العهد ، ولايزال الاخوان ، وهذه الفئات الإسلامية الشاردة ، تمثل قاعدة المعارضة الشعبية للحكم وللعهد .

وشارك الشيوعيون الأخوان فترة فى الاضطهاد والتعذيب ، ولكن عبد الناصر عندما وضع قناع الاشتراكية على السترة العسكرية ، أجرى مساومة مع معظم الشيوعيين ، غفروا له بها كل ما أنزله بهم من هوان ، فى مقابل مساعدته بخبراتهم الفنية والتنظيمية ، وأغلب الظن أن أحدا من الفريقين لم يكن مخلصا ، لأنهما معا جُبّلا من طينة التآمر ، ولكن الصفقة كانت مجزية ، وقد مكنت الشيوعيين من أن يصلوا الى أعلى مراكز التوجيه والاعلام ... ألخ واكتسب منهم العهد تلك الغلالة الاشتراكية والشعارات .. ألخ .

على أن التآمر لم يكن هو الذى دفع بكثير من الشيوعيين لوضع يدهم فى يد عبد الناصر ، لأننا لو أنعمنا النظر لوجدنا أن اللينينية هى مدرسة الشمولية فى العالم ، وأن على يدى لينين ، وفى مدرسته ، تخرج هتلر وموسولينى وإذا كانا قد غيرا الاتجاه ، فانهما استخدما الأسلوب اللينينى .. ولهذا فان الشيوعيين المصريين لم يتحولوا كثيرا ، ولم يخونوا طبيعة اللينينية .

ومن هذه اللحظة ، وقد هيمن اليساريون على أجهزة الاعلام ، والصحافة وتشبثوا بها ، وأيدتهم النظم الحاكمة على اختلافها ، لأن لديهم المهارات اللازمة ، ولأنهم لم يجدوا حرجا من ناحية المبادىء – (اذا وجدت) فى تأييد العهد ، باستثناء الفترة الساداتية التى طرد فيها السادات الخبراء الروس ، وتخلص من النفود السوفييتى .. الأمر الذى لم يغفره الشيوعيون المصريون أبدا ، ولم يشفع عندهم انتصار رمضان ، ورأوا أن الحقبة الساداتية كلها – بما فيها انتصار رمضان – ردة عن الناصرية !

أما أصحاب الأعمال ورجال الاقتصاد ، فقد جردهم النظام من ثرواتهم وبذلك أفقدهم قوتهم ، على أنه ظهر ان الكثيرين منهم تحالفوا مع ضباط النظام وما أن بدأ الانفتاح حتى عادوا مرة أخرى للظهور !

أما أحزاب ماقبل ١٩٥٢ فلم يكن عسيرا على عبد الناصر حلها ، لأنها كانت هشة ، باستثناء حزب الوفد الأبن البكر لثورة ١٩١٩ ، والذى استطاع أن يعود (بحكم القضاء) فى الفترة الساداتية .

وسمح السادات بظهول ثلاثة أحزاب أريد بأحدها (حزب العمل) أن يكون معارضا مستأنسا ، ولكن رئيس هذا الحزب – وهو محارب متمرس من أيام مصر الفتاة ، والنائب الاشتراكى الذى طالب بتحديد الملكة الزراعية أيام فاروق – لم يستسلم .. ومع التطور أصبح هذا الحزب هو أقوى أحزاب المعارضة .

المعسكر الثانى : السلبية وقد ضم هذا المعسكر جمهرة الليبراليين من رجال المهن من الأطباء والمهندسين إلخ ٠٠ والتجار والموظفين ٠٠ ومع أن معظم هؤلاء لم يسيغوا النظام متأثرين بنزعتهم الليبرالية ، فإنهم لم يستطيعوا شيئا ، ولم يكن أمامهم إلا السلبية ٠

ولما كانت السلبية – بالنسبة لنظام جديد – هى نوع من المقاطعة ، فقد تنبه النظام وعمد إلى سوقهم سوقا إلى عضوية الاتحاد الاشتراكى المفتوحة ، فانساقوا دون حماس ، ودون معارضة ، ودفعوا «الخمسة قروش» التى كانت بمثابة اشتراك العضوية ٠

وبهذه الطريقة أصبح الاتحاد الاشتراكى يضم ستة ملايين ، وعمد بعضهم الى نقد العهد فى المقاهى والنوادى ، ولكن ظهر أن للعهد جواسيسه المكلفين بنقل النكات والإشاعات ، فأوقفوا هذا ، وتحولوا إلى هوايات أخرى ٠

وأثرت سيكلوجية السلبية على المجتمع المصرى وأصابته بما يشبه الشلل ثم قننت هذا الموقف القوانين المقيدة للحرية التى حالت دون أن يمارس الناس ما يؤمنون به وجعلت السلبية أمراً لا بديل له[1] ٠٠

المعسكر الثالث : التأييد ٠ وهذا المعسكر يضم فئتين ؛

الأولى فئة : المخدوعين ، وهم مجموعة كبيرة تأثرت بالشعارات والوعود والخطابات الحماسية والمشروع القومى والمشروع الحضارى والقضاء على الاستعمار ٠٠٠ إلخ ولهذا أيدت العهد !

ويجب أن نلحظ هنا أن أجهزة الإعلام وصلت من الهيمنة درجة لم يُسمع فيها كلمة واحدة عن التعذيب المدوى الذى ضجت منه السموات والأرض ٠ فى الوقت الذى رفعت فيه الآمال والأحلام وإمكان تكوين «الإمبراطورية العربية» من الخليج إلى المحيط إلى آخر هذا «العهر» الذى انطلى عليهم ، فآمنوا بالعهد وأيدوه حتى جاءت قارعة ١٩٦٧ فأيقظتهم يقظة مروعة وهوت بهم من السموات إلى الدرك الأسفل ، وكشفت لهم عن العصابة التى كانت تحكم مصر ، والأنذال الذين كانوا يسيطرون على المعتقلات والمخابرات والعمدة وشيخ الغفر !

على أن حقيقة ١٩٦٧ والعصابة والمخابرات لم تعرف تماما طوال الحقبة الناصرية ،

---

(١) لقد حاولت بعض النقابات المهنية كالمحامين والصحفيين المقاومة فحلها النظام وشتت قادتها ٠

وإنما عرف عنها ماسمح السادات بتسريبه عندما ولى الأمر ، وهذا هو السبب فى أن مئات الألوف من هؤلاء المخدوعين تمسكوا بعبد الناصر – رغم الهزيمة – وأن مئات الألوف ساروا فى جنازته يجهشون بالبكاء !

وبالاضافة الى التستر على موبقات الناصرية ، بحيث جهلها هؤلاء المخدعون ، وانعدام وجود أى رأى آخر أو معارضة .. فان النظام قام بعملية تكييف للطبيعة البشرية ، بالشعارات المدوية ، والدعايات المتكررة التى تؤثر شيئا فشيئا ، ليس فحسب على الذين توجه اليهم ، بل حتى على الذين يضعونها أنفسهم ، بحيث يأتى وقت يصدقون ما ادعوه و «فبركوه» ، فلا جناح على هؤلاء المخدوعين إن صدقوا هذه الدعايات .

* * *

والفئة الثانية من المؤيدين : هى الحاشية والبطانة التى جعلتهم الظروف يلتحقون بالنظام ، ويضعون ايديهم فى يده ، ويشغلون المناصب الكبرى فى الحقبة الناصرية ، سواء لأن عبد الناصر قد اختارهم ، أولانهم اختاروا عبد الناصر .. ويدخل فيهم الوزراء ورؤساء تحرير الصحف ، وقيادات الأتحاد الأشتراكى وزعماء الحركة النقابية الذين أفرزهم التنظيم السياسى ويدخل فيهم الـ ٥٠٪ الذين اخليت لهم الدوائر الانتخابية بحيث أصبحوا نواباً من حيث لم يحتسبوا ، ودون أن يعرفوا ماهى النيابة ! وكانت ثمناً للولاء والأخلاص والتصفيق والهتاف ،، وهم ضباط وجنود وأوغاد السجن الحربى ودولة المخابرات . وهم قيادات الاذاعة والتليفزيون الذين جعلوا منها صوت سيدهم .. وكما هو واضح فهى مجموعة كبيرة تورطت مع العهد فى كل قاذوراته وسخرت مناصبها لتدعيمه وتأييده ، فهى لاتستطيع – حتى لو أرادت – التخلص منه ، أو التنكر له ، ولما كانوا قد ظلوا فى مراكز القوة والنفوذ سنوات طوال ومعظمهم عمل مع عبد الناصر والسادات وبعضهم واصل المسيرة حتى مبارك ؛ فقد أصبحوا يعتقدون أن هذه المناصب حق ثابت لهم ، وأن أى نقد للنظام أو تغيير يقتلعهم من عروشهم ، وقد يعرضهم للمساءلة الجنائية ! وقد يجردهم من أموالهم التى اكتسبوها بحكم وظائفهم ، وقد يزج بهم إلى السجون .. فكيف إذن لا يستقتل هؤلاء فى الدفاع عن الناصرية التى غرستهم ووضعتهم على الكراسى العالية ،، ولما كانت مخازى الناصرية لم تعلن حتى الآن . وصوت التزييف لايزال أعلى من صوت الحقيقة ،

فإنهم استمرؤا اللعبة وكونوا حزباً ناصرياً ، وأصدروا صحفا ووجدوا مساندة من أمثال القذافى وذيول عدن وبقايا الماركسية .. وفلول الجيل المخدوع ، فضلاً عن أن تخبط السياسة ، وتفاقم الفساد قدم لهم مناخاً مواتيا .

وعندما يتلاقى العامل الثقافى والانتماء السياسى وشغل المناصب فى فرد واحد ، كما هو الحال فى معظم أدعياء التنوير ، فإن الأثر يكون مضاعفاً ويصل من القوة درجة يغلب فيها شخصيات ناضجة ومثقفة وممرسة ، لأن قدرة الطبيعة البشرية على المقاومة محدودة ، ولأن الزيوف تأخذ – مع الزمن ومع الهوى إلخ طابع الحقائق ، وهذا وحده هو الذى يفسر لنا كيف أن كاتباً ممرساً مثل الأستاذ محمد عودة يتحدث عن «الديمقراطية» أيام عبد الناصر ، ويصور التعذيب كتجاوزات محدودة ، أو أن كاتباً مثل محمود السعدنى نال نصيبه من الضرب والركل والشتائم والصفعات ، ينسى كل هذا ويغتفره لأن «ضرب الحبيب مثل أكل الزبيب» ولايستطيع هو ، أو عوده أن يوضحا لنا تحت أى اسم من مفردات العمل السياسى الشعبى الديمقراطى الذى يكون فيه الشعب هو السيد .. المعلم إلخ !! يمكن أن توضع موبقات التعذيب وظلمات الإرهاب وقبضة الديكتاتورية ، وكيف يمكن لأستاذة محنكة فى القانون الدستورى أن تضرب بقرارات القضاء عرض الحائط لأن المجلس «سيد قراره» وترى أن الدستور الذى أصبح أشبه بثوب مرقع .. مهلهل .. ليس فى حاجة إلى تعديل ...

إننا لايمكن أن نفهم مثل هذه المواقف إلا فى ضوء الآثار الماحقة للثقافة ، والمران الذهنى ، والتكييف النفسى ، والانتماء السياسى ... والدفاع عن النفس والحرص على المصالح المكتسبة فمع هذه العوامل كلها لايمكن أن يوجد مكان للمنطق أو الحقيقة الموضوعية .

ولكن أين يذهبون من حكم التاريخ .. وإلى متى يمكنهم أن يطاولوا التطور .. فإذا سمح لهم المدى القصير ، وبقايا الماضى باستمرار الأكاذيب فإن حكم التاريخ فى النهاية حاسم .. ولن يفلتهم كما لم يفلت لينين وستالين ، وهتلر وموسولينى وأتباعهم وكانوا أعز نفراً وأكثر قوة من الناصرية الهزيلة ...

(ج) حاجـز الديـن :

أدى حاجز الدين – أى اعتناق غير الاسلام – بمجموعة من الكتاب والمفكرين لأن تُغلّب الذات على الموضوع بصفة مكثفة ، وهى مجموعة محدودة العدد ، ولكنها كبيرة التأثير بحكم ماوصلت إليه من ثقافة أو ما فى يدها من سلطات .. كما أن هذا العامل يكتسب حساسية خاصة لارتباطه بدين احدى فئات المجتمع المصرى .

ومعالجة هذه النقطة تثير تداعيات عديدة لانريد لها أن تبعدنا عن السياق .. ولكن يبدو أن من العسير الخلاص منها ، وأن من الضرورى مجابهتها ، ونحن لانتناول القضية القبطية ، ولكننا فحسب نعالج واقعة ذات تأثير فى موضوعنا ، **تلك هى أن فهم كثير من الأقباط لمقتضيات الإيمان جعلهم يقفون من الإسلام موقفا يضعهم فى أزمة تجنى عليهم أولا ، وعلى المجتمع ثانيا .. وكانوا فى غنى عنها لوفهموا الموضوع بالطريقة التى سنعرضها .**

والحقيقة أن الرغبة فى تعريف مواطنينا الأقباط بطريقة القضاء على الأزمة هى التى شجعتنا على أن نمضى فى معالجة القضية بقدر ما يتطلب الموضوع وليس ابتسارها ، أو الفرار منها .

وكما هو معروف ، فإن عددا من سكان مصر يؤمن بالمسيحية ، وقد وجدوا قبل الفتح الإسلامى ، ورحبوا به ، ورحب بهم ، وكفل لهم حرية العقيدة والعمل ، وفى هذا المناخ عاش الأقباط ووصل عدد من قياداتهم إلى أعلى المناصب طوال العصور الوسيطة التى كانت الأقليات – بما فيها المسلمة أو اليهودية – تحرم من مجرد الوجود .. وفى العصور الحديثة تقلد اثنان من الأقباط رئاسة الوزارة ، واعتبر الأقباط أنفسهم جزءًا لايتجزأ من شعب مصر ، ورفضوا – عند وضع دستور ١٩٢٣ – أن يعاملوا معاملة الأقليات ، وقد فهموا ، وتقبلوا ، أنهم يعيشون فى دولة دينها الإسلام ، ليس فحسب لأن هذا هو الأمر الواقع الذى لايمكن المجادلة فيه ، ولكن أيضا لأنه يمنحهم من الحقوق ، ويفتح لهم من الأبواب مالا تفتحه لهم «الديمقراطية» التى تكون فيها القرارات والقوانين تحت رحمة الأغلبية .

ورأوا أنه مادام المجتمع الإسلامى فى مصر يكفل لهم الحرية الدينية ، ويفتح أمامهم أبواب المناصب وحق المساواة فى الفرص ... إلخ ، **فإن الطريق الحكيم هو أن ينتهزوا هذه الفرصة ويسلكوا هذه المسالك كمصريين لاكأقباط ، لأن أى إثارة للمعنى**

الدينى فى هذه المجالات الاقتصادية ، والحكومية ، والسياسية ، لن يكون فى مصلحتهم ، وقد يحرمهم من وضع «الجزء الذى لايتجزأ» الى وضع (الأقلية) التى تختلف عن الأغلبية ، والتى تحدد حقوقها بقدر حجمها ، وتبينوا أنهم لو غبنوا ، فعليهم مضاعفة الجهد مادامت الأبواب مفتوحة ، وهذا هو ما فعلوه فعلا ونجحوا فى الاستحواز على عديد من المواقع ، وكان يهمهم أن يبنوا من المدارس القبطية أو المصانع ، أكثر مما يبنون من الكنائس ، لأن المهم فى النهاية هو التعليم والمهارات ... إلخ .. كانوا أذكى بكثير من الذين جاءوا بعدهم وأصيبوا بعدوى «الشنودية»[1] وأخذوا يتحدثون عن «سلبية الأقباط» فى حين أن سلبية الأقباط - كأقباط - كانت وسيلة أو مدخلا للاستحواز على المناصب ، لأن ابراز المقوم القبطى سيبرز بالضرورة الصفة الخاصة التى يمكن أن تؤثر على ما يستحوزون عليه ، فهى لن تعطيهم ولكن يمكن أن تأخذ منهم !

وكان الاحتلال البريطانى قد حاول أن يطبق مبدأه (فرق تسد) فجرب تأليب الأقباط وانصاع له بعضهم ، وعقدوا المؤتمر القبطى الشهير فى أسيوط عام ١٩١٠ .

وظهرت جمعيات تبشيرية للمذاهب المسيحية الأوروبية ، ونشط المبشرون فى الثلاثينيات واتخذوا من بيت عرابى باشا فى باب اللوق بالقاهرة مقرا لاجتماعاتهم ، وفتحوا عددًا من المدارس تتبع الكنائس المسيحية المختلفة .

ولكن هذه الجهود كلها لم توجد فرقة ، لأن الكنيسة القبطية كانت حكيمة ، فلم تستسلم للاغراء أو تنطلى عليها الألاعيب ، واتسم البطاركة الذين تسنموا كرسى القديس مرقص بالفطنة والطيبة والإخلاص ومعرفة دقائق الأمور ، واعتبر كل واحد منهم نفسه رئيساً لمجموعة من المصريين يعيشون فى وطن أغلبيته الكاسحة من المسلمين ، ويدينون بالولاء لرئيس كل المصريين ، ولا يجدون حساسية فى أن هذا الرئيس مسلم ، وكان هذا الموقف يتفق مع الروح المسيحية التى أرساها آباء الكنيسة بولس وبطرس وغيرهما .

---

(١) نسبة إلى الأنبا شنودة الذى وضع للكنيسة القبطية خطاً يختلف عن خط الآباء السابقين عليه ، كما سيلى .

ويمكن القول إن البطاركة كانوا أكثر حكمة من العناصر القبطية «العلمانية» وأكثر ارتباطا بالحكومة ، وأن الاحتكاكات التى حدثت لم تحدث مابين الكنيسة والحكومة ، أو الكنيسة وهيئات إسلامية .. ولكن بين الكنيسة و «المجلس الملى» الذى يضم العناصر المدنية القبطية ، وقد يصور ذلك موقف البطريرك كيرلس الخامس فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر عندما توترت العلاقات مابينه وبين المجلس الملى الذى كان يرأسه بطرس غالى ، وسافر البطريرك فى صيف ١٨٩١ إلى الإسكندرية حيث كان الخديوى توفيق يصطاف وعرض عليه الأمر وتوسط للصلح .

ولكن الأمور تأزمت بعد ذلك وطلب المجلس الملى من الحكومة تنحية البطريرك من رئاسة المجلس واختير أسقف صنبو (أسيوط) رئيسا للمجلس ، ووكيلا عن البطركخانة ، ولكن البطريرك عقد مجلسا كنسيا وأصدر قرارا بحرمان الأسقف وقطعه من الكنيسة !

واجتمع المجلس يوم أول سبتمبر ١٨٩٢ وأصدر قرارا بإبعاد البطريرك إلى دير البرموس وأرسل القرار إلى مجلس الوزراء الذى لم ير مناصا من الموافقة عليه حتى لايزيد الخلاف حدة .. وهكذا رحل البطريرك إلى الدير !

وبعد فترة أعاد المجلس الملى النظر ، وندم على ترحيله للبطريرك فأرسل وفدا قابل الخديوى طالباً إعادة البطريرك فوافق على ذلك .

يقول مؤلفا «الإيضاحات الجلية فى تاريخ حوادث المسألة القبطية» : «ولما ذهب الوفد إلى البطريرك فى دير البرموس قال لهم البطريرك : إنى قد استبعدت من مركزى بأمر من جناب خديوينا السامى العظيم ، وأمرت من لدنه أن لا أتكلم ولا كلمة واحدة ، ولا أبدى أى عمل ، فلا يليق بى مخالفة مولانا .. فقالوا له : إننا مبعوثون من قبل الجناب العالى .. فقال لهم أين المكاتبة التى بأيديكم بالتصريح لكم بذلك ؟ فإذا كان فى أيديكم مكاتبة من الحكومة فلا أتأخر عن الإجابة وإطاعة لأمر أفندينا المعظم ...»

فى مقابل هذا ، كان «أفندينا» يبجل البطريرك تبجيلا شديدا ويؤمن أنه رجل مبارك ...

كما يمكن ضرب المثل أيضا بموقف البطاركة المصريين إزاء الكنيسة الحبشية التى

دانت لهم بالولاء .. وكانت تطلب منهم ترشيح «مطرانا» ليكون رأسا للكنيسة الحبشية ، فلم يحاول أحد آباء الكنيسة المصرية استغلال هذا الموقف سياسيا ، كما كان المطران المصرى الذى رشحه البطريرك بعد تمحيص – يعتبر نفسه حبشيا بمجرد توليه سلطانه .. ومع أن ثقة ملوك الحبشة كانت مطلقة فى الكنيسة ، فلم تحاول الكنيسة المصرية استغلال هذه الثقة لنفسها فى يوم من الأيام ، أو الحصول على مطامع أو مناصب أو التدخل فى شئون الحبشيين .. وكما لم يحاولها أيضا المطارنة المصريون الذين رأسوا الكنيسة الحبشية ...

هذه السياسة الحكيمة التى وضعها آباء الكنيسة المصرية ، والتى تجمع مابين الحفاظ على العقيدة والمواطنة وعدم إثارة المعنى الطائفى للأقلية القبطية فى مصر ، قضت على بذرة «الحساسية» مابين الأقباط والمسلمين ، وتجلت فى المبدأ الذى وضعه السياسى القبطى النابه «مكرم عبيد» الذى يقول : «أنا قبطى دينا ، ومسلم وطنا» ...

ولكن هذه السياسة تغيرت تغييرا جذريا فى الربع قرن الأخير نتيجة لعدد من العوامل كان منها زحف معسكر «المجلس الملى» ومنشئاته على معسكر الكنيسة الكهنوتى الذى قصر نشاط الكنيسة على الجانب الروحى .. وكان معسكر المجلس الملى قد خضع لكل المؤثرات الدنيوية التى لابد وأن تؤثر على التنظيمات الفئوية وتجعلها تعمل لما يحقق لها المصلحة على كل المستويات ، أى بالنسبة لكل المجالات .. وبالنسبة لطبيعة هذه المصالح وهل هى سريعة المدى ... إلخ . وكان هذا الاتجاه يضلل أصحابه ، أو يعرضهم للوقوع فى أخطاء أو الدخول فى صراعات ، شأن كل تنظيم من هذا النوع ...

على حين كانت الكنيسة تتمسك بمبدأ قامت عليه «الديانة» المسيحية ، وكان وراءها خبرة وتراث ألف عام . وكانت الديانة ، والفطرة ، والخبرة التاريخية والوجدان .. كلها تجعل آباء الكنيسة يحجمون عن المطامع والدخول فى غمرات الدنيا والتعرض لاغراءاتها وصراعاتها ... ألخ .

ولكن اتجاه التطورات كان يدفع بالمعسكر الدنيوى الملى إلى الأمام ويعلى صوته على صوت الكنيسة . وقد رأينا أنه فى فترة مبكرة استطاع أن يضغط على الحكومة لتنحية البطريرك كيرلس . وقد زادت التطورات الأخيرة من قوة الاتجاه الدنيوى .. وكان من أبرز دلالات ذلك انتخاب الأنبا شنودة الذى عرف بالحيوية والفعالية وإرادة النهضة بالطائفة .

آفــة الطمــوح :

وكما نقول دائما فإن الطموح – وإن كان من المكونات الرئيسية لكل زعيم وقائد – فإنه مالم يقترن بالحكمة ، والحذر ، والشورى ، وملاحظة العديد من الاعتبارات ، والأبعاد ، ومقاومة الإغراء بحيث يقف القائد عند نقطة معينة لايتعداها . . فإن الطموح يمكن أن يؤدى إلى عكس ما استهدفه . . ففى الطموح طبيعة المقامرة ، والمغامرة ، والمقامر الحكيم وحده – إذا وجد – هو الذى يستطيع مقاومة الإغراء الذى يمكن أن يودى بكلماربحه !

ويتعرض القائد الطموح لعملية نفسية/ اجتماعية دقيقة يتداخل فيها الطموح الذاتى بالهدف العام ويتمازجان حتى يصبحان شيئا واحدا ، وقد يمثل ذلك قولة لويس الرابع عشر (أنا الدولة) أو كلمة سعد زغلول « لاتحرج سعدا ، فتحرج الأمة !» كما قد يصوره انحراف لينين عن الخط الموضوعى والأصيل لكل أدبيات الاشتراكية وتداعياتها من حرية ، ومساواة وجماهيرية ، وعدالة . . إلى سياسة المركزية الديمقراطية فى السياسة والأخذ بالتيلورية فى سياسة العمل ، وقمع المعارضة العمالية . . إلخ . وإذا كانت هذه الاتجاهات التى نبعت من الإيمان الشخصى للينين قد قهرت روح الاشتراكية وطبيعتها ، فهذا مايعطينا مثالا حيا عن قوة الطموح وكيف يجعل القائد يرى نفسه ممثل الدعوة ، وكيف يدفعه للسير قدما حتى يوقفه على حافة الهاوية ، وفى معظم الحالات يوقعه فيها . . .

وقد لانجد كتابا عني بمثل هذه النقطة وفصل فيها ونوه بها ونبه عليها مثل القرآن الكريم . . فالقرآن يسلم بضرورة وجود القائد والإمام ، ولكنه يجعله «رسولا» . . ومعنى هذا أن يستبعد كل المعانى الذاتية ﴿ **ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون** ﴾ (آل عمران ١٢٨) ، وهو يؤكد أن دور الرسول هو البلاغ ، ويسوقه فى صيغة الحصر ﴿إن أنت إلا نذير﴾ ، ﴿**وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً**﴾ وأنه ليس جبارا ، ولا حفيظا ، ولا حتى وكيلا عن الناس ، وهو يوجهه لكى لاتستبد به الرغبة فى الهداية إلى الدرجة التى قد يغلب فيها المعنى الخاص المعنى العام رغم أن دور الرسول هو بالطبع أن يهدى الناس وبقدر ما ينجح فى هداية أكبر عدد بقدر مايعد مؤديا لرسالته ، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة لاحتمال تداخل المعنى الخاص بالمعنى العام ، ولأن هناك أناسا لايمكن هدايتهم لأسباب عديدة ، وليس من

دور الرسول أن يهديهم قسرا ، ﴿وما عليك أن لايزكى﴾ .. ﴿ولعلك باخع نفسك على أثارهم أن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ .. ﴿إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾ .. ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ .. ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين﴾ .. ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ .. ﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل ، ومالهم من ناصرين﴾ .

وهو يوجب طاعته على المؤمنين ، بل يصل إلى آخر مدى فيقرن طاعته بطاعة الله .. ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ .. وهذا طبيعى مادام الرسول يبلغ رسالات الله .. ولكن أى انحراف عن ذلك يعرض الدعوة لخطر كبير ، ولذلك يخاطب القرآن - بلهجة حازمة لاتدع أثارة من شك - الرسول : ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره ، وإذا لاتخذوك خليلاً . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً إذاً لأذقناك ضعف الحياة ، وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيراً﴾

وإلحاح القرآن الكريم على هذه النقطة ومعالجته لها من كافة نواحيها وما يتسم حديثه عنها من حسم وقوة ، يوضح خطورتها .. وإذا كانت بمثل هذه الخطورة ، حتى على الأنبياء والمرسلين ، الذين تحوطهم هداية الله ورحمته ، ويتنزل عليهم الوحى من السماء ، فما بالك بخطورتها على القادة العاديين ؟ .. إن سجلات التاريخ حافلة بمصارع الطامحين والويلات التى ألحقوها بشعوبهم .

* * *

ومن الدلالات التى تنم عن أن الطموح قد جاوز منطقة السلامة وشارف منطقة الخطر ، أن يحاول القادة التوسع ومد سلطانهم إلى مناطق جديدة ، وأن يعنون بالسياسة الخارجية مثل ، أو أكثر مما يعنون بالسياسة الداخلية إذ مجال العمل الحقيقى هو «الداخل» وأى «خارج» يمثل طموحا . وقد يمكن المقارنة مابين بسمارك وكافور اللذين حققا الوحدة الألمانية والإيطالية بوسائل وسياسات حكيمة ومتأنية ووقفا عند ذلك ، وما بين هتلر وموسولينى اللذين استهدفا التوسع فباءا بالفشل وجرا الهزيمة على بلديهما .

وقد بلغ البطريرك شنودة هذه الدرجة عندما استدرج لأن يكون رئيسا لمجلس

الكنائس العالمية ذى العلاقات المشبوهة بالمخابرات المركزية الامريكية (س . آى . إيه) وأخذ يرسى ركائز له فى استراليا والولايات المتحدة ، وهذا كله - فيما نرى - طموح دنيوى وسياسى ، ليس فحسب بعيدا عن روح الأب المسيحى ، بل يمكن ان يسىء الى صفته كمرشد روحى للاقباط المصريين ، ويربط مابين مواقفهم ومواقف الجاليات التى تتعرض لمؤثرات أخرى غير مصرية !

معضـــلة الشـــنودية :

إن معضلة السياسة التى وضعها الأنبا شنودة للكنيسة المصرية ، هى معضلة الرجل الذى يريد أن يأكل الكعكة ويحتفظ بها فى الوقت نفسه !

فالشنودية من ناحية تضيق بابراز المعنى الاسلامى فى أى شىء .. حتى فى الأسماء .. ولم يفتها - فى حساسيتها المرهفة - أن السادات فى مرحلة (العلم والايمان !) أصبح يبرز اسمه «محمد أنور السادات» وليس «أنور السادات» ، وهى تندد بأى دعوة «لأسلمة» ما ، وتضيق بأى حديث عن الاسلام ، وتناصر دعوة الدولة العلمانية ، التى ينفصل فيها الدين عن الدولة ، وتكون مصر لكل المصريين ، بصرف النظر عن الدين .. وترى فى إبراز المعنى الاسلامى «شقاً» لوحدة الأمة .

وفى الوقت نفسه ، فإنها تدعو لتعميق المعنى القبطى ولبعث آثار الحضارة القبطية ، وتدعو للاحتفال فى المناسبات القبطية وتطالب بمزيد من المناصب والوظائف .... إلخ للأقباط .

ومن الواضح أن هذين الجانبين للشنودية متناقضان ...

فاذا كانت الشنودية تدعو للدولة العلمانية وتضيق بابراز المعنى الاسلامى فلا يجوز لها أن تمارس «الشنشنة» القبطية بكل مكوناتها .

واذا كانت ترفع راية «القبطية» وتطالب بحقوق للأقباط كأقباط ، فلا يجوز لها أن تدعى الدولة العلمانية ولا الدعوة الى «كل المصريين» ، ولا يصح لها أن تضيق بالدعوة الاسلامية ... .

وتظهر المأساة التى وضعت الشنودية نفسها فيها بقدر ما ترتفع الى المستويات العليا ، فقد لايظهر أثرها بين موظف قبطى صغير ، وموظف مسلم صغير ، أو تاجر

قبطى ، وتاجر مسلم .. ولكن عندما يريد أحد الأقباط النابهين والموهوبين أن يصل إلى أعلى مستويات المجتمع أو القيادة العامة ، كأن يكون رئيسا لحزب أو نقابة عامة ضخمة ، أو يكون وزيرا ... إلخ فلأبد وأن يجد الإسلام أمامه ، سيجده فى ايمان القيادات الأخرى ، .. وسيجده فى التاريخ ، والقيم ، والمثل العليا ، والشخصيات التاريخية التى يكون عليه أن يستشهد بها وتستأثر بحب واحترام المصريين .. سيجده فى رمضان ، وعيد الأضحى ، ومولد النبى .. سيجده فى القيم التى غرسها الاسلام فى المجتمع المصرى : كتحريم الخمر ، والالتزام بقدر من العفة ...

إن الشنودية تضع الزعيم القبطى فى مأزق .. فاذا أراد إبراز المقومات القبطية - كما تملى عليه - فسيكون لهذا أثره بالطبع وبالضرورة - على وحدة المشاعر ، وتجاوب الوجدان مع جمهوره المسلم ، واذا سلك أقل «الأيمان» فلم يبرز الخصيصة القبطية ، وفى الوقت نفسه تجاهل المشاعر الاسلامية ، فانه لن يصل الى أعماق جمهوره ، وسيخسر الأوتار الحساسة والنبض الحى فيها !

هل معنى هذا أن تخسر مصر مواهب بعض القادة من ابنائها نتيجة لأنهم من الأقباط ؟ كلا .. إن هناك طريقا .. ولكن الشنودية تغلقه .. وما من مصرى مسلم يضيق بقبطى لأنه قبطى ، لأن هذا يخالف الروح المصرية والاسلامية على سواء .. وقبل أن نعرض الحل على أسس مبدئية وبصورة تتعانق فيها القبطية كدين والاسلام كوطن ، كان السياسى القبطى النابه مكرم عبيد قد اهتدى اليه بحاسته ...

وسنعرض فى نهاية النبذة لهذا الطريق ...

* * *

لم يقتصر نقد سياسة الانبا شنودة على الدوائر الوطنية التى رأت أن سياسته تضرم نار التعصب الفئوى وتناقض وحدة الأمة ، فهناك معارضة قوية لهذه السياسة نشأت بين عدد من الأقباط النابهين الذين أدركوا المغبة السيئة لسياسة الانبا شنودة ، وما تتمخض عنه من هدم الألفة والثقة التى أقامها البطاركة السابقون بحكمتهم والخطوط التى سارت عليها الكنيسة القبطية ومثلت تقاليدها وخلاصة تجربتها فى معايشة المجتمع المصرى ، وظهر عدد كبير من الكتاب الأقباط مثل الأستاذ جمال سعد عبد الملاك مؤلف كتاب «من يمثل الأقباط» وهى نقطة من أهم النقاط وفى صميم الموضوع والفكرة الرئيسية للمؤلف أنه إذا كان البابا هو الذى يمثل الأقباط - كما هو الظن السائد -

فإن هذا تركيز للمعنى الفئوى وفصم لوحدة الأمة ؛ فالأقباط كمواطنين مصريين تمثلهم انتماءاتهم المختلفة داخل الأحزاب أو النقابات ، شأنهم فى هذا شأن إخوانهم المسلمين ، أما البابا فإن سلطته يجب أن تكون مقصورة على النواحي الروحية الخالصة دون أى ناحية دنيوية ، ومن الواضح أن هذا يناقض سياسة الأنبا شنودة .

كما ظهر تيار قوى يعارض الطريقة التى يدير بها الأنبا شنودة شئون الطائفة ، وطريقة تعامله مع الكهنة ، أو تصرفه فى الأموال ، وهى نواح كنا نود لو نُعفى من الإشارة إليها لولا دلالتها فيما نحن بصدده . وأن موقفه من الفكر الإسلامى هو جزء من الموقف العام له نحو كل من يعارضه أو يختلف معه مسلما كان أو مسيحيا !

ونشرت مجلة روزا اليوسف [العدد ٣٤١٣ فى ١٩٩٣/١١/٨] ص ٨ تحت عنوان «**منشورات المعارضة فى الكنيسة المصرية**» تقريراً صحفيا أشار الى صدور ١٣٦ منشوراً تنتقد أوضاع الكنيسة و ٦٧ كاهناً تم معاقبتهم منذ تولى البابا وأشار إلى أن «**المعارضة لاتمثل الجماهير ، ولكنها تحظى برضا المثقفين**» وأبرز التقرير أن بعض أشد المعارضين كان فى يوم مامن أشد أنصار البابامثل الأستاذ جمال أسعد عبد الملاك ، ومثل بعض ممن وقف مع البابا أيام أزمته مع السادات عام ١٩٨١ . وأن حجم المعارضة وإن لم يكن كبيراً ، فإنه يتصاعد بشدة . ومعظم المعارضة تأتى من كندا واستراليا وأمريكا .

ويستطرد التقرير .

كما شكل بعض رجال القانون من الأقباط لجنة تحت اسم «جبهة الإصلاح الكنسى القبطى» مهمتها الدفاع عما أسموه المبادىء الكنسية الأصلية وحددوا تحفظاتهم على إدارة الكنيسة فى ست نقاط :

١ - عدم وجود لوائح منظمة للمحاكمات الكنسية لرجال الدين والمدنيين .

٢ - عدم وجود لوائح مالية وجهات رقابية من الدولة وأجهزتها على إيرادات ومصروفات البطريركية باعتبارها جهة عامة ويصدر قرار جمهورى بتعيين رئيسها .

٣ - عدم وجود حلول جذرية لتصاريح الزواج المعطلة فى المجلس الإكليريكى ومايثار حولها .

٤ - النهوض بالأديرة والرهبنة ومنع الرهبان من الخروج من أديرتهم وسحب من يخدم منهم فى كنائس الكرازة والمهجر من الخدمة وإحلال كهنة علمانيين بدلا منهم بعدما تناثر حولهم من اتهامات .

٥ - مناقشة ما رفع إلى الجهات الرقابية بالدولة من تقارير عن ميزانية هيئة الأوقاف القبطية والتى قال المشرف عليها إنه لا يعرف عنها شيئاً .

٦ - العمل على إلغاء الخط الهمايونى الذى يحظر إقامة الكنائس إلا بموافقة رئيس الجمهورية .

ومعظم هذه المطالب ينادى بها المعارضون الآخرون ، وقد ظهر بعضها فى المنشورات التى صدرت ووزعت على الأقباط ، وهى أبسط أوجه الخلاف مع البابا وإن أضيف عليه ما أسموه بدكتاتورية البابا حيث يرون أنه انفرد بحكم الكنيسة واستطاع فرض آرائه على الجميع ، وحسب ما قاله جمال أسعد أن البابا تخلى عن مبادىء الديمقراطية التى كان ينادى بها قبل توليه المنصب البابوى وذلك بعد أن أحكم سيطرته على المجلسين اللذين يقودان الكنيسة وأولهما المجلس الملى الذى يقود الكنيسة إداريا وماليا ويضم فى عضويته ٢٤ شخصاً من المدنيين ورجال الدين ويتم اختيارهم بالانتخاب الحر المباشر من قبل الأقباط المقيدين فى جداول الانتخابات العامة . أما الثانى فهو المجمع المقدس الذى يضم جميع المطارنة والأساقفة على مستوى الجمهورية وهو يختص بمحاكمة البابا ومحاكمة من يهرطق فى الدين .

ويوضح جمال أسعد كيفية سيطرة البابا على المجلسين بقوله : «إن البابا أصر على عمل قائمة بأسماء المرشحين الذين يرغب فى نجاحهم فى انتخابات المجلس الملى والتى تجرى كل خمس سنوات . ومن الطبيعى أن يختار الأقباط قائمة البابا فى ظل تقديسهم له وبالتالى أصبح أعضاء المجلس الأربعة والعشرون تابعين له لايستطيعون معارضته خاصة بعد أن جعلهم شمامسة وهى رتبة كهنوتية وبذلك أصبحوا خاضعين له بحكم الوضع الكهنوتى الجديد .

أما بالنسبة للمجمع المقدس الذى يعتبر أعلى سلطة روحية فى الكنيسة فقد سيطر عليه من خلال زيادة عدد أعضائه وتعيين عدد من الأساقفة الموالين له وذلك من أجل القضاء على سلطة الحرس القديم من الأساقفة الذين عينوا ورسموا فى عهود سابقة عليه .

وقد استطاع البابا زيادة عدد الأعضاء عن طريق إنشاء أبرشيات جديدة برأسها أساقفة جدد حيث كانت كل محافظة بها أبرشية واحدة فقام البابا بتقسيمها إلى عدة أبرشيات حتى وصل عددها فى محافظات أسيوط والمنيا وسوهاج إلى سبعة فى كل محافظة على سبيل المثال ، ومن الطبيعى أن يخضع الأساقفة الجدد لسلطة البابا وخاصة أنه يختارهم من الموالين له .

وهو الأمر الذى يؤكد البعض أنه لهذا السبب فقد المجمع المقدس أية صلاحية فى مناقشته فى أى مشاكل روحية أو عقائدية تمس الكنيسة والأقباط ، فالذى يعارض البابا داخل المجمع يحاصر من الأغلبية ويتجنبوه مثلما حدث مع الأنبا غريغوريوس أسقف البحث العلمى كما يروى جمال أسعد الذى كانت له آراء فى جوانب عقائدية تمس التطور مثل قضايا الطلاق والزواج ، حيث ينادى بإباحة الزواج من أخت الزوجة المتوفاة وهو الأمر الذى يرفضه البابا شنودة ، ولذلك أصبح الأنبا غريغوريوس معزولاً من الجميع حتى أن أحداً من الأساقفة لا يجرؤ أن يدعوه للصلاة فى أبرشيته رغم أنه أسقف البحث العلمى حت لايغضب البابا شنودة .

وسجل أحد كهنة الكنيسة ، وهو القمص اندراوس عزيز سليمان المآخذ التى يأخذها لفيف من الكهنة على سياسة الأنبا شنودة ، وبعضها يتعلق بإضرام التعصب وتعميق المعانى الفئوية وإيجاد حساسية مابين الأقباط والمسلمين ، وهو يقول :

«إننى كمسيحى أجزم بأننا نتمتع بكل حقوقنا ، فلا تمييز أو تفرقة ، فمنا من يحتل مراكز كبيرة فى الجيش أو البوليس أو دواوين الحكومة المختلفة ، ومنا من يمتلك العمارات والأعمال التجارية ، والآلاف والملايين فى البنوك وهناك أيضا الفقراء الذين يكسبون خبزهم بالكاد والكد مَثلُنا مثل الأخوة المسلمين . وهناك الكنائس التى ساهمت الدولة فى بنائها مثل الكاتدرائية بالعباسية أو قامت ببنائها كلها على نفقتها مثل كنيسة العاشر من رمضان ....» .

«فإذا كان هناك شخص متعصب ، مسلم أو مسيحى ، فهو رجل مريض وعلى الدولة أن تتخذ ضده ما يمكن من وسائل العلاج ، قد يكون علاجا نفسيا أو إعلاميا أو تهذيبيا ، فهذا عمل الدولة ، أما من ناحية الكنيسة أو المؤمنين فعليهم أن يقدموا له المحبة والصداقة وأن يتداخل المسلم مع المسيحى ويتلاحما ، لتكوين نسيج واحد هو هذا المجتمع العظيم ، مصر ....» .

«والاضطهاد ليس معناه حرمان من درجة أو وظيفة أو ترقية ، فهذه أشياء مادية وقتية بعيدة عن سلطة الكنيسة الروحية .. ولكن الاضطهاد معناه السحل والقتل والحرمان من ممارسة الشعائر الدينية ، وهذا لم ولن يحدث نهائيا ، ولكنها كلمة تستغل فى غير مكانها تخدم أغراض من يبحثون عن الزعامة الشعبية للأقباط !.

والمسيحية مملكة ليست من هذا العالم ، رئيس أو ملك هذه المملكة هو السيد المسيح له المجد ، وسر قوة هذه المملكة أنها ليست من هذا العالم ، تؤثر فيه بمبادئها وسماحتها وحبها السامى ولاتتأثر به ، تعيش فى العالم ولا يعيش العالم فيها ....» .

«فهى تستطيع أن تعيش فى ظل كل القوانين والتشريعات سواء كان هذا التشريع مصدره الشريعة الإسلامية أو القانون الرومانى أو الفرنسى ، فكل هذا لادخل له فى القلب الداخلى النقى أو عرش المسيح أو مملكة المسيح الروحية ....» .

«وقد عاشت الكنيسة مع الشريعة فى كل عصور الإسلام صنوان متحابان كل فى طريقة ، هذه تحكم الوطن كقانون مدنى وتلك تحكم الروح كقانون سماوى خاضع لتشريعات الدولة ، فاذا كان القانون المدنى يحاكم السارق والزانى والمجرم فليسر فى طريقه وليأخذ كل مخطىء جزاءه بالشريعة ولتستمر العلاقة الروحية كقانون سماوى بين العبد وربه ...»[(١)] .

---

(١) الحقائق الخفية فى الكنيسة القبطية تأليف القمص أندرواس عزيز – سنة ١٩٨٥ – ص ٨ – ٩ .

ورأى المؤلف أن الكنيسة تحولت كجماعة للمؤمنين وملك خلاص للضالين ، مستلهمة تعاليمها من وحى الروح القدس الى حزب سياسى اقتصادى منهجى يسعى لاكتساب الرأى لعام الداخلى والخارجى بكل الوسائل ۰۰۰» ۰

ويقول المؤلف :

«لقد عشنا سويا مسلمين ومسيحيين على ثرى هذا الوطن ، آلاف السنين معا فى السراء والضراء ، على الحلو والمر ، يدا واحدة ، والخلافات إذا وجدت بين الأخوة تصفى أيضا بين الأخوة ، دون أن يسمع الغريب» ۰

«ولكن حدث شيء غريب لم يحدث مثله فى تاريخ الكنيسة ، وليس له شبيه ۰۰ فى حادثة «الخانكة» عام ۱۹۷۳ أن يأمر رئيس الكنيسة الكهنة ويقول لهم : (أنتم كم ؟ مائة وستون ، عايزكم ترجعوا ستة عشر كاهنا ، والباقى يفترشون الأرض افتراشا ويستشهدون !) حتى أجابه أحد الكهنة : (ولماذا لاتأتى معنا ياسيدنا علشان تستشهد أولنا ؟) »[1] ۰

وهذه واقعة توضح - إن صحت - كيف أن رئيس الكنيسة بدلا من أن يطفىء نار الفتنة ، فانه يضرمها وينفخ فيها ۰۰ ولماذا هذا ؟!!

ولماذا هذا ؟! ۰

« ۰۰۰ هو أن يموت عدد من الكهنة والشعب فى احتكاك مفتعل ومثير وعن طريق زبانيته القلائل المتعصبين فى الخارج يأخذونها ذريعة للدعاية ضد الوطن واثارة الرأى العام العالم بدعوى أن المسلمين يقتلون المسيحيين » ۰

ان الاستشهاد فى العصور الأولى للمسيحية معنى جميل ، أن يموت المسيحى لاجل مبدأ أنه مسيحى فى عالم وثنى لايعترف بالمسيحية ويحظرها ۰۰ وقد انتشرت المسيحية وانتهى عهد الاستشهاد منذ زمن بعيد جدا بموت البطريرك بطرس خاتم الشهداء قبل ظهور الإسلام ۰

«أما أن نأخذ فكرة الاستشهاد وسيلة الهدف منها الدعاية ضد الدولة والتشنيع بدين الدولة الرسمى الذى نعيش فى رحابه وسماحته فى حب ووئام آلاف السنين ، لأجل أن أخلق من نفسى «زعيم شعبى» ذا صيت واسع فى دنيا السياسة وشاشات التليفزيون ۰۰ أبنى نفسى بهلاك الآخرين ، فهذه أنانية وذاتية مفرطة ۰۰۰» ۰

---

(۱) المرجع السابق ص ۲۷ ۰

«أحلام الأنبا شنودة بتكوين جبهة قبطية للرأى العام العالمى خارج مصر الهدف منها أن يكون زعيما شعبيا ، هى سراب خادع أضر به وبالمسيحيين فى مصر ...»[1] .

وضرب المؤلف المثل لاستغلال شعيرة من شعائر العبادة لخدمة غرض سياسى : «فالصوم فكرة روحية جميلة .. ولكن يمكن أن تتحول هذه الفكرة الروحية الجميلة الى موضوعات سياسية للاثارة ، فأطلب صوما انقطاعيا لأن هناك اضطهاد ؛ فاستغل فكرة الصوم لهدف سياسى هو أن بالدولة اضطهاد ، فأغرس بطريق غير مباشر فكرة ضد المسيح وهى «اضطهاد الدولة للمسيحيين» يالها من فكرة شيطانية مغلفة بورق سلوفان مفضضة ...»[2] .

وقد انتقد الكاتب بشدة أن تكون الوظائف فى يد البطريرك أو فى يد الأسقف دون أى ضمان للكهنة ، فكل الذين يعملون فى الكنيسة هم تحت رحمة إرادة البطريرك أو الأسقف دون أى حماية ، كما أن الأموال التى ترد للكنيسة لا رقابة عليها !

ونسب الكتيب إلى البابا مالم ينسب إلى الملوك من بناء القصور واقتناء الكلاب البوليسية التى تأكل قطعاً غالية من الشيكولاته المستوردة وكذلك السيارات المرسيدس الفخمة ، هذه العدوى التى بليت بها الكنيسة هذا العصر .

ويغلب أن يكون لهذه الإشارة أصل ، إن لم تكن هى الحقيقة ، وعلى كل حال ، فأسوأ مايقال فيها : «ومن دعا الناس الى ذمه ذموه بالحق وبالباطل»!

على أن التفاصيل الدقيقة التى أوردها الكتيب عن معاملة البطريرك لأعداد كبيرة من رجالات الكنيسة بعضها فى مثل مستوى الأنبا غريغورس أسقف الدراسات والبحث العلمى ، والأنبا مينا مطران جرجا ونجع حمادى ، الأرخن الشهير المرحوم يونان خلة المدور ، الأب متى المسكين ، إلى بقية القسس مثل القس بطرس شحاتة

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠ .

كاهن كنيسة مارجرجس ، والقس أيوب فام ، والقس يوسف مرقص وأربعة عشر قسا كان المؤلف أحدهم .. كل هؤلاء أبعدوا عن مناصبهم أو حرموا حقوقهم الوظيفية التى يتمتع بحمايتها أقل موظف فى الدولة ، وبعضهم مات من شدة الأسى والحسرة !

نقول إن هذه وقائع حقيقية ، وقد صدرت عن كاهن يلم بخفايا الأمور ، وليس أدل على صدقها مما نشره أقباط شبرا فى مجلة الشعب سائلين إعادة القس إبراهيم عبده فى رسالة تصور المأزق المؤلم الذى وضعته سياسة الكنيسة وبطشها وما فى يديها من سلطة مطلقة ، وكيف أنها أحوجت الأقباط الى التماس العدالة فيما يشبه الشحاذة الوضيعة ، وبعد أزجاء آيات الثناء على من أوقع بهم الجزاء الظالم .!

تقول رسالة أقباط شبرا :

حضرة صاحب القداسة والغبطة رئيس الأحبار الأعظم/ البابا شنودة الثالث .

بكل خضوع نرفع لسدتكم الرسولية أسمى آيات الطاعة والولاء سائلين الله أن يديم لنا رعايتكم حتى تنعم الكنيسة بما تحقق لها من امتداد وازدهار ، إذ علا شأنها وتجدد شبابها وأصبحت تعيش فى صحوة روحية مباركة قل أن تكون لها سابقة فى التاريخ المعاصر وذلك بفضل يقظتكم وتعاليمكم وما خص الله به قداستكم من ثقافة وعلم غزير ، ونحن نؤمن بأن الله فى سابق تدبيره قد وفرك لهذا العهد بالذات ربانا حكيما جديرا بالقيادة الروحية لشعب يضمر لكم حبا يتسامى فوق كل تعبير .

مقدمو هذا التوسل لغبطتكم أبناؤك «أبناء مصر» وقد فزعت قلوبنا وحل بها الأسى حينما علمنا بالقرار التأديبى الذى صدر بإدانة الأب الورع القس إبراهيم عبده الذى بموجبه تم استبعاده وعزله فى دير الأنبا باخميوس بالصعيد . لو كانت عقولنا - بحكم معايشتها لهذا الأب زمنا طويلا يمكن أن يتطرق إليها أى نذر من الشك الذى يؤدى إلى تبرير المؤاخذة أو الملامة فى شىء من تصرفاته - لاستقبل الشعب هذا الإجراء كأمر عادى لا يوجب التعليق لأن العرف الجارى يقضى أن يكون «الجزاء من صنف العمل» ولكن باعث الحزن الذى ألم بنا لفراقه مخذولا وحرماننا من أبوته الحانية ، هو القناعة اليقينية بأن أبانا يتميز بالوداعة والتواضع ورحابة الصدر والقدوة الحسنة فى كل تصرفاته وفى كل الأحوال نرى فيه رسالة المسيح الصادقة التى نتمنى أن يحتذى به الكثيرون .

نحن إذ نذكر ما يلاقيه هذا الأب من المطاردة والتعقب بين الحين والآخر نعزوها إلى طبيعة العالم منذ البدء ، وما يلاقيه الناجحون فى حياتهم ، ولعل التجربة الماثلة أمامنا تذكرنا بالكثير الوارد فى كتابنا المقدس ومنها قصة يوسف الصديق وما جره عليه حسد إخوته من ضيقات ومتاعب (تك ٣٧: ١١) . ولكن عناية الله كانت معه وسخرت كل التجارب للخير .

واعلم ياسيدنا أن قلوبنا أمام الله تعترف لقداستكم أن أبانا القس/ إبرهيم عبده ليس محبوبا من شعب كنيسته فحسب ، بل هو موضع إعزاز وتقدير من كل الذين سعدوا بمعرفته على امتداد الكرازة وإن كانت ألسنة الناس هى أقلام الحق فإن الجموع الموقعة على هذا الرجاء ، وهى جزء من كل ، تناشدكم بدالة البنوة لتحقق رجاءهم ، فلايطول حرمانهم من أبيهم وتعيده إليهم .

أدام الرب حياتكم سنين عديدة وأزمنة سلامية مديدة .

ممدوح بشرى ويصا
(وعدد من التوقيعات)(١)

ولا جدال فى أن تصرف الكنيسة تجاه كاهن يتمتع بهذه الثقة ينافى ماسطرته آيات الثناء فى القسم الأول من البيان ، ويدل على أن هناك أحكاما فردية تطبق بصورة بعيدة كل البعد عن الديمقراطية أو ما تتطلبه أوليات العدالة من ضمانات .

لقد تضمن كتاب «**الحقائق الخفية فى الكنيسة القبطية**» قصة تعيد إلى الذهن قصص اذلال السجن الحربى وصلاح نصر ... إلخ ، فقد أوقف مرتب القس يوسف مرقص واستدرج لدير الأنبا بشوى فلما حضر مع زوجته تاركا بناته الأربع الكبار فى منزل متواضع جدا جدا مايزال يقطنه فى دير الملاك ، أعاد البطريرك زوجته للقاهرة مع أحد الرهبان لينفرد بهذا الكاهن ويغدر به نكاية فى الأنبا غريغورس ، فطلب منه أن يحلق ذقنه ويخلع الزى الكهنوتى ، فرفض فى إباء مهما كان الثمن ، فصدرت التعليمات للأنبا أغاثون «عشماوى» بتنفيذ هذا الحكم الذى أحضر له جلبابا أبيض وطاقية بيضاء ألبسه إياهما وأخذ ينصحه بالوعيد تارة وبالتهديد تارة أخرى . فلما لم ينصاع هجم عليه أثنان أشداء من الرهبان وكتفوه كما للذبح وأخذو يقصون لحيته بالإكراه وحبسوه لمدة ٢٣ يوما فى قصر الأنبا بولا بالعزباوية وقد عرفت السلطات بالجريمة وتدخلت وحرر محضر أمام النيابة بناء على بلاغ وصل إلى هذه السلطات فى قسم شرطة الأزبكية !

ولكن هذا الكاهن المسكين المتواضع تنازل عن المحضر إجلالا لرئاسته الدينية وأبعد عنهم التهمة ، ولاء وحبا وتسامحا بعد أن توسلوا إليه أن ينقذهم من جريمة ثابتة ووعدوه بسخاء ثم بعد تنازله كالوا له الاتهامات وتناسوا الوعود ...

ويبدو أن أنصار الأنبا شنودة أحسوا بهذه المعارضة ، فنشروا صفحة كاملة فى جريدة

---

(١) جريدة الشعب عدد ١٩٩٣/١١/٢٦ .

الأهرام تحت عنوان **«البابا شنودة : ٢٢ عاما بطريركا»**(*) تحدثوا عن إنجازاته كرجل علم وفكر وأنه (أول من أرسى مبدأ ديمقراطية العمل الكنسى وامتدت رعايته إلى المهاجرين فى أمريكا واستراليا ودول أوروبا .. وأنه أصدر أول لائحة للمجمع المقدس ، وأول من أسس أديرة المهجر ... إلخ).

ويظهر أن الذين وضعوا مادة هذه الصفحة اهتموا بابراز ما يعد تفنيدا للاتهامات التى تندد فيها المعارضة القبطية بطريقة مباشرة البابا لسلطاته ، الأمر الذى دفع الأستاذ جمال أسعد عبد الملاك لأن ينشر فى جريدة الشعب تعليقا لاذعا وطويلا تحت عنوان **«مكانة قداسة البابا أعلى من الاعلانات مدفوعة الأجر !»**(* *) **قضى قضاء مبرما على كل ماجاء فى الصفحة الكاملة وكشف عما كان البابا فى غنى عنه – وجاء فيه :**

خرجت علينا جريدة الأهرام يوم الثلاثاء ١٩٩٣/١١/١٦ بصفحة كاملة مدفوعة الأجر تتكلف عشرات الالاف من الجنيهات بعنوان «الباب شنودة : ٢٢ عاما بطريركا رجل علم وفكر : شاعر وعضو نقابة الصحفيين وأستاذ بالكلية اللاهوتية» .

ورغم ادراكى أن هذا الاعلان المدفوع الأجر الهدف منه هو الرد على مقالات المعارضة التى تعلن الرأى الآخر فى الكنيسة ، والتى تنتقد بعض تصرفات قداسة البابا ، والتى من حقنا أن ننتقدها ، أقول رغم إدراكى هذا -فقد هالنى هذا الشكل الاعلانى الذى لا يليق ولا يجب ولا يصح أن يتبعه قداسته وهو فى موقعه الروحى هذا ، حتى ظننت أن قداسته قد قرر أن يخوض معركة انتخابية من النوع الثقيل بتاع أخواننا الانفتاحيين واللى «بيرشوا فيه تمام» ، ولكن لعلمى أن زفة انتخابات رئاسة الجمهورية آخر الزفات ولا يوجد أية انتخابات الآن ، قلت لا سامح الله هو فيه منافس لقداسة البابا على كرسى البابوية ، حيث إن صفحة الاعلان الأهرامية هذه قد حوت نشاط وإنجازات وأعمال ومواهب قداسته موضحة فى بعض المواقع من الاعلان الفرق بين عهد قداسته والعهد السابق عليه ، وكأن القصد هو المقارنة بينه وبين الآخرين (عموما هذه سمة لكل ملوك مصر منذ الفراعنة) مع العلم بأن ما جاء بالإعلان عن الانجازات فهو مكرر للمرة الألف . فقد سبق الإعلان عنه فى مجلة الكرازة التى يرأس تحريرها البابا ، والتى لا عمل لها سوى الاعلان عن مقابلاته وسفرياته وإنجازاته ! . كما لاأعلم هل قداسة الباب نشر هذا الإعلان متصوراً أن الأقباط سيقولون أن الأهرام هو الذى نشر . وبهذا الوهم يكون البابا فى نظر الأقباط مثل رئيس الدولة وأكثر .

(*) الأهرام ١٩٩٣/١١/١٦ ص ١٧ .

(* *) الشعب ١٩٩٣/١١/٢٣ .

ناسيا أن أى قارىء سيعلم أن هذا إعلان مدفوع الأجر مثل أى إعلان عن أية سلعة استهلاكية ، فهل يليق هذا الوضع مع موقع البابا وهو الأب الروحى لكل الأقباط فى العالم ؟!، حيث إن هذا الموقع يجب أن يكون عند ثقة الجميع أقباطا وغير أقباط لما للكنيسة من احترام على مدى التاريخ ، فهل موقع البابا وهو بهذا القدر وهو كذلك يحتاج إلى نوع من الدعاية ؟! إنه رجل علم وفكر وشاعر .. إلخ ، وما قيمة هذه المواقع ؟، وهل يمكن لهذه المواقع المادية الدنيوية أن تعطى موقع البابا الروحى الأبوى أية مميزات ؟ وهل هو صراع بين المذاهب المادية الدنيوية وبين الموقع الروحى ؟ وهل يعلم قداسة البابا أن قديسى الكنيسة على مدى التاريخ كانوا قديسين نتيجة لمستواهم الروحى ولتقشفهم وزهدهم وليس بالابهة والإعلانات والفخفخة ، وكذلك لماذا هذا الإسراف والإنفاق الذى لا يقبله الله ، فإذا كان مبلغ الإعلان – وهو عشرات الالاف من أموال الكنيسة – فكيف يسمح قداسة البابا بإهدار أموال الكنيسة وهى أموال الشعب بهذا المستوى الذى لا يليق ؟ وكيف يقبل أن يبعثر أموال الكنيسة فى الدعاية لشخصه التى لا تبرير ولا مبرر لها ، والتى يجب أن ينأى بنفسه عن مثل هذه التصرفات .. وإذا كان المبلغ مدفوعاً من كبار المستثمرين الأقباط الذين سيقولون إنهم يحبون البابا ويقدسونه . نقول : هل قال لكم الله ذلك ؟ وهل هذه الأموال تعتبر مقدمة لله وللكنيسة ؟ وهل ستنالون عن هذا التبذير أية بركة ؟ وهل لو كان هذا المبلغ من نصيب الفقراء ألا يكون أنفع وأجدى ؟ مثل ما قال الرب أن من أعطى فقيرا فقد أعطى الله ، فهل المجاملة والنفاق وصلا إلى حد مجاملة البشر على حساب الله (سبحان الله) ؟ وهل قبول البابا لهذا الإعلان الذى لا يليق أو يتسق مع روحانية موقع البابا الذى نتمناه ، ألا يعتبر هذا تبذيرا فى غير موضعه وإنفاقاً لا مبرر له ، وهل فاقد الشىء يعطيه ؟ فكيف نقول ونعظ ونكتب عن الاهتمام بالروحيات وبالحياة الآخرة ، وألا نجرى وراء شهوة الجسد ؟ كيف نقول ذلك وتصرفاتنا لا تدل على ذلك ، بل تدل على الاهتمام بالماديات على حساب الروحيات .. فهل سكن القصور وركوب السيارات الشبح والفخفخة والمنظرة .. هل هذه هى روحيات الكنيسة فى مشارف القرن الحادى والعشرين ؟ وهل الاهتمام بالملابس المزركشة والمدندشة ، والتى لم يلبسها أى بابا فى تاريخ الكنيسة ، هل هذه هى الروحيات ؟! وهل بناء قصر فى منطقة أبو ثلاث فى الاسكندرية تكلف ٢ مليون جنيه كاستراحة مع القصور الأخرى فى الداخل والخارج هل هذه هى الروحيات ؟ وهل هذه المعيشة المترفة فى الوقت الذى توجد فيه كنائس وكهنة لا يجدون إلا القليل لسد احتياجاتهم ؟ هل هذه هى العدالة المسيحية ..؟ وكيف نقول مع هذا إن المسيحية عطا وبذل واتضاع ؟ وهل هذه هى حياة الرهبنة التى تركتم العالم من أجلها وأقيمت عليكم صلاة الموتى فأين اتضاع المسيحى وأين تقشف الراهب ؟؟

أما ما جاء فى الإعلان مدفوع عن انجازات البابا من ناحية تأسيس المعاهد اللاهوتية والاديرة والكنائس بالمهجر ، فنحن لا ننكر على قداسته هذا بل نؤيده عليه ونشكره . ويستطرد حتى يصل إلى علاقة البابا بالطوائف المسيحية وهنا نقول للبابا : ماهى حقيقة العلاقة بينك وبين الطوائف المسيحية ؟ وهل مهاجمتك للطوائف مثل ماحدث فى اجتماع كهنة القاهرة فى ١٩٩٣/٩/٣٠ دليل على حسن العلاقة ؟ وهل قطعك للحوار بين الكنيسة القبطية والكنيسة الإنجيلية بسبب كتاب للدكتور رفيق حبيب . ابن رئيس الطائفة الإنجيلية فهل هذه

هى العلاقة الحسنة ؟ وهل يتم تقييم العلاقة بين الطوائف المسيحية بناء على مواقف خاصة أو وجهة نظر خاصة ؟ وهل رأى دكتور رفيق يجعلك تقطع الحوار ؟ وهل هذا هو نوع من التهديد لمن يريد أن يعبر عن آرائه وأفكاره ؟

أليس هذا هو نوعا من محاكم التفتيش ونوعا من التهديد الذى لا يليق ؟ ولا أعلم بعد ذلك أية علاقة حسنة تلك التى تتحدث عنها ؟

أما ما جاء بالاعلان بخصوص ما يسمى بالديمقراطية فى الممارسة الكنسية والتشدق بشعار «على الشعب أن يختار راعية» ، أقول هل يحدث يا قداسة البابا أنك تجتمع مع الشعب فى الايبراشية الخالية وتسمع اراءهم حيث يقومون بتسمية اسم الشخص الذى يريدون رسامته أسقفاً هل يحدث هذا ؟ على العموم أذكرك برسامة أسقف القوصية ، والتى كنت مشاركاً فيها منذ البداية أذكرك وأقول إن الشعب قد جاء بناء على أوامرك مرتين مرة سمع فيها منك النقد والتقريع بأنهم شعب لايستحق أن يرسم له أسقف ، حيث لم يقوموا ببناء قصر فخيم للأسقف ، لكى يستقبل فيه بعد الرسامة ، فهل الذى يشغل قداستكم هو المنظر والترف ، وأن يكون الأسقف زعيماً بدلا من أن يكون أبا ·· وكل ما يعنيك هو أن يكون الأسقف ذا وضع رسمى اجتماعى لا دينى روحى · أما المرة الثانية التى قابلت فيها شعب القوصية فكانت المقابلة التى سبقت رسامة الأسقف بأسبوع وفيها تكرمت وأعلنت أنك ستقوم برسامة الأسقف ، ولكن لم يختر الشعب اسماً ولا أنت لم تذكر أيضا اسماً · ولكن لم نعرف الشخص المزمع أن يكون أسقفاً إلا يوم الرسامة · فكيف نقول إن الشعب يختار راعيه كيف ؟ وكيف تسمح لنفسك أن تقول فى التقليد ، وهو المرسوم الذى يعلن رسامة الاسقف والذى يتصدر صالون قصر الأسقف فى الايبارشية ، تقول فى التقليد : إن الشعب بطوائفه جاء إليك واختار فلانا لكى يكون أسقفاً · وهذا لم ولن يحدث ، وبعد كل ذلك تقول إن الشعب يختار راعيه ! كيف هذا ولماذا يأبى ؟

أما فيما يخص المحاكمات الكنسية فأتركها للأباء الكهنة الذين يكتبون فى هذا الموضوع · أما الموضوع الأخير الذى جاء فى الاعلان وهو دور العلمانيين وأنهم يريدون أن يسيطروا على الاكليروس ، فنقول إن الخدمة فى الكنيسة بالمفهوم المسيحى هى بذل وعطاء ونصيحة لا كسب وتسلط وسيطرة · فالعلمانى الذى يخدم يريد أن يكمل دور الاكليروس لا أن يسيطر عليه وهذا يقال للعلمانيين ، كما يقال للاكليروس أيضا لكى لا يكون هناك طرف مسيطر على الطرف الآخر ، أما غير ذلك فسيكون سلوكا بعيدا عن المسيحية ، وهذه بعض الملاحظات والآراء نقولها لصالح الكنيسة التى نرجو لها التقدم والازدهار كمؤسسة دينية مصرية وطنية ، وهنا يحضرنى قول الكاتب المسرحى الفرنسى موليير عندما يقول فى إحدى مسرحياته : «سأصير قسيساً وأطلق لحيتى وأتحدث عن الفضيلة · سأمنح نفسى حرية واسعة وأهدد خصومى بالحرمان ! وسأعلن أننى صوت السماء ·· فمن أطاعنى فقد أطاع الرب · ومن خالفنى فلا مكان له على الأرض ، إنها السلطة المطلقة التى أحلم بها وويل للمعارضين» · انتهى مقال الأستاذ جمال أسعد عبد الملاك ·

إن هذه الوقائع تدل دلالة قاطعة على أن البابا استطاع أن يحكم هيمنته على الكنيسة واجهزتها ويديرها بيد من حديد ويفرض جواً من الارهاب على الجميع ، وهى تثير التساؤل عن السلطات التى تتمتع بها الرئاسات الكنسية ومدى توافقها مع حقوق الإنسان وضمانات الديمقراطية : لقد كان الذى نفّر أوروبا من المسيحية هو استبداد سلطات الكنيسة واستئثارها بالأمور واستهدافها الحكم والنفوذ ، وهذا ما تمارسه السلطات الكنسية هنا . إن التستر وراء الدين لايبرر أبداً إلحاق ظلم بأحد ، فإنما جاءت الأديان جميعاً لتحقيق العدالة وتوفير الكرامة .

وكل هذه الكتابات الموثقة من كتاب أقباط تؤكد أن الكنيسة قد وقعت فى خطأ جسيم عرضها لنقد لاذع لم يسبق أن وجه مثله لأحد من الذين حملوا دعوة واسم القديس مرقص الشهيد المتقشف ، ولابد أن هناك سبباً سيكلوجياً عميقاً يحمل البطريرك على أن تظهر صورة مثل «شارلمان» تماما مع فارق واحد هو أن شارلمان يمسك بسيف عريض ، بينما البابا يمسك بعصا طويلة ، باستثناء هذا فإن صورة شارلمان وصورة شنودة تنطقان بالجبروت والسلطة والقوة ، وهذا اذا صح بالنسبة لشارلمان فإنه لا يجوز لرمز المسيح ومخلص النفوس .

* * *

ظهور الجماعات الاسلامية والتيار المتشدد :

كان ظهور الجماعات الإسلامية والتيارات المتشددة التى اقترنت بها من العوامل التى أرهفت حس الكنيسة واستندت عليها فى تبرير مواقفها وصياغة سياستها .. وأن كان هناك من يرى العكس : ان سياسة الانبا شنودة التى سبقت ظهور هذه الجماعات بوقت قصير وعاصرتها ، كانت من العوامل التى ألهبت مشاعر لفيف من الإسلاميين المتطرفين ، واضطرتهم إلى اتخاذ موقف متشددة ، على نقيض الموقف التقليدى للهيئات الاسلامية تجاه الأقباط الذى كان يتسم بقدر كبير من المجاملة .

ولكننا على كل حال لن نشغل أنفسنا بتحقيق هذه النقطة ، وقد بسطنا رأينا عن الجماعات الإسلامية فى عدد من كتبنا[1] ، وباختصار فإننا نرى أنها الثمرة المرة لسياسة الطاغوت الناصرى وما حفلت به ديكتاتوريته وارهابه وتعذيبه ، فكان لابد من رد فعل لهذه السوءات بمجرد موته ، وانقضاء عهده ، واتسم رد الفعل بكل مافى

---

(١) أنظر كتابنا «رسالة الى الدعوات الإسلامية» وكتابنا «الفريضة الغائبة : جهاد السيف أم جهاد العقل» وهو ردنا على ماجاء فى كتاب «الفريضة الغائبة» ... دار ثابت – القاهرة .

الفعل من سؤات ، فضلا عن أن السادات ، وقد ورث تركة مثقلة ومراكز قوى وتكتلات ناصرية وشيوعية ، أراد أن يضرب هذه القوى المناوئة له ، فلم يجد إلا هذه الجماعات ، فأطلقها لتثأر لنفسها من الناصرية المقيتة !

ومن الواضح بالطبع أن السادات - رغم أنه كان بطبيعته كفلاح مصرى ، وخلال فترة تشرده وتعرفه على الإخوان تعرفا وثيقا - أقرب إلى الإسلام من عبد الناصر .. ولكن من الخطأ الفاحش الظن أن الإسلام كان محور فكره السياسى ، فقد كان ضابطا ، وكان مصطفى كمال أتاتورك مثله الأعلى حينا ما ، وكان بحكم السلطة والمزاج يبتعد عن أثر الفطرة والقرية وذكريات الأخوان ، وقد تورط مع عبد الناصر طويلا .. وكان العامل الأساسي فى تشجيعه للجماعات الإسلامية هو القضاء على خصومه الذين كانوا خصومهم أيضاً ... فسياسته قامت على أساس تكتيكى (عدو عدوى صديقى !) .. وعندما أجهزت الجماعات الإسلامية على فلول الناصريين والشيوعيين ، وكشفت سؤات الناصرية ، انتهت مهمتها بالنسبة للسادات ، وأصبحت بالتالى خطرا عليه ، وجاوزت فى اسلاميتها وعداوتها للناصرية الحدود الساداتية !

على أن هذا التطور الذى انتهت إليه الأمور لم يظهر إلا فى السنوات الأخيرة من حكمه ، أما السنوات الأولى فهى سنوات الوفاق .. ويبدو مع هذا أن السادات أراد شيئا فشيئا أن يجرد الجماعات الإسلامية من أوراقها الرابحة ومن دعوى (تطبيق الشريعة) .. فأوعز بأن يتقدم الأزهر بمشروع قانون للحدود ، وآخر عن الردة !

ولم يكن الإنسان بحاجة الى ذكاء خارق ليعلم أنها «مناورة» ، وأنه لم يدر بخاطر الحكومة أبداً أن تعتزم إصدار مثل هذين القانونين اللذين كانا يستتبعان ثورة تشريعية واجتماعية ، يمكن أن تعصف بالنظام نفسه !

ولو كان على رأس الكنيسة القبطية أب مثل كيرلس الخامس لما حرك ساكنا ، ولترك المناورة حتى تكشف نفسها دون أن يورط الكنيسة فى شىء ، والقوانين فى كل الدول الديمقراطية تعرض على المجالس التشريعية المنتخبة ، وتتعرض للنقاش على صفحات الجرائد وعلى كل حال فما دامت هذه القوانين - على طبيعتها الإسلامية لاتمس حرية العقيدة ، فلا يجوز لهيئة أن تحتج عليها ، فما دام مجلس الشعب المصرى أجاز عقوبة للسرقة ، فيفترض أن تطبق ، كما يطبق أى قانون ، ولا يجوز التعلل بأن هذه العقوبة لها أصل اسلامى وبالتالى فلا يجوز أن تطبق على الأقباط ، لأنها لاتمس حرية العقيدة

فى شىء ، وانما يجوز للأقباط الاحتجاج لو أصدر المجلس قانونا يحول بينهم أو يضيق عليهم ممارسة شعائرهم الخاصة ، أو يميز بينهم فى الوظائف على أساس الدين ، ... إلخ ، وهذه تلك مستبعدة من قانون الحدود ...

ولكن الأنبا شنودة أراد أن يتخذ منها مناسبة لاستعراض قوة ، فسمح بعقد أخطر مؤتمر دينى مسيحى فى تاريخ البلاد منذ ستة وسبعين عاما (أى منذ عقد المؤتمر القبطى سنة ١٩١١) وأصدر بيانا طالب فيه بإلغاء مشروع قانون الردة واستبعاد التفكير فى تطبيق الشريعة الإسلامية على غير المسلمين ، والغاء القوانين العثمانية التى تقيد بناء الكنائس ، واستبعاد الطائفية من الوظائف العامة على مختلف المستويات ، وحرية النشر !

ولاحظ الكاتب القبطى الدكتور غالى شكرى أن البيان الذى أصدره هذا المؤتمر كان واضح التطرف والطائفية معا فى استخدام تعبيرات مثل **«الشعب القبطى» و «السلالة العريقة فى القدم»[1] ..**

وحرك الأنبا شنودة أجهزته الخارجية المتمثلة فى الجاليات القبطية فى استراليا وكندا والولايات المتحدة ، التى أمطرت الحكومة المصرية ، كما استعدت كل حكومات العالم بمئات العرائض والمقالات التى تتحدث عن انتهاك المسلمين لحقوق الأقلية القبطية فى مصر !

وهكذا أصبحت هناك «مسألة قبطية» فى الاعلام الخارجى .. حتى أن مجلة متخصصة صدرت بالفرنسية فى باريس تدعى «العالم القبطى» وكتب فى عددها الأول (الرئيس الفرنسى جيسكار ديستان ، والرئيس السنغالى ليوبولد سنجور)[2] .. بالاضافة الى الرئيس أنور السادات نفسة !

وكان واضحا كل الوضوح أن البابا ، وقد لعب لعبة السياسة والدنيا ، كاد أن ينزلق الى حالة لايملك هو نفسه التحكم فى القوى التى أثارها أولا .. كما حدث تقريبا للسادات والجماعات الإسلامية .

وكانت هذه السياسة شديدة البعد عن السياسة المقررة للكنيسة المصرية ، وعارضها بشدة عدد كبير من الكهنة والآباء وعلى رأسهم الأب «متى المسكين»

---

(١) الثورة المضادة فى مصر د . غالى شكرى ص ٢١٤ (كتاب الأهالى) .
(٢) المرجع السابق ص ٣١٥ .

الذى عرض فى لقاء مع الأستاذ مكرم محمد ، الفكرة المسيحية النقية عن دور الكنيسة ، وأن الكنيسة لاتتدخل مطلقا ، حتى فى الأعمال الخيرية ، وأن عملها الوحيد هو تخليص الروح بالبشارة .. كما كان عدد من ممثلى الكنائس قد أعربوا عن موافقتهم على تطبيق الشريعة عندما أجرت مجلة الدعوة حوارا معهم (فبراير ١٩٧٧)[١] .

اللبس التاريخى :

من الأسباب التى أسهمت فى سلوك الأقباط مسلكا خاصا ، أنهم وقعوا فى «لبس تاريخى» كان له تأثير على تصورهم الموقف واصدارهم الأحكام .

ذلك اللبس هو أن الأقباط هم «السلالة العريقة والنقية للجنس المصرى ، وأن المسلمين يعودون الى أصول عربية وافدة جاءت مع جيش عمرو بن العاص ، أو خلال الهجرات العربية العديدة الى مصر .. وأن مصر كانت قبطية حكومة وشعبا ولغة ، حتى جاء الفتح الإسلامى فأفقدها هذا وألحقها بالإسلام »!

وهذا الظن يخالف الوقائع التاريخية ، فإن جيش عمرو بن العاص والهجرات الوافدة ماكان يمكن أن تكّون أغلبية الشعب المصرى .. والذى حدث هو أن أعدادا غفيرة من الأقباط على امتداد ألف عام اعتنقت الإسلام لأسباب معروفة نشأت عن السياق التاريخى خلال هذه الحقبة الطويلة مابين رغبة فى الوصول الى المناصب الكبرى والبارزة فى المجتمع ، أو الخلاص من صور من المظالم التى كان بعض الولاة الجهلة يوقعونها على الأقباط ، مما لايخلو منه أى تاريخ ، ومنها بساطة العقيدة الإسلامية ، والمثل الجذابة للشخصيات الإسلامية الكبرى من الرسول ﷺ والخلفاء وماعرف عنهم من عدل ، ومنها روح المساواة الإسلامية التى كانت تسوى بين كل من يدخل الإسلام مهما كان جنسه أو لونه أو وضعه الطبقى ، أو حتى ماضيه ، ومابين بقية المسلمين دون حساسية ، وأن فكرة الإسلام عن المسيح ، وأنه رسول وليس الها كانت موجودة فى مصر قبل الإسلام ، وأن الأريوسية ، التى ظللت الأفق المسيحى قرونا عدة نشأت فى الإسكندرية ، كما أن فكرة عدم صلب المسيح ورفعه الى السماء وجدت فى مصر .. ونقرأ فى كتاب «المنارة التاريخية» فى الحديث عن عهد الامبراطور الرومانى كومودوس سنة ١٨١ – ١٩٤ «ومن هذا الحين بدأ الانقسام والخلاف بين المسيحيين وذلك لأن

---

(١) يمكن الرجوع إلى نص الأسئلة والإجابات فى كتابنا . الدعوات الإسلامية المعاصرة مالها وماعليها ص ١٣٤ .

أمزجة القبط أهل الصعيد نسل عباد ثيبة الورعين ، كانت غير أمزجة الأغريق المرحى نسل عباد فيريس وبروزربين أو برسوفين ، فأولئك تعبدوا وتقشفوا ونسكو وقالوا حاشا للمسيح أن يصلب بل شبه ذلك للناظرين وأن الله رفعه سالما حيا ، وأولاء رأوا بالدين الجديد ما يشحذ قريحتهم على الفلسفة فقالوا بخلاف ما قاله القبط .. وقد عد الاختلاف بينهم كفرا من الطرفين (ص ١٠٣)[1] .

كما نقرأ فى الحديث عن عهد الأمبراطور يوستن الأول (٥١٨ - ٥٢٧) أن أسقف كنيسة سوريا سويروس هرب الى الاسكندرية لأنه أخذ بمذهب مصر اليعقوبى «وانما بوصوله لها وجد أنه لا يمكنه أن يصادق على مذهب المصريين برمته أيضا ، وأن مذهبهم كان بأن يسوع لم يصلب بل شبه للناظرين كما جاء فيما بعد بالقرآن ، ومذهبه لم يكن كذلك» (ص ١٨٩) وأخيرا فنحن نقرأ عند الحديث عن هرقل (ص ٦١٠) من أن «أسقف الاسكندرية يوحنا بن حاكم قبرص ظفر برضا المصريين أبدى من الإحسان والرأفة بالفقراء ما أكسبه لقب المحسن وخلال الخمس سنين الأولى من أسقفيته بنى عدة مستشفيات للمرضى وتوليد النساء ونزلا للبائسين ، وكان مذهبه بالمسيح أنه لم يصلب بل شبه لهم» .

فهذه النصوص كلها توضح أن ماجاء به الإسلام لم يكن غريبا عن الفكر القبطى إلى درجة دفعت بمؤلف «المنارة التاريخية» لأن يقول «الإسلام دينا هو دين التوراة والإنجيل ، ومذهباً وشريعة هو أحد المذاهب المسيحية الجدلية» (ص ٢١٣) .. مما سهل على الأقباط اعتناق الإسلام ، بالإضافة إلى العوامل الأخرى التى التى أشرنا إليها .

وكما هو معروف ، فإن الفاتح الإسلامى لمصر كان عمرو بن العاص ، وهو رجل دولة وسياسة قدر ماهو رجل دين وشريعة ، ولهذا قرب إليه البابا بنيامين ، ووضع مبدأ تقريب الأقباط وهو المبدأ الذى أدى بعد ذلك الى الإستعانة بهم فى أجهزة الدولة ، خاصة ما يتعلق بالمال وتحصيل الضرائب ، مما كان لهم خبرة خاصة فيه ليست للعرب ، واستمر هذا التقليد من عمرو بن العاص حتى الخديوى اسماعيل ، والسادات ، ومبارك ..

وقد كانت سياسة الحكام المسلمين هى دعم الأقباط والاستعانة بهم ما أمكن ذلك .. وقد كان المهندس الذى أقام مسجد بن طولون الشهير هو ابن كاتب الفرغانى

---

(١) المنارة التاريخية فى مصر الوثنية والمسيحية ، تأليف اسكندر صيفى ، المطبعة العصرية ، ص ١٠٣ .

المهندس القبطى الذى كافأه ابن طولون بعشرة آلاف دينار ، وأجرى عليه الرزق طيلة حياته .

وكان للأقباط خلال عهد الفاطميين صلة وثيقة بالحكام ، وولى العزيز بالله (ابن المعز لدين الله) بن مينا الملقب بأبى اليمن حكم فلسطين ، وكان هذا القبطى أمينا على أموال الدولة التى تعرضت للضياع وكافأه بأموال كثيرة أعطاها للبابا ابرام بن زرعة لينفقها على الكنائس والأديرة .. وكان الشيخ المكين أبو البركات الكاتب المعروف بابن كتامة هو كاتب الدولة فى عهد خلافة الفائز بنصر الله الفاطمى ، وجدد وأقام عددا كبيرا من الكنائس .. وكان أبو القديس برسوم العريان كاتبا لشجرة الدر ، وترك له أموالا طائلة فزهد فيها وانصرف الى العبادة .. وظهر أبناء العسال الثلاثة الذين سجلوا بالعربية القوانين والعقائد القبطية ، وكانت معرفتهم بالشريعة الإسلامية لا تقل عن معرفتهم بالشريعة القبطية .

وتعرض عامة الأقباط لما تعرض له عامة الشعب لعسف المماليك .. ولكن كبراء الأقباط تعاونوا مع المماليك فى عمليات جباية الضرائب وظفروا منهم برعاية كبيرة خاصة فى الأيام الأخيرة لهم التى عاصرت الحملة الفرنسية وظهر المعلم ابراهيم الجوهرى والمعلم جرجس الجوهرى والمعلم رزق والمعلم غالى وهو أول من منح رتبة البكوية من الأقباط .. ونقرأ فى الجبرتى عن ثراء ومنزلة هؤلاء وأنهم كانوا من الشخصيات الكبرى البارزة فى الدولة حتى نصل الى اسماعيل باشا الذى وهب الأقباط ١٥٠٠ فدان لتخصص ريعها على المدارس القبطية (ص ٢١٦ عصر اسماعيل ، جزء ١) وحتى نصل الى عبد الناصر والسادات ومشاركتهما فى بناء الكاتدرائية الكبرى فى العباسية .

بل إننا نجد أن أحد الأقباط الذين أسلموا وصل الى درجة المشيخة للأزهر وأنه كان واحدا من خمسة أو ستة من الشيوخ الكبار الذين تصدروا مسرح الأحداث وتولوا اصدار القرار فى تلك السنوات الحاسمة مابين خروج الفرنسيين وتولية محمد على .

وهذا السجل الطويل من التسامح بقدر ما شجع أعدادا كبيرة منهم للتحول الى الإسلام ، بقدر ما حفظ للأقباط كيانهم ..

وهكذا يتضح من هذا العرض أن أغلبية المسلمين المصريين تعود الى الأقباط الذين أسلموا على امتداد ألف عام ، وأن ماجاءت به الهجرات العربية تعد قلة بالنسبة لهم ، وليس أدل على أن المسلمين والأقباط جنس واحد ، هو أنك لاتجد فرقا بيولوجيا أو

اثنينيا بين مسلم وقبطى ، فهم جميعا لهم ملامح واحدة ، وقد أدرك هذه الحقيقة ببداهة الفنان شوقى ، ووضعها موضعها السليم :

ألستم بنى القوم الذين تجبروا
على الضربات السبع فى الأبد الخالى
رددتم الى فرعون جدا وربما
رجعتم لعم فى القبائل أو خال

وهذه الحقيقة هى ما تتفق مع دعوى الأقباط أنفسهم عن الشعب المصرى الواحد الذى لايختلف فيه المسلم عن القبطى ، ويتفق مع الظاهرة الجغرافية/ التاريخية المعروفة عن مصر جيدا ، ألا وهى أن مصر بوتقة تصهر الأجناس ، وأن الأجناس السودانية والحبشية والشركسية والأرمينية ... ألخ كلها انصهرت فى بوتقة مصر ، ولم يعد هناك فرق بعد عدة أجيال بين أبنائهم والمصريين الأصلا .

ويعرض بعض الأقباط تاريخ مصر كما لو كانت قبل الفتح الإسلامى قبطية لغة وحكما ، حتى جاء الفتح فأفقدها هذا كله وغير مسارها وأنزلها منزلة التبعية للإسلام .

ويتطلب تمحيص هذه الدعوى المترسبة فى أذهان كثير من الأقباط ، أو التى نجدها فى بعض كتابات الأوروبيين ، الرجوع الى التاريخ وحقائقه الصلبة .

فعندما ظهرت المسيحية كان الشعب المصرى يعتنق الديانة المصرية القديمة بعد أن تأثرت ببعض المؤثرات اليونانية خلال حكم البطالمة ، حتى وقعت فى يد الرومان أثر هزيمة اكتيوم سنة ٣١ قبل الميلاد ، وكان الرومان وثنيين ، وكانوا يتقبلون الديانات الوثنية .

ودخلت المسيحية مصر عام ٥١ بعد الميلاد على يدى القديس مرقص الإنجيلى تلميذ بطرس الرسول .

وتعرضت المسيحية الوافدة لثلاثة عوامل عوقت مسيرتها ولبدت سماءها :

الأول – مقاومة اليهود والاغريق والمصريين القدماء .
الثانى – الارهاب الرومانى .
الثالث – الصراعات المذهبية .

وفيما يلى فقرة موجزة عن كل عامل من هذه العوامل :

العامل الأول :

عندما دخلت المسيحية كانت الغلبة والسيطرة الفكرية لليهود والأغريق بينما كان الشعب متمسكا بديانة آبائه وأجداده ، وقاوم الجميع الديانة الجديدة وظلت لهم الغلبة حتى أصدر الأمبراطور تيودوسيس أوامره بتدمير الهياكل والمعابد المصرية سنة ٣٧٩ ، وعندئذ هرب كهنة هذه المعابد إلى الصعيد وأقاموا به ، وفى عهد الإمبراطور ترقيان سنة ٤٥٠ ، نسمع أن المسيحية تلاشت من الصعيد ، وعادت الوثنية الى ماكانت عليه ، وأن بعض الذين تنصروا رجعوا يصلون لايزيس وسيرابيس[1] .

ولم تكن مقاومة الأغريق بأقل من مقاومة كهنة المصريين القدماء ، ونحن نعلم أن ثقافة اليونان انتقلت الى الإسكندرية والى أثينا ، وبعثت فى الإسكندرية بعد أن ماتت فى اليونان ، وأن أعاظم العلماء والفلاسفة عاشوا فى الإسكندرية منذ أن أحياها البطالمة (الذين كانوا يونانيين) وأسسوا فيها مكتبتها الكبيرة العظيمة (سبعمائة ألف كتاب) .. ولهذا لم يكن من السهل أن تستسلم الفلسفة اليونانية العريقة والمؤهلة للثقافة المسيحية الجديدة الوافدة ، وظلت الثقافة اليونانية هى سيدة الموقف ردحا طويلا .. ونقرأ فى المنارة التاريخية أنه خلال حكم الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ - ٤٥٠) زار الإسكندرية بعض شبان الأرمن لدرس اللغة اليونانية وتصحيح ترجمة الكتاب المقدس ، فلم يجدوا أستاذا مسيحيا ، واضطروا لدخول المدرسة الأفلاطونية التى كان رئيسها سيراقوس (ص ١٧٣) . بل نقرأ أن معبد إيزيس فى جزيرة فيلة ظل حتى عهد مرقيان ٤٥٠ - ٤٥٧ ملجأً للوثنيين وان المسيحية لم تدخلها الا فى عهد الأمبراطور ريوستن الثانى ٥٦٦ - ٥٧٨ . كما نعلم فى مرحلة لاحقة تلك الحادثة المشهورة عن «هيباثيا» ابنة ثيون التى كانت تدرس العلوم والفلسفة اليونانية وهاجمها أتباع البطريرك كيريل واستلوها من عجلتها ، وجروها وراءهم ، ثم جردوها من ثيابها ورجموها ومزقوها اربا اربا ، وكان ذلك فى الصوم الكبير سنة ٥١٤ مما يوضح أن نفوذ الأغريق الوثنيين كان قائما ومؤثرا حتى أوائل القرن السادس أى قبل دخول العرب بقرن واحد ...

(١) المنارة التاريخية فى مصر الوثنية والمسيحية ص ١٨١ .

والعامل الثانى ، الذى أثر على تاريخ الأقباط منذ ظهور المسيحية حتى دخول العرب هو الإرهاب الرومانى ، فمصر كانت قد وقعت فريسة للاحتلال الرومانى عقب هزيمة اكتيوم سنة ٣١ قبل الميلاد ، وعندما ظهرت المسيحية تعرضت لنوبات من الاضطهاد من أباطرة الرومان الذين كانوا وثنيين ، وكان أبرز نوبات هذه الاضطهادات اضطهاد نيرون سنة ٦٤ واضطهاد تراجان سنة ١٠٦ ، ولم يصب قبط مصر من هذه الاضطهادات إلا نذر يسير لجدة المسيحية ، ولكن اضطهاد ديقيوس (وقد يكتب ديسيوس) من سنة ٢٤٩ - ٢٥١ - نال الأقباط وأدى إلى نفى أسقفها ديونسيوس وأريجانوس وهرب عدد كبير من المسيحيين إلى الصحراء وكان منهم شاب اسمه بولا وهو الذى صار الناسك الأول فى الصحراء .

وأخذت نوبة الاضطهاد خلال عهد دقلديانوس سنة ٣٠٣ ذروة الاضطهاد ، وأمر بهدم الكنائس واحراق الكتب وقتل المسيحيين اذا لم يرجعوا عن دينهم ، وتبالغ بعض المصادر القبطية فتصل بعدد شهداء الأقباط الى ثمانمائة ألف أو مائة وأربعين ألفا ، منهم معظم الذين تحتفل بهم الكنيسة القبطية مثل القديس يوحنا الشهير بالعجائبى والقديس تادرس والقديس يوليوس والقديسة دميانة .

وقد جعل الأقباط تقويمهم يبدأ بسنة ٢٨٤ التى ارتقى فيها دقلديانوس عرش الملك واعتبروها السنة الأولى للشهداء .

وفى سنة ٣٢٣ اعتنق الأمبراطور الرومانى قسطنطين المسيحية وانتهى اضطهاد المسيحيين من قبل الوثنيين ، ولكنه بدأ فى صورة جديدة ، ذلك أن مذهب قسطنطينية كان يختلف عن مذهب الاسكندرية ، وكان هذا يؤدى الى صور عديدة من الاضطهاد .

وهذه الصور من الاضطهاد أدخل فى باب **العامل الثالث** أى الصراع المذهبى الذى شغل سحابه العهد القبطى للبلاد والذى ظهر بشكل حاد مابين أريوس واثناسيوس . وكلاهما من الإسكندرية .. ووصلت حدة النزاع أن آثر أتباع اثناسيوس فى إحدى جولات الصراع حرق كنيسة الإسكندرية على أن تقع فى يد الآريوسيين .

والحقيقة أنه ما إن اعتنق قسطنطين المسيحية وأصبحت ديانة المملكة ، حتى انتهت الوحدة التى كان الاضطهاد يعمقها ، وبدأت الاهواء والمطامع التى تصطحب بالسلطة من عهد قسطنطين حتى الفتح الإسلامى ، فكان الفتح الإسلامى وحده هو الذى

أراح الكنيسة القبطية ، ومكنها من أن تعمل دون مقاومة أو اضطهاد المذاهب الأخرى ولما تكرر – فى الفترة المعاصرة – وصول بعثات بروتستنتية من أمريكا استنجدت الكنيسة بالحكومة التى نصرتها على هذه الطوائف .

ولا يتسع المجال للحديث عن هذه الصراعات ولا عن السبب اللاهوتى فيها الذى أدى الى عقد المجمعات المسكونية الأربعة التى صال وجال فيها أساقفة الإسكندرية وكانوا هم أبطالها وهى مجمع نيقيه سنة ٣٢٥ ، ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ ومجمع أفسس الأول سنة ٤٣١ ومجمع أفسس الثانى ٤٤٩ ، ومجمع خلقيدونيه سنة ٤٥١ .. وكانت هذه المجامع تقر مبدأ ثم تعود فتنفيه وتنقضه فى مجمع آخر ، أو تضع تقليدا يكمله مجمع آخر وكانت كلها تدور حول نقط لاهوتية تتعلق بالثالوث والاقانيم وطبيعة المسيح ... ألخ .

على أن هذه الخلافات النظرية كانت تنتهى بمذابح مابين الفرق المختلفة والمتناحرة ، وفتن لايصرفها الا تدخل السلطة !

ويكفى فحسب أن نأخذ احدى صور الاضطهاد التى حدثت خلال حكم الامبراطور يوستنيان (٥٢٧ – ٥٦٦) أى قبل الفتح الإسلامى ببضعة عقود من السنين ، نقلا عن «المنارة التاريخية» :

« لما آل الحكم الى يوستنيان دعى الأسقفين من الإسكندرية للعاصمة ، ثم أبعدهما وأقام بولس أسقفا واحدا عوضهما ليعمل بقانون مجمع خلقيدونيا ، وبعد سنتين أبدله بالأسقف زويلوس بالرغم عن ارادة المصريين ، فاحتملوه ست سنوات ثم طردوه وطردوا كافة أساقفة المذهب الإغريقى ...

وإذ بلغ الامبراطور ما أجراه اليعقوبيون ، بعث ابولينا ريوس أسقفا وحاكما على الإسكندرية فدخلها على رأس الجنود بزيه العسكرى ، ولما وصل للكنيسة خلع ثوبه العسكرى ولبس بدلته الأسقفية ، وباشر تلاوة الصلاة ولكنه لم يفتح فاه حتى أتاه الرجم من كل مكان واضطر الى الفرار من الكنيسة ، فمكث ثلاثة أيام ، ثم أرسل مناديا بالأسواق يدعو الناس الى الكنيسة لاستماع قراءة كتاب الامبراطور الأحد المقبل .. فاجتمعوا ، وإذ افتتح خطابه يتهددهم بالقتل ، والنساء بالسبى ، رجموه كالأول ، لكن باشارة منه دخلت الجنود الكنيسة شارعة سيوفها فوقعت على القوم تضربهم حتى جرى الدم للركب وانصرف منهم من سلم .. وبعد ذلك لم يجترىء أحد على مقاومة الأسقف الأغريقى الملكى .. وهذا كان أصل الروم الملكيين» (ص ١٩٠ – ١٩١) .

وكان المشهد الأخير هو تولية الأسقف تيروس المارونى الذى كان على مذهبه بالقول بالطبيعتين والمشيئة الواحدة خلافا لمذهب الملكيين القائلين بالطبيعتين والمشيئتين والمذهب اليعقوبى القائل بالطبيعة والمشيئة الواحدة .. فازداد هؤلاء نفورا من الإغريقى وكرها له . وهكذا لما دخل عمرو بن العاص مصر وجدهم من أنصاره ضد الروم ...» (ص ٢٠٥) المنارة التاريخية .

★ ★ ★

من هذا العرض يتضح أن :

(١) أن الأغلبية الإسلامية فى مصر تعود ، أصلا ، الى اعتناق معظم الأقباط للإسلام على امتداد ألف عام ، وأنه ليس هناك تفرقة عرقية بين المسلمين والأقباط ، فهم جميعا يعودون الى أصل واحد ، فضلا عن أن القلة التى جاءت بها الهجرات تكفلت بها البوتقة المصرية فصهرتها تماما .

(٢) أن الفترة القبطية فى تاريخ مصر تعرضت لمقاومة شديدة من المصريين الذين احتفظوا بدياناتهم القديمة ، ومن الوثنيين الأغريق ومن اليهود الذين كانوا سادة فى الاسكندرية وأن هذا الوجود الوثنى زاحم المسيحيين واستمر حتى العقد الأول من القرن السادس الذى حدث فيه حادث هيباثيا ذو الدلالة (٥١٤) بحيث أن المسيحية لم تكن دين مصر الوحيد الا أقل من مائة عام .

(٣) أن الديانة القبطية تعرضت لاضطهاد منذ أن آمن القبط بها . ففى القرون الثلاثة الأولى كان الاضطهاد الرومانى الوثنى من أباطرة روما وفى القرون الثلاثة التالية كان الاضطهاد من أباطرة القسطنطينية (بيزنطة) لاختلاف المذاهب .

(٤) خلال هذه الفترة كلها لم يل الأقباط الحكم الذى كان فى يد الرومان ، ولم يكن لهم جيش ، ولم تكن لهم سيادة ، ولم تكن لهم لغة[(١)] ، وكانت قوتهم فى الحقيقة تعود الى ايمانهم ، هذا الإيمان الذى نجد مفاتيحه فى الشخصية المصرية ، وما أشرنا إليه من أنها شخصية «إيمانية» يمثل الدين جزءً عضويا فى تركيبها .

---

(١) كانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية خلال عصر البطالسة والعهد البيزنطى وقد كتب بها جميع آباء وعلماء الكنيسة فى الإسكندرية ، وكانت اللغة القبطية مقصورة على حاجة الكنيسة لتعليم الشعب أصول الدين خاصة فى الأرياف .. وقد قامت اللغة القبطية على حروف يونانية عدتها ٢٥ حرفا أضيفت إليها سبعة حروف من المصرية القديمة فى آخر مراحلها وهو الخط الديموتيكى ، وأضيفت إليها ألفاظ يونانية وعبرية ولاتينية ، وكان لها عدة لهجات منها اللهجة المنفية نسبة الى منف وهى لهجة القاهرة وغرب الدلتا ، واللهجة الصعيدية ، واللهجة الفيومية ، واللهجة الأخميمية ، واللهجة البشمورية نسبة الى بشمور التى كانت جهات عامرة فى الدقهلية .. وبعد الفتح الإسلامى علا شأن اللغة القبطية حينا ، ولكنها تدهورت وحلت محلها العربية واعتمدها لغة رسمية فى الطقوس . البطريرك غبريال باتريك (١١٣١ - ١١٤٥) .

(٥) إن الكنيسة المصرية تدين بحريتها واستقلاليتها ووجودها ، الى الحكم الإسلامى الذى كف عنها عدوان المذاهب الأخرى ، ومكنها من أن تنمو فى جو من السماحة والسلام .

★ ★ ★

الاختراق الصهيونى للفكر المسيحى :

هذا عامل قد يكون محدود الأثر ولكنه لا يخلو من دلالة ، ويمكن لو ترك ، أن يتضخم وهو الاختراق الصهيونى للمسيحية فى الولايات المتحدة ، الذى ركز على نقطة معينة فى الكتاب المقدس . وبلور فيها فكرتها ، وكان الفضل فى لفت الأنظار إليها لكاتب قبطى نابه هو الدكتور رفيق حبيب عندما أصدر كتابه الهام «المسيحية والحرب» .

وما يهمنا من الكتاب هو أمرين : **الأول** عرض للفكرة الرئيسية للأصولية المسيحية بتأثير الاختراق الصهيونى فى الولايات المتحدة .. **والثانى** مدى نجاح هذه الأصولية فى اختراق الكنيسة المصرية واصطناع أتباع لها بين الأقباط ..

إن خير ما يوضح النقطة الأولى هو كتاب هل لندسى «الكوكب الأرضى العظيم الراحل» الذى بيع منه ١٨ مليون نسخة واعتبر الأول فى المبيعات للكتب غير الروائية ، ويأتى فى المرتبة الثانية بعد الكتاب المقدس :

يقول الدكتور رفيق حبيب :

«والكتاب ليس فى العقيدة فقط ، بل هو عن السياسة والتاريخ أيضا ، ففيه يشرح الكاتب تاريخ العالم ، من وجهة نظر عقائدية ، فيفسر كيف يتفق التاريخ الماضى مع نبوءات الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ، وبالتالى يمتد بالتاريخ إلى المستقبل ، ليشرح ما سيحدث فى المستقبل ، طبقا لنبوءات الكتاب المقدس ، حسب فهمه لها ، والرؤية فى مجملها تدور حول تحديد قوى الشر وقوى الخير فى العالم ، وكيف سيبدأ العد التنازلى لنهاية العالم من خلال تجمع اليهود من الشتات فى دولتهم فى فلسطين ، ثم تتجمع قوى الخير لتحارب قوى الشر ، فى معركة هرمجدون ، وهى فى موقع فى فلسطين ، وفى هذه المعركة تنتصر قوى الخير على قوى الشر ، ويأتى المسيح ليحكم العالم أجمع ، حكما أرضيا فعليا لمدة ألف سنة كاملة ، هى الألف سنة السعيدة . ولندسى يرى أن العد التنازلى للنهاية قد بدأ وأن هذا الجيل سوف يشهد قيام الملك الألفى .

---

(١) Lindsey, Hal. The late great planet earth. Michigan Zondervan 1997.

وعبر صفحات الكتاب ، يتعرض الكاتب إلى الدول المختلفة ، فروسيا ضمن قوى الشر ، كذلك العرب والمسلمون ، وبابل سوف تسقط تمهيدا للحرب الأخيرة ، وليبيا ، ضمن قوى الشر ، والحكومات العربية الموالية لروسيا ، مثل حكومة جمال عبد الناصر ، هى جزء من قوى الشر المتحالفة على قوى الخير المسيحية ، لذلك فإن انتصار إسرائيل فى حرب ١٩٦٧ ، هو جزء من الخطة الإلهية ، لانتصار قوى الخير ، وقيام دولة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات ، ليتجمع فيها كل شعب الله المختار ، حتى عندما تقوم الحرب الأخيرة ، ويموت جزء كبير من اليهود فى الحرب ، يأتى المسيح ويعطى لشعبه المختار المتبقى ، فرصة أخيرة ، حتى يقبلوه كمخلص للعالم ، فاليهود كشعب مختار ضل الطريق ، ولكن الله لايتخلى عن شعبه المختار ، لذلك تظل له مكانة خاصة ، وتظل له فرصة أخرى ، فكل قوى الشر تتحطم فى حرب هرمجدون ، ويذهب الأشرار إلى الجحيم ، وكل من رفض المسيح كمخلص للعالم ، ولكن شعبه المختار ، الذى رفضه ، يعطى فرصة أخرى ، حتى يقبله ، (ص ٤٢- ٤٣).

وقد استطاعت حركات الأصولية الصهيونية/ المسيحية أن تنشر هذه الفكرة فى الرأى العام الأمريكى ، وتدسها فى هيئات عديدة ، وتتأثر بها الرئيس الأمريكى رونالد ريجان ، وكانت وراء السياسة الأمريكية المؤيدة لاسرائيل بلا تحفظ وعلى طول الخط ..

أما عن **النقطة الثانية** ، وهى دخول هذا الفكر الصهيونى المسيحى مصر .. فقد حملته هيئات امريكية الأصل مثل هيئة البحارة Navigators التى تأسست عام ١٩٣٣ كمنظمة ارسالية انجيلية تهدف الى تنمية قيادات روحية يقومون بقيادة الآخرين ليتبعوا طريق المسيح ومدت نشاطها الى ستين دولة من دول العالم وهى تركز نشاطها فى معسكرات الطلبة ووحدات الجيش والمجتمعات الصغيرة من خلال الكنيسة ، ومفتاح فهم هيئة البحارة هو مفهوم التلمذة ويعنى أن القائد (البحار) يقوم باختيار أعضاء (تلاميذ) ويقوم بتدريب وتعليم كل واحد منهم على حده حتى يصبح تلميذاً . والتلمذة تقوم على الطاعة لله أولاً ، ثم للقائد . ولكن القائد هو حلقة الوصل بين التلميذ والله . وهذا النموذج له قوة غير عادية فى زرع الفكر المستهدف داخل عقل (التلميذ) الذى يستمر تابعا للقائد الذى يظل بدوره المرشد الروحى له فى العديد من أمور الحياة ..

وهذ الأسلوب يخلق أتباعاً يطيعون قائدهم ، ويتوزعون فى كل مكان . فالهيئة تشجع تلاميذها على الاستمرار داخل كنائسهم ، ومن ثم يستمر «التلميذ» فى كنيسته ،

ولكنه يتبع القائد فى فكره ، فيصبح سفيراً جديداً لهذا الفكر ، وهو سفير مطيع ، ومن هنا تظهر أهمية نشر الأتباع داخل الكنائس المختلفة خاصة عندما يقوم البحارة بتلمذة قيادات الكنيسة ، ثم تركهم على الطاعة ، يعملون داخل كنائسهم ، بهذا يكسب البحارة قيادات توجه كنائسها ، لا حسب عقائد الكنيسة ، بل حسب عقائد البحارة .

لذلك فإن البحارة فى مصر ، عملوا من خلال الكنيسة الإنجيلية ، بدعوى أن هدفهم مساعدة الكنيسة على التعليم ، والنهضة الروحية أما الواقع فهو أن البحارة استطاعوا خلق أتباع لهم فى كل ركن من أركان الكنيسة ، وعبر ١٥ عاماً . وفى البداية كان العمل يتم من خلال برنامج التلمذة ، ومع تزايد الاعتراض عليه ، أصبح العمل يتم من خلال برنامج الأزواج والزوجات ، وفى البرنامج الأخير ، يقدم للمتدربين ، معلومات عن الحياة الزوجية ، وتربية الأطفال ، وغيرها ، وكلها تقوم على نفس المبادىء الأساسية «للتلمذة» . أى أن الفرق الأساسى ، وهو واضح من نشاط البحارة عالمياً ، أنهم يضعون برامج دينية فقط (التلمذة) وبرامج دينية اجتماعية للمتزوجين ، والمحالين للمعاش والأطباء ، وهكذا .

ولعل أثر التلمذة الحقيقية ، كما تسمى ، يظهر فيما يقال عن أن نبيل جبور ، قد تلمذ القمص زكريا بطرس ، راعى كنيسة مارمرقس فى مصر الجديدة ، ومارجرجس بمنشية التحرير ، والذى تم إبعاده عن مصر ، متهماً بالتبشير فى عام ١٩٨٩ ، وبغض النظر عن مدى صدق هذه القصة ، فهى تعنى أن كسب «تلميذ» داخل كنيسة بروتستانتية أو أرثوذكسية ، هو الطريق إلى محاولة تغيير فكر هذه الكنيسة ، وإذا كان «التلميذ» قائداً ، وزعيمًا روحياً ، فإن الآثار التى يمكن أن يتركها على كنيسة بل كنائس ، لا يمكن أن تقاس .

من ناحية أخرى ، فإن فكرة التضاعف لها أهميتها ، فهى تعنى أن على القائد أن يتلمذ أكثر من شخص ، ثم على كل تلميذ أن يتلمذ آخرين ، وفى أحد النماذج ، يمكن أن نفرض أن القائد يتلمذ ٨ أفراد ، وكل منهم يتلمذ ٨ أفراد ، وهكذا ، ولنا أن نحصى العدد المتتالى المتزايد ، وهو ١ ، ٨ ، ٦٤ ، ٦١٢ ، ٤٠٩٦ ، وهكذا . وبالطبع فإن النجاح لا يحدث دائماً بهذه الصورة ، ولكن الفكرة فى حد ذاتها ، ملفتة للنظر .

ومن الهيئات المسيحية/ الصهيونية التى دخلت الى مصر منظمة «شباب له رسالة»

التى تعمل فى مصر منذ عشرين عاماً ، أى منذ أواخر ستينات القرن العشرين ، ونشاط هذه المؤسسة ، يلفت النظر ، لما لها من تأثير كبير وممتد ، عبر الشباب المسيحى ، كذلك فإن نشاطها فى قبرص ، يمثل مركزاً مهماً ، لنشر فكرها فى الشرق الأوسط .

وتعمل هذه الهيئة ، بدون أى غطاء لها فى مصر ، ويرتبط عملها ، بممثلها ومندوبها فى مصر ، منير مساك ، ولا توافق معظم الكنائس المحلية على هذا العمل . فهيئة شباب له رسالة ، عكس الهيئات الأخرى ، لم تستطع العمل من خلال الكنائس المصرية ، ولم تستطع الحصول على قبول كنسى عام ، بإعتبارها هيئة مساعدة للكنيسة ، مثلما فعلت هيئات أخرى . وبرغم هذا الوضع الضعيف رسمياً ، إلا أن الهيئة ، أثبتت قدرتها على التأثير فى مصر الكنيسة ، وفى مصر الفكر المسيحى السائد فى مصر .

فبرغم رفض الكنيسة فى مصر ، لعمل هذه الهيئة ، إلا أن الكنيسة لم تستطع إيقاف عملها ، أو حتى الحد من تأثيرها ، وعبر قنوات الهيئة من القيادات المسيحية المؤمنة بكفرها ، يتاح لها اختراق الكنيسة ، وبث فكرها .

ومن خلال التأثير على كنيسة ، ينتقل الأثر إلى الكنائس الأخرى ، وهو عادة يبدأ بالكنائس البروتستانتية ، وينتقل إلى الكنائس الأخرى ، تبعاً لاستراتيجية الأختراق .

وإذا كانت هيئة شباب له رسالة تؤمن بالملك الألفى ، وإذا كانت لا تؤمن بالتدبيرية ، أى انتظار تحقق هذا الملك دون تدخل من المؤمنين ، وإذا كانت تؤمن بأن على المؤمن التمهيد لقيام الملك الألفى ، أى أنها تؤمن بأن عليهم أن يساعدوا إسرائيل ، ويسهلوا عودة يهود الشتات ومنهم اليهود السوفييت ، ويساعدوا فى بناء هيكل سليمان ، كذلك فى هدم المسجد الأقصى ، إذا كان كل ذلك صحيحاً ، فماذا تفعل هذه الهيئة فى مصر ؟!!

هل تنادى بهذه الأفكار ؟ هل تحاول إقناع المسيحيين فى مصر بها ؟ هل تبحث عن تأييد المسيحيين لإسرائيل ؟ هل تعمل على تبشيرالمسلمين ؟ وعشرات أخرى من الأسئلة ، تبحث عن إجابة مقنعة ، ولكن الواقع قد يعطى مؤشرات مختلفة .

فهذه الهيئة ، مثل غيرها ، تعمل بين المسيحيين ، أكثر من المسلمين ، وتحاول تغيير الفكر المسيحى المصرى ، نحو الأصولية الأمريكية . كذلك فإنها مثل غيرها ، تنشر الفكر الأصولى ، فى معظم جوانبه ، أكثر من ذلك الجانب الصهيونى . وتحاول كسب

الشباب والقيادات ، للفكرة الأصولية ، أكثر مما تحاول جذب تأييدهم لإسرائيل . وباختصار نستطيع أن نقول إن هذه الهيئات ، تعمل في حدود المقبول ، ليس لأنه مقبول ، بل لأنه الممكن . أي أن نشاطها ينحصر أحياناً كثيرة في حدود ما يقبل من المجتمع ، لأن هذا ما يتاح لها ، أي لأنه الممكن . وتبقى الأهداف الأخرى ، على هامش العمل ، لأنها مستحيلة ، وكلما أتيح لها فرصة ستجد طريقها . وعلى أضعف الإيمان ، فقد استطاعت هذه الهيئة ، وغيرها ، رغم تطرف فكرها ، وعدم ملاءمته للبيئة المصرية ، أن تجد لها أتباعاً ومؤيدين وتحقق مدى واسعاً من التأثير ، خاصة على الشباب ، وكل ذلك في أرض الكنانة مصر .

ويستطر المؤلف فيقول :

"يلاحظ ، مما سبق ، أن الهيئات الأصولية ، تتبع مبدأ الممكن ، حيث تقوم بالعمل المتاح والممكن ، حسب ظروف المجتمع الذى تعمل به . وهذا المبدأ يتيح لها اختراق الكنيسة ، خاصة عندما تخفى فكرها المرفوض ، وتعلن الجانب المقبول . بهذا المعنى ، استطاعت هيئة البحارة ، العمل من خلال الكنيسة الإنجيلية فى مصر ، دون أن تظهر فكرها عن "التلمذة" والطاعة ، أو أى عمل من شأنه أن يهدد بناء الكنيسة ، ومن خلال عملها ، بدأت الجوانب السلبية فى الظهور تدريجياً ، وتوقف عمل الهيئة فى النهاية ، بعد أن ترك آثاره التى يصعب مواجهتها .

كذلك بالنسبة لهيئة المعسكر الصليبى للمسيح ، فهذه الهيئة تعمل من خلال الكنيسة الإنجيلية فى مصر ، ولكن الهيئة قد أخفت فكرها الخاص بالملك الألفى ، وكذلك تأييدها لإسرائيل ، وهى أمور كافية بمنع التعاون بينها وبين الكنيسة الإنجيلية ، ومختلف الكنائس المصرية . حيث إن الكنيسة الإنجيلية (المشيخية) ترفض عقيدة الملك الألفى ، وما بها من مفاهيم شعب الله المختار وغيرها ، ولكن الهيئة استطاعت إخفاء هذا الجانب ، والعمل من خلال أفكارها الأخرى ، التى يمكن أن تقبل فى مصر .

وأكثر من هذا ، فإن هيئة شباب له رسالة ، والتى تعمل بدون أى إطار كنسى ، قد أخفت - إلى حد كبير - فكرها الذى يؤمن بالمسيحية الصهيونية السياسية (لاهوت السلطة) . فهذا الفكر يعنى أنها تساعد على إقامة الملك الألفى وتساعد إسرائيل ، أى أنها تحول العقيدة إلى برنامج عمل سياسى ، على عكس هيئة المعسكر الصليبى ، التى تؤمن بالتدبيرية ، أى أن الملك الألفى سوف يحدث بتدبير الله فقط . ولكن ، وعبر السنوات الطويلة لعمل هيئة شباب له رسالة فى مصر ، ظل هذا الجانب من فكرها خافياً على أغلبية من سمع عنها ، أو تعامل معها .

إن هذه السياسة من جانب الهيئات الأصولية ، تسمح لها باختراق الكنائس المصرية ، بعد أن تقدم لهم الجانب المقبول من فكرها ، ثم تحاول التسرب تدريجياً لتكسب الأرضية والأتباع ، وربما تأتى بعد ذلك لحظة مناسبة ، يبدأ فيها إعلان الجزء الخفى من مضمون فكرها .

إن هذا الأمر يتكرر مع الكنيسة الإنجيلية ، والكنيسة الأرثوذكسية ، فى مصر ، فالهيئات الأصولية التى تتعامل مع هذه الكنائس ، تخفى ما يضرها ، كذلك فإن هذه الهيئات تقدم فكرها للجماهير ، بالأسلوب الأفضل للنجاح ، وتخفى الفكر الذى قد يحرمها من الأتباع ، أما فى الكنيسة الكاثوليكية ، فإن الفكر يأتى من داخلها ، حيث أن سياسة الفاتيكان تميل إلى احتواء كل فكر يظهر بين الكاثوليك ، حتى وإن اعترضت عليه منعاً للانشقاق .

وهناك هيئة «صانعو الخيام» التى يعمل معتنقوها فى المناطق الشعبية ويحترفون مختلف الحرف حتى يصلوا إلى مجموعات من الشعب .

ومن متابعة الصحف فى مصر يمكن أن نجد تسجيلاً لإحدى هذه المجموعات ففى صحيفة الأهرام بتاريخ ١٩٩١/٤/١٤ ، وفى الصفحة الأولى ، نشر الخبر التالى تحت عنوان «القبض على تنظيم يدعو لإثارة الفتنة» ، «ألقت أجهزة الأمن أمس القبض على تنظيم يدعو للتبشير بالمسيحية وإثارة الفتنة الطائفية بين المسلمين والأقباط فى مصر ، ويضم التنظيم مواطنين سويسريين وآخر ألمانى الجنسية استأجروا شقة بشارع الرشيد بالعجوزة عثر بها على بعض المنشورات والكتيبات التى تدعو إلى إثارة القلاقل الطائفية ، كما يتردد عليهم بالشقة بعض المصريين وجار البحث عنهم» .

والخبر ، على صغره ، يشير إلى إحدى الهيئات التبشيرية ، التى ليس لها وجود رسمى ، بل التى تستخدم أسلوب «صانعى الخيام» . ولكن يبدو أن الأمر أصابه بعض الغموض ، ربما نتج عن أى أفكار أصولية غربية تعتنقها هذه الجماعة ، أو أى أسباب أخرى ، وهذا الغموض ظهر فى اليوم التالى (١٩٩١/٤/١٥) فى صحيفة الأهرام أيضاً ، حيث كتب تحت عنوان «إخلاء سبيل الأجانب المتهمين بالتبشير بدين غامض» وفى الصفحة الأولى من الجريدة ، «أمرت نيابة العجوزة بإخلاء سبيل الأجانب الثلاثة

المتهمين بالتبشير بدين غامض وسط المواطنين فى الأحياء الشعبية ، وترحيلهم إلى خارج البلاد بعد أن رأت النيابة أنهم لم يمارسوا التبشير ، وكانت النيابة قد استمعت أمس إلى أقوال أفراد التنظيم حيث قرر أولهم أنهم لم يقصدوا الإساءة إلى الإسلام» •

ومن هذا يتضح ، أن هذه المجموعة هى من المجموعات التى تتكلم باللغة العربية ، وهو ما يمكنها من العمل فى الأحياء الشعبية ، كما يتضح أيضاً ، أنهم كانوا يتكلمون عن الإسلام وعقيدته ، كمدخل للحديث عن المسيحية ، وهو ما يحدث غالباً عن طريق محاولة تشكيك الفرد فى عقيدته حتى يسهل إقناعه بالعقيدة المسيحية •

وتتضح الصورة أكثر ، من اعترافات هذه الجماعة ، فى نفس الجريدة (الأهرام ١٩٩١/٤/١٥) وفى الصفحة ١٥ ، حيث قرر المتهم الأول استيفان وولتر «سويسرى الجنسية» بأنه حضر إلى مصر منذ عامين لدراسة اللغة العربية مع مواطنه رولاند جريسر والألمانى مايكل جوزيف ، واعترف بأنه كان ينزل إلى التجمعات الشعبية ويتحدث مع الناس باللغة العربية التى يجيدها إيماناً منه كمسيحى بتعريف الناس بعقيدته بدعوى تخليص البشرية من مشاكلها ، وزعم أنه يحب الشعب المصرى ويرغب فى تخليصه من كل مشاكله وقال أنه لم يكن يريد أن يسيىء إلى الإسلام ، وأن ما فعله لم يقصد منه التعدى على السلطات المصرية» والصورة واضحة فهم مجموعة من صانعى الخيام ، يعرفون العربية ، ويبشرون بالمسيحية فى الأحياء الشعبية ، من خلال توجيه النقد للعقيدة الإسلامية ، بالحوار والكتب ، وتقديم المسيحية كعقيدة بديلة ، سوف تساعد من يؤمن بها على حل مشاكله ،•

وعالج المؤلف نقطة هامة هى أثر الإيمان بالعقيدة الألفية على سلوك المواطن القبطى المصرى وضرب مثلاً رواه القس أكرم لمعى :

«الحقيقة أن هذه العقيدة أثرت فى وجدان من يؤمنون بها بصورة أوقعتهم فى مآزق فكرية وأخلاقية عدة ، ففى إحدى جلساتى مع طيار مسيحى (من الواضح أنه يقصد طياراً مسيحياً مصرياً) يؤمن بهذه العقيدة، صرح لى بأنه ممزق داخلياً ، لأنه إذا صدر له أمر بضرب إسرائيل فسوف ينفذ الأمر ويحارب لأجل بلاده فهو وطنى يحب بلده ، فى نفس الوقت الذى يعتقد أن إسرائيل لابد وأن تنتصر فى نهاية الأمر ، فكيف يكون أميناً فى أحاسيسه ومشاعره نحو بلده العزيز ، وفى نفس الوقت الذى يكون فيه أميناً نحو عقيدته ، وأى تمزق يعيشه ؟ هل يتمنى انتصار إسرائيل التى قتلت أخاه وصديقه وكانت سبباً مباشراً فى أزمته الاقتصادية والاجتماعية وسبباً فى انهيار الكثير من القيم الإنسانية والأخلاقية داخل مجتمعه وتدهور

المرافق العامة والخدمات بصورة لم يسبق لها مثيل أو يكره إسرائيل كإنسان وطنى محب لبلده ، ويكون بهذه الموقف ضد خطة الله نحو العالم حسب تصوره ، والحقيقة أنى أشفقت جداً على هذا الطيار وفكرت أن هذه المشكلة هى مشكلة من يعتنقون هذا الفكر فى الغرب ، ومنهم من يدفع أموالاً وضرائب لأجل دولة إسرائيل ، فى الوقت الذى فيه تستخدم إسرائيل هذه الأموال لشراء أسلحة تقتل بها أطفال الحجارة فى فلسطين وتشرد رجالاً ونساء عزل من السلاح ، ص ١٩٤.

ويعتقد المؤلف أن :

معظم «الألفيين فى مصر كما فى العالم ، يؤمنون أن إسرائيل اليوم هى إسرائيل المقصودة ، وأن نهاية العالم على الأبواب ، والبعض ينتظرها فى غضون سنوات ، والكثيرون يعتقدون أنها فى خلال حياته ، وهذا الموقف ، يجعل المؤمن بالملك الألفى يرى أن إسرائيل الحالية تحقيق لإرادة الله ، ويصبح موقفه منها شائكاً ، وفى ذلك نجد بعض ردود الفعل المتنوعة ، ومنها :

١ - الامتناع عن الحرب ، إن أمكن .

٢ - الخضوع للاشتراك فى الحرب ، باعتبار أن القانون لايبيح الإمتناع عنها ، مع رفضها داخلياً .

٣ - الامتناع أو الإشتراك فى الحرب ، مع رفض فكرة مقاومة إسرائيل ، لأنها مقاومة لإرادة الله ، ويبقى الرفض على مستوى العقيدة فقط .

٤ - الاشتراك فى الحرب لأنها واجب وطنى ، ولأن المؤمن بالملك الألفى غير مطالب بمساندة إسرائيل ، فإن الله الذى يريدها هو الذى يحميها .

وكل هذه المواقف المتنوعة ، تقدم حلولاً ، وتبقى المشكلة ، فى أعماقها ، فهل يشعر الألفيون بالسعادة لقيام إسرائيل ؟ لأسباب دينية ؟ أو يشعرون بالحزن ، لأسباب وطنية ؟ وإذا استطاع العرب طرد إسرائيل ، ودفعها للشتات مرة أخرى ، فما موقف الألفيين ، بين السعادة والحزن ، وبين الاشتراك فى هذه الحرب ، أو رفضها ؟

تبقى القضية معلقة ، وعلى المؤمنين بالملك الألفى مواجهتها بصراحة ، وتقديم حل لها ، بدلاً من تركها أزمة تعيش بداخلهم ، وتجعلهم أحياناً فريسة لمشاعر متناقضة .

فالغالب فى النهاية ، أن الألفيين فى مصر ، كما فى كل العالم ، شعروا بالسعادة عندما قامت دولة إسرائيل ، وأنهم آمنوا أن المسيح قادم ليحكم العالم فى هذا الجيل ، وأنه

قادم فى عام ١٩٨٨ ، أو ١٩٨٩ ، ولأنه لم يأت فى هذا التاريخ ، فهو قادم فى ١٩٩٢ ، وإن لم يأت فإن سنة ٢٠٠٠ هى فى النهاية ، وهى النهاية ، وهى بداية الألف عام السعيدة ، ص ١٩٦ .

من هذا العرض يتضح أن هذا العامل ، وإن كان أثره محدوداً ، وأنه لم يظفر بتأييد الكنيسة ، بل إنها حاولت صده ، إلا أنه يعد من العوامل التى تبعد صاحبه عن فكر مصر ، بل وسياسة مصر .، وتفرض عليه فكرة معارضة معادية استطاع الصهيونيون بذكاء أن يجعلوها من محاور الكتاب المقدس ، وليست هى إلا إحدى النبوءات العديدة ذات الطابع الرمزى ..

العملاء المهيجون :

لا يمكن إنهاء العوامل التى أثرت على مواقف الأقباط دون الإشارة إلى عامل اضافى – بمعنى أنه قد لايكون أصيلا ، ولكنه فرض نفسه على القضية ، وأثر فى مسلك الأقباط بالفعل .. ذلك **العامل هو أن بعض الشانئين للإسلام ركبوا الموجة القبطية ، لا حباً فى الأقباط ، ولكن كراهية للإسلاميين ، خاصة إذا كانت أوثانهم التى عكفوا عليها عابدين كالماركسية والناصرية والقومية العربية قد هوت وسقطت ..** كما قد يكون هناك أفراد مدفوعين من هيئات للصيد فى الماء العكر ، ولإضرام عداوة بين المسلمين والأقباط ، لان هذا يخدم سياستهم فى إثارة الاضطراب والقلق وشغل البلاد بالمشكلات والنعرات القومية ، وتلويث اسم النظام ، وتشويه اسم مصر فى الخارج .. كما يمكن أيضاً أن يسلك هذا المسلك كل أعداء النظام ، وأخيراً فقد يسلكه أو يتقبله عناصر فى الأمن ترى أن فى قيام مثل هذه القلاقل مايثبت مركزها ويدعم وجودها ويبسط نفوذها !

إن ساحة الصراح والمصالح والأهواء تتسع لكل هذا ...

وسنشير كمثال إلى قلم قمىء يستخدم مجلة أسبوعية حمراء فى استثارة الفتنة والتحريض بصورة تذكر الانسان بدور « العميل المهيج » الذى يستخدمه أعداء النظام لإثارة الفتنة وتدمير السلام أو يستأجره أصحاب الأعمال لإفساد الاضرابات العمالية بالانحراف بها نحو التدمير ... ألخ !

فى العدد الصادر يوم ١٩٩٢/٤/٢٢ من المجلة الحمراء كتب صاحب القلم القمىء تحت عنوان **« دعوة للفتنة فى كتاب مدرسى »** موجها حديثه لرئيس الوزراء :

« فقط سأورد فقرات غير عاقلة وغير معقولة من كتاب عنوانه «محاضرات وبحوث فى أصول التربية – الفرقة الثالثة – إعداد قسم أصول التربية» ، لنقرأ هذه الفقرات ولنر أثرها على نفسية طالب مسيحى ، ولنر أثرها على مواطنين شركاء فى ملكية هذا الوطن : ترابه ، وتراثه ، وتاريخه ، ومستقبله . لندرك أن أصحاب هذا الكتاب .. من قسم أصول التربية .. يستحقون هم أنفسهم درسا فى التربية .. فأية تربية هذه التى تمزق الطلبة إلى مسلم ومسيحى ؟ والتى تمزق المسيحى فى موضوع الممتهن ، وماذا سيحل بنا إذا تخرج فى قسم التربية مدرسون يمتلكون (تربية) تشبه تربية أساتذتهم فيعيشون فى الوطن تمزيقا وتطرفا !

يادكتور عاطف صدقى اقرأ معى ، وانظر ماذا أوصلنا إليه ضعف حكومتك ...

« المسيحية تقوم على اليهودية ، واليهودية ليست دينا » (ص ١٥) !

« إن المسيح قد لايكون له وجود على الإطلاق » ! (ص ٨٦)

« المسيحية طعمت بالوثنية » ! (ص ١٨)

« المسيحية تأثرت فى الفكرة الإلهية بالثالوث المقدس عند قدماء المصريين وبالثالوث الهندى » ! (ص ١٩)

« بولس الرسول تظاهر بالنصرانية لتحريف المسيحية » ! (ص ١٩)

« المسيحية تم فيها عبث بشرى جعلها توليفة يهودية وثنية » ! (ص ٧٨)

وهكذا تمتد عشرات الفقرات لتتطاول على ديانات سماوية ، وكأن المسلم لايكون مسلما حقا إلا إذا أهان وامتهن الديانات الأخرى ، بينما صحيح الإسلام يقوم على الاعتراف بالديانات السماوية وعلى احترامها ...

ياحكومتنا غير العزيزة ،

الأمر جد لاهزل فيه ، فإما أن تمتلكى الحد الأدنى من القدرة على حماية أبسط حقوق المواطن فى احترام ديانته ومعتقده وهو ما يكفله له الدستور .. وإما أن ترحلى غير مأسوف عليك ، ويكفى أن التاريخ سوف يذكر لك أن حمى التطرف قد وصلت فى عهدك المدرسى والجامعى .. ورسميا وعلنا فى الطعن فى الديانات الأخرى .

وإذا كنتم لاتعرفون أن ذلك يفتح أبواب جهنم فأنتم فى سذاجة تصل إلى ماهو أفدح من السذاجة .

وإذا كنتم تتخيلون أن الأقباط سيظلون فى هذا الضغط المشين ساكتين راضين .. من لا يعجبه يحتمل ، ومن لا يحتمل يهاجر ، فأنتم جد واهمون ، ولم تتعلموا دروس التاريخ ولا دروس الحاضر فى أكثر من بقعة من العالم !![1] **(إنتهى) .**

نقول إن ماجاء فى كتاب التربية هذا ، جاء أضعافه فى كتاب « المنارة التاريخية » الذى وضعه كاتب مسيحى عندما تعرض لآثار الديانة المصرية القديمة على الأقباط كما جاءت اشارات مماثلة فى كتابات لويس عوض عن عهد النهضة فى أوروبا ، ويمكن التدليل عليه من كتابات اليهود أو الأقباط .. فمثلا « المسيحية تقوم على اليهودية » يمكن البرهنة عليها بكلام المسيح عن أنه جاء ليهدى خراف بنى إسرائيل الضالة .. « واليهودية ليست دينا » هو مايحكم به الأمر الواقع الذى وضعه اليهود أنفسهم لتحديد من هو اليهودى ، وتجعل من اليهودية شرعة عنصرية وأما آثار القديس بول على المسيحية التى جاء بها نبى الناصرة وكيفها طبقا للمفاهيم اليونانية / الرومانية السائدة فهذا مايعد من ألف باء التاريخ المسيحى[2] .. وأما ماجاء عن حدوث عبث أو تحريف فأنا أحيله على كتاب «لوثر» الذى وضعه مسيحى كاثوليكى يتحدث فيه عن عبث لوثر فى نصوص الإنجيل ... إلخ فهذا لايقال عنه «تطاول» لأنه يعالج وقائع وقضايا ويتبع مناهج وأساليب علمية .

---

(١) لقد أعماهم الله فأعادوا نشر هذا المقال البذىء والتحريض السافر فى كتاب من كتب «المواجهة» المزعومة ﴿إنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾ .

(٢) كمثال — من أمثلة لاحصر لها — انظر ماكتبه الأستاذ سلامة موسى فى كتابة «حرية الفكر» الذى أعادت طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب فى سلسلة كتب «المواجهة» وارادت بها التنوير اذ قال : والمسيح الذى كان يطلب من المسيحى أن يدخل غرفته ، ويقفل على نفسه ويصلى ، لم يفكر قط فى إنشاء كنيسة وإقامة كهنة عليها ، وإنما جاءت هذه الفكرة من بولس . فالمسيحية الفاشية الآن ومنذ القرن الأول للميلاد هى مسيحية بولس ، وليست مسيحية المسيح» (ص ٣٢) ومرة أخرى «ولما ظهرت المسيحية دخلتها طائفة كبيرة من العقائد الفاشية فى ذلك الوقت فى تلك الأديان — ومازلنا نحن المصريين نعرف فى المسيحية فكرة الثالوث الأب والابن وروح القدس ، وأنها هى الفكرة التى كانت فاشية عند المصريين باسم اورسوريس وايسيس وهورس . وقد يسر هذا التداخل على الناس الإيمان بالدين الجديد» (ص ٣٣) وتحدث فى الجزء الثانى عن الراهب الدومينيكى برونو الذى احرق سنة ١٦٠٠ لأنه كان «ينكر الإنجيل ويجاهر بعدم ربوبية المسيح» .. وتحدث عن سرفتيوس الذى أحرقه كالفين لأنه «ذهب فى أبحاثه الدينية إلى أن عقيدة التثليث عند المسيحين ، وهى أن الأب والابن وروح القدس إله واحد خطأ لا أصل له» (ص ١٤١) أما ما افاض فيه وشرحه الدكتور لويس عوض عن تأثر المسيحية بالمصرية القديمة أول ظهورها . وتأثرها خلال القرن الخامس عشر الذى أدى إلى ظهور حركة الإصلاح الدينى ، وما أخذه كالفين ولوثر من الإسلام . فيضيق عنه المجال .

التطاول الحقيقى هو ماجاء فى آخر كلمته والذى يمثل لنا أصدق تمثيل سياسة « العميل المهيج » .. فأى سفاهة وأى تحريض يمكن أن يجاوز ماجاء فى فقرته الأخيرة ؟ !

ياهـذا ...

من وكلك عن الأقباط لتتحدث باسمهم أو نيابة عنهم ، وتتنبأ بما سوف يعملون ! ؟

لحساب من تحرض الأقباط وتوغر صدورهم وتغريهم بهذا المسلك الوبيل ؟.

« حِلّ عنهم» حتى لا يحيق بهم شؤم كل دعوة تناصرها وتنفخ فيها ، فيأتيها الله من القواعد .



وفى ٢٩ أبريل ١٩٩٢ وتحت عنوان «وإنما ...» حاول أن يستعدى نقيب الصحفيين على صحيفتى النور وأكتوبر ودعا النقابة لكى تتدخل « لكى تفرض على الجميع الاحتماء بمصريتهم من أية نوازع مدمرة لوحدة الوطن وتلزم الجميع باحترام الأديان .. كل الأديان .. واحترام معتقدات المصريين ، كل المصريين ، وتمنع الأيدى المستهجنة بمصر من أن توجه سهامها إلى قلب الوطن» .

وله نقول .. ألا تكفيه قوانين «القيم» والجبهة الداخلية والسلام الاجتماعى ... إلخ وقانون حماية الوحدة الوطنية وباق ما أصدره السادات .. ولماذا إذن تضيقون بها وتدعون إلى إلغائها ، وتلصقون كل تهمة بالسادات ؟

وفى عدد ١٣ مايو ١٩٩٢ وجه رسالة طويلة للرئيس ، لانثقل على القارىء بما فيها ، وإنما ننقل له منها هذه الفقرات :

«ولعل الصراحة تكون موجعة إذ أقرر أننى وأنا المصرى المسلم استشعر فزعا من هذا التمييز فما بالنا بالمصريين الأقباط .

وآسف ياسيدى الرئيس إذ أقرر أن بعضا من هذا التمييز يأتى من جانب مؤسسة الرئاسة ولعل هذا يضفى على الأمر كله مسحة كافية من الرسمية .

فمثلا هناك تلك القصة المقيتة للخط الهمايونى الذى يتحكم فى إنشاء وإصلاح دور العبادة للأخوة الأقباط ، وهو بكل المعايير مناف للدستور وللمنطق وللحق الطبيعى

للإنسان القبطى المصرى فى أن يقيم دور عبادته على قدم المساواة مثله مثل المصرى المسلم ، وفى أحيان تخف وطأة «الهمايونى» وفى أحيان تشتد ، هذه تأتى عندما تتشدد الجهة المعنية فتقبض يدها عن اصدار الموافقات اللازمة لإصلاح الكنائس وبنائها .

ولأنك - سيدى الرئيس - رئيس لكل المصريين ، فإن أول واجباتك هو أن تعطيهم حقوقا متكافئة فى العبادة ، والأجدر هو إلغاء هذا «الهمايونى» ثم وضع قانون مصرى وأكرر مصرى أى لكل المصريين ينظم هذا الأمر .

وبرغم وضوح هذا الأمر ، وبرغم أنه يمثل جرحا غائرا لدى الأخوة الأقباط فإنه يتم تجاهله ، بما يعطى انطباعا واضحا بالتمييز والتميز .

وهناك أيضا التعيين فى المواقع القيادية والعليا - وزراء/ محافظون/ قادة عسكريون/ سفراء ... إلخ .

ولعلك تعرف - سيدى الرئيس - أن البعض يمسك بالآلة الحاسبة لكى يحسب النسبة التى غالبا ما تعطى للأقباط (صفرا) فى المائة بما يغرس فى قلوبهم ونفوسهم أنهم مواطنون من الدرجة الثانية ، ويغرس بالمقابل فى نفوس دعاة التطرف حمية المزيد من التسلط والتمييز .

وتكر المسبحة - كما يقول الأخوة الشوام - ويتوالى التمييز ويتولد معه وبه ما أسميناه فى البداية المناخ العام للتطرف .

فمناهج التعليم ، وأجهزة الإذاعة والتليفزيون والصحافة ، وحتى الصحافة القومية ، تضخ كلها رياح التفرقة والتفريق .

فهل وصل إلى مسامعك - سيدى الرئيس - أن داعية إسلاميا لايتوانى عن التهكم على الديانة المسيحية فى برامج التليفزيون ، وأن صحفا قومية تنشر شيئا مثل ذلك ؟! .

وهل تتصور سيدى الرئيس أن موظفا فى مديرية طما التعليمية تجاوز صريح القانون والتعليمات الوزارية فحرم المدرسين الأقباط من حق العبادة صباح الأحد ، بل ووقف متباهيا أمام جمع من الناس فقال : نحن (ندكن) على قرارات الوزير ولا ننفذها .. فمن أين أتته مثل هذه الشجاعة !

وهل تصدق أن أستاذا جامعيا فى المنيا لايختار لبدء امتحانات النقل إلا يوم عيد القيامة المجيد ؟

وهل علمت ياسيدى أن أحدا من هؤلاء لم يسأل لماذا فعل ذلك ؟

وهل تعرف ياسيدى الرئيس أن الأمر قد وصل بالمتطرفين أن سيطروا على نقابة الأطباء فى دورتها السابقة وأنهم غيروا القسم الذى يتلوه الطبيب عند التخرج ليصبح «قسما إسلاميا» .. بما وضع الأطباء الأقباط فى حرج أشعرهم أنهم مواطنون غير مرغوب فيهم !

بل هل تعلم إلى أى حد تجاوز المتطرفون فى قرى الصعيد كل حدود وفرضوا هناك دولتهم بلا منازع ، وفرضوا الجزية على الأقباط فدفعوها وهم صاغرين ، لأنهم لم يجدوا من يقف معهم فى وجه التطرف ...» (انتهى) .

نحن لاندافع بالطبع عن الخط الهمايونى ونرى حرية إقامة المعابد من مساجد وكنائس دون قيد .. ولكن الكلمة تشير إلى الوظائف ، فإذا كان المطلوب أن يكون للأقباط نسبة معينة تتناسب مع عددهم ، فإن هذا هو أقصى ماتريده بعض الفئات التى ترى أن الأقباط يظفرون بما يجاوز نسبتهم العددية ، وهو على كل حال «تكريس» للطائفية !

★ ★ ★

وفى كل عدد من أعداد المجلة الحمراء ، نجد تعليقا من القلم القمىء على رسالة جاءته من قبطى أو عن تصرف قام به أمين شرطة ، أو معلم أو موظف أرشيف ، فيقيم الدنيا ويقعدها .. مما يشجع آخرين على الكتابة سواء بالحق أو بالباطل مع صغير أو كبير .. أما حملاتها على «المتطرفين» فهى دائما تملأ الصفحة الأولى وتستأثر «بالمانشتات الحمراء الكبيرة» وفى سبيل الحملة على الإسلاميين وتلويث صفحتهم تستكتب مجلتهم بعض الضباط الملوثة أيديهم بدماء التعذيب وتطلق عليهم «مستشارى أمن» .. وآخر إنجازاتها فى النصف الثانى من نوفمبر ١٩٩٣ أنها كتبت فى الصفحة الأولى نبأ مكالمة تليفونية خاصة بين أحد مسئولى لجان الامتحان وأستاذ جامعى عن حرمان قبطى مراقبة الامتحانات وجعلت منها قضية قومية كبرى تشبع فيها لطما وندبا وتطالب الوزير بالرد ، فإذا رد ترد على الرد !

إن هذه المجلة وأمثالها يقترفون جناية كبرى فى حق هذه البلاد ، ويبلغون فى هذا مالا يمكن أن تبلغه إسرائيل نفسها ، لأنهم يعملون فى الداخل ، وتحت ستار «الوحدة القومية» المدعاة ، كما أنها تضخم الشائعات وتضرم التطلعات وتعمق الخصيصة الفئوية

لدى الأقباط وتغرس الازدواجية فى المجتمع المصرى ، وكانت من أكبر عوامل التحول من الموضوع إلى الذات .

والنقطة التى ترددها صحيفة الإثارة والفتنة ، وهى كتابات بعض المسلمين عن المسيحية تدخل فى إطار حرية الفكر ، والبحث ، وإبداء الرأى وهى حرية مقدسة دعونا إليها فى القسم الأول من هذا الكتاب فى مواجهة الحصانات التى يريد السدنة — شيوخا أو قساوسة — أن يعطوها لمعتقداتهم وقد تكون الدراسة الموضوعية شيئاً ، والجدل شىء آخر .. والجدل بصفة عامة مذموم فى القرآن مالم يدفعه استثناء وهو يؤثر عدم الجدال فى الأديان ويضع آدابا وتوجيهات فى هذا كما توضحها الآيات التالية :

— ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، **إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ .

(النحل ١٢٥)

— ﴿ **ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا ، وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون** ﴾ . (العنكبوت ٤٦)

— ﴿ **وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ، الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون** ﴾ (الحج ٦٨ ، ٦٩)

ولدى معظم الناس حساسية بالنسبة للذين يكتبون عن دين ما ، من غير أصحاب هذا الدين . فكثير من المسلمين يتهمون المستشرقين عندما يكتبون عن الإسلام ، وكثير من المسيحيين يتهمون المسلمين عندما يكتبون عن المسيحية وهذه الحساسية لا أساس لها ، فإنما يكون الحكم **للمقولة** وليس للقائل !

وعلينا — مسلمين وأقباط — أن نتقبل بصدر رحب الآراء عن الأديان التى تختلف عما نعتقده ، مادام أصحابها يلتزمون مبادىء الحوار وقواعد البحث . وقد يكون هذا خيرا لنا ، ويمكننا إذا أردنا الرد بمثل هذا المنهج ، وفيما نرى ، فإن هذا وذاك يثريان العقيدة لا يضيرانها .

ولا يخلو الحال من عدد من الحمقى من المعسكرين يسيئون القول وهم لايستحقون أهمية ، وخير ما يتبع نحوهم هو توجيه القرآن : ﴿ **وإذا مروا باللغو ، مروا كراما** ﴾ !

نحــو الحــل :

نتيجة للعوامل السابقة ، أعنى سياسة الأنبا شنودة ، وظهور الاتجاه الدنيوى فى الكنيسة ، والاتجاهات المتشددة لبعض التيارات الإسلامية ، واغتراب المثقفين الأقباط بحكم ثقافاتهم الاجنبية عن الإسلام ، وتمويهات العملاء المهيجين ، واللبس التاريخى الذى جعل الأقباط يظنون أن الإسلام انتزع مصر من الحكم القبطى والسيادة القبطية .

كل هذا أوجد مناخا سيئا باء بإثمه الأقباط بالدرجة الأولى ، وإن عاد بالضرر على البلاد كلها .

وفاقم فى ذلك السياسات الخاطئة للحكم فى مصر من ١٩٥٢ .. فعبد الناصر أعلنها شعواء على الإسلام وتبنى الاشتراكية العلمية ، أو بالتعبير المعروف الماركسية .. وحاول أن يستأصل أكبر هيئة إسلامية فى العصر الحديث .. فلما جاء السادات عكس الآية ، لا إيمانا منه بالإسلام ، ولكن مقاومة لخصومه السياسيين الشيوعيين والناصريين ، وعندما ظهرت الثمار المرة لهذا التخبط ، ارتفعت الدعوة عالية لتوحيد «عنصرى الأمة» وعاد الحديث الممل عن (الهلال والصليب) ، (الجامع والكنيسة) ، (الشيخ والقسيس) !!

وليس هذا علاجا ، إنه تضخيم للمشكلة وغرس للازدواجية وهو يغذى تصور غلاة القبط وغلاة المسلمين الذين يريدون للأقباط وجودا مستقلا ، الأولون يطالبون بمزيد من الحقوق له والآخرون يرون أنه جاوز مايستحقه ، وإذا سمح لهذا التيار بأن يسير إلى غايته فسينتهى الأمر بأن يكون القبط «أقلية» لها وضع وحدود وحقوق الأقليات وسيخسرون كثيرا ، ولن يسعد به إلا الذين يفضلون أن يأكلوا طبيخهم الفاسد ، ولو أضر بصحتهم ، على أن يتخلصوا منه .. وهم للأسف كثيرون !

ولكن من حسن الحظ أن هناك حلا أفضل بكثير من هذا المصير السيئ يحقق للأقباط الاندماج فى المجتمع المصرى والوصول إلى أعلى المناصب ويحسم شأفة الحساسيات .. وهو حل ينطبق عليه القول :

«بالسير الطويل ، انتهينا الى الطريق القصير !»

يبدأ هذا الحل بمسلّمة هى أن الإسلام والمسيحية – وإن اختلفا فى التفاصيل – فإنهما يتفقان فى الأهداف العليا . . .

وحتى القضية الشائكة ، قضية وحدة الله .. فإن الأقباط يبدأون «باسم الله الواحد ...» .

ويرى الإسلام أن المسيح لم يصلب وإنما رفع إلى السماء إكراما له ، وبصرف النظر عن أن هذا كان رأى لفيف من الأقباط القدامى على ما أشرنا فى نبذة «اللبس التاريخى» ، فإن الرأى المقرر فى المسيحية أنه صلب فداء للبشر .. إكراما له أيضا ...

ويرى الإسلام شخصية المسئولية ، وأنه لاتزر وازرة وزر أخرى ، وترى المسيحية أن فى صلب المسيح فداء من الخطيئة الأصلية .

وهذه التصورات كلها تقوم على منطق وتستند إلى فكر .. وهناك اختلاف بينها ، ولكن الاختلاف لايعنى التناقض ، فلا يمكن أن يقال إن الرحمة حسنة ، والعدل سيء ، رغم أن منطقهما مختلف .. فالرحمة فضيلة ، والعدل فضيلة أيضا .. وللحقيقة أبعاد كثيرة قد تختلف ، ولكنها تعود إليها .

والأديان كلها تدور حول محور واحد هو وجود إله حكيم خالق هو مصدر القيم ، والحقيقة ، والمثل العليا .. والتوجيه الرئيسى للأديان جميعا هو حسن الخلق وسلامة القلب ، وطيب المعاملة .

والإسلام والمسيحية فى هذا سواء ...

فى مواجهة الأديان نجد دعوات لاتؤمن أصلا بالقيم المعنوية أو الروحية ، أو ترى فيها «بناء فوقيا» للعلاقات الإنتاجية أو قناعا للنفاق الاجتماعى ...

وهناك نظريات تقوم على مراكمة الثروة واكتساب الجاه والاستمتاع بالحياة ...

وهناك أفكار عنصرية تؤمن أن عنصرا بعينه أفضل من العناصر الأخرى وله حق السيادة عليها !

وهناك دعوات «شوفونية» وطنية أو قومية مغرقة ، ترى أن وطنها فوق الجميع !

وهناك فلسفات تقوم على الصراع ، وتمجد القوة ، وتزدرى الرحمة !

هذه الفلسفات والنظريات تعادى الأديان ، وهى التى يجب أن يتضافر أهل الأديان جميعا لمقاومتها ، لأنها لاتفرق بين إسلام ومسيحية .

ومن المفارقات أن يكون أحد المسيحيين أقرب إلى الشيوعية منه إلى الإسلام ..

إذ الإسلام أقرب إلى المسيحية من الشيوعية .. بل إننا نرى أن الإسلام أقرب إلى القبطية من القبطية إلى المسيحية الأوروبية .. لأن المسيحية الأوروبية تأثرت بالوثنية الأوروبية ، فى حين أن القبطية عايشت الإسلام وهو دين سماوى .

وإذا نظرنا إلى الكتب المقدسة فى المسيحية والإسلام فلا نرى فى احدها طعنا فى الآخر .

لم يتحدث الإنجيل عن الإسلام ، وإذا كان هناك من يرى أنه بشر بالإسلام ، فمن المقطوع به أنه لم يندد بالإسلام .

وبالتالى فإن كل ما يقوله مسيحيون عن الإسلام فإنما يضعونه على لسان المسيح ، دون أن ينطق به المسيح ، والمسيحية الحقة براء منه .

أما الإسلام ، فالقرآن واضح وصريح وهو يوجب على المسلمين الإيمان بكل الرسل (لا نفرق بين أحد منهم) والسيد المسيح هو رسول من أولى العزم ، والسيدة مريم صديقة وسيدة نساء العالمين .

وأحاديث الرسول عن الدين وأنه بناء واحد وجد فيه ثغرة جاء الإسلام ليسدها ، وعن الأنبياء كأخوة ، وعن المسيح كأقرب الأنبياء إلى الرسول ، معروفة .. وقد نهى الرسول عن أن يفضله أحد على بقية الأنبياء ، وهو يطبق فى هذا أدب القرآن ﴿ **لانفرق بين أحد منهم** ﴾ .

وهو ينهى عن الجدال ويقول : ﴿ **وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه** ﴾ (المائدة ٤٧) . ﴿ **وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله** ﴾ (المائدة ٤٣) . ﴿**ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء مايعملون** ﴾ (المائدة ٦٦ المائدة)- ﴿ **قل ياأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل** ﴾ (المائدة ٦٨) .

فلنكن أمناء ، ونعترف أن الإسلام والمسيحية بريئان من كل ماينسب إليهما ، أو يقال فيهما من عداوة ، وأن العداوة إنما جاءت من «الرجال» ، من المؤسسة ، من سوء الفهم ، من العوامل العديدة التى تنحرف بالناس من الموضوع إلى الذات .

ولا نبرىء المسلمين من هذا الانحراف ، ولكن الحقيقة أن المسلمين هم أقل أهل الأديان حساسية بالنسبة للأديان الأخرى وقد يكون مرجع ذلك ماقرره القرآن من

الإيمان بالأديان الأخرى .. ولم يشذ عن هذا الخط ، سوى تلك المجموعات الشاردة التى ظهرت أخيرا ، وكان أول ضحاياها شيخ جليل من شيوخ الأزهر !

أما الأقباط فليس الذى يؤخذ عليهم هو «العداء» للإسلام ، ولكن السلبية إزاءه .

إن الموقف الموضوعى الأمثل يملى أن نقف جميعا مع الحقيقة ، كل الحقيقة . والإنصاف والعدالة يوجبان علينا الأعتراف بها .

والموقف السلبى يحيف على الحقيقة ، أو يتجاهلها ، ومن أجل ذلك قيل ان الساكت عن الحق شيطان أخرس .

ونجد الألوف ، أو حتى المئات الألوف من المسلمين يزجون المديح للسيد المسيح ، ويتحدثون عنه بإيمان وإخلاص وتقدير وحب ، ويسمون أبناءهم باسمه ، وبناتهم باسم «مريم» ولايخطر ببالهم أى حساسية نحو ذلك .

ولكن كم من الأقباط يتحدثون عن «محمد» وعن الإسلام كما يتحدث المسلمون عن السيد المسيح والمسيحية ؟

كاتب واحد ، وقيل إنه تعرض لمتاعب من الكنيسة فى حياته ، وعند وفاته[(١)] .

كم من الأقباط يسمى ابنه محمداً وابنته فاطمة .؟ لا أحد[(٢)] .

إن «محمداً» ليس فحسب أنجح الأنبياء وأعظمهم ، ولكنه أيضا سيد العرب جميعا ، وكل من يتكلم بلفظة عربية مدين له ، وهو مؤسس الأمة العربية ، ولن يزيده اعتراف المعترفين ، ولن يخسره تجاهل المتجاهلين ، ولكن سيكسب المعترفون أنهم يكونون فى عداد المنصفين الذين يعترفون بالحقيقة .

إن كل المنصفين من الكتاب الأوروبيين اعترفوا بعظمته وبما قدمه للبشرية .. ومن المفارقات أن يعترف بذلك أوروبيون ، ويسكت عنه مصريون !

---

(١) هو الدكتور نظمى لوقا رحمه الله . وقد ذكرت لنا فيما ذكر كتابات ممتازة بوجه خاصة للدكتور وليم قلادة والأستاذ إدوار غالى الذهبى وغيرهما مما لم تتح لنا مطالعتها ويلحظ أن المسيحيين فى لبنان كانوا أكثر تقديراً للإسلام فكتب ميشيل عفلق عن الرسول ووضع جورجى جردان ستة مجلدات عن علىّ بن أبى طالب وتحدث الرياشى عن الرسول وعمر . وكتب الدكتور فيكتور سحاب عن أثر القرآن الكريم فى حفظ الموسيقى الشرقية ، وأن التجويد هو أصل التلحين ، أما كتابات جورجى زيدان الإسلامية ، فأشهر من أن تذكر .

(٢) باستثناء ميشيل عفلق ، الذى سمى أبنه باسم محمد . ولكن ميشيل عفلق ليس من الأقباط المصريين .

الغريب أننا قد نجد بعض كلمات عامة يزجيها أقباط مجاملة للإسلام ، واعترافا ببعض جوانبه السمحة المشرفة .. ولكننا قلما نظفر بكلمة واحدة عن الرسول .

إننا لانعدم من الأقباط من تحدث ، وكتب ، وألف عن ماركس وهيجيل ونابليون وفولتير الخ .. فهل محمد أقل من هؤلاء ، أو أبعد عن هؤلاء الكتاب منهم ؟

أننى أترك للأقباط أنفسهم أن يفكروا فى هذه الظاهرة ...

★ ★ ★

إننا فى مقدمة هذه النبذة «حاجز الدين» قلنا إن ما يشجعنا على المعالجة الكاملة للقضية أننا نريد أن نجد للأقباط حلا ، بحيث يمكنهم المشاركة الإيجابية فى سياسات البلاد ، دون حساسيات .

هناك جوانب عديدة ، بعضها واضح ومسلم به ، وبعضها الآخر يحتاج الى توضيح ...

من الجوانب الواضحة والمسلم بها أن مصر بلد الإيمان ، سواء كان اسلاما أو مسيحية ، وأن الأغلبية الكاسحة لشعبها يعتنق الإسلام منذ ألف وخمسمائة سنة .. ومعلوم بالطبع أن الإسلام يضع خطوطا عريضة ولكنها مؤكدة عن الأقتصاد والسياسة بحيث لايعد المجتمع مسلما بدونها .

ومن الجوانب المسلم بها أيضا أن فى مصر أقلية قبطية وأنها جزء لا يتجزأ من شعب مصر ، وأنها بهذا الحق ، وبحكم المبادىء الإسلامية أيضا لها الحرية الكاملة فى الاعتقاد وممارسة مقتضيات الاعتقاد والإيمان .

لا خلاف على هذين ...

ولكن هناك جوانب أخرى تحتاج الى ايضاح منها مساهمة الأقباط فى وضع السياسات والخطط الخاصة بحاضر البلاد ومستقبلها .

وليس هناك قيد على أى مصرى فى المشاركة ...

ولكن هذه المشاركة تصطدم بحقيقة ، هى أن الإسلام – كما ذكرنا – وضع خطوطا عريضة فى الاقتصاد والسياسة ، ولم تضع المسيحية مثل هذه الخطوط ، ولو أنها وضعت لما اختلفت ، فما من أحد يزعم أن المسيحية تدعو إلى الربا أو تقبل الظلم ، أو ترحب بالإباحية وإشاعة الفواحش .

فما هو موقف الأقباط مما يضعه الإسلام من قوانين عن السرقة أو الربا . . . الخ ؟

ان مساهمة الأقباط ستتحدد بدرجة تجاوبهم مع الخط الإسلامى . . فإذا لم يكن هناك تجاوب فهى السلبية ، وإذا كان هناك معارضة – على أساس مسيحى – فهى تكريس الصفة الفئوية للأقباط .

وكان يمكن للأقباط فى مثل هذه الحالات أن يقولوا نحن مع إخواننا المسلمين .

فيكسبون المسلمين ، ويكسبون الحقيقة ، ولن يخسروا شيئا (لأنهم أقلية لايمكن أن تقف أمام الأكثرية طبقا للأصول الديمقراطية) .

ولكنهم لايفعلون ، لأن هناك رواسب نفسية عميقة تمنعهم من هذا .

ويظهر أثر هذه الرواسب فى أن يرى الأقباط أن كل مدح فى الإسلام يعنى غضا من المسيحية ، وأن كل كسب للإسلام يكون على حساب المسيحية وقد لا يخلص من هذا الأثر كثير من المسيحيين النابهين الذين يعملون فى التقريب بين المسلمين والأقباط .

ففى كلمة للأب أنسطانس غبريال فى جريدة الشعب (١٧ سبتمبر ٩٣) جاء : «بل ماهو أكثر من ذلك ، فمحاضر اجتماعات مجلس الشعب منذ عهد ليس ببعيد انتهت الى زيادة الجرعة الدينية الإسلامية فى التليفزيون واقترح انشاء جامعة للقرآن ، **حتى كاد القبطى يستشعر بأن الوطن لم يعد له ، بل للمسلمين . . .»**![(١)] .

وهذه الفقرة تمثل تمام التمثيل أثر الرواسب القديمة ، سلبا وإيجابا !

وكما قلنا من قبل ، فما من أحد يرغم الأقباط على الإيمان بشىء ، ولكن القضية أنهم يودون المساهمة بقوة ، وعلى قدم المساواة ، ولأبد فى مثل هذه المساهمة من المشاركة الوجدانية .

إن البديل الوحيد الذى قد يراه بعض الأقباط هو التضحية بالقيم الدينية كلها – مسيحية وإسلامية – وإقامة المجتمع على أساس «علمانى» مدنى يدور حول المصلحة –

---

(١) جريدة الشعب ١٧ سبتمبر ٩٣ ص . وقد عقب الأستاذ مجدى أحمد حسين فى نفس العدد ورد رداً قوياً . ورد الأب انسطاس فى عدد تال على الرد .

كالمجتمع الأوروبى . وبهذا يخلصون من الإسلام ولو ضحوا فى سبيل ذلك بالمسيحية أيضاً أخذاً بمنطق :

«اقتلانى ومالكــا
واقتلا مالكا معى !!»

ولكن المسيحية أعز على الأقباط من أن يقبلوا التضحية بها ، ولو بالثمن المرموق : التخلص من الإسلام !

وأهم من هذا أن المجتمع المدنى قد يخسرهم حقوقاً يتمتعون بها فى المجتمع الإسلامى ، لأنه سيضعهم تحت رحمة الأغلبية النزقة .

والمسلمون أيضا سيرفضون فهى صفقة خاسرة ...

* * *

ومن المعالجات الخاطئة – التى تنتهى إلى هذه النتيجة نفسها – مانشرته مجلة الأهالى يوم ١٩٩٣/١٢/٢٩ ص ١٢ بقلم الدكتور عبد القادر خليف «أمين لجنة الوحدة الوطنية بأسيوط» تحت عنوان «فى جذور الإرهاب والتطرف والتعصب» والكاتب يبدأ من مقولة هى وجود صور شائنة لماسماه التطرف الإسلامى والتعصب القبطى . وقد دلل على وجودهما بوقائع لمسها هو نفسه وحققها خلال حياته الوظيفية الطويلة كمدير لمستشفيات جامعة أسيوط وكأستاذ جامعى منها ماقاله له صديق قبطى من أنه لا يوجد قبطى واحد يرحب بجلاء الإنجليز «لأننا لاننسى عدوان الأخوان المسلمين على كنائسنا» ومنها إنكار طبيب قبطى مسئول عن وحدة نقل الدم بالمستشفى وجود دم لمريض مسلم كما قام طبيب مسلم بنفس التصرف حين كانت حاجة الدم لمريض قبطى . كما أنه أوضح لطلبته أسباب التمييز فى كليات الطب بأن الأطباء الإنجليز – فى فترة الاستعمار – قربوا الأطباء الأقباط ومنحوهم الأستاذية ، ليكيدوا المسلمين وليفرقوا وحدة الأمة . «وأذاق هؤلاء الأساتذة الأقباط زملاءهم المسلمين العذاب والمهانة مما دعا فى مستقبل لاحق إلى الرد بتعصب الأغلبية ، وتفاقم التعصب بين الجانبين يصبح إحدى السمات الكئيبة لكليات الطب فى مصر» .

وليست هذه هى كل الحالات ، ولكنها أهمها ، ومنها انتهى الكاتب إلى وجود تطرف إسلامى .. وتعصب قبطى ..

ومن هذه «الأرضية» انتقل لمحاولة العلاج ولما كانت تجارب الحياة قد علمته أن اتخاذ القرار السليم فى المشاكل الصعبة يحتاج لأن يضع نفسه موضع الغير صاحب المشكلة «أرى بعينه ، وأفكر بعقله ، وأحس بقلبه» فقد وضع نفسه مرة موضع المتطرفين الإسلاميين والمنطق الذى يحكمهم ، ووضع نفسه مرة أخرى موضع المتعصبين الأقباط ومايحسونه ويستشعرونه . . ووجد نفسه فى الحالين أمام باب مسدود لا انفتاح له . .

ولما كان يخاف أن ينتهى هذا إلى صدام ، تصبح مأساة لبنان بجانبه كلعبة أطفال ، فإنه انتهى إلى هذه النتيجة :

«اقتلاع المشكلة من جذورها فى حسم لاسبيل فيه إلى أى تردد ، وذلك بتنحية الدين عن حركة المجتمع ليصبح الدين لله والوطن للجميع قولاً وفعلاً . وليكن ذلك هو شعار الدولة وأساس دستورها – دولة تؤمن بالله وترعى العقائد الدينية (!) وحرية ممارستها للجميع . والتخلى عن الموقف الغامض بأن تعلن رسميا بأن تطبيق الشريعة الإسلامية السلفية غير ممكن لعدم ملاءمته لظروف المجتمع والناس كما تعلن عن فصل الدين عن الدولة كما فعلت أمم الغرب فى القرن السادس عشر لتتخذ من ذلك الموقف طريقها نحو التقدم والتحضر .

ويبقى للدين طريقان : الإيمان والفطرة ، وللدولة طريقها : العلم والعقل والسعى بلا هوادة لإصلاح وتعديل المسارات التى اختلت بالتعصب فى جميع المجالات فى إدراك عميق ومسئول بأننا نواجه مسئولية مصير ، أن نكون أو لا نكون» انتهى .

ونحن نشكر للكاتب صراحته وواقعيته وإيراده لوقائع يتجاهلها أو ينكرها البعض ، ولكننا نقول إن النتيجة التى انتهى إليها نتيجة خاطئة تماماً لأنها بنيت على وقائع ، وإن كانت موجودة ، إلا أنها تمثل انحرافاً ولا يمكن أن نبنى أوضاعنا على التسليم للانحراف ، وإنما المفروض أن نبحث عن سبب هذا الانحراف ونعالجه ، أما أن نسلم به ، أو نتجاهله ، وأسوأ منه أن نبنى أوضاعنا على وجوده ، فهذا خطأ فادح ، وأسوأ منه أن نتصور أننا وقد سلمنا به ، فاننا سنتمكن أن نقتلعه . . فهذا عبث . .

إن وجود التعصب القبطى والتطرف الإسلامى إنما يعود إلى أسباب من سوء الفهم أو غلبة المصالح أو استغلال الفساد المستشرى إلخ . . وهذه الأسباب هى التى يجب أن تعالج ومعالجتها هى التى ستقتلع جذور المشكلة ، ولكن التسليم بها سمح بأن تستشرى وتهدم كل مابنيناه . .

إن فكرة أن يضع الإنسان نفسه موضع الطرف الآخر ، إنما يراد بها التعرف على نفسيته والعوامل التى دفعته لما انساق فيه ، بهدف معالجته ، أما أن نقف أنفسنا

موقفه لنسلم له فهذا يكون كمن أراد معالجة ظاهرة تفشى السرقة ، فيضع نفسه موضع السارق ليعرف الأسباب التى دفعته للسرقة ، وهل هى الحاجة ، أو البطالة ، أو الاحتجاج على التفارق الطبقى مابين أغلبية جائعة وأقلية متخمة . ويكون الإجراء التالى هو معالجة الأسباب . أما الموقف الذى اتخذه الكاتب فهو كمن يقول إن السارق معذور ، وكان لابد أن يسرق وعلينا أن نسلم بذلك ونتقبله .

وافتراض أن تكون مصر كلبنان قياس ركيك وسخيف ومن الخطأ البالغ التلويح به لأن المارونيين فى لبنان يقاربون عدداً الطوائف الإسلامية ، ويتخذون اللغة الفرنسية وثقافتها ويلوذون بحماية فرنسا إلخ .. وهذه فروق لاتوجد لدى الأقلية القبطية التى لم تنكر انتماءها المصرى ، ولاتسمح لها نسبتها العددية بأن تكون عنصراً مرجحاً ، أو حتى مؤثراً ، فلاداعى للتخويف والتزييف ومن الخطأ أيضاً قياس مافعلته أوروبا من الفصلَ مابين الدين والدولة على مصر ، لأن الهدف الأول لذلك كان درأ تدخل الكنيسة والإسلام لايعرف الكنيسة ..

والمقال فى جملته يصور المأزق الذى يقع فيه الكاتب عندما يعالج المشكلة معالجة ظاهرية وسطحية لعدم توفر المعرفة بالأسباب العميقة ، وبطرق علاجها ويبرز خطورة أن تعالج هذا الموضوع الحيوى صحف لها اتجاه معين كالأهالى ، أو كتاب أو صحفيون لايلمون بكل أبعاد الموضوع ، ولا اعماقه ولايتوفر لهم النضج الضرورى عند معالجة هذه القضية .

فإذا كانت القضية قضية حرية ، فالأبواب مفتوحة ...

وإذا كانت القضية قضية ديمقراطية فلتؤخذ الأصوات ..

ولكن الأقباط يريدون – كشرط لمساهمتهم – أن يتجرد المسلمون من الخطوط التى وضعها الإسلام[1] ، والتى تعد جزءا من إسلامهم ، وهذا أمر مرفوض وهو يشبه أن يطالب أحد المسلمين المسيحيين بالتخلى عن شيء من معتقداته .

---

(١) ليس من هذه الخطوط الحديث عن «الجزية» أو «أهل الذمة» فهذه أوضاع تاريخية بنت وقتها ، وكان الإسلام فيها متقدما على زمنه ، ولكنها الآن من حديث الماضى والذين يتكلمون عنها يعيشون فى متحف التاريخ ويتجاهلون التطور والإسلام «تقدمى» دائما لأنه يطلب الحكمة أينما كانت ، ولأن كل مايقضى به العقل يقضى به الشرع .

إن هذا ليس من الديمقراطية ، أو الحرية ، أو الحفاظ على وحدة الأمة أو القول أن الأقباط جزء لايتجزأ من شعب مصر .

إن هذا الموقف يهدم كل ما يدعيه الأقباط ، ويثبت أنهم يعالجون القضية العامة كأقباط ، لا كمصريين ، ويرون أن تمسك المسلمين بالخطوط التى وضعها الإسلام يستتبع تلقائيا المعارضة .

وليس هناك ماهو أقبح من هذا التصور . . .

إنه تصور الصليبيين القدامى الجهلة !

إنها «الغيرة» التى تخرب البيوت ، وتتغذى على لحوم البشر ، على مايقول شكسبير .

★ ★ ★

قد يقول قائلهم : هل تريدون أن ننصاع لأحكام الإسلام قسرا ؟

نقول لهم إن قسمة الأقلية هى أن تنصاع للأغلبية ، ما من مفر من هذا لأنه حكم المنطق . . ومن حسن حظ الأقباط أن الإسلام يكفل لهم حقوقا لايجوز للأغلبية المساس بها حتى لو أرادت وهم فى هذا أسعد حظا من الأقليات الإسلامية فى الدول المسيحية التى تجرى عليها أحكام وقوانين الأغلبية ، وليس لهم حرية بالنسبة للزواج والطلاق أو الميراث ، أو حتى حماية الإسلام ، لأن الحماية مقصورة على المسيحية واليهودية فقط !

القضية فى الحقيقة أعمق من أغلبية وأقلية . . .

فكما أثبتنا فى فقرة «اللبس التاريخى» أن الوجود القبطى لا يمكن أن يقارن بالوجود الإسلامى ، لا من ناحية المدة ، ولا من ناحية العدد ، ولا من ناحية الشمول . . فالقبطية فى مصر تعرضت لاضطهاد وصراع استمر طوال القرون الستة من ظهور المسيحية حتى الفتح الإسلامى ، ولم يقدر لهم الحكم والسيادة طوالها ، كما أن المسيحية كدين ، وإن لم يكن هناك شك فى عمق الإيمان بها ، إلا أنها هى نفسها لاتغطى المجالات الأقتصادية والسياسية والاجتماعية ، أو على الأقل ليس كما يغطيها الإسلام – على حين أن الإسلام أمضى خمسة عشر قرنا فى مصر ، ويمثل أغلبية الشعب ، ويغطى مجالات الحياة . ومطلب الأقباط أن يكون هناك «وجود» قبطىّ لابد وأن يحكم بهذه الحقائق التاريخية . . .

على أن هناك ماهو أفضل من هذا كله ...

ذلك أن يستلهم الأقباط روح المسيحية ، وروح المسيحية هو «الحب» أن نحب العدو ، وأن نحب الجار ، ووصل بها هذا المعنى درجة قالت «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر !» .

وفي الإسلام أيضا ظهر من قال :

أدين بدين الحب أنَّا توجهت
ركائبه فالحب دينى وايمانى

فلماذا لاندع الحب يقودنا ؟

لماذا لانستمع إلى دعوة القرآن التى تسعنا جميعا .

﴿ قل ياأهل الكتاب : تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله — ولا نشرك به شيئاً ولايتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله﴾ .. (آل عمران ٦٤) .

لماذا لا يتجاوب أقباط مصر مع تقدير القرآن لهم .

﴿ .. ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا ، الذين قالوا إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون ﴾ إن هذه الصفات : أن يكون منهم قسسين ورهبانا ، وأنهم لا يستكبرون إنما تنطبق أكثر ما تنطبق على أقباط مصر الذين وضعوا أسس الرهبانية ، وكان من أصول ما وضعها القسيسون المصريون «أنهم لا يستكبرون» .

إن القرآن الذى يرى أن **﴿ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ﴾** هو نفسه الذى يقول عنهم : **﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير ، فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾** . (آل عمران ١١٣ — ١١٥)

فإذا كان هذا هو تقدير القرآن لفريق من اليهود فماذا عسى أن يكون تقديره للذين قال عنهم إنهم أقربهم مودة للذين أمنوا ..

لماذا ندع وجوه الاختلاف مابين المسيحية والإسلام تفرقنا ، ولاندع وجوه الائتلاف تجمعنا ؟

إن وجوه الاختلاف جزئية ، طقوسية .. بينما وجوه الائتلاف أساسية جوهرية .

ونحن بعد ، فى وطن واحد ...

تجمعنا أرض واحدة ، وتظللنا سماء واحدة ...

إننا نقرأ فى الكتابات الأوروبية تعبير (اليهودية / المسيحية) كأساس لحضارتهم ، فإذا كانوا قد قرنوا اليهودية بالمسيحية – رغم ما بينهما من تعارض – أفلا يسعنا أن نجمع مابين المسيحية والإسلام ؟

ولماذا لانرى أن تعدد الأديان أمر أراده الله ، ولو شاء لجمعهم على دين واحد ، وهو معنى متكرر فى القرآن .. وأنه بالتالى الأمر الطبيعى الذى لايستتبع التزام عاطفة معينة نحو أصحاب الأديان الأخرى .

إننى أقرر أن من أعز أصدقائى زوجين من المسيحيين ، رأيت فيهما مالم أر فى الآخرين من المحبة الخالصة والإعزاز القلبى والرغبة فى مساعدتى فى نشاطى الإسلامى ، مما جعلنى اعتبرهما أخوين لى ، ولم يؤثر أبدا فينا اختلاف الأديان !

* * *

إننا أخيراً نقول لإخواننا الأقباط ..

☐ عندما يرتفع الأقباط فوق مستوى الفئوية وحساسياتها ومطامعها ويستلهمون روح المسيحية «الحب» ...

☐ وعندما يتعلم الأقباط وقائع التاريخ وحقائق المجتمع التى تضعهم مكانهم فى المجتمع المصرى وتحدد لهم الحقوق والواجبات ...

☐ وعندما يؤمن السياسيون الأقباط بما أمن به مكرم عبيد «أنا قبطى ديناً ومسلم وطناً» ويكتبون – كما كان يكتب فى مربع الكتلة «اللهم إنا نصارى لك .. ومسلمين لمصر[1]» ..

☐ وعندما تتحول المعارضة الرشيدة التى ترفض أن تدور الكنيسة المصرية حول

---

(١) بالمعنى ، لأن النص الحرفى هو مالم تحتفظ به الذاكرة .

المطامع والتطلعات الدنيوية ، ولاتجد من ينشر لها سوى «الشعب» أو تقوم بطبع كتبها على حسابها .. فتصبح هى الأغلبية .. وهى صوت كنيسة مصر ...

☐ وعندما يظهر عشرون أو خمسون كاتباً قبطيا مثل نظمى لوقا يكتبون عن الإسلام ، وعن نبى الإسلام بعاطفة وإنصاف ...

عندئذ يمكن أن يوجد رئيس وزارة قبطى دون حساسية من المسلمين ، ويمكن أن ينصهر الأقباط فى المجتمع المصرى/ الإسلامى الذى يدور على محور القيم الحضارية الإسلامية بلا حساسيات أو فتويات ولكن مجتمعا مصرياً واحداً : إسلامى الهوية ، متعدد الديانة ..

* * *

(د) سلطان الهوى :

قد يتصور البعض أنه مما لايتناسب مع كتاب علمى أن ندخل حكم الهوى بين العوامل التى تنحرف بأدعياء التنوير من الموضوع إلى الذات ، ولكن علينا أن نعترف أننا – ككائنات بشرية – يحدث كثيرا ، أن يغلبنا الضعف والهوى على أمرنا .. ونحن بعد أبناء آدم الذى ﴿**نسى ولم نجد له عزما**﴾ و ﴿**عصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى**﴾ .. وقد أشار القرآن فى آيات أخرى عديدة إلى أثر الهوى على النفوس .. وحذر الرسول من أن يتبع «أهواءهم» ونص على أن اتباع الهوى من أكبر أسباب الانحراف والضلال .. وصور القرآن الكريم فى آية بلغت الغاية من الإعجاز قوة الهوى الطاغية التى تستبد بالإنسان فتجعله عبدا لها ، وتعميه عن أى شىء آخر ، فلا يفيد معه علم ، أو بصر ، أو أذن .. ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون** ﴾ .

وحقيقة الحال أنه اذا لم تكبح النفس الإنسانية قيم ومبادىء أكبر وأعظم من هواها ، فلا شىء يمكن أن يقف أمام الهوى إلا الحدود المادية ولا يمكن أن نجد المبادىء التى هى أكبر من الهوى إلا فى الأديان ، لأن كل القيم والمبادىء الأخرى التى يصنعها الإنسان لابد وأن تكون مشوبة بالهوى نفسه ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يتحرر من ذاته وأعماقه ، ولأن مرد هذه القيم المجتمع ، والمجتمع فى حد ذاته أو وحده ليس لديه الموازين

الموضوعية (فليس المجتمع سوى تجمع الآحاد) ومن هنا يصبح حكم الهوى أو ما تهوى الأنفس هى الوجهة التى تتجه إليها «البوصلة» ونجد النظم والقوانين وهى مبطنة بحكم الهوى !

وقد تقبل المجتمع الأوروبى نظرية فرويد عن هيمنة الغريزة الجنسية على الإنسان ، وأن آثار هذه الهيمنة تمتد إلى كل تصرفات الفرد ، كما تتجلى فى الفنون والآداب التى هى التعبير العاطفى للمجتمع .. نقول تقبلها لأنه وجد فيها التنظير «العلمى» لاتجاه فرض نفسه على المجتمع وأصبح أمرا مقضيا .

وقد لمسنا بأنفسنا قوة وتأثير الهوى على كثير من أدعياء التنوير .. وفى السودان عندما وضعت مشروعات قوانين الشريعة ، كان الهم الأول للذين ألفوا الشراب هو ماجاء خاصا بالخمر وتحريمها والعقوبة عليها ، فهذا وحده كان موضوع اهتمامهم !

وكان مما ضاعف من أثر هذا العامل أنهم تصوروا أن تطبيق الشريعة سيجعل حياتهم جحيما .. فلا شراب ، ولا قمار ، ولا سهر ولا سمر ، ولا ملاهى ليلية ، ولا كباريهات ، ولا مسارح ... إلخ .

فأين اذن ، وكيف يمكنهم أن يستمتعوا بوقتهم .. وإذا كان دعاة الشريعة يبدأون - بالنسبة للمرأة - من الحجاب هادفين إلى النقاب ، فكيف يمكنهم أن يعيشوا فى مجتمع الأشباح السوداء الكئيبة هذه ؟!

لاجدال فى أن المثل الإسلامى الأعلى لا يقر كثيرا من الموبقات التى يتسامح فيها المجتمع الأوروبى ، ولكن هذا لايعنى إقامة دولة بوليسية للفضيلة ، ولا يستهدف إزجاء الناس قوة واقتدارا للصلاة !

ولا نريد أن نحل حراما ، ولكن يمكن القول ببساطة إن كل واحد يستطيع أن يفعل فى بيته مايشاء ، مادامت أبوابه مغلقة عليه ، وأعماله لاتضير أحدا خارجها بصوت أو رائحة ... إلخ وتكون العلاقة عندئذ بينه وبين الله ، لابينه وبين الدولة والمجتمع .. والله ستار والناس كلهم معافون إلا المجاهرون .

والإسلام بعد ، يضع فى مكان ما يحرمه بديلا يخلو من سوءات ماحرمه ، وعندما يحرم الخمر فإنه يحل كل أنواع المشروبات التى تخلو من مسكر .. والمفروض على كل حال أن تعالج قضية الخمر من المنظور العام لا من المنظور الخاص (أو على الأقل منهما معا) إذ لا جدال أن إباحة الخمر تؤدى إلى الإدمان ، وهو وباء قومى أنقذ الإسلام

مجتمعه منه .. وحاولت الولايات المتحدة أن تنقذ نفسها فى العشرينات ولكنها فشلت ، لأن الامتناع عن الخمور لايمكن أن يأتى من قبل القانون وحده .

وفى العلاقات المشروعة مابين الرجال والنساء التى يمكن أن تتم فى النوادى والجامعات والمساجد ... إلخ ويسمح بها الإسلام مايغنى عن العلاقات المحرمة التى تحوطها الريب والشبهات وتفسح المجال للظنون والإساءات . ووجهة نظر معظم الجماعات الإسلامية عن المرأة فى واد ، ونصوص القرآن الكريم وروح الإسلام فى واد آخر .

ونحن نؤكد أن «مجتمع الأشباح السوداء الكئيبة» ليس من الإسلام فى شيء ! وان المجتمع الإسلامى يمكن أن يكون جميلاً وبهيجاً بل يفترض أن يكون جميلاً وبهيجاً .

★ ★ ★

إن حكم الهوى ، وإن أخذ شكلا فرديا ، كما فى الحالات التى أشرنا إليها ، قد يكون مرده فى النهاية – المزاج العام ، الذى يعود بدوره إلى أصول عامة ، ففى المجتمع الأوروبى فإن الأصول العامة هى الفرد والحرية .. ومن هنا لايصبح حكم الهوى حكما للهوى كما يراه أصحاب القيم الموضوعية .. ولكن هذا التأصيل مقصور على الحضارة الأوروبية .. أما فى الدول التى تؤمن بالإسلام ، فإن القيم فيها تعود إلى ماهو أقدس وأكبر من الفرد ، كما يوجد نوع من الارتباط مابين الحرية والحق الذى هو رمز القيم المطلقة ، وبالتالى يأخذ الانحراف عنها شكل الهوى الفردى .

والمفروض فى كل من يتصدى للعمل العام ، ولتوجيه الجماهير والاصلاح أن لايدع الميول الخاصة أو الهوى الفردى تؤثر على أحكامه ، فهذه الأحكام يجب أن تصدر عن ملاحظة المقتضيات العامة والسلامة الموضوعية وهو الأمر الذى لم يطقه أدعياء التنوير ، وسمحوا للهوى بالتأثير عليهم وتوجيههم .

الباب الثالث

عندما تتصافح اليدان

الفصل الأول : عندما تتصافح اليدان
الفصل الثانى : مشروع للأجيال

الفصل الأول

عندما تتصافح اليدان

يعرض لنا بعض الكتاب اليمين واليسار كما لو كانا يدين تتجه إحداهما إلى اليمين ، وتتجه الثانية إلى اليسار ، وبالتالى فلا يلتقيان !

ولكن الله تعالى عندما جعل لنا يدين يمنى ويسرى ، فإنه ربطهما بالجسم وجعلهما يتلاقيان كل يوم ألف مرة ، وكانت الحكمة فى هذا أنه لايمكن إمساك شىء إمساكا محكما الا عندما يقبض عليه الإنسان بكلتا يديه . ولهذا فإن الحكمة فى اليدين هى التلاقى ، وأن تكمل كل واحدة منهما الأخرى .

وثمة حديث نبوى يصل بتلك الحكمة إلى أقصاها يقول : « إن المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى » .. فانظر إلى عمق تلك اللفتة : (تغسل إحداهما الأخرى) وما فيها من دلالة عميقة ، وإن كانت ممارسة يومية لاتثير انتباها .

ويمكن أيضا أن نقول إن تعبير اليمين واليسار ما كان يمكن أن يوجد أحدهما دون

الآخر ، فانما يُعدّ اليمين يمينا إذا وجد اليسار ، فاذا لم يوجد اليسار فلا يمين وهو ما يقال أيضا عن اليسار ، فالصفة الخاصة لكل واحد منهما إنما تعود إلى الآخر ، فإذا كان هناك افتراق فى النهايات فهناك تلاق فى البدايات هو الذى سمح باختلاف النهايات .

وبعد كل شىء فهما جزء من حكمة « الزوجين » اللذين أقام الله عليهما الكائنات جميعا .

هكذا يجب أن نفهم « اليمين » و « اليسار » ويجب أن نتخلص من الجمود « الاستاتيكى » وأن نحل محله مفهوما حيويا متكاملا تتلاقى فيه الأطراف ، لاليتصارعا – كما فى الجدل الماركسى – ولكن ليتكاملا .

نقول هذا لنوضح أن تلك التفرقة ما بين يمين ويسار لاتقوم على أساس أصولى ، ولكن على خط وهمى ، وقد تمسك بها وأبرزها هواة « التصنيف » و « الخانات » أو الذين يستسهلون الأمور ويأخذونها على ظواهرها .. أو الذين يؤثرون التشدد .

وسوف نرى ، فيما سنقدمه من عرض ، أن دعاة التنوير حقا كانوا مُثُلا على هذا التلاقى ، وإن أنكر ذلك فقهاء التقليد وأدعياء التنوير .

التنويريون فئتان :

إذا استقصينا نشأة وتطور ونشاط الذين قاموا بدعوة التنوير أو حملوا عبء العمل العام من مستهل العصر حتى الآن ، نجد أنهما فئتان :

الفئة الأولى – نشأت فى القرية ، الرحم البيئى للإيمان ، أو الريف قبل أن ينزحوا إلى المدينة لإتمام دراساتهم العالية ، أو أنهم نشأوا فى المدينة ، ولكن فى أسرة محافظة ومن أبوين يلتزمان بآداب الإسلام وأداء شعائره .

يتعرف هؤلاء على الحضارة الأوروبية فى مستهل حياتهم ، فينبهرون بها تماما ، ويتزلزل إيمانهم إلى درجات متفاوتة – تعظم أو تقل – ويكونون فى هذه المرحلة دعاة تغريب أوروبى .

وبعد حقبة من الزمن – عشرين عاما على سبيل المثال – يتلاشى هذا الانبهار ، ويتعرفون على المثل والقيم الإسلامية ، وتنضج شخصياتهم وتأخذ أحكامهم طابع الاعتدال ، وينصرف بعضهم إلى نقد الحضارة الأوروبية التى أعجب بها شابا غريرا ..

بينما يعمل البعض الآخر لاستكشاف نواحى الإبداع فى الإسلام مستخدما فى هذا ثقافته الأوروبية ، وما زودته به من أدوات بحث ، أو قد يعملون للجمع بين حسنات الحضارة الأوروبية والمثل والقيم الإسلامية بدرجات متفاوتة من التوفيق .

هذه هى الفئة الأولى ، وسنجد أن هذه الفئة هى التى حملت مشعل التنوير وجعلته رسالتها ، وحاولت أن تقدم اضافة منشئة لحل القضية الأجتماعية والفكرية من رفاعة الطهطاوى حتى احسان عبد القدوس وزكى نجيب محمود .

وهناك فئة أخرى لم تنشأ فى القرية ، ولكن فى المدينة ، من آباء وأمهات غير ملتزمين بالقيم الإسلامية ، هؤلاء تغلب عليهم «الطبيعة البورجوازية» ، بمعنى أن يأخذ طموحهم طابعا شخصيا يدور حول أنفسهم ويكفل لهم الثروة ، والنفوذ والمناصب والجاه ، وهم يسلكون الى هذا سبل الصناعة والتجارة وأهم من هذين الاحتراف السياسى ، وعندما يدخل أحدهم المجال العام ويصطدم بالإسلام ، فإنه اذا كان ذكيا يلجأ للمجاملة ، ولكنه قد لايرى ضرورة لذلك لأن هذا قد يخسره أكثر مما يكسبه .. وقد يرى أن رضا السلطان أثمن وأهم من تجاوب القاعدة الشعبية ، فيلجأ للتجاهل ولايجد سندا الا فى «الشللية الحزبية» أو المالية أو الصحفية ، ويكون اتصاله بقاعدته الشعبية عبر قنوات المؤسسات والمناصب وليس بمخاطبة الوجدان أو من منطلق الدعوات والمثل !

وقد يصاب بعض أبناء هذه الفئة الثانية ممن وهبوا ذكاء أو ثقافة خاصة ، أو ملوا الحياة البورجوازية بالماركسية ، وهى أقرب إليهم من الإسلام بحكم الثقافة والمزاج والبيئة ، فيصبحون كمن وقع فى حب غانية جميلة : يعميه ويصمه فلا يرى فيها إلا جمالا ولا يستطيع عنها انفصالا .. ولكن هذا عادة ينتهى مع تحقيق الأمل البورجوازى ، المنصب ، الجاه ، ومجاوزة سن الشباب والانبهار ، إلا اذا كان قد تورط فى مناصب ومسئوليات قيادية ، فيغلب أن يعسر عليه التحلل منها .

ونجد بين هذه الفئة (أدعياء التنوير) ، كما نراها فى القيادات التى تسيطر على المجتمع المصرى من انقلاب ٢٣ يوليو حتى الآن فى الحزب الحاكم وفى الآداب والفنون ، وقد يكون من أبرز رموزهم الصحفيان هيكل ومصطفى أمين[1] ، وفلول الماركسية الناصرية .

(١١) إن المحنة التى تعرض لها الأستاذ مصطفى أمين كشفت له بعض الجوانب التى كان بحكم نشأته البورجوازية بعيدا عنها .

والفارق بين الفئتين هو الإسلام .. فالفئة الأولى كان لديها قدر من الالتزام الإسلامى ، ووعى بمنزلة الإسلام فى الفكر ، والحضارة ، والمجتمع ... الخ ، وقد غرست نشأتها هذا الوعى من الطفولة ، وظل كامنا فترة الانبهار الأوروبى ، ثم عاد ليظهر بمجرد أن سمحت الظروف ، وهو ما يعطينا مؤشرا هاما على أهمية التنشئة سواء كان ذلك فى القرية التى لابد وأن تكون بحكم كونها قرية رحما للإيمان .. أو بالتنشئة فى أسرة ملتزمة ... وافتقاد هذا العنصر ، كما يحدث بالنسبة لأطفال آباء وأمهات من البورجوازية التى لايمثل الإسلام فيها جذرا ، هو الذى يجعل مآلهم معسكر البورجوازية وتكون دعوتهم للتنوير دعوة غير مؤصلة ، لأن القيم الإنسانية ، وهى أثمن ما يمكن أن تقدمه الحضارة الأوروبية تعود فى النهاية الى الفرد ، وتذوب فى بوتقة الفردية لعدم قيامها على قيم مطلقة ولا توجد القيم المطلقة إلا فى الأديان . ومن هنا تأخذ القيم البورجوازية الزيف التنويرى ...

★ ★ ★

ويعترف أدعياء التنوير بأن الذين حملوا مشعل التنوير هم رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده والكواكبى وقاسم أمين ، ثم طه حسين وعلى عبد الرازق ومحمد حسين هيكل ومنصور فهمى ، ليختموا بخالد محمد خالد وزكى نجيب محمود واحسان عبد القدوس ... ألخ وفى الآداب والفنون شوقى وحافظ وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب .

ولكنهم يتجاهلون أن منطلق هؤلاء جميعا أو كثرتهم الكاثرة ، كان الإسلام ، وهم لا يربطون ما بين البدايات والنهايات ، أو ما بين دعواتهم وما بين الإسلام من اتفاق ، ولا يبرزون الا النتائج ، أو يبرزون ناحية معينة تتفق مع اتجاهاتهم ..

وفقهاء التقليد أيضا – على ماقد يبدو فى ذلك من مفارقة – لايرحبون باسلامية هؤلاء الرواد ، وقد يتحفظون عليها وأى واحد فيهم أقرب الى الإسلام من الشيخ محمد عبده (المفتى) وقد تعرض لسهام الأزهريين ومؤامرات فقهاء التقليد سحابة حياته .

والحقيقة أن هؤلاء الرواد والدعاة هم من الذين تتصافح فيهم اليدان ، ويتلاقى اليمين باليسار ، لأن الإسلام المتفتح الذى ينشد الحكمة **جعلهم يبحثون عن الجديد الصالح فيأخذون به ، لصلاحيته الموضوعية من ناحية ولحث الإسلام عليه من ناحية أخرى ، فهم دعاة تنوير وفقهاء اجتهاد ، وهو شىء واحد ...**

العنصر الإسلامى فى دعـاة التنوير :

يتفق الجميع – أو الأغلبية العظمى – على أن رائد التنوير فى مصر هو رفاعة الطهطاوى . . فمن هو رفاعة الطهطاوى ؟

إنه طالب أزهرى من أقصى صعيد مصر ، درس فى الأزهر حتى أصبح شيخا فيه ، ووقع عليه اختيار محمد على ليكون «إماما» لاحدى البعثات التى أوفدها الى فرنسا ، ولم يكن طالبا معها ، وكان المطلوب هو أن يؤمهم فى الصلوات ، ولكنه بنبوغه أصبح أبرز طلبة البعثة كلها ، وكان عددهم حوالى الأربعين . . وعندما عاد جعل هدفه نشر العلم والمعرفة ، وترجمة الكتب الفرنسية الى العربية ، وهو الذى أسس مدرسة الالسن ، وقد وضع بالإضافة إلى ما ترجمه عددا كبيرا من الكتب فى علم الكلام والفقه والنحو وعلم الحديث والبلاغة والأدب والسيرة النبوية . . فضلا عن كتبه المشهورة «تخليص الابريز فى تلخيص باريز» و «مناهج الألباب المصرية فى الآداب العصرية» و «المرشد الأمين للبنات والبنين» . . .

فى رفاعة رافع الطهطاوى نجد التنويرى/ الإسلامى كأفضل مايكون . . نجد فيه الوطنى من مدخل أن «حب الوطن من الإيمان» وهو الشعار الذى كان يكرره . . ونجد فيه المقومان البارزان اللذان يفترض أن يتوفرا فى كل تنويرى / اسلامى .

الأول الإيمان بالعلم والحرص عليه والعمل على اشاعته ، وهذه فى صميم الإسلام والآيات والأحاديث عن ذلك أكثر من أن تحصى .

الثانى تحكيم العقل والشرع ، وهما يدا الإيمان الإسلامى أو ساقاه أو جناحاه ، فبهما يمسك وعليهما يرتكز ويسير ، أو يحلق ويطير ، ولا يتصور أن يكون هناك تعارض ، وإنما تكامل وهما صورة من صور «الزوجين» التى أقام الله عليها العالم .

وبحكم الشرع فإنه يستنكر الحاد الفرنسيين ويقول : «ومن عقائدهم القبيحة قولهم إن حكمائهم وطبائعييهم أعظم من عقول الأنبياء وأذكى منهم ، ولهم كثير من العقائد الشنيعة كانكار بعضهم القضاء والقدر مع أن من الحكم أن العاقل من يصدق بالقضاء ، ويأخذ الحزم فى سائر الأشياء» وهو ينتقد ضعف الحاسة الدينية عندهم «أكثر أهل هذه المدينة (أى باريس) إنما لهم من دين النصرانية الأسم فقط حيث لا ينتحل دينه ، دلالة غيرة عليه ، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل» .

وفى الوقت نفسه فإنه لايدع فقه التقليد يثنيه عما قضى به العقل (والشرع أيضا) من أحكام تتعلق بالمرأة ، فهو يستحسن الدور الذى تقوم به الزوجة الفرنسية والتى يضفى وجودها على المجلس «جمالا وأنسا وبهجة وانها تحيى الضيوف أصالة أو نيابة عن زوجها ، وزوجها يحييهم بالتبعية» ورأى أن عمل المرأة يصقل شخصيتها ويبعدها عن البطالة .. كما امتدح التمثيل وما يمكن أن يقدمه من توجيه وتهذيب .

والحق أن من أهم ماقام به الشيخ رفاعة هو النهضة بالمرأة ، ولما كانت الطرق مسدودة أمامه فانه بدأ بالخطوة الأولى (التعليم) وكان فى هذا يعمل فى مجال تخصصه وإيمانه واتجاهه العاطفى الذى اكتسبه من باريس ، وقد يصور تقديره لمنزلة المرأة الوثيقة التى حررها على نفسه لزوجته ، والتى تعد الأولى من نوعها فيما نعلم .. ولعله أراد أن يضرب المثل بنفسه فى دعوته .

وهذه الوثيقة المحفوظة فى دار المحفوظات والتى كتبها الشيخ رفاعة بخطه وختمها بخاتمه ، نصها :

«التزم كاتب هذه الأحرف رفاعة بدوى رافع لبنت خاله المصونة الحاجة كريمة بنت العلامة الشيخ محمد الفرغلى الأنصارى ، أنه يبقى معها وحدها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى ، ولا جارية أيا كانت ، وعلق عصمتها على أخذ غيرها من نساء ، أو تمتع بجارية أخرى ، فإن تزوج بزوجة أيا ما كانت ، كانت بنت خاله بمجرد العقد طالقة بالثلاثة ، وكذلك اذا تمتع بجارية ملك يمين ، ولكنه أوعدها وعدا صحيحا لا ينتقض ولا يخل أنها مادامت معه على المحبة المعهودة مقيمة على الأمانة والعهد لبيتها وأولادها ولخدمها ولجواريها ، ساكنة معه فى محل سكناه ، لايتزوج بغيرها أصلا ، ولا يتمتع بجوار أصلا ، ولا يخرجها من عصمته حتى يقضى الله لأحدهما بقضائه ...» (انتهى) .

فنحن نرى الشيخ رفاعة سبق المشرع المصرى بأكثر من مائة سنة عندما أعطى زوجته الحق فى الطلاق اذا تزوج بأخرى ، وحرم على نفسه — ليس فحسب الزواج — بل أيضا التمتع بجوارى ، وكان هذا وقتئذ فاشيا !

وبعد رفاعة رافع الطهطاوى ، يأتى على مبارك وهو مؤسس وزارة التربية والتعليم ، ودار الكتب ، ودار العلوم ، ومؤلف «الخطط التوفيقية» وهو فى كل أعماله وكتاباته يصدر عن روح اسلامية عريقة منذ أن خرج من برنبال طفلا يطلب العلم حتى آخر أيام حياته .

بعد هذين الكوكبين ، يأتى دور جمال الدين الأفغانى وتلميذه الأثير محمد عبده ومنطلقهما الإسلامى لايحتاج إلى ايضاح ..

وقد كان جمال الأفغانى فى الفكر كالنجم القطبى فى السماء .. يتجه إليه كل الملاحين ، وتضبط على موقعه كل الاتجاهات وكانت له جاذبية آسرة لم ينج منها أحد من مفكرى عصره حتى الذين عارضوه مثل «رينان» وحتى من يظن أن ليس لهم به علاقة ؛ فلطفى السيد مثلاً رائد العلمانية ، والديمقراطية إلخ .. هاجر إليه وتتلمذ عليه وتأثر به ..

ثم يأتى رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده ، وهو وان كان يمثل اتجاها نحو «السلفية» إلا أنه كان يذهب بها الى آخر مدى .. ويجب أن نذكر أن كتاب الكواكبى «طبائع الاستبداد» و«مذكرات أم القرى» وهى كتب ثورية «تنويرية» نشرا فى «المنار» أولا .. وأن الشيخ رشيد رضا نفسه كان قطب حزب «اللامركزية» الذى ضم كل أحرار سوريا ولبنان فى العشرينات .

وكل مجموعة التنوير فى عهد محمد على واسماعيل حتى مشارف القرن من الإسلام جاءت ، وعلى الإسلام ارتكزت فى دعوتها التنويرية التحريرية .

بعد هؤلاء يأتى الثالوث الكبير : طه حسين – توفيق الحكيم – عباس العقاد ... أما طه حسين فهو ابن الأزهر واللغة العربية ، وهو لايستشعر زهوا بأنه يتحدث الفرنسية واليونانية كأحد أبنائها ، ولكن يحق له الفخر أنه احكم العربية حتى أصبح من شيوخها وقد ترجم ماشاء الله له أن يترجم عن الفرنسية مما لايكاد يذكر الآن .. وانما تذكر اسلامياته : على هامش السيرة/ الفتنة الكبرى/ الشيخان الخ .. وحقا أنه فتن بفرنسا ، عندما تعرف عليها وتأثر بها تأثيرا اتصل حتى بعد أن تركها لأنه احتفظ بزوجة ظلت فرنسية كاثوليكية وجعلت بيته قطعة من فرنسا ، ولكن حبه الأول كان ، رغم كل شىء ، هو أيامه الأولى وأدبه العربى . ومع أن التوفيق قد فاته فى احدى إشاراته الى القرآن فإنه تاب عنها وحذفها فى الطبعات التالية ، وهى على كل حال ،

كبوة الجواد التى لاتذهب بصولاته وجولاته ، وليس أدل على ذلك من مواقفه ، عندما تخلص من أثر الانبهار القديم بأوروبا والمستشرقين ، وقد استلفت ذلك انتباه الكاتب الصحفى الأستاذ أحمد بهجت[1] ورأى فيه «نموذجا لباحث شرد وأخطأ ثم رده العلماء إلى الصواب فعاد إليه واعتذر عن خطئه .

«لقد وعى طه حسين التجربة التى وقعت له ، واستفاد من الدرس الذى صادفه فى بداية حياته ، وكان له رأيه الحكيم بعد ذلك وهو رأى أنضجته التجارب وانضجه التواضع الإنسانى .

وفى لجنة مشروع الدستور .. ص ٨١ .. وفى جلسة ١٩٥٣/٦/٤ قال طه حسين .

«إن من المقطوع به أن الأغلبية لن تقبل أن تخرج عند وضع الدستور على ما أمر به الإسلام ، ولكن لابد لنا من أن نحتاط فنقول إنه ليس هناك أى نص يسمح لنا بأن نعدل عن نص القرآن .. أريد أن أقول أنه إذا وجد نص دينى صريح فالحكمة والواجب يقتضيان ألا نعارض النص ، وأن نكون من الحكمة والاحتياط بحيث لانضر الناس فى شعورهم ولا فى ضمائرهم ولا فى دينهم .

إذا احترمت الدولة الإسلام ، فلابد أن تحترمه جملة وتفصيلا ، ولا يكون الإيمان ايمانا ببعض الكتاب وكفراً ببعضه الآخر» .

أين حكمة هذه الكلمات التى قالها طة حسين من حماقة الباحثين الذين يريدون تحطيم المقدسات فى بحوثهم الهزيلة ، فإذا حاول علماء الأزهر أن يصححوا له ارتفعت الأصوات أن حرية البحث فى خطر ، وأن أبناء الظلام يريدون أن يطفئوا الشمس ليسود الظلام .

إن تأمل تجربة طة حسين واستعراض حياته يقولان لنا أن العالم الحقيقى هو الذى يدرك أنه يمكن أن يخطىء ، وأن الباحث الحقيقى هو القادر على أن يستمع لمن يصحح له الخطأ ويثنيه عنه .. فلا كمال إلا لله تعالى وحده» .

والأمر فى توفيق الحكيم أعجب ، فهذا الأديب الذى نشأ فى أسرة بورجوازية ، وتبشرد فى سبيل المسرح الفرنسى ، وأتقن الحوار حتى أصبح سيده ، كان أشد الثلاثة عناية بالإسلام ، فما الذى يجعل سيد المسرح يعنى بأن يلخص تفسير القرطبى ؟ وما الذى يجعله يبدع نظرية اسلامية هى التعادلية الإسلامية ، وما الذى يجعله يصدر (محمد) وما الذى يجعله فى آخر أيامه يصدر كتاباته تحت عنوان حديث نبوى شريف هو **«إذا قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيله فليغرسها» لقد كان الإسلام أحد الهموم الأساسية فى فكر توفيق الحكيم حتى مات وحاول أن يسهم بإضافة جديدة والى حد ما نجح فى ذلك ...**

---

(١) جريدة الأهرام ص ٢ يوم ١٩٩٤/١/٢٥ .

أما العقاد (الجبار) فلم يبق من آثار جبروته شيء ، ولكن بقيت اسلامياته ، ولعله كان أبعدهم عن الإسلام بحكم مزاجه وثقافته ، ومع هذا فإن ماكان يطمح إليه فى أيامه الأخيرة هو أن يضع تفسيرا للقرآن . وقد أُنسيت معظم كتبه حتى كتابيه عن سعد زغلول وابن الرومى وهما أفضل ما كتب .. والذى يعرفه الناس عن العقاد هو «عبقرياته الإسلامية» .

فانظر إلى أثر الإسلام على هؤلاء الذين شادوا الإسلام فترة ما فغلبهم وكسبهم وجعلهم كتابا عنه وأنصارا له ...

وفى العدد الذى أصدرته مجلة الهلال خاصا بالرسول (أغسطس ١٩٧٨) أشار توفيق الحكيم فى كلمته التى كانت بعنوان «دفاع عن محمد» الى قصة تمثيلية لفولتير (محمد) سب فيها النبى ﷺ سبا قبيحا ، وأهداها بهذا الإهداء الذليل الى البابا بنوا الرابع :

«فلتستغفر قداستك لعبد خاضع من أشد الناس اعجابا بالفضيلة اذا تجرأ ، فقدم الى رئيس الديانة الحقيقية ماكتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية ، والى من - غير وكيل رب السلام والحقيقة - أستطيع أن أتوجه بنقدى قسوة نبى كاذب وأغلاطه ، فلتأذن لى قداستك فى أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه ، وأن اجرؤ على سؤالك الحماية والبركة ، وانى مع الأجلال العميق أجثو وأقبل قدميك القدسيتين .. !!»[(١)] .

فولتير (١٧ أغسطس ١٧٤٥) .

ويقول توفيق الحكيم .. «علمت أن روسو كان يتناول بالنقد أعمال فولتير التمثيلية ، فاطلعت على ماقاله فى قصة محمد علنى أجد مايرد الحق الى نصابه فلم أر هذا المفكر الحر أيضا يدفع عن النبى ما ألصق به كذبا ، وكأن الأمر لا يعنيه ، وكأن ماقيل فى النبى لاغبار عليه ولا حرج فيه ، ولم يتعرض للقصة إلا من حيث هى أدب وفن» .

ويستطرد توفيق الحكيم :

«من ذلك اليوم وأنا أحس كأنى فجعت فى شيء عزيز لدى : الإيمان بنزاهة الفكر الحر ...» .

---

(١) انتبهوا أيها السادة هذا هو فولتير وثن العلمانيين وبطل الليبراليين وعدو الطغاة والحاكمين ورمز حرية الفكر ، فهل يمكن أن تصل القماءة والحقارة بكاتب مبتدىء متملق الى أكثر من هذا !؟ .

وفى مقاله هذا امتدح الدكتور طه حسين والدكتور محمد حسين هيكل لكتاباتهما الإسلامية وقال :

«لقد صنع هيكل كثيرا فى هذا السبيل بأسلوبه الجديد فى «حياة محمد» ولئن كان قد أثم فى دنياه ، فلقد اشترى بكتابه آثامه ، ولسوف يتقدم يوم الدين وكتابه بيمينه يشفع له بدخول الجنة ، متأبطا ذراع طه حسين بما قدمت يمناه هو أيضا من كتاب أدبى جميل «على هامش السيرة» ، كان له ولا ريب أبلغ الأثر فى حمل الناس على استمراء أخبار النبى» .

ونحن نقول إن توفيق الحكيم سيصحبهما يوم العرض العظيم حاملا بيمناه روايته (محمد) وبيسراه كتابه «التعادلية الإسلامية» وستحلهم رحمة الله مكانا عليا . . .

★ ★ ★

ويذكر أدعياء التنوير مع هؤلاء الثلاثة محمد حسين هيكل ومنصور فهمى ، وأول هذين هو صاحب رواية «زينب» التى يعطيها البعض وصف ريادة الرواية ، وكان هيكل «ليبراليا» تقليديا رأس فى العشرينات مجلة «السياسة» وكانت وقتئذ أقوى وأشهر مجلة ليبرالية ، وخاض غمار السياسة الحزبية ووصل الى أعلا مراكزها ، وأنسى هذا كله الآن ولم يبق له الا «حياة محمد» الذى كان نقطة تحول فى كتابة السيرة . . وأعقبه «فى منزل الوحى» و«عمر» وهذا هو مابقى من هيكل . . .

أما منصور فهمى الذى – بتأثير استاذه الفرنسى اليهودى – لمس شخصية الرسول فى رسالة الدكتوراة عن المرأة فى الإسلام . . فإنه أدرك خطأه ، وتاب توبة نصوحا ، وأصبح فيما بعد من ائمة الفكر الإسلامى . وعندما كان عميدا لكلية الآداب وجبن الأساتذة عن فتح «مصلى» بالكلية لشباب الأخوان المسلمين بها كان هو الذى خصص أحسن قاعة لتكون مصلى ، وكتاباته الإسلامية عديدة .

ويعطى أدعياء التنوير للشيخ على عبد الرازق وكتابه «أصول الحكم فى الإسلام» والشيخ خالد محمد خالد وكتابه «من هنا نبدأ» أهمية كبرى ، ويدفعان بالاسمين فى كل حديث .

والشيخ على عبد الرازق شيخ من أسرة كلها شيوخ ، وقد ولى أخوه مشيخة الأزهر ، كما تولى هو نفسه وزارة الأوقاف ، وله فى كتابه اجتهاد – اذا كان يخالف

الجمهور ، فإنه استند على مارآه مقنعا من آيات وأحاديث وقيل إن الكتاب قد صدر ليفسد على مجموعة من الشيوخ دعايتهم لجعل الملك فؤاد خليفة ، بعد أن قضى مصطفى كمال أتاتورك على الخلافة في تركيا . . فإذا كان هذا هو قصد الكتاب فنعماً به ، لأن الإسلام يبرأ من خلافة يتقلدها فؤاد وأمثاله ، وعلى كل حال فإن الرجل - لعوامل عديدة - قد يعود بعضها الى أنه غيَّر فكره ، أو أنه وجد أن كتابه يستغل فى غير ما استهدفه ، رفض اعادة طبع كتابه ، بل وأوصى بعدم طبعه ، مما حمل ورثته على رفع قضية على من أعاد الطبع !

والشيخ خالد محمد خالد شيخ جليل نشأ فى الجمعية الشرعية ، واتصل بالأخوان المسلمين ، وتضمن كتابه «من هنا نبدأ» ثورة على دولة الكهنوت ودعوة الى تحرير المرأة ، ولم يخالف فى هذا كله اطار الإسلام ودوائر الأجتهاد .

وقد حاول اليساريون وأدعياء التنوير اجتذابه ، فأبى واستعصم ، وان لم ينف هذا أن يكون التعبير قد خانه فى احدى المقالات «والعصمة لاتكون الا لنبى» . . والمأثرة العظمى للشيخ خالد هى أنه كان الوحيد الذى طالب الطاغية وجها لوجه فى المؤتمر القومى للقوى الشعبية بالحرية والديمقراطية ، وكان فى هذا يرتكز على الإسلام وينطلق من الإسلام ويجرى على تقاليد العلماء الذين كانوا يجابهون السلاطين بكلمة الحق المرة .

وهم يشيرون الى قاسم أمين محرر المرأة ، وقاسم أمين هو صديق ومريد الشيخ محمد عبده وكان فى كتابه يطالب بما اعطاه الإسلام للمرأة من حقوق ، ولعله لم يصل الى كل ما يسمح به الإسلام للمرأة مراعاة منه لظروف المجتمع المصرى وقتئذ .

ويشيرون الى يحيى حقى ، وقد لخص يحيى حقى رصده للحياة الاجتماعية فى رائعته «قنديل أم هاشم» التى تمثل الطبيب الذى تعلم فى انجلترا ، وأحب انجليزية ، ثم ينتهى الى «أم هاشم» ويتزوج قريبته . ويحيى حقى هو الذى قال فى حلقه «شاهد على العصر» التى بثتها الإذاعة سنة ١٩٨٣ - أن اسوأ لحظة مرت على مصر هى اللحظة التى قرر فيها محمد على فصل التعليم المدنى عن الأزهر . . ففى هذه اللحظة انقسمت الأمة ، وإن هذا كان مؤامرة من محمد على على الأزهر .

وقد ظهر كُتّاب رزقوا قدرا كبيرا من الأصالة والتمكن ولكنهم لم يكتبوا عن الإسلام ، أو يعنوا به عناية خاصة ، فلم يكتب لهم الخلود أو الشهرة الجماهيرية . . فالأستاذ المازنى كان استاذا فى الأسلوب والأدب ، ولكنه لم يكتب عن الإسلام ،

فلم تحفظ له الجماهير شيئا ، وهو ما يمكن أن يقال عن الأستاذ أحمد الصاوى محمد الذى أصدر «مجلتى» فى الثلاثينيات وصاحب الأسلوب العاطفى الأنيق .

وقد قرأنا مقالا للدكتور محمد مندور نشره فى «الرسالة» عدد ٦٠١ فى ٨ يناير ١٩٤٥ بعنوان « اعترافات مؤمن » قص فيه رحلته من الشك إلى

الإيمان» .. وإيمانه لايقوم على عقل ، لأن العقل يعجز عن الوصول إلى مقام الألوهية ، ولكنه «مؤمن تماما إيمانا راسخا وليست لى فى الحياة قوة غير هذا الإيمان ، فقد تهب أعاصيرها ، ومن الممكن أن تتنكر لى يوما عناصرها ذاتها ، ولكن ذلك لا أظنه ينال منى شيئا ، وذلك لا اعتزازا منى بعروض حياة أو مواهب نفس ، ولكن لأننى مؤمن بإله عادل اطمأنت إليه نفسى بحيث لاأذكر أننى قد اتجهت إليه يوما فلم أجد تأييده» .

وأعاد مندور هذا الاحساس الى العلاقة التى كانت بينه وبين أبيه الذى كان قد بنى بأحد الحقول (خلوة) له لا منفذ لها غير الباب ، وأنه هجر زوجته وابناه أربعين ليلة ليقيم فيها يعبد الله آناء الليل وأطراف النهار لايرى أحدا ولا يراه أحد ، وإنما يحمل إليه الطعام من خصاص الباب . وأثار هذا الخبر خيال مندور فكان يلاحق أباه بالسؤال ولكنه كان رجلا كتوما فلم يحظ منه بجواب حتى علم أخيرا أن الشباب كان قد ساقه فى مهاويه فلم يجد عصمه خيرا من معاهدة أحد علماء الدين على التوبة وعبادة الله . وكان هذا العالم نقشبندى المذهب وكان رجلا خيرا فقصر توجيهه لوالده على تجنب الاثم وعبادة الله والإحسان الى الناس وقراءة كتب الدين ، وحاول مندور أن يعرف شيئا من والده عن هذا الطريق ، فرفض ولكنه – أى مندور – توصل بطرقه الخاصة الى أن كلمة نقشبند تعنى النقش على القلب ، وأن سرها هو أن يستشعر الفرد دائما أن اسم الله منقوش على قلبه .. وأخبر والده بهذا فسر الرجل ودهش !

ويستطرد د . محمد مندور فى مقاله :

«وعندما اختارتنى الجامعة لبعثتها ، حدث حادثان صغيران كان لهما فى نفسى أبلغ الأثر .. أولهما أننى قبل سفرى رتبت كتبى فى صندوق كبير وبغير وعى منى وضعت «المصحف» على قمة الكتب ، ورأى والدى ذلك عرضا فسر سرورا لم أقصد إليه ، ولربما جاء بتوفيق من الله وحدث أخوتى عما رأى قائلا : أن أخاكم فلان سيكون الله دائما معه وسيوفق فى كل ما يعمل ... فسألوه : «ولم ذلك ؟» فأجاب : «لأننى لاحظت أنه وضع كتاب الله فوق كل كتاب» ثم اننى فى يوم السفر فوجئت بهدية من والدى أوصانى أن أحتفظ بها مدة غيبتى وأن أعود بها إليه ، وكانت تلك الهدية عبارة عن منديل للشيخ العالم النقشبندى الذى عاهده والدى على الهدى ، ولقد أخذت المنديل واحتفظت به تسعه أعوام التى مكثتها فى أوروبا

وعدت وهو لايزال إلى اليوم بين ملابسى ، ولا أستطيع أن أزعم أننى قد علقت به ايمانا خاصا أو قوة معينة ، بل ولا فكرت فى نلك ، ولكنه نوع من الاطمئنان السلمى المريح . وقد اختلطت فى نفسى قيمة الهدية بمحبتى لمهديها وايمانى به ، وكان لهذين الحادثين فضل دائم فى ردى الى الإيمان كلما تجهمت لى الحياة .

ولقد اتخذ الإيمان فى نفسى وجهة الإحسان إلى الغير ، حتى لأحسب أننى عاجز عجزا أصيلا عن بغض أحد ، فقد يقسو قلمى وقد يلدغ لسانى ، ولكنى ما عدت إلى نفسى إلا أحسست بفيض من التسامح لاأستطيع دفعه ، أكبر ظنى أن هذا الاتجاه كان أيضا لإشعاع من والدى ...» (انتهى) .

فهنا نرى إيمانا يقوم على الإيمان بالله تعالى ورحمته ورعايته ، وعلى الإحسان إلى الناس ، وهذا وذاك هما لباب الإسلام : إيمان بالله وإحسان إلى الناس ...

★ ★ ★

والحقيقة أن الإسلام وصل من القوة بحيث أنه يعد الأب الشرعى لكل الكتاب والدعاة الذين تصدروا للعمل العام ومعالجة قضايا الفكر والوجود والفرد والمجتمع . وقد يعقه بعضهم ، كما يعق بعض الأبناء آباءهم ، ولكن هذا لاينفى بنوتهم ، ذلك لأن الإسلام يعنى القرآن والقرآن يعنى العربية فى أرفع وأعظم وأجمل صورها ، ولابد لكل من يمسك قلما ويكتب سطرا أن يتتلمذ عليه وأن يتأثر به ونجد هذا التأثر فى كُتّاب يتصور الإنسان أنهم أبعد مايكونون عنه .

فما الذى يدفع بنجيب محفوظ الذى صادر الأزهر إحدى رواياته بدعوى الإلحاد لأن يقول فى رسالته إلى لجنة نوبل فى حفل تسليمه الجائزة عن **الحضارة الإسلامية** :

«لن أحدثكم عن دعوتها إلى إقامة وحدة بشرية فى رحاب الخالق تنهض على الحرية والمساواة والتسامح ولا عن عظمة رسولها فمن مفكريكم من كرسه كأعظم رجل فى تاريخ البشرية ولا عن فتوحاتها التى غرست آلاف المآذن الداعية للعبادة فى التقوى والخير على امتداد أرض مترامية ما بين مشارف الهند والصين وحدود فرنسا ، ولا عن المؤاخاة التى تحققت فى حضنها بين الأديان والعناصر فى تسامح لم تعرفه الإنسانية من قبل ولا من بعد . ولكنى سأقدمها فى موقف درامى مؤثر يلخص سمة من أبرز سماتها ، ففى إحدى معاركها الظافرة مع الدولة البيزنطية ردت الأسرى فى مقابل عدد من كتب الفلسفة والطب والرياضة عن التراث الإغريقى العتيد ، وهى شهادة قيمة لروح الإنسان فى طموحه إلى العلم والمعرفة رغم أن الطالب يعتنق ديناً سماوياً والمطلوب ثمرة حضارية وثنية» ..

وما الذى جعل الدكتور مصطفى محمود وهو العضو النابه فى أسرة تحرير روز اليوسف وصباح الخير فى الخمسينيات ومؤلف لكتاب يتابع ظهور العقل .. بعيداً

عن الوجود الإلهى .. يتغير ليصبح نسيجاً فريداً فى الداعية الإسلامى : الكاتب المثقف الذى يكتب فى الأهرام . المؤلف النابه الذى يناقش قضايا المجتمع والعصر من زاوية الإسلام . والمصلح الاجتماعى الذى يقيم مؤسسة علاجية وثقافية رائدة . ما الذى حوله إلى هذا الاتجاه إلا قوة الإسلام ونصوع حجته ..

وما الذى يجعل الأستاذ عادل حسين يتحول من المفكر الشيوعى إلى المفكر الإسلامى ليصبح من أكبر دعاه الحركة الإسلامية وما الذى يجعل الأستاذ طارق البشرى يخترق – ببصيرة القاضى – الزيوف والادعاءات الظاهرة ليصل إلى الحقيقة فيعترف بها .

أوخذ مثلاً الأستاذ محمد جلال كشك (رحمه الله) الذى بدأ حياته بنقد الإخوان المسلمين ، وآمن بالماركسية وكان من فرسانها ثم استبان له قصورها . فعاد إلى الإسلام ، وخاض معركة طويلة مع أدعياء التنوير الذين يسيطرون على الصحافة . أدت به لأن يفرغ لمعالجة قضايا الفكر الإسلامى . وأن يصدر ثمرة ذلك فى كتب قدمت إضافة منشئة ومبدعة ...

أوخذ الدكتور يوسف إدريس ! فهو على اتجاهاته ظل يؤكد أن على من يريد التمكن من اللغة العربية وفهم أسرارها قراءة القرآن ، وأن (جزء عم) وصل إلى الغاية فى البلاغة والتأثير والموسيقية ... إلخ .

وعندما يسأله أحد الصحفيين :

– هل حقا كنت تهاجم الأذان ؟

– وهل أنا مجنون ؟ إننى لم ولن أهاجم الأذان ، ولكنى هاجمت ، وسأظل أهاجم ، استخدام مكبرات الصوت .. لأن الإسلام دين متحضر .. والإسلام ينتشر بالحكمة والموعظة الحسنة ، وليس بالميكروفون !

وأضاف : إننى مسلم ابن مسلم ، وقد سافر جدى على أقدامه إلى الحج وظل هناك ثلاثة عشر عاما كان يصنع هناك الحلوى ليعيش منها حبا فى زيارة الرسول ... (الأحرار ٩٠/١/٢٩ ص ٣) .

وفى مجال الشعر والتمثيل والسينما نجد أن شوقى وحافظ شاعران اسلاميان لحما ودما ، قصائد الأول الإسلامية « نهج البردة » و«مولد الرسول» .. وقصائده العديدة

عن الخلافة والخلفاء .. ونجد حافظ فى « العمرية » التى تعد من أجود شعره ومن أفضل مانُظِمَ عن عمر بن الخطاب .

ونجد أن الغناء العربى والموسيقى العربية يرتبطان ارتباطا وثيقا بنظم القرآن وعلم التجويد ومدائح الرسول ، وأن كبار الفنانين كانوا من القراء ، وأن محمد عبد الوهاب وأم كلثوم حفظا القرآن ، وأن الأول بدأ حياته الفنية بالأذان فى جامع الشعرانى بباب الشعرية والذى حمل اسمه ، والثانية بمدائح الرسول وظل الوعى بالإسلام عميقا فى وجدانهما .. وقد لايعلم معظم الناس أن عبد الوهاب لم يدخن أبدا ، وأنه كان لايشرب الخمر ، وعندما نصحه طبيب بتناول قليل منها فى مرضه رفض .. ويمكن القول أيضا إنه كان ملتزما بالشعائر .

ولعلنا لسنا فى حاجة للإشارة إلى ظاهرة تحول عدد كبير من الفنانات ممثلات ومغنيات وراقصات الى إيمان بالإسلام حملهن على وضع الحجاب واعتزال نشاطهن الفنى .. وبقدر مافى هذه الظاهرة من دلالة على قوة الأتجاه الإسلامى فى «الوسط الفنى» فقد ينم عن قدر من القصور فى فهم الإسلام .. فقد كان يمكن لتلك الكوكبة الباهرة من الفنانات أن يخدمن الإسلام بصورة من النشاط الاجتماعى والثقافى ، بدلا من العكوف على العبادة . وإن كان الأمر بعد أمراً يعود إليهن و لحالتهن النفسية .

وفى الأربعينات – أى قبل ظاهرة اتجاه الفنانات نحو الإسلام – فضل عدد من أكبر الفنانين أن يعتنق الإسلام مثل جورج أبيض وأسرته الفنية ومثل ليلى مراد ونجوى سالم ومارى منيب ، وكاد نجيب الريحانى يعتنق الإسلام لو ارجأه الأجل أسبوعا . . .

★ ★ ★

نريد أن نختتم هذه النبذة الطويلة عن أثر الإسلام فى دعاة التنوير بالإشارة الى شخصيتين قد يظن أنهما من أبعد الناس عن الأتجاه الإسلامى فى حين أنهما من أقربهم إليه . . .

أولهما : الأستاذ احسان عبد القدوس الذى أسس دار روز اليوسف ورأسها سحابة حياته ، وكان هو (روح) صحيفتى روز اليوسف وصباح الخير .

وثانيهما : المفكر المشهور الدكتور زكى نجيب محمود .

ونحن نعتقد أن الأستاذ احسان عبد القدوس والأستاذ مصطفى أمين هما أكبر كاتبين اثرا

على الشخصية المصرية البورجوازية خلال الخمسين عاما الأخيرة ، وأن بصماتهما لاتزال ملموسة وأنهما يتحملان أمام التاريخ جزءا كبيرا من مسئولية الزيف والضلال اللذين اكتنفا هذه الحقبة !

نقول إن إحسان عبد القدوس ، كان فى الاجتماع - مثلما كان ميشيل عفلق فى السياسة - أمضى كل واحد منهما عمره فى البحث عن حلول - ليست إسلامية بالضرورة - لقضايا المجتمع ثم انتهى به الحال - كما انتهى بعفلق - أن آمن بالاسلام فى النهاية ، ولو رُدَّ إلى شبابه قبيل موته - مرة أخرى فلربما اختلفت مناهجه عما سلكه أولا !

ترك احسان عبد القدوس قبل أن يموت وثيقة هامة يمكن أن نسميها :

«اعتراف كاتب مسلم» قال فيها :[1]

(١)

«لقد نشأت فى بيت جدى لأبى الشيخ أحمد رضوان وقد كان من خريجى الأزهر الشريف ومن رجال القضاء الشرعى .. وكان جدى حريصاً على تنشئة أفراد العائلة كلها على الإيمان الكامل بالإسلام وأداء كل الفروض والاستجابة لكل التعاليم .. ومن قبل أن أصل إلى السابعة من عمرى وأنا أحاول استكمال قدرتى على أداء كل الفروض .. كالصلاة والصوم وحفظ آيات القرآن .. وربما كان جدى يعتبر مغالياً فى تزمته على أداء الفروض .. حتى أنه كان يحرم علينا أن نؤدى الصلاة ونحن نرتدى ثوباً يكشف عن ساقينا فوق الركبة .. وقد كنت أذهب إلى المدرسة الأولية ثم المدرسة الابتدائية وأنا أرتدى بنطلونا قصيراً يكشف عن ركبتى .. فكيف أؤدى صلاة الظهر وأنا فى المدرسة ؟ .. لذلك كانوا يضعون فى حقيبتى التى أذهب بها إلى المدرسة جوربا طويلا يرتفع على ساقى حتى يغطى ركبتى حتى ألجأ إليه كلما حل موعد صلاة الظهر لأؤديها داخل جامع المدرسة .

وكنت لم أصل إلى عمر السابعة عندما حفظت جزء «عم» من القرآن الكريم ، ثم بدأت أحفظ من القرآن على مدى العمر .. وإن كنت لم أحفظه كله إلا أنى قرأته كله عشرات المرات واستوعبت كثيراً من الآيات .. لازلت إلى اليوم أرددها دائما وفى كل يوم تبركا وتقربا إلى الله سبحانه وتعالى .. وتزوداً باستكمال راحتى النفسية وشخصيتى المسلمة .

ولكن بعد أن نما وعيى وتجاوزت سن الخامسة عشرة بدأت تدهمنى حيرة دينية ربما كان

---

(١) نقلاً عن «صباح الخير» - ١ رجب ١٤١١ - ٩١/١/١٧ ص ٩ .

سببها أن بدأت ألاحظ اختلاف مظاهر الإيمان بين الأفراد المسلمين .. فكثير من مظاهر المجتمعات الإسلامية مختلفة فى أداء ما يفرضه الإسلام .. وبدأ فكرى يسيطر على حتى أقنعنى بأنى لا يجب أن اكتفى بأن أكون مسلما بالوراثة .. أى مسلم .. لأن أبى وجدى وجد جدى مسلمون .. بل يجب أن أكون مسلما عن اقتناع بالإسلام أى أن اختار الإسلام إيمانا ولست مجرد مستسلما له .. ولذلك بدأت أفيض فى دراسة الإسلام .. دون أن أتخصص كرجل دين إنما لمجرد اقناع نفسى بما أومن به .. ووصلت بى دراسته إلى حد أنى بدأت أحاول اكتشاف أسرار تعاليم الديانة اليهودية ثم الديانة المسيحية .. وكنت أتعمد لقاء رجال الدين اليهودى والمسيحى لأفهم منهم وأجادلهم .. وانتهى بى هذا البحث الذى استغرق شهورا طويلة إلى أنى اخترت الإسلام دينا عن إيمان قائم على اقتناع .. ولكن هذا الجهد العنيف الذى بذلته خلال هذه الشهور أدى إلى حالة معاناة إلى حد أن رقدت فى فراشى مريضاً بمرض عجز عن شفائى منه الأطباء .

وفى فترة مرضى جاءنى أبى المرحوم محمد عبد القدوس رضوان بالمصحف الذى كان خاصا بجدى وكانت العائلة تحتفظ به بعد أن مات تبركاً وتكريماً لذكراه .. وقال لى : اقرأ يابنى .. فالله هو القادر على شفائك .

وقد قرأت القرآن كله وأنا راقد فى فراشى .. ولكنى أحسست بأنى قرأته تبركاً وتوسلاً إلى الله أن يشفينى .. ولم يكن هذا هو كل ما أريده .. فبدأت أقرأ القرآن مرة ثانية وأنا أحاول أن أفهم وأفسر كل آية وكل كلمة من كلمات الله .. وأستعين على الفهم بكتب التفسير التى تزدحم بها المكتبة التى تركها جدى .. ولكنى مع هذا انتهيت من قراءة القرآن كله ولا أزل قاصراً عن فهم وتفسير بعض الآيات .. فبدأت أقرأه مرة ثالثة .. وأضع بنفسى تفسيراً لكل ما كنت عاجزاً عن استيعابه .. واسترحت .. واستكملت إيمانى على أساس اقتناعى وفهمى .. وشفيت فعلاً من مرضى .. ومما أدهشنى أن كثيراً من الآيات التى كنت أعتقد أنى وصلت إلى تفسيرها بنفسى ووفقا لعقليتى كانت قد سبق أن فسرت وسجل تفسيرها نفس التفسير الذى وصلت إليه .. وهو ما أقنعنى بأن صدق وعمق الإيمان يمكن أن يصل بالمؤمن إلى التفسير الصحيح .. وإن كنت أتمنى وأدعو حتى اليوم فى أن يبذل رجال الدين الإسلامى مجهوداً أكبر فى إعلان التفسيرات المبسطة التى يمكن أن تصل إلى عقول البسطاء .. حتى تتم وحدة كل مظاهر الإيمان بين المسلمين .

(٢)

إنى أعيش كمسلم .. كل حياتى الخاصة والعامة تجرى تحت تأثير من وحى بالإسلام فإن أصبت فى تصرفاتى فلأن الإسلام وفقنى إلى أن أصيب .. وأن أخطأت فلأنى عجزت عن اتباع ما يفرضه الإسلام على .

(٣)

الدين هو الأساس الذى يقوم عليه كيان الإنسانية كلها .. الدين هو محاولة الوصول إلى

حكم القدر .. والقدر هو ما يحكم به الله .. والكيان الإنسانى متعدد الجبهات بتعدد الأديان .. بما فيها من أديان سماوية وأديان أرضية .. وقد حاولت بعض جبهات هذا الكيان فى الإنسان أن تنكر الأديان .. أى تنكر وجود الله .. ولكن هذه الجبهات مهما طال بها زمن الوجود فمصيرها أن تعود إلى الاعتراف بالله والخشوع له وللقدر الذى يفرضه على خلقه .. ولن يتحقق السلام بين بنى الإنسان إلا إذا تقاربت الأديان إلى أن تتجمع فى دين واحد .. دين الإسلام .

إنى أعتقد أن أى كاتب باللغة العربية لا يستطيع أن يجمع حواراً قرأه إلا إذا كان أساسا قد استوعب قراءة القرآن .. فالقرآن هو أساس أسلوب اللغة العربية .. أو هو الموسيقى للغة التى يقوم عليها أى تطور موسيقى فى اختيار أسلوب الكتابة بالعربية .. وحتى الكاتب إذا لم يكن مسلما لا يستطيع أن يكتب باللغة العربية إلا إذا استوعب أسلوب أو رنات صياغة كلمات وآيات القرآن .. ومعروف أن المرحوم مكرم عبيد باشا كان عبقريا فى إلقاء الخطب وكتابة الرسائل باللغة العربية لأنه كان يحفظ القرآن رغم أنه قبطى الديانة .. وهكذا كل كاتب عربى .. وأنا نفسى لأعتقد أنى استطعت أن أكون كاتبا ولى قراء إلا لأنى بدأت باستيعاب أسلوب ورنات لغة القرآن .. أما بالنسبة للمفكرين فإن القرآن يعتبر الأساس الفكرى لأى محاولة فى تفسير الواقع والمستقبل الإنسانى .

ولا يمكن لأى فكر سواء فكر إسلامى أو غير إسلامى أن يستوعب أسس الكيان الإنسانى ومصير الإنسان إلا باستيعاب ما سجله القرآن وهو ما يشمل كل تفاصيل الحياة وما بعد الحياة .

(٥)

الهدف الذى يدعو إليه الإسلام هو أن يصل بوحدة الإيمان إلى وحدة الوجود أى أن يجمع المسلمون أنفسهم فى قوة موحدة مهما تفرقوا فى دول أو فى نظم إدارية أو شعوب منتشرة فى كل نواحى الأرض .. أى أن نصرة الإسلام تقوم على وحدة المسلمين .

(٦)

الإسلام دين يحتفظ للمرأة بكامل شخصيتها وكامل حقوقها .. وهو دين يعترف بواقعية طبيعة المرأة وواقعية طبيعة الرجل .. يجمع بين الطبيعتين ويصونهما على أساس اشهار وإعلان العلاقة بينهما .. ومن وسائل الإشهار مثلاً هو عقد الزواج .. وإذا كان قد أباح للرجل الزواج بأربع نساء تحت شروط محددة مفروضة عليه .. فلأنه حريص على ألا تفرض عليه طبيعته علاقة خفية سرية بينه وبين أى امرأة .. ولكن شعوب أخرى لا تدين بالإسلام تفرض على نفسها علاقات خفية سرية بين الرجل والمرأة .. وهو ما يرفضه الإسلام ويعتبر جريمة يعاقب عليها .. وهى جريمة الزنا .. مهما كان الدافع إليها منطلقاً من الطبيعة التى خلق بها الرجل .. فالمرأة المسلمة أقوى فى مواجهة الواقع من أى امرأة تدين بدين آخر .

انتهى اعتراف الكاتب الكبير إحسان عبد القدوس .. رحمه الله .

وإذا كان احسان عبد القدوس قد جعل من روز اليوسف وصباح الخير أكبر صحيفتين لمناهج تبدأ من التحرر ، وتنتهى بالتحلل وإذا كان قد أوى إليها أكبر مجموعة من أدعياء التنوير وقدمت تحريراً وتصويراً عدداً من اسوأ الكتابات وابعدها عن الموضوعية ، فإن إحسان عبد القدوس نفسه التزم بالتقاليد الإسلامية[1] فى بعض المجالات التى كانت كتاباته توحى التحلل ، كالمرأة . فلم يسمح لزوجته بالظهور فى أجهزة الإعلام وكان حريصاً على أن تظل زوجة كاتب مشهور فقط .

وتضيف زوجته السيدة لواحظ المهيلمى – رحمها الله فقد توفيت اخيراً – هذه قاعدة كنا نسير عليها فى حياته ، ولا يمكن أن أخرج عنها بعد وفاته : كان محافظاً وكان إيمانه بالله قويا ، والده كانت لديه فلسفة فى الإسلام ، كان يصلى بإيمان وخشوع ، وكذلك إحسان كان عندما يصلى يغمض عينيه وكأنه لايريد أن يرى شيئاً من العالم الموجود حوله ، طوال حياته كان حريصاً على أداء صلاة الصبح قبل أن يبدأ عمل ، وفى الـ ١٥ سنة الأخيرة كان حريصاً على أداء الفروض الخمسة فى أوقاتها .

ياليت كتاب روز اليوسف وصباح الخير يقرأون جيداً ما كتبه أستاذهم ويفكرون فيه مليا . . .

* * *

وفى سبتمبر ١٩٩٣ توفى آخر «التنويوريين العظام» ، كما قالوا ، وهو الدكتور زكى نجيب محمود صاحب الوضعية المنطقية التى تقوم على تحليل عقلى . واعتقد كثير من الإسلاميين أنه بعيد عن الفكر الإسلامى ، ان لم يكن مجافيا له . وحقيقة الحال غير ذلك ؛ فقد نشأ فى القرية ، وتعلم فى «الكتاب» ثم أصيب فى شبابه ، وعند ذهابه إلى أوروبا ، بصدمة الانبهار التى أشرنا إليها والتى يبدو أنها كانت ضربة لازب لكل الكتاب والمفكرين فى هذه الفترة عند لقائهم الغرب ، وكتبه الأولى «جنة العبيط» و «شروق من الغرب» و «خرافة الميتافيزيقيا» تصور تلك المرحلة ، ولكنه بعد ذلك ألم بالجانب الآخر من الفكر ، وبدأ يعمل لتحقيق نوع من المصالحة بين الفكر الأوروبى والفكر الإسلامى .. بين الماضى والحاضر ، دون أن يفقد الأصول الفكرية العقلانية التى آمن بها .. وكتاباته الأخيرة تصور هذا التحول .

(١) نقول بالتقاليد الإسلامية لأنه ليس فى الإسلام مايمنع من ظهور المرأة فى المجتمع أو أن تقوم بدور فى النشاط العام إذا كان لديها ماتقدمه ، وما يمثل إضافة .

وفى ١٩٧٩/١٢/٩ كتب زكى نجيب محمود مقالا فى الأهرام بعنوان **«قلم يتوب»** أهداه إلى الدكتور حسين فوزى المتيم بالحضارة الأوروبية ، يصور فيه تحوله من مرحلة الانبهار التى جعلته يتمنى «لو كنا نسخة من أوروبا ، حتى فى الكتابة من الشمال الى اليمين ، وارتدينا من الثياب مايرتدون ، وأكلنا مايأكلون ، ونفكر كما يفكرون ، وننظر إلى الدنيا بمثل ما ينظرون» !

ثم دارت الأيام ، وكتب «لقد تمنيت لأمتى فيما سبق أن تكون قطعة من الغرب ، لكننى اليوم أريد لها أن تكون أمتى هى أمتى ، وختم مقاله «رأيت القلم الذى شطح ذات يوم فى تطرفه نحو الغرب قد عاد آخر الأمر إلى توبة يعتدل بها ...» !

وعقب وفاته نشر أحد الصحفيين كلمة عن «الله» فى قلب زكى نجيب فنقل ما قاله زكى نجيب محمود عن ذلك وجاء فيه[1] :

اننى التمس عدة طرق لكى أستشعر بأننى فى حضرة الخالق ، أولها وأكثرها تكرارا هى ما دربت عليه نفسى أثناء الصلاة فقد اعتدت أن اتأمل كل لفظ انطقه ، وكل حركة أتحركها وأحاول أن أصل إلى المغزى البعيد لكل جزء من هذه الأجزاء وهو ما يوحى إلى بالشعور بجلالة الله وعظمته ورحمته .. وهذا الأمر اتبعه فى بقية أركان الإسلام الخمسة ، ويضيف : «ان هذا الأسلوب اتبعه عند قراءة القرآن الكريم أيضا حيث وجدت نفسى – فى النصف الثانى من حياتى – أمام إغراء قوى كلما قرأت شيئا من القرآن ، بأن أقف عند آية أو آيات معينة لأغوص غوصا فى مفرداتها وأسلوب تركيبها ، وغالبا ما أخرج بما لم أكن رأيته عند القراءات الأولى التى تخاطب الأذن والقلب معا بمجرد تبيانها المعجز ونغمها الأخاذ .. ففى هذه الوقفات التحليلية المتأملة أخرج بجانب آخر يضاف إلى ما سبق أن استخرجته من أبعاد المعنى وهو الشعور بشدة قربى من الله عز وجل ، لأننى وأنا غائص وراء الدر المغمور فى كلمات الآية الكريمة ، تنقطع الصلات الحسية أو تكاد بينى وبين ما يحيط بى من مؤثرات الصوت والضوء والحركة فأين أكون إذن إلا فى رحاب ربى منزل الوحى بالكتاب ؟» ويتبع مفكرنا أسلوبا آخر ليستشعر أنه قريب من خالقه وهو اللجوء إلى أسماء الله الحسنى .. قائلا : «ولما كنت أعلم أن هذه الأسماء – باستثناء لفظ الجلالة – هى فى حقيقتها صفات ، إذا كانت مطلقة فهى صفات لله ، فأجدنى ألجأ إلى إن أمد أية صفة من هذه الصفات – من حدود وجودها فى نفسى ، محاولا إن أتصورها وقد أصبحت بلا حدود ، فأشعر عندئذ بشىء من الشعور بأننى فى حضرة الخالق .

(١) الأهرام ى ١٩٩٣/٩/١٧ .

وكما لاحظنا فى تقصِّينا ، فإن كل الذين نشأوا نشأة ريفية عادوا إلى الإيمان بعد شفائهم من صدمة الأنبهار ، ولم يختلف الأمر بالنسبة للدكتور زكى نجيب محمود ، وما يتميز به هو أنه كان «عقلانيا» أكثر من دعاه التنوير السابقين ، ولذلك فإن اتجاهه أخذ شكلاً «أكاديميا» إلى حد ما ، ولكنه فى النهاية إسلامى ، وهو وإن كان «معتزلياً» فى عقلانيته فإنه كان «متصوفا» فى عواطفه ، وقد أجرت إحدى الباحثات حديثا معه نشرته فى العدد الأسبوعى لجريمة الوفد تحت عنوان «**قلبى ينبض بالتصوف ، وعقلى لا يعترف بغير العلم**» قدمت له بمقدمة جاء فيها :

يحدث أحياناً فى الحياة اليومية إذا مارأينا إنساناً يبالغ فى إظهار تدينه وارتفاعه فوق الماديات والعالم الحسى ، يحدث أن تدعونا مبالغته إلى طرح سؤال مشاكس : هل هو يطبق مايردده باستمرار على نفسه ؟ وألا يكون فى الأمر محاولة لإخفاء حقيقة مغايرة تدفعه لهذا الإفراط ؟!

وفى الغالب ماتكون الإجابة مطابقة للافتراض المطروح .

وبشكل ماطرح هذا المنهج فى الفهم نفسه علىَّ بعد أن مضيت فترة من القراءة المكثفة لأهم ماكتبه د . زكى نجيب محمود وخاصة الجانب الأدبى من إنتاجه .. تساءلت بإلحاح وإن كان بشكل عكسى : ألا تكون دعوة الأستاذ الدائمة للتجريبية والمنهج الحسى ، والعقلانية .. ألا تكون تلك محاولة منه للانتصار على نفسية عاطفية ، ووجدان ملتهب ، ونزعة إلى التصوف ؟ وكانت الإجابة أيضاً : نعم نشرتها وقتها تحت عنوان «زكى نجيب محمود يغالب تصوفه» وقد أتممت ذلك البحث بحديث مباشر مع الأستاذ الكبير - لم ينشر من قبل - عن الدين فى حياته .. سأقدم نصه للقارىء اليوم .

وبداية فلنلق نظرة سريعة على د . زكى نجيب محمود من خلال رسالته العامة ..

أهم مايميز الكاتب هو اضطلاعه برسالة معينة يعمل على تحقيقها والدعوة الدائبة لها بين قرائه ومواطنيه . وبقدر ما تكون هذه الرسالة استكمالاً لنقص أو تعبيراً عن احتياج ومحاولة لإعادة التوازن لبناء مائل بقدر ماتكون القيمة الإيجابية لهذه الرسالة فحينما ينتشر الخنوع نحتاج لكاتب ثائر .. وحين يتفشى الجهل نحتاج إلى الداعين للعلم .. وحين يهرب الناس إلى الماضى تكون الدعوة ملحة أيضاً لمعرفة لغة العصر .

وإذا كانت بضدها تتميز الأشياء فإن الكتابة الحقة تنتفى رسالتها إذا ماكانت محض ترديد لنغمة سائدة .. ولا ميل مع الريح حيث مالت والمزايدة على المعانى الرائجة فى سوق القراءة .

وحتى إذا مااتفق الكاتب مع الفكر الأساسى السائد فى مجتمعه فإن دوره إذا كان أصيلاً ومتعمقاً ومجتهداً لابد ان يجعل كلماته فى النهاية جديدة ومختلفة ومثيرة للمعارك الذهنية .

يعتلى من أجل هذا كله «رسالة الكاتب وكفاحه من أجلها» د . زكى نجيب محمود القمة التى يتبوؤها فى الفكر العربى المعاصر .

فقد كانت رسالة د . زكى نجيب محمود فى الشق الأول من حياته تركيزاً على النقص الذى رآه والحياة المصرية والعربية حيث يغلب الوجدان على العقل ويؤثر اللفظ والكلمة على حضارة الأداء والفعل ، وهو يقول فى هذا :

«لاحظت فى حياتنا الثقافية جهوداً تبذل وحماسة لاتنطفىء نحو إخضاع العقل وعلومه لسلطان الوجد وفنونه فجعلته هدفاً أسعى إليه أن أدق طبول الحياة العلمية المرتكزة على العقل وحده وأما مجال الوجدان فله من السدنة الذين يقومون على خدمته مايكفيه» وهو الموقف الذى دافع عنه إلى أقصى حد وحدد أركانه من «أجل فلسفة علمية» .. ثم عاد واستكمل بنفسه مسيرته الجديدة من أجل إعمال العقل فى التراث الفكرى العربى وتحليله بغية الإفادة منه ومحاولة التفرقة مابين الغث والسمين منه ولم يكتف بتسجيل نظرى لموقفه الجديد فيما يفعله الكثيرون فى غيبة الإبداع والاجتهاد بل عكف سنوات طوالاً منذ الستينات على دراسة الفكر العربى ، والدكتور زكى نجيب محمود يغالب نزعة صوفية تلح عليه وتظهر نفسها رغماً عنه فى أكثر من موضع مما لانفيض فيه الآن ؛ فيقول مثلا : «لو كتبت مايستريح إليه قلبى صادقاً لما انقطعت يوماً واحداً عن الكتابة فى الحث على التصوف الزاهد لأن مثل هذه الحياة هى حقاً ما يتبض لها القلب بين ضلوعى كلما قرأت عنها ولكن الذى يحول بينى وبين أن أفعل ذلك هو صوت العقل قائلاً إن تصوف الزاهدين لايحقق ما نريده لأمتنا العربية من أهداف» .

وعن الجانب الدينى الذى لم يركز عليها للفكر الكبير قلمه كان لى معه هذا الحديث عن الدين فى عالم زكى نجيب محمود .

الدين فى عالم زكى نجيب محمود

سألت د . زكى نجيب محمود عن موقع الدين وصورته عنده عبر المراحل الفكرية المختلفة فى حياته ؟

فأجاب :

– منذ السن الباكرة التى لم تكن تجاوزت العاشرة أخذت فى أداة الصلاة والصيام وهما الفريضتان الممكنتان بالنسبة للطفل حتى لو كان والدى – على تدينه – يمنعنى بالقوة من الصيام خصوصاً وقد كان الصيام (رمضان) فى ذلك الحين خلال الصيف . ومع ذلك كنت أراوغه وأظل على صومى ولو لبضعة أيام ، هكذا بدأت متعلقا بأداء الفرائض ولكن قد يقال إن سن الطفولة الباكرة إنما تلجأ إلى المحاكاة التى لاتضمن أن يكون وراءه إيمان بالمعنى المفهوم ، ولكننى بعد أن تقدمت بى الأعوام وأصبحت علىٰ مشارف المراهقة أعنى بين الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة وجدت نفسى أوغل فى التزام تلك الفروض بل إنى لأذكر أشياء كثيرة

قد يكون لها مغزاها إذ أذكر مثلا أننى كنت أقضى أجازة الصيف فى قريتنا بالريف وكنت على صغر سنى أصر أن أذهب إلى المسجد لصلاة الفجر بل أصر على الصعود إلى المئذنة لأشارك فى أذان الفجر وكان أمرا يضحك الكبار عندئذ لكنهم تركونى خشية أن يكونوا بالوقوف فى سبيلى يأتون بأمر يغضب الله .. كذلك أذكر أننى فى تلك السن ومابعدها بقليل كنت أحرص جداً على أن أقضى الفترة مابين صلاة المغرب وصلاة العشاء فى المسجد لأستمع للدرس الدينى الذى كان يلقيه عندئذ شيخ أحببته وأعجبت به وكان هو المصدر الأساسى الذى عرفت منه أموراً كثيرة تتعلق بتفصيلات العقيدة الدينية . ظللت على هذا النحو إلى نحو الثلاثين من عمرى ولكننى عندئذ أخذت بحكم تكوينى الدراسى والثقافى الذى حصلته من قراءاتى الكثيرة جداً بدأت أميل إلى أن أحتكم إلى موقف العقل فيما أقبله وما لاأقبله من التفصيلات التى كان يقولها ذلك الشيخ فى دروسه أو التفصيلات التى كنت أسمعها من غيره أو اقرؤها ضمن ماأقرأ وإننى لأسال الآن ماذا كنت أعنى يومئذ بالأحتكام إلى العقل فى أمور هى من الدين وليس من العلم وأجيب على ذلك بل إننى أعتقدت منذ ذلك الحين أن الدين وإن يكن شيئاً غير العلم إلا أنه يكون أقوى فى نفس المؤمن عندما لا يكون متعارضاً مع مايقوله العلم . وتقدمت بى الأعوام بعد ذلك فازددت استمساكاً بهذه الوجهة من النظر لكن التمسك بهذه النظرة كثيراً جداً ماتوقع صاحبها فى مواقف لايعرف كيف يتخلص منها إذ كثيراً مايجد أشياء فى تفصيلات العقيدة الدينية لاتتفق مع نتائج وصلت إليها العلوم المختلفة فعندئذ تأخذه الحيرة أيتنكر للعلم ؟ وهو مالم أكن أستطيعه مع نفسى يومئذ .. أم أتنكر للدين وهو كذلك مالم أكن أستطيعه بل ومالست أستطيعه فى أى يوم من أيام حياتى الطويلة . ولكن هذا التصادم كان يحدث لى نوعاً من الحيرة العقلية ثم تقدمت بى الأعوام مرة أخرى وأتيح لى أن اقرأ بعض المذاهب الفكرية فى الإسلام وأجد بينها مذهب المعتزلة ومذهب الأشاعرة فأجد عندئذ أن باب الخلاص قد انفتح أمامى .. ذلك لأن المعتزلة كانوا يحتكمون إلى منطق العقل فى فهمهم لأركان الدين وكذلك الأشاعرة كانوا يأخذون بمبدأ أن يلجأ المسلم إلى عقله فى فهم القرآن الكريم حتى آخر ما يستطيعه ذلك العقل .. فإذا بقيت بقية لايستطيع العقل فهمها وتفسيرها على طريقته يقول المسلم عندئذ «الله أعلم بالمراد فى هذه الحالة» .

وجاء الشيخ محمد عبده فى تاريخنا الفكرى الحديث وأخذ بهذا المبدأ .. هذه الأمور كلها أدخلت فى نفسى السكينة لأنى عرفت كيف أقف الموقف الذى يربح عقلى وضميرى الدينى فى آن واحد .

فأنا الآن مازلت أستمسك بما يصل إليه العقل من نتائج تقام على البرهان الصحيح .. ثم إذا ماقرأت القرآن الكريم بعد ذلك فإننى أحاول أن أفهمه على طريقة الشيخ محمد عبده بمعنى أن أفهمه الفهم الذى لايتعارض مع نتائج العلم وفى معظم الأحيان يكون هذا التوفيق بين الطرفين أمراً ميسوراً ، إلا فى الحالات التى يعجز العقل أن يجد لها الفهم فعندئذ أخذ بوصية الأشاعرة وأقول «إن الله أعلم بالمعنى المراد» .

ثم أضاف د . زكى نجيب محمود موضحاً :

«إننى أعتقد أنه يستحيل على أى إنسان أن يعيش بغير دين حتى أولئك الذين قد يتصورون أنهم يستطيعون ذلك فهم لم يحللوا أنفسهم التحليل الصحيح • وأقل ما أقوله فى هذا المجال هو أن الإنسان فى أعمق أعماق فطرته يريد أن يرى أن للخير ثوابه وأن للشر عقابه ولما كان هذا لايتحقق دائماً فى هذه الدنيا فكل إنسان يتمنى أن يكون هناك العالم الآخر الذى ينتقم من باعث الشر ويثيب فاعل الخير وفى هذه الأمنية بذرة الإيمان باليوم الآخر حيث يكون الحساب •

* * *

فهذا الاستعراض لعلاقة كاتبين (الأستاذ إحسان عبد القدوس والدكتور زكى نجيب محمود) يعدان من أعلام التنوير ويظن البعض أنهما بمفازة من الفكر الإسلامى • يوضح أنهما كان – ايماناً والتزاماً – من خيرة المسلمين • فهما يؤمنان بالله فى صورة رفيعه ، وبالرسول وما ينبغى له من تقدير ، ويلتزمان بأداء الشعائر • ولا جدال فى أنه لو وجد فكر إسلامى فوق مستوى فقه التقليد لكان لهما مشاركة إسلامية إيجابية أعظم ، وهو مايمكن أن يقال بدرجات متفاوتة بالنسبة لكل الشخصيات التى أشرنا إليها •

الفصل الثانى
مشروع للأجيال

لكى يتحقق ما استهدفناه ، وتتصافح اليدان فإن من الضرورى أن يلتزم كلّ من الفقهاء ودعاة التنوير بإطار فكرى يحدد الموقف الأمثل بالنسبة للقضايا الكبرى فى المجتمع المصرى وتتلاقى هذه المواقف بعضها مع بعض ليبدأ منها الانطلاق .

ونحن – عندما نضع هذا المشروع – لاتخالجنا أوهام عن درجة تقبله اليوم . فنحن نعلم حق العلم أنه من العسير أن نقتلع ما غرسته التقاليد جيلاً بعد جيل ، ولا ما اقامته المصالح من صروح ممردة ومزايا مكتسبة . ونحن نقدر أيضاً أن فقهاء التقليد وأدعياء التنوير لديهم صبابه من إيمان ما – بالإضافة إلى التقليد والمصلحة – يجعلهم جميعاً يتمسكون بما هم عليه .. ولا يبغون عنه حولاً .

ولكننا لانضعه لهم ، وإنما لجيل آت ، وربما لأجيال آتية . فنحن نغرس بذرة زيتونه لن نراها ، ولن نتذوقها .. ولكننا مالم نغرسها الآن فسيفوت الوقت على الأجيال .

والمشروع الذى نضعه يجعل من فقهاء التقليد دعاه تنوير ، ومن دعاة التنوير فقهاء

تجديد ، بمعنى أن اليمين لاتعارض اليسار ، ولا اليسار يناقض اليمين ، وإنما كل واحد يكمل الآخر . .

إن «خندقة» كل فريق فى مكانه ليس من الإسلام ، ولا هو منطق العصر ؛ الإسلام لم يشيد «كنيسة» أو مؤسسة لها حق التحليل والتحريم والتفسير والتأويل ، وإنما قال «أهل الذكر» وكل واحد يمكن أن يكون من أهل الذكر إذا ألم بعدة ذلك . كما أن كل صنوف العلم والمعرفة من جولوجيا أو هندسة تدخل فى صميم العلم الإسلامى فليس هناك تعارض بين علماء وفقهاء . وكان العلماء الأول يحكمون الفقه والموسيقا والفلسفة والرياضة والطبيعة . . فإذا كان التخصص يفرض نفسه ، فليس له أن يغلق الأبواب . . .

إننا ندعو الفريقين لكى يغيرا مواقفهم التى تمزق المجتمع ، وتشل سيره وتحول دون وحدته ، ندعوهم مراراً وتكراراً لأن يعيدو النظر . .» .

★ ★ ★

ها هو ذا مشروع الأجيال

أ – بالنسبة للفقهاء

– ١ –

الإسلام هو ختام الأديان السماوية ، وجماعها ، وهو يعترف بها وبرسلها جميعا ويُرجع الإختلاف مابينها إلى التحريف والمصالح والأوضاع ، وهو يؤمن بالبشرية كلها . وأن الله تعالى أراد التعدد والاختلاف لإثراء الحياة وليحدث التعارف والتبادل والتلاقح **﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾** وهو برىء من الأحاسيس الدونية أو الاستعلاء أو الذاتية التى تثير العداوات وتقيم الحواجز **﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** .

– ٢ –

جعل الله تعالى الإنسان خليفة على الأرض ، وعلمه الأسماء ، وأسجد له الملائكة ، وأنزل الإسلام لهدايته . . فالغاية هى الإنسان والوسيلة لهدايته هى الإسلام . . **فالإسلام يريد الإنسان . . ولكن فقهاء التقليد يريدون الإسلام ، ومعنى هذا أن تصبح الغاية وسيلة ، والوسيلة غاية ، ومن هنا جاء الاختلاف بين منهج الإسلام الحق ، ومنهج فقهاء التقليد .**

إن الإنسان المستخلف ، المزود بالعقل ، والمتحمل لمسئولية إعمار الأرض بالعمل ، والعلم ، والقيم ، يجب أن يكون قاعدة المجتمع الإسلامى والفكر الإسلامى ، ويجب أن نلحظ **«كرامة الإنسان»** عند وضع النظم وعند ممارستها .

– ٣ –

الأساس فى فهم الإسلام والتعرف على هديه واستخلاص أحكامه هو القرآن الكريم دون الالتزام – ضرورة – بما وضعه المفسرون من أحكام شلت بعض الآيات بالنسخ المزعوم وكيَّفت آيات أخرى بأسباب النزول ، فضلا عن الإسرائيليات التى حشيت بها التفاسير وعلى كل حال فمن المسلم به أن النص القرآنى المقدس شىء – والتفسير والتأويل شىء آخر ولايمكن معاملتهما على قدم المساواة .

كما أن المبادىء التى وضعها الفقهاء لأصول الفقه ، والمحدثون فى الجرح والتعديل ومصطلح الحديث .. إلخ ، كلها فى حاجة إلى إعادة النظر ، لأن السلف ليس معصوما ، وقد كان محكوما وهو يضع مناهجه ويصل إلى نتائجه بروح العصر وبقلة المعلومات ، ونحن اليوم أقدر على فهم حكمة التشريع واستخلاص النتائج بفضل ما تيسر من وسائل الطبع والنشر والإحصاء والتصنيف مما لم يكن متاحا للسلف ، فضلا عن أننا مأمورون بالتفكير ، منهيون عن التقليد واتباع الآباء والأجداد .

– ٤ –

التعددية طابع الإسلام، لأن التوحيد صفة الله تعالى التى استأثر بها ولا يشاركه فيها أحد أو شىء . أما بقية الكائنات فإنها تكونت على الأقل من «زوجين» أو تضمنت عددا من العناصر .

وإنما كانت التعددية طابع الإسلام لأنه منهج حياة يضم مافيها من اقتصاد واجتماع وسياسة ... إلخ ولأنه دين البشرية .. مامضى منها وما سيأتى ، ولابد فى مثل هذا من التعددية . ولهذا أيضا كان المثل الإسلامى الأعلى هو العدل ، لأن العدل يفترض التعددية ، ويصبح هو فضيلتها .

وتظهر التعددية فى الأستخدام القرآنى المعجز للكلمات والألفاظ الذى يفتح الباب أمام تأويلات عديدة ومتفاوتة أراد الله بها أن يجد كل جيل ما يتفق مع مستواه وتقدمه ، ولا يجوز مصادرة آية بآية أخرى ... لأن القرآن لايضرب بعضه بعضا ، وإنما يكمل بعضه بعضا .

كما تظهر التعددية فى «انفتاح الإسلام» واستهدافه الحكمة أينما كانت ، واعترافه بالأديان والاختلاف فى الآراء «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة» .

وقد أدى عدم تعمق هذا المعنى فى ذهن الألاف إلى أخذهم بفكرة «النسخ» ومحاولتهم التقريب بين النصوص المختلفة أو استبعاد بعضها . والأمر فى حقيقته غير ذلك ، فتعدد النصوص وتفاوتها صورة من تعددية الإسلام أراد الله تعالى بها الفسحة والسعة فى دائرة الاختيار مابين بدائل متعددة .

— ٥ —

إن القرآن الكريم عندما اعتمد «المعروف» و «المنكر» ، أضفى غلالة إنسانية رقيقة على الشريعة ، وجعل الرأى العام من مصادرها ، وأى محاولة للحجر على هذين التعبيرين أو إعطائهما معنى معينا إنما هى افتيات على النص ، إذ لو أراد الله تعالى تحديداً لوضع تعبيراً آخر ، ولكنه تعالى أراد بهذا التعبير أن يحقق المرونة والسعة فى جوانب من التشريع بما يتفق مع التطور . وقد يثار احتمال تضارب النص مع مفهوم المعروف السائد عند قوم ما ، أو عهد ما ، والرد أن هذا لايحدث بالنسبة للكليات والثوابت ، فلن يكون الظلم والجهل والشرك والكذب معروفاً أبداً ، ولكنه يحدث بالنسبة للتقاليد والعادات الاجتماعية ، كالزى والذوق ، وعندئذ تصبح القضية هى «فهم النص فى اطار المعروف» أو الأخذ بالمعروف باعتباره ما أمر به النص نفسه بالأخذ به فى اطار التعددية التى يسمح بها الإسلام .

والمهم أن لايكون هناك اختيان أو استسلام للهوى عند تحديد المعروف والمنكر ، مع التسليم بأن الاختيان والاستسلام نسبيان . فما يدخل فى اطارهما فى عصر سابق لايدخل فى إطارهما فى عصر لاحق ، يجاوزهما .. والقلب السليم هو الفيصل .

— ٦ —

حرية الفكر والاعتقاد مطلقة يكفلها الإسلام إلى آخر مدى .. فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .. ومذهب الإسلام فى هذا أن حرية الفكر هى الطريق إلى الإيمان ، فلا إيمان يقوم على جهالة ، أو يفرض قسرا .. وإذا كان المجتمع الإسلامى هو مجتمع العقيدة ، فإنه بالتبعية والضرورة مجتمع الحرية فلا عقيدة دون حرية ، ولا إيمان دون نية .. وحرية الفكر هى التى تكفل الحيوية للعقيدة وتحول دون أن تتحول إلى «بركة آسنة» . وإذا أردنا أن نعزز الإيمان فبالمنطق والبرهان ، لا بالقمع والسلطان ، وفى مجال المقولات لا على أشخاص القائلين !

ولا يجوز مطلقا تكفير آخرين ، أو الافتيات على عقائدهم .. فهذا ما استأثر الله

تعالى وحده بالحكم فيه يوم القيامه ، ولا يحاسب الناس فى الدنيا على ما يؤمنون ، ولكن على ما يعملون . . .

- ٧ -

أبرز القرآن الكريم قداسة العلم عندما أمر الملائكة أن تسجد لآدم لأنه علمه «الأسماء كلها» وتحدثت الآيتان ٢٧و ٢٨ من سورة فاطر عن شموله ، وأمر الرسول بطلبه أينما كان (ولو فى الصين). . .[1] .

من هنا يجب على الفقهاء أن لايقنعوا بثقافاتهم الدينية التقليدية لأنها لم تعد كافية ، وعليهم أن يلموا ويستوعبوا بقدر ما يمكن من ثقافات العصر ، ولا يصدنهم عنها أنها أمريكية أو هندية أو أوروبية .. لأنها كلها «معرفة» تسهم فى حل المشكلات والنهضة بالمجتمع والتجاوب مع العصر ، كلها حكمة نحن أحق بها أينما كانت ، وكيف يمكن لفقيه أن يفتى فى قضية الربا وهو يجهل آليات البنوك ودورها فى الاقتصاد الحديث !؟

- ٨ -

يعمل الإسلام على مستويين : فهو يضع المثال الذى يفترض أن يستهدفه الإنسان ، ثم هو يعترف بالواقع الذى تتحكم فيه الضرورات ويخضع لسلسلة معقدة من العوامل بعضها يعود إلى الفرد وبعضها الى الظروف والملابسات . . . إلخ . ويضع الإسلام «آليات» أو «ميكانزم» للتفاعل مابين المثال والواقع ، ومن مفردات هذه الآليات :

(١) اعتبار التيسير أصلا فى الممارسة ، والوسع أصلا فى التكليف .

(٢) المقاصة التى تقوم على مبدأ **﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾** .

(٣) ملاحظة الأولويات . . . (٤) ملاحظة الضرورات . . .

(٥) الاستغفار . . . (٦) التوبة . . .

وهذه الآليات تسع كل التصرفات التى لاتتفق مع المثال ويصدر فقهاء التقليد أحكاما صارمة عليها !

- ٩ -

إن هذا يعطينا مدخلا إزاء المستجدات فى المجتمع : كالسينما ، والمسرح ،

(١) ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيبُ سود[٢٧] ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور[٢٨]﴾ .

والتليفزيون ، والصور المختلفة للهو والترفيه التى لم تكن معهودة فى العصور الأولى ، ومجالات الجمال المفقودة فى المجتمع الإسلامى ، فبعضها قد يتجافى مع المثال ، ولكن يقبل على أساس الواقع ، ويُتعامل معه بالآليات المشار إليها آنفا .. وقد يعد بعضها من «اللمم» الذى لم يستبعد القرآن وقوع المؤمنين فيه ﴿**الذين يجتنبون كبائر الأثم والفواحش الا اللمم**﴾ ولأبى هريرة رأى عن اللمم يجعله كل ماهو دون الزنا الصريح[1] .

وفى الوقت الذى يقف فيه الإسلام هذا الموقف من الضعف الإنسانى باعتباره جانبا من جوانب الطبيعة البشرية .. فإنه يتوقع من الذين يلمون به أن يضاعفوا الحسنات والعمل الصالح ليوجدوا نوعا من الموازنة والمقاصة .

على أن الإسلام إذا تسامح مع الضعف البشرى بتلك الضوابط المشار إليها ، فإنه لايتسامح مع الشر كالاستغلال والظلم وإذلال الناس .

– ١٠ –

لابد من الاعتراف بأن الفكر التقليدى لدى الفقهاء عن المرأة قد ظلمها ظلما شديدا وجنى عليها لقرون متتالية ، وكان هذا من أسباب تخلف المسلمين .

وقد حكمت التقاليد ، وليس الإسلام ، كل ما يتعلق بالمرأة حتى اليوم .. وآراء بعض الفقهاء عن المرأة يجعلها اليوم متخلفه عما كانت عليه أيام الرسول ﷺ ، وتعارض معارضة حادة روح القرآن وصريح الآيات ...

إن كل مايورده فقهاء التقليد عن الحجاب ، والاختلاط ، والزواج والطلاق ، والزى ، والزينة يحتاج إلى مراجعة شاملة حتى يعود مرة أخرى إلى روح الإسلام الذى عبرت عنها البنود السابقة .

★ ★ ★

وبالنسبة للكتاب والمفكرين و«التنويريين» فإن الإطار هو :

– ١ –

لابد لكل من يعمل فى مجال الفكر والإعلام والدعوة والسياسة أن يعلم أن مصر

(١) المستدرك للحاكم ص ٢٤٦ ج ع وقال : «هذا حديث صحيح ، ولم يخرجاه» .

هى بلد الإيمان ، وأن الدين هو أبرز مقوماتها .. إن الشخصية المصرية تكونت تكونا إيمانيا على امتداد ثلاثة آلاف سنة متصلة قبل أى غزو خارجى ، فامتزجت الشخصية بالدين ، وكان الدين طوال هذه المدة هو محور المجتمع ...

- ٢ -

إن إيمان مصر بالإسلام لم يكن مصادفة أو اعتباطا ، ولكنه كان أمرا مقضيا ، ولابد منه لتتم مسيرتها الدينية ، وليأخذ تصورها القديم عن الخلود والعدالة الصورة المثلى ، والأخيرة ، فقد وجدت مصر فى الإسلام دينها ، ووجد الإسلام فى مصر وطنه .

وتجاهل إسلامية مصر هو حرمانها من الهوية والاسم والحضارة والشخصية المميزة لها وقطعها من تاريخها وأمجادها .

- ٣ -

لهذا فإن أية فكرة عن **دولة علمانية** ، ينفصل فيها التوجيه الدينى عن الحياة والمجتمع ، أو يكون الدين مجرد علاقة خاصة بين الفرد والله دون تأثير على الاقتصاد والسياسة والاجتماع ، فكرة مرفوضة تماماً ، ولن تقبلها مصر بحكم شخصيتها الإيمانية ، كما سيرفضها الإسلام بحكم طبيعته ... لقد كانت مصر - وستظل - دولة إسلامية .

- ٤ -

ليس هناك مبرر - على الإطلاق - للخوف من سوأت «الدولة الدينية» فهى منتفية من الإسلام **لأنه عقلانى الطبيعة** يجعل معجزته كتابا ويستبعد المؤسسة الدينية المحتكرة ، ويقيم فكرته عن الله على الفطرة السليمة ، لا اللاهوت الذى لايفهمه إلا رجال الدين .

- ٥ -

إن الإسلام كجذر للمجتمع المصرى ومقوم للشخصية يتمحور حول القيم الحضارية للإسلام ، **وهى الضمير للفرد ، والحرية للفكر ، والعدالة فى الاقتصاد والشورى فى السياسة .. وأن يكون الحق هو المثل الأعلى للقيم ، والعدل هو المثل الأعلى للنظم .**

والأديان بصفة عامة هى أصل الفنون والآداب واستلهام الخير والفضيلة ومكانها مطلوب فى كل مجتمع .

- ٦ -

إن وجود أقلية ٥٪ - ٧٪ قبطية فى مصر لاتغير الحقائق .. فالأقليات موجودة فى كل العالم ولا يمس وجودها حقوق الأغلبية ، والإسلام كحضارة إرث لكل البشرية ، وليس للمسلمين وحدهم ، ولغير المسلمين حق فيه وقيمه الحضارية تكليل للقيم الحضارية فى الأديان جميعا ، وقد كفل حقوق غير المسلم بتقريره حرية الاعتقاد، وليس فيه حساسية للآخرين وهو يسعهم تحت مظلة «لهم مالنا وعليهم ماعلينا» ويمكن للأقباط أن يصلوا إلى أعلا المناصب تحت شعار «قبطى دينا ومسلم وطنا» ، وهو على كل حال أفضل من العلمانية التى تضعهم تحت رحمة الأغلبية النزقة .

أما إذا آثروا التقوقع - كأقلية - فإن الإسلام يكفل لهم فوق ماتكفله القوانين الأوروبية من حقوق وحمايات للأقليات .

- ٧ -

لابد لدعاة التنوير أن يقلعوا عن عبادة الآلهة الزائفة .. ان الاشتراكية بالصورة التى دعا إليها ماركس وطبقها لينين، والقومية التى ظهرت خلال القرون الأخيرة قد أصبحت من سقط المتاع.. أما الحضارة الأوروبية فيجب النظر إليها فى مضمون تجاوبها مع الطبيعة والقيم المصرية ...

- ٨ -

لابد لدعاة التنوير أن يغسلوا أيديهم من قاذورات الناصرية ، وأن يعترفوا بما قامت عليه من زيف وما أدت إليه من كوارث على الوطن والمواطنين ، وأن يبدأوا بداية جديدة سليمة لاتقبل زيفا ، ولا تقوم على باطل فما قام على الباطل فهو باطل .

- ٩ -

لابد من تضافر الجهود للقضاء على السوآت التى غرستها الناصرية فى المجتمع المصرى مثل ديكتاتورية الحاكم وتأليهه ، وانفراد حزب بالحكم ، والدولة البوليسية ، وإهدار كرامة المواطنين ، وتقييد الحريات ، وتزييف الانتخابات ، والفساد والتستر وراء الحصانات

والمناصب والسؤات التى جرها الانفتاح الطليق من تضخم الثروات الطفيلية والمشبوهة .. وارتفاع الأسعار ومشكلات البطالة والإسكان ... إلخ والقيم الحضارية للإسلام هى خير ما يقودنا وسط متاهة النظم والمذهبيات ...

- ١٠ -

نشأ معظم دعاة التنوير فى أحضان الصحافة ، وهى - إلى حد كبير - «مدرسة الغوغائية ، والانتهازية ، والسطحية ، والجرى وراء الإثارة والتصفيق والتهليل للحاكم ... إلخ» .. وتأثروا بهذا الطابع قدر مابعدوا عن الجد ، والعمق ، والإخلاص ، وقد يصور هذا ، الفرق بين «أخبار» أمين الرافعى فى العشرينات و «أخبار» إبراهيم سعدة اليوم ، أو أن يكون الجد هو الكاتب الوطنى النبيل أحمد حلمى[1] والحفيد هو صلاح جاهين صاحب الكاريكاتير المستهجن ولا ينفى هذا وجود صحافة جادة محدودة جدا ، وفى صف المعارضة .

ولابد للصحفيين المصريين أن يثقفوا أنفسهم ثقافة جادة وعميقة ، وأن يجعلوا الصدق والحقيقة هدفهم وأن يتخلصوا من الإثار السيئة لصحافة الأثارة والصحافة الصفراء ، وصحافة التبعية للحاكم وصحافة الابتزاز والارتزاق الخ ...

(١) كان أحمد حلمى هو أحد كتاب الحزب الوطنى وجريدة اللواء أيام محمد فريد . وكان مثالاً للنبل والوطنية .

فهرســت

الموضــوع	رقم الصفحة

الموضــوع	رقم الصفحة

الباب الثانى : كلا لأدعياء التنوير

الموضوع	رقم الصفحة

الباب الثالث : عندما تتصافح اليدان

بقلم المؤلف

أ - مؤلفات

١ - ثلاث عقبات فى الطريق الى المجد (١٩٤٥)

٢ - ديموقراطية جديدة (١٩٤٦)

٣ - على هامش المفاوضات (١٩٤٧)

٤ - مسئولية الانحلال بين الشعوب والقادة كما يوضحها القرآن الكريم (١٩٥٢)

٥ - ترشيد النهضة (صودر قبل التوزيع) (١٩٥٢)

٦ - الأزمة والبطالة فى الرأسمالية (١٩٥٣)

٧ - موقف المفكر العربى تجاه المذاهب السياسية المعاصرة (١٩٥٧)

٨ - قصة فرسان العمل (١٩٦٢)

٩ - دور المنظم فى الحركة النقابية (١٩٥٧)

١٠ - القانون والقضاء فى المجتمع الاشتراكى (١٩٦٣)

١١ - نشأة الحركة النقابية وتطورها (طبعتان) (١٩٦٦)

١٢ - التنظيم والبنيان النقابى (ثلاث طبعات) (١٩٦٦)

١٣ - فى التاريخ النقابى المقارن - طبعتان (١٩٦٧)

١٤ - دور النقابات فى المجتمع الاشتراكى (١٩٦٧)

١٥ - مسئولية القيادات النقابية ملحق مجلة العمل العدد ٣٦ سنة (١٩٦٧)

١٦ - الثقافة العمالية بين حاضرها ومستقبلها (١٩٦٩)

١٧ - منظمة العمل الدولية - ملحق مجلة العمل العدد ٦٤ سنة (١٩٦٩)

١٨ - الحركة العمالية الدولية - ملحق العمل العدد ٧٢ سنة (١٩٧٠)

١٩ - العمل فى الإسلام - ملحق مجلة العمل العدد ٨٥ سنة (١٩٧١)

٢٠ - محاضرات فى الإدارة النقابية (١٩٧٢)

٢١ - الحرية النقابية ملحق مجلة العمل مارس (١٩٧٢)

٢٢ - روح الإسلام (١٩٧٢)

٢٣ - العمال والدولة العصرية ملحق العمل عدد مايو سنة (١٩٧٥)

٢٤ - قضية الانتاج (١٩٧٣)

٢٥ – ظهور وسقوط جمهورية فايمار (١٩٧٧)
٢٦ – حرية الاعتقاد فى الاسلام (طبعتان) (١٩٧٧)
٢٧ – بحوث فى الثقافة العمالية (١٩٧٨)
٢٨ – الدعوات الإسلامية المعاصرة مالها وماعليها (١٩٧٨)
٢٩ – من محو الأمية حتى الجامعة العمالية ملحق مجلة العمل مايو (١٩٧٨)
٣٠ – الجامعة العمالية (١٩٧٩)
٣١ – الأصول الفكرية للدولة الإسلامية (١٩٧٩)
٣٢ – بيان رمضان (طبعتان) (١٩٧٩)
٣٣ – الأصلان العظيمان : الكتاب والسنة (١٩٨٢)
٣٤ – الفريضة الغائبة : جهاد السيف أم جهاد العقل (١٩٨٤)
٣٥ – الحكم بالقرآن وقضية تطبيق الشريعة (١٩٨٦)
٣٦ – الربا وعلاقته بالممارسات المصرفية والبنوك الإسلامية (١٩٨٦)
٣٧ – الحركة العمالية الدولية (كبير) (١٩٨٨)
٣٨ – مشروع لإصلاح الحركة النقابية (١٩٨٧)
٣٩ – تاريخ الثقافة العمالية فى مصر (١٩٨٧)
٤٠ – الحساسية الدينية (وسيط) دار الزهراء (١٩٨٨)
٤١ – الإسلام هو الحل (٨١٣ صفحة) (١٩٨٨)
٤٢ – تفسير حديث «من رأى منكم منكراً» ... الخ (١٩٨٨)
٤٣ – خطابات حسن البنا الشاب الى ابيه (١٩٩٠)
٤٤ – الإسلام والعقلانية (١٩٩١)
٤٥ – العمل الإسلامى لإرساء سيادة الشعب والحكم الدستورى (١٩٩١)
٤٦ – رسالة الى الدعوات الإسلامية من دعوة العمل الإسلامى (١٩٩٢)
٤٧ – البرنامج الإسلامى (١٩٩٢)
٤٨ – الإيمان بالله (١٩٩٤)
٤٩ – الجمع بين الصلاتين (١٩٩٤)

ب - كتب الاتحاد الاسلامى الدولى للعمل

٥٠ - أزمة النقابية	(١٩٨٠)
٥١ - الإسلام والحركة النقابية	(١٩٨٠)
٥٢ - الاتحاد الإسلامى الدولى للعمل (كتيب تعريفى)	(١٩٨٠)
٥٣ - الاتحاد الإسلامى الدولى للعمل يبدأ المسيرة	(١٩٨١)
٥٤ - رسالة الإسلام	(١٩٨١)
٥٥ - أخت الصلاة المهجرة	(١٩٨٢)
٥٦ - الخيار الصعب	(١٩٨٢)
٥٧ - الحركة النقابية من منطلق اسلامى	(١٩٨٣)
٥٨ - الاتحاد الإسلامى الدولى للعمل فى عامين	(١٩٨٣)
٥٩ - الحساسية الدينية (وجيز)	(١٩٨٣)
٦٠ - العودة إلى القرآن	(١٩٧٠)
٦١ - نظم الثقافة العمالية فى الوطن العربى	(١٩٨٤)
٦٢ - وجوه الائتلاف بين الرأسمالية والشيوعية والإسلام	(١٩٨٤)
٦٣ - الدولة العصرية	(١٩٨٥)
٦٤ - رؤية لمضمون الحكم بالقرآن	(١٩٨٥)
٦٥ - محكمة العدل الدولية الإسلامية	(١٩٨٥)
٦٦ - العودة الى القرآن	(١٩٨٥)
٦٧ - لاحرج (قضية التيسير فى الإسلام)	(١٩٨٦)
٦٨ - نحن ودعوتنا	(١٩٨٦)
٦٩ - لست عليهم بمسيطر (قضية الحرية فى الإسلام)	(١٩٨٦)
٧٠ - تعميق حاسة العمل	(١٩٨٦)
٧١ - العهد	(١٩٨٨)
٧٢ - الشورى فى الإدارة	(١٩٨٨)
٧٣ - الحركة العمالية الدولية (وسيط)	(١٩٨٨)
٧٤ - عمال السودان (مع الآخرين)	(١٩٨٨)
٧٥ - الحرية النقابية ثلاثة أجزاء	(١٩٨٩)
٧٦ - الحركة النقابية السودانية تجد نفسها	(١٩٨٩)

٧٧ – نحو حركة نقابية مثقفة ودور الكتاب فى ذلك (١٩٩٠)
٧٨ – الحركة النقابية حركة إنسانية (١٩٩٢)
٧٩ – الإضراب والمواثيق الدولية التى تعترف بها (١٩٩٢)
٨٠ – النقابات المهنية المصرية فى معركة البقاء (١٩٩٣)
٨١ – لماذا يجب أن يكون للحركة النقابية عقيدة (١٩٩٣)
٨٢ – منظمة العمل الدولية ٧٥ عاماً فى خدمة العدل والعمل والسلام (١٩٩٤)

ج – مترجمات ومراجعات

٨٣ – النقابات فى الولايات المتحدة (١٩٦٢)
٨٤ – النقابات فى المملكة المتحدة (١٩٦٢)
٨٥ – النقابات فى الاتحاد السوفيتى (١٩٦٢)
٨٦ – النقابات فى السويد (١٩٦٢)
٨٧ – النقابات فى روما (١٩٦٢)
٨٨ – النقابات فى الملايو (١٩٦٢)
٨٩ – الأزمة المقبلة (١٩٦٣)
٩٠ – العمالة والتنمية الاقتصادية (١٩٦٦)
٩١ – مدخل لدراسة الأجور (١٩٦٦)
٩٢ – الإدارة العمالية فى يوجوسلافيا (١٩٦٧)
٩٣ – الديمقراطية النقابية (١٩٦٩)
٩٤ – دستور منظمة العمل الدولية (١٩٧٠)
٩٥ – توصيات منظمة العمل الدولية (١٩٧١)
٩٦ – اتفاقيات العمل الدولية فى مجلدين (١٩٧١)
٩٧ – البرنامج العالمى للعمالة (١٩٧١)
«تقرير المدير العام لمكتب العمل الدولى»

وكل هذه الكتب باستثناء الديمقراطية النقابية والأزمة المقبلة من مطبوعات منظمة العمل الدولية .

رقم الايداع ٤٠٤٥ / ٩٤

دار الطباعة الحديثة
٧ كنيسة الأرمن – أول شارع الجيش
تليفون ٩٠٨٣١٨

صيحة فى واد ..

ألِف الناس أن من يؤيد اليمين يعارض اليسار ، ومن يقول نعم للأول .. يقول لا للثانى ولكن هذا الكتاب يعارض الفريقين معاً ، ويقول كلا ثم كلا ..

والكتاب يتخذ من قضية الرِّدة ، وما أثارته شهادة الشيخ محمد الغزالى عند نظر قضية مقتل الكاتب فرج فودة نقطة انطلاق لنقد المنهج التقليدى فى فهم الإسلام . ولكى يقول «كلا لفقهاء التقليد» .

وقد أثبت أنه «لا حد .. لا استتابة .. لا تعزير» بالنسبة لقضية الردة ، لان حرية الفكر والاعتقاد مطلقة فى الإسلام .

وينداح الكتاب على «أدعياء التنوير» فيهدم آلهتهم الزائفة : الحضارة الأوروبية ، الاشتراكية ، القومية العربية .

أما تجارب التنوير المزعومة ، فهو يكشف أن محمد على تآمر على المشروع الحضارى الذى قدمه شعب مصر . وأن الناصرية كانت «تعهيراً لا تنويراً» والتجربة الحقيقية هى تجربة الليبرالية/ البورجوازية من سنة ٢٣ حتى سنة ٥٢ .

والكتاب يكشف فى فصل مسهب عن «أزمة أدعياء التنوير »، وإنها هى «إشكالية الصراع بين الذات والموضوع» والموضوع هو مصر الإيمانية الإسلامية والذات هى شخوص أدعياء التنوير وماخضعوا له من مؤاثرات أبعدتهم عن الموضوع مثل الثقافة الزائفة والانتماء السياسى وسلطان الهوى وحاجز الدين الذى عالج فيه المؤلف قضية الأقلية القبطية فى مصر ، كما لم يعالجها كتاب آخر (٦٠ صفحة) .

ويختم الكتاب بمشروع للأجيال يتكون من مشروع من عشر نقط لكل من فقهاء التقليد وأدعياء التنوير ، قال المؤلف عنه أنه زيتونة لن يراها ، وأنه إنما يغرسها لجيل - أو أجيال - قادمة ..

إن من النادر أن نجد مثيلاً لهذا الكتاب فى عمقه ، وموضوعيته ، وصراحته ، والمعالجة بلا مجاملة !

إنه صيحة فى واد . ان ذهبت اليوم مع الريح - كما كان يقول الكواكبى - فقد تذهب غداً بالأوتاد .

دار الفكر الإسلامى

الثمن ٨ جنيه